تحسين كرمياني

ليالي المنسيّة

رواية

(الحقيقة دائماً جارحة ، ودائماً ثورية) . . .

(داريو فو)

***

(إنّ من يأتي إلى الدنيا دون أن يترك فيها أثراً لا هو بمن يطاق ولا بمن يستحق أن يلتفت إليه) . .

(رينيه شار)

مائدة الحكي

[الموعد مع الكتابة يشبه الموعد مع الحبيب] . .

(أحلام مستغانمي)

❋❋❋

[حياتي بضع أحداثٍ أود نسيانها] . .

(ماتشادو)

❋❋❋

[الأسلوب التوثيقي هو الترياق الكامل للرومانسية] . .

(كولن ولسون)

❋❋❋

[ليست هناك معركة أكثر عبثاً من تلك التي يشنها الرقيب على الكتب ، إنه خاسر ، أولاً وثانياً وعاشراً ، فالذي كتب بالحبر لن يمحى أبداً] . .

(إبراهيم نصر الله)

❋❋❋

[العرب لم يسهموا في رسم أصول الرواية الحديثة ومن ثم فليس عليهم أن يتقيدوا بها ، إنهم أقدر اليوم من الآخرين على التمرد عليها والبحث عن المختلف] . .

(د .لطيف زيتوني)

❋❋❋

[مطلوب أشكال جديدة ، أشكال جديدة مطلوبة ، فإذا لم تكن موجودة فالأفضل لا شيء] . .

(توبيليف)

***

[أكتب دائماً ما تمليه عليك أفكارك/تذكر دائماً أن الحقيقة أغرب من الخيال/كن واعياً إزاء تسرب الصيغ التقليدية إلى نصك/كن متفتحاً وأنت تكتب/] . .

(ريتشارد هنت)

***

[كن فعالاً] . .

(روبين كار)

***

[كل شيء في السرد له معنى] . .

(رولان بارت)

***

[الفن تعويض لخسارات الحياة] . .

(داركو ليدس)

***

[كل شيء في الحياة يصلح أن يكون المادة المناسبة للرواية] . .

(فرجينا وولف)

***

[الأدب غير منفصل عن مؤلفه] . .

(سانت بوف)

***

[الكتابة حسب الطلب . . كم هو رهيب هذا] . .

(تشيخوف)

***

[الذاكرة تساوي الأحداث زائداً الزمن] . .

(جوليان بارنز)

***

[الوظيفة الرئيسية لمقدمة الكاتب الأصلية هي تأمين قراءة جيدة للنص] . .

(جيرار جانيت)

***

[كلا ، يا سيد إنها شيء جيد ، إذ فيها عقل مجتمع ، فالاقتباسات الكلاسيكية هي كلام رجالات الأدب في مغارب الأرض ومشارقها] . .

(جنوسون)

***

[القارئ يجب أن يكون قادراً على أن يكشف من غير أن تشرح له ، تلك العلاقات والأصداء التي تحدثها مثل هذه المشاعر المرهفة ، القوية في شخوص هي مثل هذه الأصالة ومثل هذه العظمة] . .

(ستندال)

***

[القــارئ هو : الكائن العــيني الملمــوس الذي يتلقى الســرد من الراوي ، إلاّ أنه يكون خارج النص الأدبي مثلما يكون المؤلف الحقيقي خارجه أيضاً] . .

(أحمد رشيد وهاب الدرة)

***

[واحد : لم لا تقول ما يفهم؟

أبو تمام : ولم لا تفهم ما يقال؟]

***

[النص مجرد رحلة خلوية يجلب فيها الكاتب الكلمات ، بينما يجلب القارئ المعنى] . .

(تودوروف)

***

[الأسلوب يهتم بنفسه عندما يعلم الروائي ما يريد قوله] . .

(كولن ولسون)

***

[الشخصيــات تشبه الأناس الحقيقيين ، ولكنها لا تشبههم كذلك] . .

(روبرت شولتز)

***

[الشخصيات الثانوية صانعة التاريخ الحقيقي] . .

(لوكاش)

***

[أن الشخصية تعطينا صفات ، ولكن سعادتنا وشقاءنا ينحصران في الأعمال التي تقوم بها] . .

(أرسطو)

***

[الشخصية ، أثرٌ من آثار الخطاب ، ولكنها لا تنتمي إليه ، بل إلى الحكاية] . .

(جيرار جانيت)

***

[لم تستطع أية قوة أن تسقط الشخصية من على المنصة التي وضعها القرن التاسع عشر عليها ، إنها الآن مومياء ، ولكنها ما زالت تحتل الصدارة بالعظمة ـ الوهمية ـ نفسها بين القيم التقليدية التي يحترمها النقد التقليدي] . .

(ألان روب غرييه)

***

[لفهم الشخصية الروائية علينا الإحاطة بمحيطها المكاني الذي تدركه هي إدراكاً حسياً مباشراً ، والذي تتأثر به وتؤثر فيه ، ومن خلال ذلك سنطلع على مدى انسجام عالمها الداخلي مع عالمها الخارجي المحيط بها ، وهذا يساعد في إعطاء صورة وافية عن طبيعة الشخصية وهويتها الخاصة] . .

(شاكر النابلسي)

***

[يمنح الكاتب شيئاً من روحه لكل شخصية يبدعها ، فليس في وسعك أن تضع شخصية هكذا ببساطة ، إن عليك النفاذ خلال

جلدها ، وإعطائها شيئاً من قلبك وروحك ، وبعدئذ يصبح من السهل عليك أن تكتب] . .

(فالنتين كاتاييف)

***

[احذر من الاعتماد على شخصية بعيدة جداً عن شخصيتك] . .

(هـ .ر .ف .كيتنغ)

***

[الوصف : فن توزيع المعلومات حول الأشياء ، والذوات حسب نظام يلاءم استراتيجية يتبناها الراوي ليروي حكايته في زمن ومكان محددين] . .

(د .نجوى الرياحي القسنطيني)

***

[الوصف : تقديم الأشياء ، والكائنات ، والمواقف ، والأحداث في وجودها المكاني عوضاً عن وجودها الزمني ، وفي أدائها لوظيفتها الطوبولوجية عوضاً عن وظيفتها الكرنولوجية ، وفي تزامنها ، وليس تتابعها الزمني] . .

(جيرالد برنس)

***

[الوصف : حلية شكلية ، ونحصر دوره في ذاته ، فهو أداة الروائي في إثبات قدرته البلاغية ، وهو منفصل عن سياق الرواية ، لا يقدم للشخصية ، والحدث أيّة فائدة . . /الوصف : إذ يكتسب شيئاً من

التفرد والاكتفاء الذاتي فتصبح المقاطع الوصفية في الرواية أعمدة البناء الروائي الجديدة] . .

(مصطفى ساجد مصطفى)

***

[للمكان دوره الكبير في عكس أفكار الشخصية التي تسكنه ، ومستواها] . .

(د .كوثر محمد علي جبارة)

***

[الخيال حقل عظيم الثراء وما تزال مجاهيله ضخمة وشاسعة جداً] . .

(أبو لينير)

***

[ربما كان الخيال تسلية العقل] . .

(تيودور روزاك)

***

[ما هو الخيال إن لم يكن تطوير الواقع] . .

(كولن ولسون)

***

[الحوار الموجز يضغط الأحداث ويختصر الزمن ، فيكون لدينا منقول غير مباشر على درجة من الانتقائية] . .

(م .ن)

***

[الارتجاع الفني : حكاية ثانية زمنياً تابعة للأولى] . .

(جينيت)

***

[من لا يريد شيئاً ، وليست له آمال ولا مخاوف لا يستطيع أن يصبح كاتباً عظيماً] . .

(تشيخوف)

***

[أنا أنصح بكتابة المذكرات كوسيلة لتعلم الانضباط عند الكتابة] . .

(أناييس نن)

***

[الشاعرية : أي الطريقة التي تنطوي على توحيد الأفكار الأولى العفوية القادمة بفعل الوحي الصادق] . .

(جان بريفو)

***

[اللغة ما قبل الأدب ، والأسلوب تقريباً ما بعده ، فالصور والإلقاء والمفردات تولد من لحم الكاتب ودمه ، من ماضيه ، وتصبح تدريجياً آليات فنه نفسه ، وهكذا يتشكل تحت أسلوب لسان مستقل بذاته] . .

(رولان بارت)

***

[اللغة هي التي تتكلم] . .

(رولان بارت)

***

[إن لم تتنفس عبر الكتابة ، إن لم تصرخ في الكتابة ، أو تغني في الكتابة ، إذاً لا تكتب ، لأن ثقافتنا ليست بحاجة إلى هكذا كتابة] . .

(أنايِيس نن)

***

[ليس من مكان تهرب إليه من المسائل الكونية ، لذلك أجعل تفكيرك كونياً] . .

(تيودور روزاك)

***

[الروائي الحقيقي هو ذاك الذي يخلق الشخصيّات] . .

(آلان روب غرييه)

***

[من أفدح الأخطاء التي ترتكب هو عد الكاتب نفسه سارد الرواية ، فالسرد ليس الكتابة التي ينتج بها الكاتب نصه ، وليس من يتكلم هو من يكتب ، إذ يمثل الكاتب ـ معطى تاريخياً ـ أما الراوي فهو لا ينتمي للحياة الواقعية] . .

(ترجمة : ناجي مصطفى)

***

[إن عالماً بلا مفارقة يشبه غابة بلا طيور] . .

(أناتول فرانس)

***

[إن المفارقة لا تكون مفارقة إلاّ عندما يكون أثرها مزيجاً من الألم والتسلية] . . (أ .ر .تومبسن)

***

[الكتاب الجيد ليس ما نقرأه ولكنه الذي يقرأنا] . .

(دبليو . هـ . أودن)

***

[الغرائبية لا تعني ما لم تره عين ولا سمعته أذن وإنما هي ، متعلقة بشيء معروف ومألوف إلاّ أنه منسي مدفون في أعماق النفس] . .

(عبد الفتاح كليطو)

***

[الواقعية ، ذلك الجهد ، ذلك الميل المقصود من الفن لتقريب الواقع] . .

(هاري ليفين)

***

[الواقعية هي كل شيء حقيقي تنجبه الحياة وكل ما يحرك الروح الآدمية] . .

(يفجيني يفتشينكو)

***

نار الحكاية

عندما تعيش خارج العالم .

تبـدو كـسـمكة الزينة ، تدور حـول نفـسك ، في مـحـيط ضـيّق ، وخارج حوضك عالم صاخب يعيش من خلالك ، يسلقك بنظرة أو لا يعير بالاً بك ، فقط أصحاب الفضول ، أولئك المتخمون بالشهوات العابرة ، الذين لا يعرفون حقيقتهم ، أو هم يجهلون لم هم يعيشون وما هي خطواتهم التالية عندما تعترضهم خوانق عارضة .

أصحاب العقول الفارغة ، يملؤون فراغاتهم الحياتية بك ، نظراتهم حراب غادرة ، نظراتهم تفسر لعنات ، أولئك هم كثر ، يمقتون ما دونهم ، يسلقونك بنظراتهم الشزرة ، نظرات حيوانات مفترسة ، يشبعون نهم أنفسهم اللاهثة بوجودك ، ويمضون .

ما عليك سوى أن تذرف دمع حياتك ، لا يعتورك خوف ، الفقراء ، أصحاب العاهات المستديمة ، يمتلكون مخزوناً لا ينفد من الدموع ، تذرف ويمتلئ خزان عاطفتك ، دموع الفقراء ملح الحياة ، المطر الذي يمنح الوجود سر تألقها وديمومتها ، الدموع هوية ، يحتاج المرء لنعمة إلهية كبرى كي يمتلك هذا الفاصل الإنساني المريح ، الدموع نوافذ لتصريف سموم الهموم .

ما عليك سوى أن تنزف دمك بتقطيرٍ مريح ، دمك الرخيص في عالم يتوحش ، يلتهم ويمضي ، عالم لا يزرع سوى الخوف ، الموت ،

الفساد ، عليك أن تضحي ، كي يعيش هذا العالم المتفرج عليك .

لو فقط فكرت بـ فكرة المغامرة ، أن تنتفض ، أن تجتهد لتشكيل حياة محتملة ، عندئذ يمكنك أن تجعل هذا العالم الدائخ من حولك ، زيتاً يمد محرك عربة مغامرتك ، فتغدو مصباحاً متوهجاً ، بضوئه المبتكر يبدد قسوة ظلام جزء من عالم ـ يحتويك ـ مهما يلهث يظل جائعاً ، حائراً ، جاهلاً ، ضائعاً ، لن يدرك ولن يكتشف حقيقته .

فكرة الخلاص تلح ، تراود ، وأنا جالس ، متقوقع ، ليس لي سوى كرسي متحرك ، بعجلتين كبيرتين ، بعجلتين صغيرتين ، ليس لي سوى قلب نابض منتفض ، رافض ، يمتلك مقومات القلوب المنتظمة دقات نفسها ، قلب فيه صحوة ، بطينتاه وأذينتاه تعملان من غير عرقلات ، ليس لي سوى عينين خارقتين ، تريان بوضوح ، ليس لي سوى حلم واحد ، حلم أن أكون ، غير متميزٍ أو منحازٍ لفئة أو رهط أو تجمع ، كائن يرغب أن يعيش ضمن حدود محيطه ، مع مجايليه ، داخل إطار عالميته .

أدحرج كل صباح ومساء العجلات كي أكون أمام باب العالم ، في رقعة مهملة ، مكان يستشرف مساحة عامرة بحركة السابلة ، مركبات تمرق ، ناس تمضي وناس تعود ، متعافون ومعتلون ، نساء ورجال وصبيان ، شارع شبه رئيسي يخترق صفّي المنازل ، لم يكن شارعاً قبل فترة ، كان ممراً ترابياً ، شتاء يتحول إلى واحة طينية ممزوجة بقاذورات المنازل ، قبل أن يتحول الممر على يد مقاول غشّاش ، جاء بحادلة وقص التوحشات قبل أن يسكب القير بشكل غير لائق ، مما غدا شارعاً لمرور المركبات بعدما تم غلق الشارع الرئيس والوحيد للبلدة وتعذر وصول المركبات والعربات إلى السوق المكهرب بالخرسانات الكونكريتية ،

بعدما توسعت دائرة العنف وتطورت أساليب الموت ، في عصر النت ، عصر قيل إن العالم تحول فيه إلى قرية صغيرة ، لكن على ما يبدو هذا العالم المتحول نسي أن تقوقعه يزيد من فرص الفقر والموت والفساد .

شارع متعرج يخترق المنازل الأفعوانية ، من عليه تمر مواكب الطالبات والمعلمات إلى مدارسهن ، الناس تمر ، بكل أطيافها وشرائحها ، بكل أعراقها ومعتقداتها ، فقيراً وثرياً ، مهموماً وسعيداً ، كبيراً وصغيراً ، الكل يمشي ويعود ، بات الشارع الوحيد القريب والآمن لسير السابلة ، سير العربات والمركبات .

أجلس دائماً ، صباحاً ومساء ، مشغولاً بـ عالم مشغول بنفسه ، عالم يلهث لسد فراغاته الحياتية ، وأنا مشغول بـ فكرة الاندماج ، فكرة العودة إلى إيثاكاي ، أليس كل غائب أوديسيوس حتى يعود؟

جالس على عربتي ، أهش الذباب ، ذباباً شرساً ، يتكاثر عبر تناسلات هوائية ، تطن على الرؤوس ، ذباب جاء مع المحتل ، لم تعد هناك سبل وقاية أو مكافحة ، بعدما تبخرت طائرات البلاد في الحرب الأخيرة ، مضت تلك الأيّام السعيدة ، عندما كانت رقابنا متعلقة بالفضاء الداخن ، تطارد بخار مكثف مدجج بدواء قاتل للبعوض والنمال والجراد والصراصير ، فالمحتل هو المحتمل لكل غير المحتملات .

من على كرسيٍّ ، أجتهد بكتاب ، أن أقي رأسي وعيني من أشعة شمس لا ترحم ، يؤرقني هاجس البحث عن سبيل يهندمني ، يعيد بشريتي ، كي أكون داخل هذا العالم المشغول على مدار الساعة وعلى طول الخط .

جالس مشغول أنا بـ فكرة زمني الأبدي ، زمن خروجي من الـ نص الكوني غير كامل الهيئة ، لم أجد تفسيراً يقنعني بشكلي

المتكون ، ففي أجيالنا المتعاقبة كما أسروا لي لم يكن فيهم من يحمل عاهة أو تعرض لحادث ما دفع جزءاً من جسده ضريبة نفيسة ليتقوقع بقية حياته معاقاً .

قالوا : لكل شجرة عائلية بشرية ضريبة .!

كنت أنا الثمرة التي لم تكتمل لكنها نضجت سريعاً وهبطت من فردوس العماء .

يفرحني موقعي ، منه أعيد تشكيل حياة محتملة ، تشعرني ولو على قدر وقت جلستي ، بكوني أوديسيوس آخر ، حوله أمواج تتلاطم ، فكوك تفترس ، زاده الصبر وسلاحه اليقين ، عليه أن يناضل ، ولو من على كرسيه الميكانيكي ، ولو من مكانه غير المتحرك ، من أجل فرصته ، من أجل استحقاقاته ، بما له وما عليه .

في البدء .

مشاعري لم تطفح ، ظلّت تتأرجح ، تارة تتململ ، تارة ترضخ ، تحت الخط الفاصل ، ظلت تسبح في مستنقع الدونيّة ، تحرك الضمير فجأة ، لم تعد الإرادة مروّضة ، لم يعد القلب ببطينيه وأذنينيه يحتمل هذا العصف والقصف ، لم تعد المشاعر خاملة ، ضجت خلايا المخ ، ألقت رغبة هوجاء بكامل الفكر وكل الرغبات في عراء فارغ ، اصطخب الجسد ، كاد أو رغب أن ينتفض ، أن يحطم الكرسي الميكانيكي ، أن يثور بوجه العالم ، أن يصرخ ، أن يسترد كيانه : أنا إنسان!

في العراء طلول وآبار معطلة ، خيام مهملة ، فرسان متحجرون ، ورايات ما تزال تصرخ بأكذوبة الوقائع ، باستحالة تحقيق هذه الانتصارات المعجزة بالسيوف اليدوية والحراب الغدرية ، بأسمال ممزقة

وأقدام عارية ، وبطون فارغة ، لكن التأريخ يمنحنا مصداقية تلك الأمجاد ، الصدور العامرة بالصبر والمتسلحة باليقين ، تغدو متاريس كونكريتية أمام كل قوى الشر ، تلك هي أسرار الحروب الكبيرة .

أوديسيوس عليه أن يكافح ، ففي مخدع الذاكرة ثمة رغبة ، ثمة بنيلوبي ، ثمة حلم .

انفلقت صرخة مكتومة :

«العالم حكاية»

خزين المرائي ، كلام العالم المنثور ، فوضى الكتب ، حكايات عابرة ، مرويات العجائز ، أكاذيب ، تلفيقات ، دفعت سفينة المغامرة نحو بريق حزمة مشاعر ثائرة ، باتجاه عاصفة الأشياء الخارقة ، ثمة حلم يرفل ، يستصرخني .

الـ فكر يلح ، سمكة الزينة يمكنها العودة ـ لو ناضلت ـ إلى عالمها الكبير .

(أوديسيوس) عاد إلى(إيثاكا) ، عاد إلى(بنيلوبي) بعدما قهر بإرادته الحديدية جبال المصاعب ، وروّض بـ صبر عاشقٍ اغريقي ، تلاطم الأمواج الغاضبة من حوله ، متوازياً مضت ثوريته مع ثُورية امرأة صبور ، جعلت مغزلها سيفاً ، تحدت أمواج الرغبات المحتدمة من حولها ، وجعلت دنياها ساحلاً يستوعب سفينة فارس وحده يجيد اصطياد ـ بقوس الحب ـ من حولها الغرماء الوحوش .

***

فكرت بابتكار حياة محتملة ، حكاية تعيدني لعالم يمر ، يترك ظلّه ويمشي ، عالم لا يعرف إلى أين يمشي؟ ، بأي اتجاه؟ لم يؤرقه سؤال الأزل ، سؤال عن هذا الحلم البعيد الساكن دائماً منذ فجر الخليقة في

الأمـام ، تراه يكافح ، يلهث ، يريد أن يكبـر ويموت ، تلك هي رغـبـة العالم ، يطول عمر العالم ، ثمة أمخاخ تبتكر وسائل بديلة لتقصير الأعمار ، إنها تبتكر الحروب ، السجون ، غولان ، بوسعهما تقصير عمر العالم ، تشذيبه من الحالمين ، من أصحاب الرايات النظيفة .

في ظلّ هذا العالم المتحرك ، عالم افتراضي ، متـرامي التكوين والنهاية ، عالم يتشكل دائماً في أمخاخ الشعراء والأدباء المقلمين من توحشات الذات ، دائماً في الظلام ، في المنزويات يحاولون إعادة الروح لعالم ظلّ يحتضر لكنه لا يموت ، يرسمونه شعراً ونثراً ، يشكلونه في أفلام ومسرحيات ، دائماً مقص الرقابة ومخالب السلطات تضيق العبـارة وتخنق ورود الجمـال ، ثمة منزويات آمنة ، عـقول الشعـراء والفنانين تقدح شرر الحقيقة ، وجدت السوريالية وقصيدة النثر ، وجدت الرمزية ، الدادائية ، منائي آمنة ، مدن تستوعب أحلام أزمنة الرهاب ، بوسع بلابل القلوب أن تغرد فيها عالياً كما ترغب .

الآن يمكنني أن أزرع نبتة ، في هذا العراء ، وأسقيها بـ صمت ، بـ دموع مهملة ، أو بـ مداد قلم يمتلك أبجديات الخوض في غمار الحروب المفترضة ، ولو في عالم خانق ومخنوق ، قد ينفلق الحلم عن شجرة حياة مقبولة .

يقول الحلم : العالم مغامرة .

تقول المغامرة : الحكاية أرق!

تقول الحكاية : أين الورق؟

مخاض الحكاية

منحت نفسي راحة شبه إجبارية ، حاولت من خلالها تفريغ رأسي من تكلسات حكاية تأرجحت بين عقلانيتها وطوباويتها ، متبقيات شوائبها المنسية منها والمهملة ، حكاية حياة ، حكاية الكينونة ، قبل أن أبدأ بـ خطوة ميلية أخرى ، فالحكاية مرض ، ما إن تعالجها ، تنشط من جديد وترغمك أن تمدها بالكلمات .

غرفتي كئيبة ، لون حيطانها فقد زمنيته ، يا ترى هل غرف ناسجوا الحكايات شبحية؟ لا تصالح الحكاية النقاء المكاني ، دائماً الفوضى ، الإهمال هي أطعمة الشحنات الثورية في الحكي ، خيوط العناكب لم أفكر في يوم ما أن أزيلها ، دائماً أصطدم بالشخوص يتدلون منها أوان الحكي ، هيً السبل الوحيدة ، المسالك الآمنة ، تتسلل وتنسل منها كائنات الحكي ، تخاصمني وترتمي داخل الكلمات ، إنها تبحث عن فرص جديدة في حيوات محتملة .

قرب النافذة ، طاولة خشبية صاج ، بلا لمعان ، للزمن وجهات نظر حاسمة ، الزمن سارق لمعان الأشياء قبل سرقة أعمارها ، كرسي ظلّ مركوناً ينوء بكدس كتب ، يكفيني الكرسي الميكانيكي ليجعلني متوازناً ومهيمناً على سطح الطاولة أوان الحكي ، ركام كتب غير مقروءة تحتج بها مكتبتي ، عشرات منها بل مئات ، ظلّت لسنوات طويلة تنتظر فرصة قراءة جديرة ، كل كتاب نافع أو شبه مهم أقتنيه ، ولع لم

أتخلص منه ، دائماً المستقبل يتوهج بجملة ممنوعات واقفة على درب الحياة ، كل كتاب يصدر مرة ، يتعذر الحصول عليه بعد سنوات ، من هذا المنطلق ، وربما كنت على حق يوم بدأت أقتني كل كتاب صادر قبل أن يغدو مصادراً من قبل رجال الظلام ، مزاجي القرائي ، شعوري الحكائي ، وربما رغبة الاستحواذ على كل الكتب الصادرة دفعتني أن أغرق غرفتي بالكتب ، من مختلف الثقافات ، أدبية وعلمية ودينية وفلسفية ، كل كتاب يكمن جوهره في عنوانه ، العناوين هي التي حيرتني وجذبتني ودفعتني أن أحملها إلى غرفتي .

في البدء كان الحلم واسعاً ، كان الوقت غير ثمين ، كنت أمنح نفسي الوقت الكامل لأرشفة مكتبتي ، وتبويب ثقافيات ووثائق الصحف والمجلات الدورية ، قبل أن أجدها ترفاً قاتلاً ، يسرقني وقتي ويشبعني مللاً .

مرت الأيام سراعاً ، الأسابيع ، السنوات ، لم تسعفني رغبة قراءة لإيجاد دافع مرض ، لالتقاط كتاب ما من متراكمات كتب مكتبتي ، كي أسكتَ غضبهاً ، قبل أن ألقيها في صندوق النسيان ، ظلّت تذرف دموع كلماتها وأنا أتقافز من كتاب حديث لآخر أحدث .

كثيرة هي الكتب التي تفقد حيويتها لو تم إهمالها لحظة لهفة شراءها ، مهما كانت أقيامها النصيّة ، ودسومة أحداثها وسخونتها ، لمعان أسماء واضعيها أو مبتكريها ، ولياقة مترجميها ، يبقى مزاجنا قابل لدحض وإقصاء أشياء كبيرة لو مرّت عليها ريح الزمن .

في فترة استراحة ما بعد الإجهاض ، عندما أشعر بفراغ تام ، بعد نزيف كامل لكل ما أخزن من معلومات وأفكار ، بعضها يستجيب للحكي ويندمج ويذوب فيها ، بعضها يتقدح ويتوهج لكنه يغدو

بالونات فارغة تنفثىء عن هواء فاسد يذوب في الريح .

ثمت وازع يدفعني للبدء برحلة تجميع وتحفيز ذاكرتي ، قبل الخوض في غمار حرب حكاية جديدة .

الحكاية حرب صامتة .

كاتب الحكاية محارب أعزل يجابه عالماً مجهولاً غير مكتشف بأسره ، يواجه تأريخاً مدوناً أو منسياً ومقصياً ، قد تتشكل تواريخ ما تزال واقفة على رصيف القدر ، لم تجرِ حوادثها بعد ، رغم أن التواريخ البشرية انتهت ، كل شيء جديد هو تكرار لما جرى ، قد تبهر ، لكن هذا الانبهار يأتي من ثوب التاريخ الجديد ، فالقتل مذ قتل (قابيل هابيل) هو القتل نفسه الذي محا من خارطة البشرية وبلحظة واحدة وبلمسة واحدة أجيالاً من البشر والشجر في (هيروشيما وناكازاكي) ، هو الحملات الهمجية نفسها لإبادة الشعوب البدائية والقبلية ، القتل في العصور الحجرية كان يعني موت الغريم ، الاستحواذ على ممتلكاته ، أو الفوز بوليمة دسمة ، القتل في عصر التكنلوجيا والنفاق السياسي ، يحمل المعاني نفسها ، إزاحة الغريم ، امتصاص رزقه وإخضاعه لمعتقداته .

كاتب الحكاية ، يجابه من العتمة عيوناً متفرسة مفترسة ، ومخالب متهيأة للإنقضاض ، وأفواهاً تكشر عن أنياب حديدية تمتلك وجهات نظر ، معظمها لا تسر ، نقداً وحساداً ، أمخاخاً تفسر الأشياء خلاف ما يريده حاكي الحكاية ، ينبش بين السطور ، يبحث عن كلمة فالتة من خيال رغب أن يتفسح خارج أجواء الظروف ، أو مخ توهج بالنور ورغب أن يحكي ، وكل حكاية يعربها الرقيب وفق سياقات سياسية أو أخلاقية أو عقائدية ، قبل أن يجعلها لفافة دسمة لإزاحة

بلبل من قفص الحياة ، هكذا ديدن البشر عبر كل الأحقاب ، نفور ، كبرياء ، تمرد ، انتفاضة ، فناء أو بقاء ، تغير أو تدمير .

في كل المرات التي أعقبت مرحلة الانتهاء من أعمالي الأدبية ، لم أنل فرص راحة مثمرة ، حكايات متراكمة على شوارع الخيال ، تتزاحم وتتقاتل لتفر ، تغتصب مساحة الرؤية ، وتخنق مديات التفكير ، كنت ألغي فاصل الراحة ، وأنهمك بحرص وعافية ـ من جديد ـ في خوض متاهات واحدة من أعمال حكائية مدونة كرؤوس أقلام ، والكثير من التفاصيل المتشابكة ، والتي لطول فترة إهمالها فقدت وهج حرارتها ، أو مبررات حدوثها .

بدأت أشعر بقلقٍ مدمر ، فمتراكمات السطور والشخصيات والأمكنة بدت أشبه ببحيرات فقدت مادة الأوكسجين ، ولم تعد أكوام الحيوانات المسجونة ، تمتلك حرية اللعب والتنفس ، ومع مرور الوقت ، كنت أنظر بعين اليأس إلى ذاكرتي وجدتها صحراء تستنطق رمالها ، تعوي فيها ذئاب الفراغ ، كل تلك الأشياء الحميمة والتي زرعتها في ساعات المتعة والبهجة والمثابرة والمغامرة ، راحت تذوي وتغور في أعماق الرمال ، بدأ الصمت يحتويني ، يأخذني في جلسات تعذيبية ، لا أخرج منها إلاّ بعد سقوطي المتواصل في مستنقع النوم ، ، ففي النوم ثمة تعازيم تعذيبية أقسى ، إنها كوابيس الحكي ، يبدأ اللسان بالهذرنات ، أشياء عظيمة تقال أوان الهذيان ، قد نحتاج لجهاز يلتقط هذياناتنا أوان الهذي الليلي الدائم ، جهاز يعمل كلما نهذي ويتوقف بتوقف هذياناتنا ، النوم يعني هروباً وخذلاناً لا مفر منهما .

أكثر الحالات التي لاءمت طبيعتي الشرودية ، مكوثي في حديقة البيت ، تحديداً بعد الأصيل بقليل بعدما لا تغدو الشمس قاسية ،

أجلس حتى وقت متأخر من الليل ، في محاولة تأجيج مليكتي الكتابية كي توافق مزاجي في رحلة جنونية جديدة ، هذا الصمت والجمود لفتا انتباه كائنتي ، بعدما كانت تمتلك القناعة الراسخة أنني أخوض متاهة حكاية جديدة كما عهدتني دائماً .

***

كنت أسير حيرتي لحظة اقتحمت فضاء تأملي :

«ما الذي يرميك إلى هذا الظلام الغريب؟»

« مخاض جديد محبط»

«أليست فاتحة ثورة جديدة؟»

«إحساسي يختلف هذه المرة»

«قلت هذا الكلام في المرة السابقة أيضاً»

«أنتِ على حق ، لم يدم ذلك طويلاً ، ضجت ذاكرتي بجملة حكايات ، وأنهيتها دفعة واحدة»

«ألم تقل إنها بديهة شائعة لدى كتّاب الحكايات»

«البعض يستعيد بريق موهبته والبعض يخرس إلى الأبد وهناك أغلبية تكرر نفسها»

«لكنك من الصنف الذي ما إن تفتر عزائمهم ، ينتفضون أكثر تحمساً ومثابرة وتألقاً»

«إنّ ما يستفزني ، يختلف هذه المرة»

«ألم تقل إن الكثير من كتّاب الحكايات ، يجدون في السفر حافزاً للكتابة»

«طبيعة مجتمعنا لا تسمح بهذا الدافع الحيوي لكتابة حكايات مهمة ، نحن سجناء الواقع ، مهما مارسنا من نشاطات ، فردية أو

مجتمعية ، تنضوي تحت عباءة حرية الفرد ، ما تطلبها الحكايات الفاعلة غير متوفرة في حياتنا الراهنة ، وربما لا نصلح أبداً لنكون حكواتيين ذوي أثر»

«تحتاج إلى فترة راحة ، أو وجبة قراءات دسمة لتستعيد نشاطك المعهود»

«ثمت إحساس يثير فيّ الفزع ، يشعرني أن مستقبلي بدأ يتوارى خلف غيوم فوضى حياتنا»

«راجع أوراقك القديمة ، كما كنت تفعل دائماً ذلك ، وكنت تكتشف نفسك شحنة ثورية غاضبة»

«تلك اللعبة كانت بدافع الهروب من واقعيتنا المشئومة ، كنت أبغي إحداث تغيير استراتيجي في نوعية ما أحكي ، أتحمس وأتفاعل مع ثيمات تتشكل سريعاً ، وكلما أغوص عميقاً أكتشف أنني أتخبط في أوحالها من جديد ، واقعنا غير مقنع ، إنه لا ينتمي لـ تجنيس ما ، لا كوميديا ولا تراجيديا ، واقعنا لا واقعي ، واقع فاقع رث غث»

«أليست الروايات الواقعية مثار اهتمام الدارسين؟والزاد المطلوب من أغلب القرّاء!»

«ربما واقعنا ما زال يعج بالكثير من الطرائف والمفاجآت ، ما زالت الذاكرة النقدية جائعة لها ، ما زالت الذاكرة القرائية بدائية ، لم تعبر مجازات الواقع المستهلك ، فالعقل عندما يدمن الأشياء الروتينية من حولها ، يغامر نحو الفضاءات الخارقة ، بحثاً عن الألغاز الأكثر تعقيداً بغية مجاراتها وخوض مغامرة حلحلتها»

صمت .

«لم لا تكمل مشروعك القديم؟»

«تراكمت مشاريعي ، لم أعد متحمساً لحكايات فقدت ثورياتها»
صمت .

***

كنت جالساً أتأمل الفضاء الأسود إلاّ من نجوم تحاول فك اشتباك الظلام ، لم أجد دافعاً يحرك محرك الحكايات ، لم تسعفني فناجين القهوة ولا المراجعات السريعة لأكداس الأوراق المتراكمة من حولي ، ضجر مباغت وملل غاصب وكل فكرة لا تعدو سوى باقة هواجس ضحلة ، وجدت الخروج إلى حديقة المنزل مخرجاً يرميني في الحلكة ، يمكنني كما كنت أفعل دائماً قبل الشروع بالكتابة أن أقتنص الأشباح الهائمة وابتكار الشخصيات وتحميلها فوضى مزاجي .

لحظة فاجأتني(وداد) ، وجدتني أجلس محاوراً السواد بـ لسان عيني .

في كلامها وجدت بريقاً ومض واختفى ، مسكت يدها ، ألقت برأسها على كتفي ، تبادلنا بضع قبلات طيورية ، نقرات بصدى ، قبلات ممطوطة مصحوبة (بمطكات) ، تلك كانت لعبتها ليالي المسرات . . قلت :

«وداد . . ماذا أحكي؟»

«لو طاوعتني مرة»

«كنتِ سندي في كل ما حكيت»

«لم لا تحكي حياتنا»

«تأملت هذا طويلاً ، وجدتها ناقصة»

«مخك يحتوي على خلايا المغامرة ، بوسعك أن تبتكر حياة كاذبة لنا»

«الكذب لا ينسجم مع الواقعية»

«حسناً . . لم لا تحكي حكاية صاحبك التعيس؟»

«صاحبي التعيس!يا لها من فكرة ثورية!»

صمت .

في تلك اللحظة شعَّ بريق في دهاليز الذاكرة ، توسع ليحرق أدغال كسلي ، مسكتها من كتفيها . . قلت :

«إنها الحكاية الحيوية المفقودة من حكايتنا»

«إيّاك أن تحكيها بصراحتك المطلقة»

«لن أعدك بهذا ، عندما أكتب أخرج من جلدي ، للحكاية تيّار جارف ، هو الذي يقود مبتكرها نحو ما تريد الحكاية وترغب!»

«حسناً . . يمكنك أن تحكيها بـ أسماء مستعارة ، تجنباً للمتاعب ، يومنا عصيب وحياتنا غير محتملة»

«الحكاية جملة متاعب»

صمت .

لم أعد أحتمل نفسي ، بدأت الأشياء تتراكم وتلح ، تناولت عكازي وقمت ، دخلت غرفتي ، غربلت أوراقي بشيء من العجالة ، عثرت على دفترٍ صغير ، دوّنت فيها موتيفات حكاية حقيقية ، كل ما كنت أسمع ، أو يرتسم في خيالي ، عامل مساعد ومحفز ، كجزء من متطلبات المهنة ، بعضه سردته لي(وداد) أيّام خطوبتنا ، والبعض فيما بعد في جلساتنا الليلية الطويلة ، قسم آخر ، مقتطعات من أقوال السادة كتاب الحكايات ، مشاعر ومذكرات ناقصة ، هواجس عابرة أو حكايات متناقلة عبر ألسنة الناس .

نفضته من الغبار ورحت أقلب بـ عجالة الأوراق ، ملتهما الكلمات الحائلة والمتعرجة ، كأنها أشياء عجيبة ، وربما طعام دسم وضع أمامي في لحظة جوع .

قفل الحكاية

كنت بـ حاجة إلى وقتٍ حافل بالمثابرة ، غربلت فيه تراكمات أوراقي ، وقرأت الدفتر الصغير ، حائل الأوراق ، الضاج بتفاصيل متشابكة ، مدونة بعجلٍ ، بال عليه الزمن وراكم عليه صفرة حائلة يبّست الأوراق ، يومها كانت (وداد) تتحدث عن حياتها لي وأنا أحكي حياتي لها ، في جلسات التعارف والتآلف قبل ليلة زفافنا ، جمل مبتورة ومقاطع تمتد إلى نصف صفحة أو أكثر أحياناً ، أسماء ما تزال موجودة ، تختلف عمّا دوّنت بناء على رغبة (وداد) قبل شروعي في تدوينها .

رغم إلحاحات الرغبة وسطوة الموهبة ، وجدت الوصول أو تقليد الكتّاب أمراً شبه متعذر ، لم أجد رغبة أو دافعاً أو باباً يدخلني إلى مائدة الفجر كي أكتب ، بناء على فلسفة شائعة ، تفيد أن كتابة الفجر ساحرة ، ليس ذلك فحسب ، فالنشاط العاطفي عند الفجر يمنح المرء لذة فائقة ، كون الجسد يفقد تعبه ويتهيأ لمعركة الحياة المتواصلة ، شخصياً وجدت سحر الليل ينبوعاً متدفقاً ، يردني بـ حبر التدوين من غير عراقيل .

ما أروم أن أحكيه .

لم يكن نصاً قابلاً للتشظي ، حكاية محض ، ما إن أجلس أمام (اللابتوب) ، يتحرر ذهني من كسله وتتدفق فيضانات مشاعري ، تزيح

وتقتحم ، حتى العتبة التي تقفل بابها ، أو تترك القارئ في مهمة البحث عن قفلٍ يراه مناسباً لقبر جثة ما عادت تثير الاهتمام أو الشهية ، بعد موتها ودفنها في مقبرة الأوراق .

هي حكاية واقعية .

شخوصها ما زالوا أحياء وإن تحولوا من أعالي الحياة إلى شعبيتها ، عاشوا في زمن متلون ، تحت فوضى حياة لم تخضع لسلطة العقل ، أو قانون يسيّر ويحرك الجميع على سكة الحقيقة ، زمن أغبر ، سقط لجام حصانه بيد عابث ، غيّر مسارات الحقيقة ، جعل عربة الزمن تمشي في منحدرات ومتاهات ، في براكين وعواصف ، لتسقط في منحدر الفوضى ، خارج العالم المتمدن .

بعد شهرين من تجميع المعلومات وجلسات شبه تحقيقية مع زوجتي ، بالطبع لم تخلُ من مماحكات العشق ودوافع الرغبة ، نتراشق بالقبل ونندمج في معركة حياتنا السريّة ، تارة ترغبني وطوراً أرغبها .

تفاعلت فيّ الرغبة وأجبرتني أن أعيد تلك المحاولات الفاشلة لأقلمة مزاجي مع تغير وقت الكتابة ، وجدت نفسي تتفاعل وتذوب مع الرغبة الجديدة ، رغم سلطة النوم الصباحي وقيمته الخارقة لمنح الجسد راحة مثالية ، وبعد صباحات متعثرة ، حفلت بأكواب متلاحقة من القهوة والشاي ، بدأت استراتيجية العمل تميل لصالح مزاجي بـ ارتقاءٍ متسارع طموح ومحفز .

راجعت أوراقي ودوّنت الموتيفات الأوّلية في أوراق مستقلة ، في رأس كل ورقة وضعت شخصية من شخصيات حكايتي ، قبل أن أجمع أشلاء حياتها الموزعة في ذاكرة (وداد) وذاكرة (صاحبي التعيس) ، مضافاً إليها (ذاكرتي) ، وللحق أقول مبتكراتي ، كونها

احتفظت بحلقة قد تكون مفقودة لو أهملتها ، أو إذا ما لجأت إلى الخيال لوضع بعض اللبنات في الفراغات المفروغ منها ، مع إمكانية دس فقرات تدليسية كون الكذب ملح الحكايات ، والعمود الفقري لـ عمرها .

الحكاية عالم افتراضي ، تتوازن فيها كفتا الواقع والخيال ، الصدق والكذب ، من غير تعادل النقائض تتشوه جثة الحكاية ، تخرج مذمومة مخذولة مندحرة من زمنها وواقعيتها .

طالما الكذب يسكننا ، لابد أن ننتعش لكل كذبة تواجهنا .

في جلسات طويلة لم تخلُ من عناق ومضاجعات معظمها كانت سريعة ، جمعت الكثير من المعلومات عن كل شخصية من لسان(وداد) ، بطبيعة الحال كانت وما زالت شخصية محورية وربما النول ، عاشت فيها وأنتجتها ، رغم توسلاتها ووعودي القاطعة ، لم أفلح في اختيار أسم لائق كي أواريها خلفه ، حاولت وهي تحكي لي أن تجتاز الكثير من الـ خطوط الحمراء ، أن تبتلع الكثير من المواقف ، كانت تتعثر أحياناً في كلامها ، تحاول أن توهمني أنها تراجع ذاكرتها لاستعادة التفاصيل ، لكنني كنت أتدخل سريعاً بقرص أنفها أو تكوير شفتيها بإبهامي وسبابتي وكنت أقول :

«تموت الحكاية لو جانبنا الصدق فيها ، وجعلناها مرتعاً للكذب!»

«تموت أيضاً لو تركنا الكذب وجعلناها مزرعة صدق!»كانت تجيبني بهزة رأس شهوانية .

تواصل من جديد حكايتها والجواب الصريح لكل سؤال أطرحه .

تحت كل اسم تكدست معلومات ، ولم تكن فترات الاختزال مؤاتية ، وجدت ذلك كهاجس يدفعني نحو التدخل بمصائرها ،

وتحميلهم بمواقف مفتعلة ، مما يبطل حرارتها ويزيد من سعة ابتذالها .

انتشلت نفسي قبل أن تغرق في بحر هائج ، طرحت عذاب التوجيز جانباً ، وتركت تعليق التفاصيل الدقيقة على العمود الفقري للحكاية ، إذا كان المزعوم ـ جهينة ـ يمتلك الخبر اليقين ، كما يقول المثل المسافر من جيلٍ لجيل ، قررت أن (صاحبي التعيس) كما أسمته (وداد) يمتلك أسرار حكاية حكتها لي أيّام خطوبتنا ، وظلّت نائمة في دفتر صغير بين أكداس ورقية تسجن ركام أحلام دغدغتني ذات أوقات (دونكيشوتية) .

كاد ينبوع خيالي أن يجف ، لولا تذكيري بها ، وخوفي المتفاقم من قدراتي لابتكار حكاية أخرى أواصل بها سلسلة حكايات ، طمحت بكتابتها بناء لمتطلبات الزمن ، وواقع فاقع يسجننا ، كون حاكي الحكايات مؤرخ عصره ومصره ، ومن باب رغوة شهوة ذاتية ، كانت تسكنني رغبة قديمة ما تزال متواصلة ، رغبة إشباع فضولي ، أن أكون مدوّن حكايات ، أقولها بلا تردد ، مدوّن حكايات ، إذا ما تعذر عليّ ـ وهذا عام وشامل وليس خاصاً ـ أن أكون ذات يوم مبتكرها ، بعدما فقدت كل الفرص للخروج من الظلام ، من خف العالم المتهالك كي أحصل على بطاقة إنسانيتي .

مفتاح الحكاية

استدار نحوي!

من حركة رأسه ووقفته المباغتة ، من صمته لدقائق ، عرفت أنه يحاول أن يـ كظم غيظه ، أو يجتهد ليبتلع صدمة السؤال ، كان القمر ينير الأرض المفروشة بالصمت ، كنت أجانبه ، هو على يميني وأنا على شماله ، كان سريع الخطو ، عكس خطواتي ، لم أطلب منه التريث ، أو التأني في مشيه ، أو تقليص مسافة خطواته كي ننسجم في مشينا ، على أقل تقدير نمشي لصقاً أو معاً بخط مستقيم ، الدرب ما زال في أوّله ، علينا أن نمشي ربما الليل كلّه ، أيّ ليل ، ليل مدجج بالرعب ، بالمجهول ، بالحرب ، ليل الحرب طويل ومميت ، علينا أن نمشي ، وقد نلحق ليلنا بساعات مقتطعة من النهار القادم ، الدرب طويل والوقت قد لا يكفي لإنهاءه بسيرٍ حثيث ومرتبك ، في ليلٍ بلا دليل ، وقد لا نحتاج لساعات أخر غير ساعات الليل كي نصل إلى موقع وحدتنا .

كنت أجتهد ، أحياناً أسبقه وأحيانا عندما أقف لألتقط أنفاسي يسبقني .

ما أثقل لساني ، لم أمتلك إرادة في تلك اللحظة أن أمضغه ، ليس من الخصال الحميدة التدخل السريع للكشف عن أسرار إنسان لم تعد رفقتك معه سوى نصف يوم أو ثلثه ، رغم كونه ابن زمنك وابن

بلدتك ، ما رميت من كلامي هو قتل الوحشة ، وربما تعزيم نفسينا بشجاعة واجبة .

ليلنا أبدي ، دربنا يرتمي في مجهول الحرب ، واحتمالات الخطأ واردة ومهلكة ، رغبت أن نواصل سيرنا بلا تردد في أرض مخيفة ، أرض لم أمشيها نهاراً ، الحرب دفعتني أن أغورها ليلاً ، عباءتها ظلام ، نهايتها عدو متمترس ، وأسلحة حرة ، وألغام تتربص بالعابرين .

قلت :

«هل عشقت؟»

«كانت لي محاولات!»أجابني بعد ثواني صمت .

***

[هذه أوّل العراقيل ، حتماً سيجرف الحكاية عن مسارها ، ما حكته لي (وداد) عنه ، وضعته بين قوسين (مخاض ثورة أخلاقية عارمة) ، وما برق ذهني به بدا كنقطة ضوء داخل مهرجان مصابيح ، كان لابد من تدخل سريع لانتشال الحكاية من مستنقع الفرضيات وهطول الأسئلة المضادة ، في دفتري الصغير ، كتبت يومها ، (السيد المدير) زير معلمات ، شاب وجد نفسه معقلاً لرغبات جنسية فوق العادة ، جعلته الدولة ديكاً ثورياً لكبح شهوات دجاجات تحمل بيض العزلة ، ففي تلك الأيّام شاعت بين الناس أنّ كل (معلمة) دجاجة بيوض ، وكانت كناية عن راتبها ، في زمن العطالة والتقشف والمجاعة الشعبية ، كان أمام السلطة خياران مفتوحان ، وجدت السير باتجاهين يؤمن لها حياة خالدة وديمومة جماهيرية عارمة ، لذلك أعلنت حربين في وقت واحد ، حرب تذويب الأقليات في حوض العقائدية ، وتنطوي تحتها قضايا عرقية وشعوبية أخرى شبه مدفونة ، وحرب مزامنة

على دمامل الفساد الناهضة في أغوار الإناث المتحررات ، كي لا تنفلت الثورة من عقائديتها العلمانية والتحررية وأخلاقيتها المجتمعية .

(وداد) لم تكتم مشهداً أو تزيح موقفاً ، كانت حاضرة وفاكهة ناضجة ، وسوس الشيطان كثيراً في نفسها ، كادت أن تركن في بعض المرات لظل الراحة ، بعدما فلتت عواطفها من أسلاك العفّة ، وسقطت على مسالك المتعة ، فالنفس ضعيفة وعاشقة للانحراف كما تؤكد ، لكنها تمالكت نفسها وأبقت بضاعتها الأنثوية مقدسة ، بعدما رأت رأي العين ، وسمعت سمع الأذنين ما يجري أمامها ، أو تحت جنح ظلام إجباري ، فرضته الحكومة بعدما حوّلت المدارس من خصخصة إلى مختلطة .

أين يكمن الخلل ، (صاحبي التعيس) لم يكن تعيساً كما وصفته (وداد) ، بل رفيق درب التقينا مصادفة في كراج (النهضة) ، لم نكن نحتاج لوقت طويل كي نتعارف ، كنّا من بلدة واحدة ، نظرة واحدة كفلت بجمعنا ، تغدينا معاً في مطعم شعبي ، وركبنا حافلة عسكرية تنقل الجنود مجاناً ، لكن بعد الخروج من حدود العاصمة ينهض جندي ليجمع (ربع دينار) من الجنود بداعي مساعدة السائق العسكري ، مع تمرير جملة أبدية «حتى يشغل لنا السائق التبريد» ، أتذكر أنني دفعت مكانه (الربع دينار) رغم إلحاحه بالرفض ، عند الغروب وصلنا الخلفيّات ، استلمنا أسلحتنا الشخصيّة ، لم يكن بد ، كان علينا أن نمشي إلى وحدتنا ، بعدما وجدنا مئات المسرفات الحربية والمركبات المحملة بالجنود ، تحرك عسكري غير طبيعي ، عرفنا أن خط سير المركبات مقطوع كون (إيران) أعلنت هجومها الموسمي الكبير ، تمكنا أن نتسلل ونقتحم الظلام المنخور بضوء القمر كي نصل إلى

وحدتنا العسكرية راجلين ، تلبية لأمر أشعرنا به ، عند وقوع الهجوم على المجازين قطع إجازاتهم والالتحاق فوراً بوحداتهم]

***

مشينا مسافة قبل أن أتكلم :

«حتماً كانت محاولات متعبة على ما أظن»

«الحب وادي التعب»

«لكنه واد جميل أليس كذلك؟»

«نحن غيوم عابرة ، لنقل ماطرة ، ننزف ماءنا ونمضي ، من المستفيد من المطر ، لا تقل الأرض ، لا تقل سراً من أسرار ديمومة الحياة ، هذه أجوبة قديمة ، أنا أنظر إلى الحياة ، على أننا غيوم عابرة والنساء هن الأرض المحرومة ، كلما نمطرهن تتطهر الحياة من الجدب وتنمو من جديد»

«أنت تفسر الحياة بطريقة فلسفجنسية غريبة»

«عندما تعيش في ظل الحرب ، تحت عباءة الفوضى لا يمكنك أن تواصل حياتك من غير فلسفة تناسب أفكارك ، وتعطيك زاد وجودك ، فالحياة بنيت على علاقة جذب وتنافر ما بين معسكرين متنافرين ، وكل الكائنات توزعت على هذين النقيضين ، ليل ونهار ، أسود وأبيض ، أنثى وذكر ، يقظة ونوم ، أعلى وأسفل ، شرق وغرب ، شمال وجنوب ، برد وحر ، سعادة وشقاء ، جوع وشبع ، غبي وذكي ، بكاء وضحك . . ألخ»

«دعنا من هذه الجدلية العقيمة ، أريد رأيك ، هل الحب جزء من فلسفة حياتنا؟»

«لكي لا نخلط الأوراق ، يمكنني أن أفسر القضية وفق ما أراه أو

لنقل وجهة نظري ، نحن نمارس الحب ليس لأننا نرغب أن نعيش في الحب ، أو تنتفخ فينا غريزة الفضول كوننا جربنا فاصلاً من فواصل الديمومة ، نحب من أجل قتل جراثيم الهروب فينا ، نحن نهرب من أنفسنا من واقعنا من زمننا ، من الموت الحاضر فينا ، وليس لدينا ملاذ ينجينا من الضياع سوى هذا الذي نسميه الـ حب»

«أليس الحب هو البيت الذي يوقف هروبنا ويكبح جماحنا؟»

«هذا بالنسبة لنا ، نحن نباتات الشرق ، وكما يحلو للآخرين وصفنا بـ نباتات الشر ، لأنهم ينظرون إلينا مثلما ينظرون إلى الأشواك والأدغال المنتشرة في المزارع والحقول جنباً إلى جنب مع الورود والنباتات النافعة ، مختصر مفيد الناس ورود وأشواك ، بالنسبة لنا ما تقوله واقع حال ، لكن هذا لا يرضي سريرة البشر ، كونه جاء متحرراً وعاش متحرراً ، فالقوانين لجمته بأسلاك تحد من رغباته التحررية ، فولد العنف والتمرد ، لذلك نجد الغرب بدأ يتقهقر إلى حياته السحيقة ، حياة المشاعية ، بعدما وجد حداثة الحياة محض أقفاص خانقة ، بل حياة كرتونية مزيفة ، خالية من السعادة والفطرة البدائية»

صمت .

كان وقع أقدامنا يتبعنا ، والأرض المنبطحة تحت وأمام أقدامنا تبدو صفراء ، ثمة كائنات ليلية تظهر وتضمحل ، توقف ، هيأ بندقيته على وضعية الرمي . . قال :

«يجب أن نحسب لكل الاحتمالات الممكنة ، الهجوم وشيك وربما هناك من تسلل وهو الآن يترصد ليصطاد الفرائس المنفلتة»

«لا أعتقد أننا سنجابه حيوانات مفترسة في أرض ملغومة»

«قد نسقط في كمين»

«أنت على حق ، لم أفكر بهذا»
هيأت بندقيتي ومشينا من جديد . . قلت :
«حدثني عن حبّك؟»
«أسألك بـ الله أن تبقي ذاكرتي نائمة»
«ليلنا لن ينجلي من غير حوار نبدد به وحشة المسافة»
«حسناً . . أنا لم أحب!»

***

[شرارة مباغتة ، أوقدت فيّ مصباح الدهشة ، ما حكته (وداد) عنه ، كان الكعكة الدسمة فوق طاولة شخصيته الثعبانية ، قالت إنه كان يتوسل بشيء من النحيب الصامت ، وكان يرضخ أحياناً ، يكاد أن يرتمي أمامها ، وبكامل استعداده متهيئاً لتقبيل قدميها ، من أجل أن تقبله حبيباً ، كان شحاذاً مستجداً يستعطف غنياً بخيلا ، أعلن حبه كما تؤكد (وداد) ، متيم مجنون ، يريدها شريكة فراش لا شريكة درب قصير كما كان ، هل من المعقول أن ذاكرتي بدأت تتمرد عليّ ، بدأت تنقل لي تلك الوقائع بطريقة معكوسة ، توالد شك ، أجبرني أن أراجع مخزونات ذاكرتي في خلوات طويلة ، قبل أن أصطدم بتناحر فوضوي بين تفاصيل ذاكراتنا ، تجعل الحكاية محض هذيان ، فالجملة ما زالت طرية وحرورية ، قالها مع حسرة ، ما تزال تلفح وجهي بحرارة غضب أو أرق أو كذبة عفوية وربما مفتعلة على ما ظنَّ ظنّي] .

***

«حدثني عن بعض محاولاتك» . . قلت له .

«كلنا نحاول ، ليس بالضرورة أن نمتلك الأشياء المرغوبة ، تكفينا المحاولات وإن كانت فاشلة ، المحاولات قيمة اعتبارية تكمل قيافة المرء ،

كل أولئك الذين يتجنبون المحاولات الحياتية هم فزاعات في الحقل البشري»

«حدثني عن واحدة منها؟»

«كل محاولة مشهد بانتومايم ، لو حكيناها تفقد متعتها»

صمت .

توقف ، حدّق في السماء ، كانت تضج بالنجوم ، أقمار اصطناعية تتقاطع ، لمحت يده ترتفع . . قال :

«تلك هي ـ نجمة سهيل ـ هذه المجموعة ـ الدب الأكبر ـ وتلك ـ الدب الأصغر ـ هذا المستطيل المذنب ـ بنات نعش ـ وتلك ـ الميزان ـ أنظر إلى ـ العقرب ـ في تألقه ، بوسعي أن أحدد لك موقع كل بلدان العالم من خلال هذه التشكيلات النجومية ، أليست هي علامات اهتداء؟»

«معلوماتي ضعيفة عن الكواكب»

«أنت لم تحاول في حياتك على ما أظن»

«وماذا تسمي طلبي هذا!»

«ربما لم تجرب في السابق ، هذه الرحلة الشاقة أنهضت فيك أوّل تجربة لك في باب المحاولات»

«لا أعرف ما تعني بالمحاولات»

«ألم تثابر في حياتك؟ألم تكافح لنيل أو تحقيق رغبة ركبت عقلك؟»

«في الدراسة فشلت»

«ستفشل في انتزاع أي حلم سيراودك أيضاً»

«للظروف سلطة تسيِّر المرء خلاف ما يحلم»

«ألم تحاول في العشق؟»

«ربما هذا ما أفلحت فيه»

«أهي جميلة؟»

«لا يعنيني الجمال ، التقينا صدفة ، تبادلنا نظرات كانت فيها أسئلة صريحة ، فهمنا بعضنا بسرعة ، وتناصفنا رغبة مشتركة ، أن نركب سفينة المستقبل معاً باتجاه باب الأمل»

«قرارك مجحف بحق نفسك ، أنت قتلت فيك ينبوع المحاولات يا أخي»

«أليس ذلك جوهر حياتنا؟»

«جوهر حياتك أنت ، أمّا جوهر حياتي أن تتواصل محاولاتي من غير توقف»

«لم تحكِ لي عن واحدة منها»

«لا أستطيع!»

«عجز!»

«بل محاولة في الحفاظ على محاولاتي»

«لا أملك غاية ، ليس لدي رغبة فضولية ، أمامنا طريق مجهولة ، وحدها الذكريات تسعفنا وتمدنا بزاد هذا المسير»

«يمكننا أن نلفق بعض الحكايات»

«لا يمكن أن نحكي ما لم نمتلك حجر أساس ، نمتلك مخاضات عسيرة أو سهلة ، لابد من تجارب سابقة أو على أقل تقدير مشاهدات أو سماع حكايات»

«أظنك قارئ حكايات»

«ولدي رغبة أن أكون مبتكرها»

«قل ناقلها»

«كل الاحتمالات واردة ، فمن يفشل في ابتكار حكاياته لابد أن يسلك طرقاً أخرى ، كأن يكون ناقلها ، أو سارقها ، أو مستنسخها ، أو . . أو . . ملفقها»

«تحتاج لثورة معلومات وشجاعة نادرة ، ما لم تغامر ، ليس بوسعك أن تأتي بشيء لافت وملهم ومقنع»

«يبدو لي أن لديك خبرة في هذا الجانب»

«كنت أسرق الشعر أحياناً»

«كلنا نسرق في البدء قبل أن نكتشف أسواق كلماتنا الحرة»

«الظرف يجبر المرء على سلوك دروب ليس بمحض اختياره»

«ما يشغلني هو تدوين واقع حالنا»

«الواقعية لا تليق بحياتنا»

«يمكننا أن نوظف الواقع وفق أشكال حداثية تماشي مزاج الناس»

صمت .

مشينا مسافة ، أقدامنا تضرب أقدامنا ، تضرب الأرض ، يحز السلاح ظهورنا ، أنفاسنا تصوّت تعبنا .

اعترضنا جدول صغير ، برك ، وضع سلاحه وحقيبته وبدأ يغرف الماء بكفيه ، صوت مضمضته بدا كرشق رصاص مخنوق ، قذف الماء المالح من فمه باتجاه الوميض المتلامع من جهة الشرق . . قال :

«أطفئي يا مضمضاتي هذه النيران؟!»

شاركته اللعبة ، مضمضت وقذفت مضمضاتي حيث رمى مضمضاته . . قلت :

«أطفئيها يا مضمضات»

غسلنا وجهينا وغرفنا غرفتين أو أكثر ورميناها من غير سبب إلى الفضاء ، هبطت قطرات على رؤوسنا كما المطر الخفيف ، نهض ومشا ، تبعته .

«يمكنك أن تحكي عن هذه الحرب اللعينة»

«ما قرأته من حكايات حربية ، يشعرني أنني لن أستطيع أن أضيف شيئاً لكل ذلك الركام المتراكم في ذاكرة الحكايات»

«لكل حرب حكايتها ، حربنا محض حكاية كبيرة»

«مذ بدأت دوّنت الكثير من التفاصيل في دفاتر ، أسوة بكتّاب كبار كانوا يدونون الملاحظات والوقائع اليومية بغية كتابتها في ما بعد»

«ستجدها ذات يوم تفاصيل وقائع هامدة ، محض كلمات خامدة»

«لكنها تنهض ذكرياتنا على أقل تقدير»

«هذا وهم ، ذات يوم ستتذكر كلامي ، فالحياة تنفجر ، وأشياء جديدة ستهيمن على الزمن ، فالذي يمضي لا يشكل لك بستاناً ناضج الثمار تقطف منها ما ترغب أو تشتهي من ثمار ، أعني حكايات»

لم أجد كلاماً .

بدأت أصغي لصوت شهيقه وزفيره ، شعرت أنه تعب . . باغتني :

«لم أشعر بـ الحب أبداًا»

***

[جملة طارئة تستوجب التوقف ومراجعة تراكمات التفاصيل المسرودة من قبل (وداد) ومن خلال الدفتر الصغير ، من حكى بصدق؟ إنه ينسف كيانه بجملة ، قد تكون عابرة ، قالها من غير شعور ، وربما أراد أن يراوغ بكلامه ، لا أقول إنه كذّب عليّ ، كوننا ما زلنا داخل مستنقع المجهول ، ونعيش مخاضاً عصياً ، فوحدتنا العسكرية ، ما تزال

نقطة ظلام مفقودة في الظلام الشامل ، ولا نملك سوى الليل كي نصل إلى وحدتنا بعدما تناثر خبر الهجوم الموسمي الكبير ، وما رافقته من تصاريح مفبركة صاغتها مؤسسات فلسفية لنشر الفزع بين الجنود وإشغال الناس بالهلع العام .

صاحبي أكد كلامه السابق«حسناً أنا لم أحب!» ، بجملة لاحقة (لم أشعر بالحب أبداً) ، هذه المرة كلامه يوحي أنه عاش تجارب عاطفية قد تكون عابرة ، أو كان لا يملك قلباً يفهم القضايا المصيرية للإنسان ، فهو كما مدوّن لدي ، في دفتري الصغير ، وفي ذاكرتي أو ذاكرة (وداد) ، خاض تجارب عاطفية مزلزلة ، بل كان مدمناً ، شجاعاً ، ثمت قضية بدأت أشمها ، لابد أنه لسبب ما يحاول أن يراوغ أو يكذب ، ولو كنت غريباً عنه ، ولن ننتمي لبلدة واحدة ، لربما دلق لي كل ما عنده من أسرار ، حقاً على المرء أن يكون حساساً ، ولا يهدر أسراره في جلسة طارئة ، أو رحلة عابرة مع زميل يشاركه العيش زمناً ومكاناً] .

***

«عندما نفقد الحبيبة تتولد لدينا هذه المعضلة»

«ليس فقدان أول الشرارات العاطفية ينتج هذا الهم»

«ألم تحاول دفن الحزن بمحاولة لاحقة؟»

«ربما العلاقة القلبية ما بينك وبين القطب الآخر ، ومهما كانت التناغمات والتفاعلات وحرقة المشاعر ، لا توفر جوهر الحب الذي يشبع مزاجك»

«نحن نفهم الحب على أنه علاقة عاطفية ما بيننا وبين الإناث»

«كل الكائنات عاشت هذا الجحيم ، لكن كم حكاية بقيت خالدة حتى يومنا هذا؟»

«ربما العلاقات المدججة بالتلفيق والتهويل هي التي تأسطرت»
«تأسطرت لأنها حفلت بـ النبع الصافي للحب»
«لو نمتلك مدوني حكايات لربما أعطينا التأريخ كماً هائلاً من هذه الخرافات»
«ما لم نتحرر من ثوب الماضي ، من سلطة الخوف ، من هذرنة تكفير العلاقات الاجتماعية ، لن نفلح في إنتاج بشرية مستخلصة من فواصل العنف والتمرد والكسل ، الحب بضاعة خالدة ، كونية ، لا يمكن المتاجرة بها ولا المقامرة ، عندما نتحرر من الخوانق ، يمكننا ردم الكواليس ، عندها يمكننا أن نفهم هذا الذي نكنه الـ حب»
صمت .
قبيل الفجر توقفنا قليلاً ، جلسنا ، سحب من حقيبته كيساً وأخرج حفنة (فستق) تناولت منه نصف الحفنة ، بدأنا (نكرز) . . قال :
«هذا أنفع شيء لجعل الذاكرة متيقظة ، إنه يمنع تسرب النعاس إلى العينين»
«ما قلته صحيح ، جربت هذا أيّام الدراسة وتحديداً ليالي الامتحانات»
«جربته وفشلت في النجاح»
«لم أكن أقرأ ، كنت مهوساً بالشعر ، كان يهيج ذاكرتي ويشطحني بعيداً عن الدروس»
«لو جربته . . يمكنه أن يبقيك متحمساً لليالي الحب أيضاً»
«أشك أنك تراوغ معي»
«لسنا في معمعة تجارة كي أتحايل عليك»
«أجزم أنك مررت بتجارب عاطفية ، ولديك خزين من الذكريات

المتعة»

«ربما وقائع روتينية برقت صدفة وذابت كما تختفي قطرات المطر في الصحاري اليابسة»

«يقولون إن الحب ليس واقعة عابرة أو روتينية ، بل مطهر حيوي لتطهير وتخليص الإنسان من قسوة العيش ووعورة الحياة ويمده باليقين والأمل كي يكون ثورياً دائماً»

«حسناً . . كيف تجزم أنني عشت تجارب في الحب؟»

«شكلك الوسيم ، ووظيفتك كونك تربوياً ، وعملت في التنظيمات الطلابية وكنت سبّاقاً في المسيرات الشعبية والندوات ، كنت دائماً محاطاً بجملة رفيقات ، أشك أنهن لم يكنّ معجبات»

«عندما تكون ملجوماً بقدسية الانتماء ، عندما تكون رأس الرمح عليك أن توظف قدراتك البدنية والذهنية كي تكون متأهباً لكل عائق أو هدف ، ليس من الفضائل أن تهمل مكانتك وتهبط إلى درك الحياة السافلة ، صحيح أنّ البعض من الرفيقات كنّ وما زلن مشاريع إثم حاضرة ، لكن الحب لم يولد وظلّ من مقبلات حياتنا لا طعامها الرئيس»

قمنا ومشينا . .

مع هيمنة قرص الشمس دخلنا وحدتنا ، وجدنا الجنود مستنفرين بانتظار الأوامر الصادرة للتحرك ، رغم العناء والنعاس كان يجب أن نهيء نفسينا لما هو قادم .

الساعة الواحدة من بعد الظهر .

بدأت الدبابات تتحرك بنا ، ثار غبار حجب الرؤية ، داخل الكتل الحديدية ، كنّا نرتج ونخوض صراعاً نفسياً مريراً مع المجهول .

مع دخول الوقت لحظة الغروب ، توقفت الدبابات وترجلنا لنعرف موقعنا ومصيرنا ، حتى الضبّاط لم يعوا شيئاً ، ظلوا حائرين ، يتناقشون كلامهم الفارغ ، لم تتفق الآراء ، كل لسان عبّر عن محدودية الرأس الحائر ، قدر ثقافته ، توقفت الثرثرات ، بعدما تعذرت الأوامر أن تصل ، توزعت الدبابات خلف ساتر ترابي ، وتم توزيع المشاة الآلي لحراستنا ، كانت الرمال توشح الفضاء وتخنق أنفاسنا ، طعامنا معلبات مرزومة في صناديق خشبية ، معلبات وزعت علينا ، على عجلٍ ، تحسباً للطوارئ ، تحسباً لتعذر وصول الأرزاق الطرية .

مع الظلام الأوّل .

تناثرت أصوات طلقات ، بقينا خاشعين للصمت في انتظار الخبر ، قبل أن يثار لغط توسع ، خرجت ووجدت جندياً مقتولاً ، لقد قتله صاحبه بدافع القلق أو سقط في فلك الشك ، لقد ظنَّ الجندي القاتل أن الشبح البارز من بين العتمة ووشاح الغبار لابد أنه جندي (إيراني) متسلل ، فقد حكمته ولم يجد سوى سلاحه ، زرع فيه بضع إطلاقات أنهت حياته ، كان يجب سجن الجندي القاتل أو المتوهم وتحويله إلى مجلس عسكري ، لمعرفة دوافع القتل ، لكن ضابطاً شاباً بدا أكثر عقلانية ، وضع حداً للأفواه المثرثرة ، أعاد الهدوء إلى النفوس وأعتبر ذلك (قضاء وقدراً) ، وأعطى أوامره بضرورة التأني وعدم التسرع في هكذا حالات .

في الحرب تتداخل الموازين ويتعذر على العقل تمييز الأشياء ، عاد

الجندي القاتل إلى حراسته بتصميم وعزيمة كما بدأهما ، لكنه خرق تعهداته مرة أخرى وقتل اثنين آخرين ، وقبل أن يثار اللغط . . صاح :

«لم أعد أرى سوى العدو!»

تدخل الضابط :

«ويحك ستنهينا قبل بدء المعركة»

«سيدي قل للجنود أن لا يبتعدوا من حول الدبابات»

«ويحك يا غبي ، لدينا دوريات خافرة والبعض يبتعد لقضاء حاجته»

«لم لا توزع علينا كلمة السر سيدي؟»

«أنت على حق ، كيف نسينا هذا الأمر!»

منتصف الليل تصاعدت أصوات إطلاقات أخر ، كان الجندي القاتل مرتبكاً ، وكانت جثة الضابط مسجاة ، لم يجد أحدنا دافعاً في الكلام ، بدأت الشكوك تحوم حول عقلية الجندي ، بعضنا جزم أنه مجنون ، وربما فقد رشده عندما لبس جلد الحرب ، فالحرب أجبرت الحكومة على تجنيد الكل ، من غير استثناءات كانت فاعلة إلى وقت قريب ، ولسد الفراغات المتوقعة ، فكرت في استدعاء المواليد قبل بلوغهم سن الجندية ، لم يكن هناك وقت يكفي لتهيئتهم وإعدادهم نفسياً وبدنياً وإنضاج عقولهم كي يكبروا ويكونوا جنوداً يعرفون واجباتهم الفردية والوطنية ، كيف يقاتلون ، كيف يقتلون وكيف يحتجبون عن الموت ، تم إخضاعهم إلى فترة تدريبية موجزة ، لا تعدو سوى تعليمهم (التفكيك عكس التركيب) ، و(ضع الفرضة على الشعيرة) ، علموهم فك وربط أجزاء البندقية ، كيفية إدامتها ، مع خوض تجربة رمي حقيقي لأهداف خشبية ، قبل أن يتم تكديسهم في

حوضيات ، ونثرهم على الوحدات العسكرية الباركة على الحدود ، سداً للنقوصات اليومية .

مع الفجر تم اعتقال الجندي القاتل ، وبعد أسبوع وصل خبر إعدامه رمياً بالرصاص بعدما انتزع منه سر جريمته ، كان يرتبط بـ(حزب الدعوة) ، يمتلك مخططاً معقداً لقتل أكبر عدد من الجنود بسريّة تامة ، وإمكانية إرسال أخبارنا إلى (الإيرانيين) عبر جهاز اللاسلكي .

***

وقع الهجوم .

كان صاحبي ضمن السرية الأولى ، كنت أنا ضمن السرية الثانية ، جاءتنا الأوامر أن نتحرك نحو الساتر الأمامي لصد أكداس بشرية تخترق حقول الألغام ، نقلوا الخبر بشكل مهول ، قتل من الجنود بقايا شوارد الشجاعة ، ليس من اليسر أن تزج في صلب معركة من غير أن تستكشف الأرض التي تدافع عنها ، فجغرافية الجبهة ستبقى أبداً يوتوبيا بالنسبة لجيش البلاد ، تلك القوّة المتوغلة ، تمكنت من سحق حجاباتنا ، وصلت طلائعها إلى أمتار قليلة من الساتر الرئيس ، علينا التحرك سريعاً ، والوصول بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يهيمنوا على الساتر ، فتضيع منا فرص النصر المؤزر ، ونكون لقماً سائغة لقاذفاتهم ورشاشاتهم .

وصلنا الساتر .

لم نستطع فعل شيء ، كانت القذائف الماطرة هي من مدافعنا الثقيلة ، كانت تغربل الأرض وتنهض أكواماً ترابية وتمطرها ، فاستحال الفضاء إلى قيامة خانقة ، كانت تلك بسبب نقل أخبار مستعجلة ، من

غير تريث تم إبراق خبر سقوط الساتر بيد العدو ، وكان الخيار العسكري الدائم ، عجن الجميع مهما كانت النتائج ، احترقت دبابات وتمزقت أشلاء الجنود ، وقبيل الظهر بقليل توقفت اللعنة الوطنية ، وتنفسنا الصعداء ، تمكنا من الخروج بعدما وجدنا كل شيء خراباً ، نيران وقذائف تنفلق ، أشلاء الدبابات المحترقة تتناثر ، رائحة اللحم البشري المحروق تميت الروح ، وتثير الفزع والتقزز ، كان الساتر مغربلاً وفيه حفر كثيرة ، كبيرة وصغيرة .

تمكنت المفرزة الطبية من تجميع أعضاء الجنود المتناثرة ، وإخماد بقايا النيران ، لم نجد جنود العدو ، تحركت ألسنتنا ، «أين هم؟» ، لابد أنهم يمتلكون قدرات ميدانية فوق مستوى الخيال ، بحيث يخترقون كالسراب ، وهناك مفارز متجحفلة تعالج الأخطاء ، وتنتشل الخسائر فوراً ، آراء ولدتها الحالة الآنيّة الماثلة أمام أعيننا .

العسكرية حاضنة الخيانة .

مهما كانت قوّة العدو وقدراته العسكرية ، لابد من زج أو كسب فئات خادمة تهدم بنيان الطرف الآخر ، تبقى الغايات النفسية لبعض ضعفاء النفوس موجودة ، دائماً تحت خيمة الحرب تجد لنفسها المناخات الملائمة ، مثل الداء الخبيث يعمل لتفكيك القدرات الجسدية عند لحظات الوهن أو فقدان الدفاعات الفيتامينية المضادة ، تلك النفوس المرتدة ، تفتك بـ البنيان الوطني كي يجد العدو الثغرات المأمولة لتحقيق منجزاته الحربية المأمولة ، إذ لم يحصل أن خان أجنبي وطنه وتجسس لصالحنا ، دائماً يلهج التاريخ بـ أسماء خائنين منّا لصالح الأجنبي .

جاء الخبر من إذاعة العدو ، ففي كل مساء نسمع لقاءات مفبركة

مع الأسرى ، أحد رجال الحجابات ، أعلن أنه قام بعمله بأكمل وجه ، بعدما خدع القيادة الميدانية بأخبار كاذبة ، لم يقم العدو بهجومه ، وليس هناك من عبر الحجابات ، أفلح في جعل الجيش في نفير طيلة ليلة كاملة ونصف نهار ، خسر فيها دبابات وطواقم جنود كاملة وآلاف القذائف وتخريب دفاعاته بيديه .

هدأت الأمور .

عدنا بضعة كيلو مترات إلى الخلف ، كي يعاد تنظيمنا ، وتعويض الخسائر وإعادة البناء النفسي لنا عبر محاضرات ضابط التوجيه السياسي .

وجدت فرصة اللقاء بـ صاحبي ، كان مثقلاً بالهم ، مكتئباً ، يميل إلى العزلة ، دنوت منه ، لم أفلح في إحداث تغيير في طبيعته ، لم أرصد فيه نفوراً ، تبادلنا بعض الكلام ، وجلسنا في ظل دبابة معطلة . . قلت :

«كدنا نروح فيها»

«سنروح لا تستعجل ، بعضنا راح والبقية سـ يروح عن قريب»

«لم كل هذا الشؤم؟»

«ما دامت الخيانة سارية المفعول ، هناك من سيبيعنا»

«قد تكون أكاذيب العدو ، أنت تعرف أن الحرب خدعة ، وكل البيانات الصادرة مجرد قذف قذائف الروع في نفوس الند ، بغية تضعيفه نفسياً وتفكيكه مجتمعياً»

«عندما تنظر إلى حجم الخسائر ، والتكتيك المتبع ، لا يمكن للشك أن يوجد على مائدة الحوار»

«ضابط التوجيه السياسي شرح هذا ، وأكد أن الغاية منها دفع

السلطة لشنق المزيد من الضبّاط وتخوينهم ، لكن اللعبة باتت قديمة وبالية ولم تعد تشكل سوى دعايات حربية فاشلة»

صمت .

تعالى نداء توزيع وجبة الغداء ، قمنا وقررنا أن نتغدى معاً ، تناولنا حصتنا وبعد الغداء عدنا إلى ظل الدبابة . . قال :

«أرجو أن ننجو من هذه الحرب»

«إن ما يفرحني هو أننا لسنا جنود مشاة ، ستنتهي الحرب سريعاً ، الكل يقر بهذا ، الحرب لم تعد تنفع العالم ، حتى الكبار باتوا يخشون منها ، كونها سرطاناً ، الحرب نار تمتد وتأكل الأخضر واليابس ، الحرب ما عادت لغة الطامعين وأصحاب القرارات ، حتماً ستتدخل دول الأطراف وتضع حداً لها ونعود إلى بيوتنا»

«أرجو هذا سريعاً ، بدأت أمقت الحياة ، بدأت أشعر بوهن ، بدأت أكره هذه البلاد»

«ويحك ، لست من يقول هذا الكلام ، لا تنس مركزك السياسي»

«مركزي سبب تمردي ، السياسة كذب ، أقول هذا بصراحة ، بدأت أخرج من البلادة وسياسة ـ نفذ ثم أكل الخراء ـ منذ سنوات ونأكل الخراء والسلطة تدفعنا نحو مستنقعات الوهم ، ما الذي تريده منا؟إلى متى نظل حميراً مطيعة؟ ها نحن ننقل أحمالنا على ظهورنا من غير فواصل راحة»

«أنت متعب كثيراً رفيق ـ حبيب ـ أعتقد انَّ توقف الإجازات سبب فيك هذا الشعور المحبط»

«صدقني ، ليس هذا ما ينهض تمردي ، بل كنت كائناً مخدوعاً ،

دائماً يقذف بي في المحارق ، كوني مناضلاً متميزاً ومندفعاً ـ غشيم ـ »

«تلك هي معضلتنا ، هناك من يتعب وهناك من يجني الثمار ، صدق من قال هذا ـ أبو جزمة يكد وأبو كلاش يأكل ـ »

صمت .

«نعم . . ما تقوله صحيح . . كنّا ـ جزم ـ وحكومتنا ـ كلاشات ـ !!»

صمت .

وددت أن أدير دفة الكلام ، خشية أن يجن ويقذف نيرانه ويورطني معه في خانة المناوئين وأشنق مثل كلب أجرب ضال ، ولكن فكرة جديدة طرأت في ذهني ، ربما كانت معقولة ومجانبة للصدق ، فما هو مشاع أن الكثير من الرفاق يمتلكون الحصانة في قذف السلطة بما يحلو لهم من توصيفات ، كونها مصائد لإيقاع الفرائس الغشيمة في شراك اللا انتماء ، ليس هذا ببعيد ولا بغريب ، كثيرون مروا بهذا الموقف ، اندفعت نفوسهم وتحررت ألسنتهم وقذفوا السلطة والحزب بقميء الكلام ، وبعد أيّام اختفوا من الوجود ، وجدت الاحتراس واجباً ، فالرفاق سرطانات الحزب ، لم ينالوا درجة الـ رفاقية من أجل سواد عيونهم ، بل بسبب تكديس تقاريرهم الهدامة في أضابيرهم الشخصية ، وتسويق الغافلين إلى متاهات السجون والمقابر .

قلت :

«أفضل وسيلة لقتل الوحشة هو الحديث عن الحب»

رمقني بنظرة ، حرك رأسه . . قال :

«ما زلت تحاول ، كدنا أن نمزق شر ممزق في العراء»

«لا أكتمك القول ، أنا الآن أعيش تجربة حب جديدة ، لا أعني

مررت بتجارب سابقة ، بل حب صادق ، إذا ما تخلصنا من هذه الحرب وانتهت فترة عسكريتنا بسلام سنتزوج»

«أتمنى لك حياة حافلة بالسعادة»

«وأنت»

«هناك شيء . . !»

توقف عن الكلام ، أدار بوجهه عنّي ، خلته سقط في بركة الخجل ، لكنه أعاد وجهه ، لمحت في عمق عينيه حبتي دموع .

«بدأت أثير أحزانك ، أنا آسف لما بدر مني»

«لا . . لا . . لا تقل هذا ، إنني أحببت واحدة فقط»

صمت .

***

[بدأت الحكاية ، زغرد لساني ، نحيت الأوراق جانباً ، ظلّ صدى كلامه يتردد في ذهني ، فما قاله سابقاً ربما كان كلاماً غير مسئول ، كلاماً عابراً ، عليّ أن أبدأ من هذه الجملة ، صاحبي مر بتجربة حب ، يمكنني أن أحرر قلمي كي يرص الكثير من الحكايات الجانبية ، فالحب بين الذكور والإناث هو واحد ، نسخة مكررة ، كل الألسنة تلهج بأغان ثابتة ، الكل يكذب ويتوسل ويخضع لاستمالة القطب الآخر ، نفس اللقاءات نفسها والقبل نفسها ، يا ترى هل حقاً مر بتجربة حب واحدة؟ ، فما حكته لي (وداد) ، فوق مستوى الخيال ، ربما فوق درجات الخبال ، ماذا أسمي تجاربه؟ ، هل كانت عواطف جارفة خرجت من فلك الحب؟هل ما قاله كان يعني به (. . . . .) ، بدأ الفضول يمتد ويجبرني أن أتابعه كي تتوازن ثيمات حكايتي]

***

لم يدعني أتكلم ، أغمض عينيه وفتحهما ، على ما يبدو أنه استرجع ذكرياته ، ولم يجد بداً من التخلص منها . . قال :

«تمردت ورضخت ، تعالت وهبطت ، مشت وتوقفت ، بكت وضحكت ، نامت واستيقظت ، رحلت وعادت ، قست ولانت ، جرحت وتعافت ، مد وجزر ، سكر وملح ، حلو ومر ، ربيع وصيف ، ليل ونهار ، كانت منقسمة على كل تناقضات الوجود ، كانت ـ قلباً ـ وكنت ـ قلباً ـ »

«قذفتني في غابة شائكة ، أخرجني من هذه المتاهة؟»

«هي من أحببت ، لكنني لم أكن ذلك الذي أحبت»

«ألم تكن لك محاولات أخر؟»

«الحب مرة!»

«قد نفشل في الأولى ، هل من المعقول أن نتوارى من الحياة؟»

«لم تفهم كلامي»

«أنا أحببت واحدة لم تستمر علاقتنا سوى أشهر قبل أن تتزوج قسراً»

«لا تسمِّ ذلك الحب الأوّل ، إنه إعجاب مؤقت»

«لكننا تناصفنا الوعد أن نستمر وأن نكون معاً»

«تلك هي أوهامنا ، لساننا ينفلت من غير الإصغاء لصوت العقل ، تلك هي أوهام المراهقة يا صاحبي»

«هل توقفت عندها؟»

«كلا . . حياتي توقفت عندي»

صمت .

لم أجد سبيلاً لفك غموض كلامه ، كان يتهرب من كلامي

بمراوغة أو بتشكيل تعابير ملغزة .

انتهت جلستنا .

مضى إلى سريّته ، وعدت إلى سريتي ، كأن لم يكن هناك شيء ، ولا رغبة تحدوني أن أطارده لأنتزع منه سراً أو معرفة فتاته التي آمل أنها ليست (. . . . .) .

***

«هجوم» .

راحت ألسنة الجنود تردد الكلمة ، بدأت الأجساد تفقد توازنها ، الكل يبحث عن سلاحه ومتاعه .

كان الوقت ما بعد الغروب ، وقريبة بدقائق قليلة من وقت العشاء ، عندما وجدنا أنفسنا في هذيان وفقدان وعي ، تلك حالة شائعة في كل جبهات القتال ، عند المهمات المباغتة يبدأ المرء بتفقد أشيائه ، هي موجودة أمامه أو بين يديه ، لكنه يبحث عنها ، وعيه مسلوب وفكره مصادر ، وقلبه فاقد توازنه ، في الحرب يفقد البصر وظيفته ، يفقد المرء بصيرته ، ويخضع جسده بكامل إرادته لـ شيطان الفزع .

قبيل منتصف الليل .

بعدما فقدنا نصف إرادتنا وكامل شجاعتنا ، تحركنا نشق رفوف الظلام ، باتجاه نشرات ومضية تتناثر داخل أفق شاحب ، وقنابر تنوير تسبح قبل أن تأفل ، داخل كتل حديدية مزمجرة ، نجلس لا نعرف شيئاً سوى أننا أحياء داخل قبور متحركة ، لا شيء نملك سوى أسنان والتي بدأت تطحن كل شيء يمكن أن يسكت عصافير بطوننا التي ظلّت تزقزق من هاجس الخوف لا من دافع الجوع ، كانت الدبابات

تتوقف وتنطلق ، هي الأوامر التي تتشتت وتتفكك أوان المحن ، بسبب خوف الضبّاط على حيواتهم الغالية ، كونهم رؤوس الرماح المنطلقة ، يمكن للجندي أن يجد مخبئاً أو شقاً منفلتاً كي يتوارى من المجابهة ، لكن الضابط قائد ، شجاعته واقتحامه غابات المنايا يؤمن زخماً شرساً من قبل جنوده ، تلكؤه خيانة وطنية عقابها الرمي بالرصاص ، سبب آخر يتوالد مع بداية كل هجوم ، تتشابك النداءات اللاسلكية ، المعادية والوطنية ، كأنها تشارك المعسكرين رغبة سحق الآخر ، هذا الأمر المقلق يجبر القيادة على قطع الاتصالات الميدانية ، بغية تغيير التشفيرات أو الرموز المتفق عليها ، قد يستغرق هذا وقتاً طويلاً ، كون البدائل كلها تعدو مسروقة أو لا تؤمن اتصالات سليمة ، مع وجود أنفار التجسس في كل تجمع عسكري ، تتخبط حركة الأرتال وتتقاطع الأوامر وتغدو الوحدات الحربية مثل تماسيح جائعة داخل مستنقع مسيج بأسلاك كهربائية ، يمضي الوقت مهدوراً ، والعدو يسلك طريقه من غير عراقيل دفاعية ، أو وحدات شاغلة تمنعه حتى مجيء النهار ، كي تتم معالجة الهجوم بوسائل جوّية أو برّية ، وعند التعذر يتم اللجوء إلى الخيارات الأخيرة ، اللجوء إلى المحرمات الدولية ، تلك المبيدات الشاملة ، والتي تمتص من خلالها الحكومات الراديكالية ، خيرات البلدان المتعسكرة ، وفي ما بعد ترفعها رايات إدانة ضدها ، كلما شعرت أن موازين القوى بحاجة إلى تبديل أقنعة وسياسات .

بدأت أشعر برجات عنيفة ، عرفنا أن القذائف بدأت تتساقط من حولنا ، استلمنا أوامر الرمي ، لكن ليس بوسع جندي أو أي ضابط أن يطلب إيضاحاً أو تفسيراً لسؤال شبه غامض ، أين نرمي ومن؟ ، بدأت المدافع تزلزل والرشاشات تلعلع ، كان الهاجس هو تدمير الخوف

وتفكيك الليل وزخ الروع في جانب العدو ، أين تسقط قذائفنا تلك مسألة لم تعد شاغلة البال ، المهم يستمر الرمي حتى منبلج الفجر ، كون و(حدات الحرس الجمهوري) و(اللواء المدرع العاشر) في أتم الاستعداد لإنهاء المعركة وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه .

فجر الحرب بعيد .

الخوف يتخثر ، لم تعد الحياة ذات قيمة بعدما يتعب الجسد ، الكل يطلب الموت ، لا أحد يستطيع العيش في هذا الفساد البشري المتواصل ، حتى الكلاب يتجنب بعضها بعضاً عندما تلعب الصدف في جمعها حول مزبلة أو مكان جثة نافقة ، معاركها مجرد نباح عقيم ، لكن البشر ينبح عالياً عبر وسائل الإعلام والصحف ، كل جهة تبرز قوتها ودرجة إرادتها وإمكانيات النصر متاحة ، النباح الإعلامي لن ينفع في جعل الكثير من الحروب تخمد ، بل تتشابك الجيوش في رقصة غبية ، في هيجان الحيوانات المذعورة أمام الكواسر الصائلة ، جيش يضرب جيشاً بكل وحشية ، بكل الأسلحة الفتاكة ، بالمبيدات المحرمة ، أياماً وأشهراً وسنوات ، يفقد كل جهة أنفساً عزيزة ومالاً مهدوراً وتراجعاً حضارياً مهيناً ، وبعد سنوات من الحرب الطاحنة ، تجلس الأطراف ، بعدما أزاحت عقولها الحيوانية واستبدلتها بعقول بشرية ، تتناقش وتتنازل من أجل طي صفحة ماضٍ دموي وفتح صفحة بيضاء لتعايش سلمي طويل الأجل ، من قتلَ نسي ، ومن تعوق لا يملك حق النباح ، وكل تلك الاتفاقات سرعان ما تشرخ الجانبين ، وتجرهما لطاولات مستديرة ومستطيلة ومربعة ، كل طرف يطلب تعويضات عن خسائر أزمنة الغباء ، دائماً وأبداً أوطاننا هي الجهات المتهمة والبادئة بالظلم ، هي الجهة الدافعة للغريم .

مع بزوغ الفجر .

الجبهة خالدة لثقل محير ، لا شيء يلوح ، أين العدو؟دباباتنا متناعسة ، الجنود متهالكون من ثقل النعاس ، انهيار تام في العروق ، العيون تنقفل وتنفتح بتعذر ، لا رغبة لطحن الطعام ، انتظرنا ما هو قادم ، ليس هناك اتصال ، تراخينا تحت دباباتنا ، نتكلم بالعيون ، بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس وصلت مدرعة ، وزّعت علينا الفطور ، بيض مسلوق وشاي بارد وصمّون بائت ، كان يجب أن نلوك الطعام ، فالحرب غير أمينة ، والعدو يمتلك المكر وكل وسائل الخديعة ، مستمداً قوته من وجوده جواسيس يوجدون في مراكز حسّاسة ، ضمن أجهزة المخابرات السرية والاستخبارات العلنية .

قبل الظهر جاءت الأوامر .

علينا أن نتحرك نحو الحجابات ، على ما يبدو أن العدو اخترق الحجابات بقوة صغيرة تمكنت من التوغل والتمركز مابينها وبين الساتر الرئيس ، استولت على كل الأسلحة الموجودة فيه بعدما هرب الجنود بسبب انقطاع الاتصالات وجرح آمر الفوج ، مع اقترابنا شم العدو تحركنا وبدأ يرسل سيل قذائف ، كانت تسقط من حولنا ، واحدة منها زلزلت دبابتنا ، عرفنا أن السرفة أصابها العطل ، أبقونا من غير تحرك ، توقفت المدافع الثقيلة ، كان الغبار الجحيمي يغلف الفضاء ، وعند الأصيل سمعنا نداء عبر جهاز اللاسلكي ، تم إرسال مفرزة إلينا ، تعذر معالجة العطل ، سحبونا إلى الساتر ، وجدنا دبابتين محترقتين ، والساتر مغربلاً وأشياء كثيرة محترقة ومبعثرة ، ومع الغروب انتهت ثرثرة الهجوم الموسمي ، جلسنا في شق الساتر بعدما وجدنا الأوامر قاسية والبقاء داخل الدبابات أشبه بالوقوف عرايا في شوارع مكتظة بالعابرين ، كثر

الحديث وطال وعرفنا أن طاقمين من جنودنا من ضمنهم آمر الرعيل احترقوا بقذيفتي (RBG7) ، لم يدعنا التعب نسترد بعض مشاعرنا ونمنحهم بعض الحزن ، بعضنا نام متمدداً على التراب ، والبعض وجد فرصة مسامرة لإخماد ضجيج الواقعة ، قمت وتوجهت ببطء إلى خلف الساتر ، حاملاً إبريق ماء بعدما شعرت بالتواء في بطني ، كان ذلك بسبب كثرة لوكي الصمون اليابس والبائت ، مشيت خطوات قبل أن يتحرك شيء من أسفل قدمي ، انفلق وقذفني إلى الهواء ، هرع نحوي الجنود ، سحبوني ولفوا قدمي المبتورة بقميص ممزق ، كان لغماً أرضياً مزروعاً ، علمت في ما بعد أن العدو زرع تلك الألغام بعدما استولى على الساتر ، كوسيلة دفاعية مبسطة تعرقل صولة جنود مشاتنا قبل وصول تعزيزاتهم .

لغمٌ صغيرٌ ـ على ما يبدو ـ انتظرني ساعات قبل أن يأخذ مني هويتي البشرية .

***

عتبة الحكاية

بدأت الحكاية تلح .

أقضت مضجعي ، جرتني إلى ساعات تأمل ومحاورة الذات ، والضياع الذهني خلف قوالب فنيّة تغريني وتسحلني قبل أن تتركني في عماء ، أتقهقر لأخضع لسلطان قالب فني آخر يعلن جاهزيته لشراء أو دفن جثة بضاعتي ، مشلولاً أو مهووساً أتبعه رغم يقيني أن اللعبة شائعة ،لكنها نافعة ، كونها تفتح أمامي آفاقاً مترامية وتدفع في نهاية النفق الحكاية نحو ضفة الخلاص .

ما دونته في الدفتر الصغير ـ بانياً مجد حكايتي على كلام (وداد) أيام خطوبتنا ـ بدأت تتشظى عن أبعاد أخر ، تمنح دافع الكتابة ، تؤجج تفاصيل يمكن دسها ومن غير أن تحرف الثيمة الأساس ، أو إخراج النص من حقيقتها ، فكل حكاية لايتنفعها صدقها ما لم تدس فيها حفنة أكاذيب كونها الجوانب الحافلة بالإثارة ، تنسجم كمية الكذب مع كمية الكذب الموجودة في دخيلة كل إنسان ، نهضت روح المغامرة ، دفعتني أن أركب سفينة الموت ، إن جاز التعبير ، إن كتابة رواية تتطلب موت كاتبها واقعياً والانتقال للعيش في عالمه الافتراضي إلى أجل غير معلن ، يعود لحياته السابقة ، ما إن يتخلص من أعبائها .

بعدما تعطلت ملكة الحكي .

أضعت بعض أيامي بحثاً عن حكاية جديدة ، دخول(وداد)على

الخط ، وتذكيري بتفاصيل حيوية من حياتها ، وجدت إعادة تشريح الحكاية من قبلها لابد أن تؤجج تفاصيل منسية ، هذا الإحساس نتج من ومضة خاطفة ، فالحكاية المسموعة غالباً ما تلبس ثوباً إغرائياً لنثر عطر الدهشة ، الحكاية المكتوبة ، لوحة مرئية تستقطب العيون وتحرك المشاعر ، عندها تتشكل أسئلة الغرور ، عندما استحضرت تلك الجلسات معها ، وأنا أزيح مخاط السنوات توامضت بروق خفية ، عرفت أن الخجل منع (وداد) من قول كل الأشياء التي بانت من خلال عينيها ، كان يجب أن نعيد حواراتنا القديمة ، سلطة الحكاية ركبت عقلي ، لابد من شرارة كي تشتعل الأجواء وتظهر ملامح الجواهر المخبأة ، لم تمانع ، كانت متحمسة ، أعادت لي تفاصل كثيرة عن (صاحبي التعيس) ، كما رغبت أن تسميه ، كانت ترد على كل سؤال محرج بثقة وشجاعة ، ولم تخفِ عني مشهد ليلة كانت في غرفة الماء عندما شعرت أنها صارت بين أحضان خشنة ، تداركت نفسها وتحررت بعدما وجهت صفعة إلى الظلام ، شاءت الصدفة أن تكون صفعة موفقة ، لم يكن ظلاماً ، بل كان وجهاً متحمساً ، امتص الصفعة ونقل الصمت لحظتها كامل الصوت وبكل وضوح إلى حندس الليل .

***

«صاحبي لم يكن تعيساً كما تروين»

«تعاسته . . كان لا يحتمل إرادته»

«الذي أعرفه كان فتى مندفعاً لخدمة الحزب»

«في تلك الأيام تحول إلى وحش غير مفترس ، ووحش فقد شجاعته وراح يتوسل إلى ضحاياه أن تغدو قرابين أمامه»

«رغم قصر فترة تعارفنا ، وجدته مكتئباً ، لم أتمكن من الوصول إلى

أيّة معلومة تدلني على أسراره»

«من يراه يتوهم أنه هادئ الطباع ، ودود ، خضوع ، ربما وسائل مكيدة ، أو فطنة مفترس عتيد»

«تحدث مرة وتردد مرة حول قصة حب ، ربما كان حباً مؤثراً جعله منطوياً بقية حياته»

«ربما أراد أن يخفي عنك جملة حقائق ، كون زميلاتي معروفات وسقطن في حبائله»

« لولا إصابتي وبتر قدمي لربما كانت لدي الآن حكاية مسرودة بلسانين»

«يمكنك أن تستند إلى أقوالي ويمكنك أن تضيف ألاعيبك وحيلك وتختلق أكاذيب تدفع الحكاية»

«لا أستطيع أن أضع الحلول لأسئلة لم تثر ، إن ما أفكر به ، هو الوصول إلى قصدية الحكاية ، ليس من المستحسن أن نحكي حكايات من غير دوافع ، لم تعد حكايات التسلية تحظى باهتمام الناس ، صارت الحكاية جزءاً حيوياً من حياة البشر ، صارت الحكاية سياسة مطلوبة لشرائح بشرية لا تفهم السياسة ، صارت تأريخاً ناطقاً بخفايا الأمور ، وعدسات تقتنص ممنوعات الظواهر ، صارت دواء لعلاج أمراض هذا الزمن الغادر»

صمت .

توقف الحكي .

قامت (وداد) وخرجت ، بقيت أتأمل سقف الغرفة ، في محاولة تجميع الفواصل المتعلقة بصاحبي ، استذكرت أيامه القديمة ، عندما كان يتقدم مواكب المسيرات الداعمة لسياسة الحكومة ، كان يرفع العلم

وأحياناً يرفع صورة (التعيس) عفواً (الرئيس) كانت العيون تمطره بكثير من الغايات ، عيون فتيات تتشبع بوسامته ، وعيون شباب من أصحاب الأفكار الاشتراكية تنظر إليه ، كلب يطرد المناوئين بنباحه ، وعيون أزلام الحكومة تنتشي لوجود جيل شاب سيتحمل مسؤولياته الوطنية الكبرى والصغرى .

عادت إلى ذاكرتي ، تلك الاحتفالات الشعبية والتي بدأت تتوسع ، تم بناء مسارح لها ، في كل شهر وفي ما بعد كل أسبوع يتم حشد الناس في أماكن مهيأة ، يتم فيها إشاعة الطرب واللهو ، يؤتى بمطربين ومطربات وراقصات شرقيات شبه عاريات يعلمون الناس فن العيش الجديد ، كان صاحبي الفتى مدلل الحزب ، يصعد على المسارح ليقدم فقرات الحفل ، عريفاً محسوداً .

لم يحصل أن أشيعت عنه حكايات غرام رغم وجود سيول المشاعر العاطفية من حوله .

كيف قفز ليتبوأ شمعة حكاية مرفوضة اجتماعياً ، بسبب وحل لا أخلاقيتها ، كيف تحول القطب النافر في كتلة مغناطيس إلى القطب الجاذب؟لابد من فواصل إقناع كي تكون الحكاية مقبولة ، مضموناً وسرداً .

صاحبي ، رغم كونه ابن بلدتي (جلبلاء) لم يحصل أن التقينا في جلسة طارئة ، أو في حوار عابر ، كان بيتهم في سوق البلدة ، بيوت يقطنها الناس المترفهون نوعاً ما ، كونهم كانوا يمتلكون المحال التجارية ويمتلكون وظائف حكومية في دائرة السكك أو في دائرة البريد والاتصالات ، وكنّا نسكن (قرية جار الله) ، حفنة مساكن طينية ، تتخوصر حول مرتفع أرضي يطل على واد مجنون ، كل شتاء يتحول إلى

ممر لسيول غاضبة تدفعها الجبال والمنحدرات الخانقة للبلدة في قسميها الشرقي والشمالي ، عندما ترسل الغيوم مدرار المطر كل شتاء خصب .

لم نجد دوافع ملهمة فينا كي نذهب ونحضر داخل سوق البلدة ، ليس لدينا نقود كي نذهب لشراء الأشياء ، كنّا نخضع لتحذيرات الأبوين ولا نبارح منطقة السكن إلاّ برفقتهم .

***

بعدما استعرت نار الحرب .

تم سوقنا إلى معسكر (المنصورية) ومن هناك إلى (مركز تدريب الدروع) ، تخرجت وبعد الإجازة جاءت الأوامر بنقلنا إلى جبهات القتال لتعويض الخسائر المتواصلة .

في (شرق البصرة) ، تم تنسيبي إلى السريّة الثانية ضمن (اللواء المدرع ٥٤ كتيبة دبابات الصديق) ، بعد مرور أربعة أسابيع تم منحنا إجازة على أن نلتحق بوحدتنا في حال تعرض قاطعنا إلى أي هجوم ، في اليوم الثالث من إجازتنا تصاعدت صيحات المذيع وتعالت أهازيج المطبلين والمعربدين ، وقذفت مكبرات الصوت فوق مبنى الحزب وهي تزف بشائر النصر المؤزر إلى الناس ، غادرت المنزل وفي كراج النهضة وجدته يقف .

«هل أنت من جلبلاء؟»باغتني .

«من قرية جار الله» . . أجبته .

فرح بي وفرحت به ، قبل أن ننطلق معاً ، كانت المصادفة أنه منسوب للكتيبة نفسها ولكنه مخابر ضمن السريّة الأولى .

تلك هي كل ما أملك من تفاصيل لا تشكل جوهر الحكاية ، ما لدي من حوارات تشير إلى أنه كائن فوق العادة ، خاض تجارب

جسدية لا معقولة ، شيء أثار اهتمامي ، كان متحمساً ، كثير الحركة ، ها إنني إزاء شاب منغلق ، يميل إلى الصمت ، حتى نظراته شبه جامدة ، لم أجد سؤالاً يدفعني لشرح القضية ، كل إنسان يمر بمراحل الحياة ، من العبثية إلى العقلانية ، لابد من أنَّ العمر يمتلك خصلة أو الأوامر القطعية لتحديث التبدلات الجوهرية في الصفات والرغبات .

***

عادت (وداد) تحمل قدح شاي ، بدأت تذيب السكر ، وجدتها تنظر بشيء من الغرابة إليّ ، بقيت ناحتاً عينيّ فيها ، رفعت قدح الشاي . . قالت :

«بلا قهوة»

«آه . . تذكرت ، نسيت أن أجلب القهوة يوم أمس»

«أشربها من غير قهوة هذه المرة»

بدأت أرتشف الشاي . . قلت :

«ما الذي يشعل ثغرك بهذا الألق»

«ثمة تفاصيل جديدة ، لا أعرف سبباً لعدم ذكرها»

«أرجو أن لا تتعلق بك»

«قد تكون من مفاجآت الحكاية»

«لنسمعها أولاً قبل البت بالحكم مسبقاً ، هناك تفاصيل كثيرة قد تخرج من الحكاية ، وقد تدخل عليها تفاصيل ملفقة كونها تعطيها الشحنات الثورية»

«كانت لدينا مستخدمة ، سقطت في مستنقعه ، حكت لي كل التفاصيل وبمتعة»

«حقاً هذا شطر لا يمكن التغاضي عنه ، كيف غاب عن بالي هذا

الفاصل الحيوي ، ففي كل مدرسة لابد من حارس ومستخدم أو مستخدمة»

«لم يكن لدينا حارسٌ ، فقط ـ أم عليوي ـ مستخدمة في الستين من عمرها ، كانت أرملة ، حاولت كثيراً معي ـ بناء على رغبته ـ أن أكون حبيبته كما كان يتوسل لها ، صمدت وتحولت في ما بعد لأمٍ لي بعدما نالت استحقاقاتها العاطفية من بعد سنوات حرمان»

«منحتِ الحكاية بعداً كونياً ، الشهوة آفة عمياء ، عندما يفتقد الذكر إلى بركة راحته ، لابد من أقرب الواحات ـ مهما كان الماء ـ آسناً أو جارياً ـ تأتي سعادته ، إذا كان كلامك غير ملفق ، لابد أن صاحبنا وجد الرفيقات بساتين جافة ، ووجد بستان ـ أم عليوي ـ عامراً بالفواكه الناضجة ، أعتقد فهمت كلامي وما أعنيه»

«حسب ما قالت لي ، أن المصادفة هي التي أعادت لها الأنوثة النائمة ، كانت في غرفة الماء عندما شعرت بيدين تلقيان القبض عليها ، مثلما حصل معي ، لم تحرك ساكناً ، لم توجه صفعة كما فعلت ، بل مكنته من نفسها»

«قد أبدل حكايتك أو بعض فقراتها ، ربما الآن وجدت أن المستخدمة هي الشخصية المؤهلة لتقوم مقام العرابة أو ـ . . . . . . ـ لا أحبذ أن أقول الكلمة بصراحة ، هذا ممكن ، فمثل تلك النساء وبحكم طبيعة عملهن في هكذا وظائف مبتذلة غالباً ما يسقطن أو يغدون (كاسرات رقاب) إن جاز التعبير ، نعم هي من تقوم بمحاولات الإغواء وربط المصائر ما بين صاحبنا وبين الصويحبات»

«لا علم لي بهذه الأمور ، أنت كاتب حكايات ولديك ألاعيب فن الحكي»

«هذا أكثر منطقي ، كون هذا شائعاً ومعقولاً ومقبولاً ، لو جعلت

إحدى الرفيقات تقوم بهذا الفعل ، لجانبت الكثير من الأذواق ، ودفعتها أن تضع الحكاية في خانة اللامعقول»

«لكنها حقيقة»

«الحقائق لا تصلح أن تكون حكايات ، الحقائق تجعل من أي عمل فني تأريخاً محضاً»

«ما قالته لي ، أنه دخلها مرتين»

«هذا الجانب سيتحكم به السرد ، وطبيعة الشخصية المحورية ، ربما ستغدو ملهمة قسراً ، مثلاً أنها تفرض عليه جباية أخلاقية ، كأن تطلب مقابل كل محاولة إغواء خلوة جسدية ، بالطبع الشخصية شابة ومتحمسة ، حتماً سيرضخ لمطاليبها ولو على مضض ، عندها تكون شخصية مركزية تقتسم كعكة الحكاية معه»

«بدأت عالياً تغرد وتخرج عن النص يا ملفق الحكايات»

«ليس ما سمعته سيكون حاضراً ، ربما عند الشروع بالكتابة أتجرجر إلى عالم آخر وشخصيات أخر وتفاصيل جديدة ، تلك هي أسرار الحكايات الخيالية ، الحكاية هي الخوض في متاهات أو السباحة في بحر مجهول القاع ، مجهول الكائنات»

«هذا لا يهمني ، المهم أنك تواصل الكتابة ، أن تحكي للناس حكايات جرت بينهم»

«ذلك هو منهجي ، أن أتحسس الوقائع المنسية والمخفية والتي أحرقت الكثير من حياة المجتمع في زمن الغبار ، آن أن أتحرك وأبحث عن أبطالنا المنسيين»

«لا تتحرك؟ما حكيته لك يكفي ، عندما تتعقد الأمور يمكنني أن أسعفك»

«لكنني أبحث عن إطار جديد ، أبحث عن شكلٍ لائق ، لا أريد أن أكرر نفسي ضمن أطر بالية»

«حكاياتك السابقة كانت مقبولة من أهل النقد»

«إن ما يشغلني هو تركيب الحكايات ، أي أن أجرجر القارئ وأضعه بين حكايتين ، أريده أن يعيش معي ، أن يشعر بالجهد المبذول ، أريده أن يستمتع وهو يلاحق الأحداث ، لا أن يقرأ حكاية من غير تحريك المخ أو المشاركة في طرح الحلول»

«وهل في يومنا هذا ، يمكننا أن نصرف أوقاتنا جرياً وراء ألغاز وحيل كتّاب الحكايات؟»

«ليس غايتي اللعب على ذهن القارئ ، الحكاية الحديثة تتطلب شكلاً يعطي فاصل المتعة بطريقة مغايرة لما كانت ، يمكننا أن نخرج سطوة الكاتب من حركة الشخصيات والتدخل السافر في شؤونهم ، يمكننا أن نوفر المناخ الملائم كي يقول ما عنده ، كي لا يحمِّل الشخوص أفكاره ، هذا الشكل الجديد يضمن للكاتب حرية طرح بضاعته ، وترك الحكاية تأخذ مجراها الفني المعقول جنباً إلى جنب الحكاية المركزية»

«أرجو أن لا يستغرق هذا كثيراً ، بدأت أتشوق لحكاية كنت الشاهدة الوحيدة فيها»

«ما وضعته في بالي ، قد يستغرق وقتاً ، أنت جزء من الحكاية ، وأنا جزء ، ولابد من الجزء الأهم ، صاحبنا ، لابد من معرفة مصيره ، لقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على تعارفنا البسيط ، أين يمكن أن أجده؟ ، ربما هناك رغبة تتزاحم فيّ لرؤيته إن كان حياً ، في فترة الحرب سقط الكثير من القتلى والكثير من المعوقين والمفقودين والأسرى ، لكنني لم أسمع باسمه من بينهم ، لابد أنه تخلص من الموت ، وهو

موجود في مكان ما ، ربما سأبحث عن فرضيات كثيرة ، لابد من وضع حياة ما بعد الحرب له كي تكتمل الحكاية»

«هب أنك وجدته ، هل يغير شيئاً أو يضيف للحكاية ملحاً؟»

«لو وجدته لربما سأحصل على تفاصيل جديدة قد تخدم الحكاية»

«وقد لا تهتدي إليه»

«هذا محط اهتمامي ، أفكر بعدة فرضيات ، بعدة نهايات ، فجوهر القضية عندك ، وخيالي متحفز لتلفيق الكثير من المشاهد المنحرفة والتي لا تدور خارج فلك الحكاية»

«ومتى تبدأ؟»

«عندما أشتري القهوة ، من غير فناجين قهوة معمولة بيديك الناعمتين ، لن أستطيع المضي قدماً»

«حسناً . . حان وقت النوم ، ووراءنا دردشات ما قبل النوم»

«آه . . إنها حكايتنا التي بدأت ولن تنتهي»

تناولت عكازي ، أسندتني ومضينا إلى الفراش .

باب الحكاية

طبيعة الحكي عندي تختلف عمّا هو شائع ومعمول به ، لكل راوي حكايات منهج وطقوس ، قد تتشابه الكثير من هذه التعازيم الجنونية بين الحكواتيين ، لكن ثمت فلتات نادرة توجد عند معظم الكتّاب ، حتى إن البعض يسميهم بالمنحرفين ، قول ناجم من أن أغلب الكتّاب يمارسون حياة الهامشية والصعلكة ، يخالفون الأذواق بتصرفاتهم وانغماسهم بالسباحة داخل مستنقع الشهوات والعربدة ، هذا النشاط (المفيستوفيليسي) جعلهم كائنات منبوذة من الحكومات عبر كل الأحقاب .

لكن ما درجت تحت لوائه ، هو أنني كاتب مزاجي ، لم أشعر بدافع أو برغبة وضع أساس رصين يمكنني أن أنطلق منه ، كانت الحكايات دائماً تهجم وتصيبني بأرق المغامرة ، لم يحصل أن دوّنت أو أرشفت تفاصيل وحلول لحكاية قبل الخوض في متاهاتها ، كنت دائماً أجد العنوان هو الحكاية ، جرس الذهن يقرع بعنوان طائش سريعاً ما أجده حقيبة مغلقة ، تندفع رغبتي لفك الطلاسم وفتح القفل لأغطس في بحر العذاب .

العنوان هو الحكاية .

العنوان المصباح الذي يدفع سفن المغامرين نحو متاهاتها الآمنة .

من العنوان يمكنني أن أرى المسالك ، السليمة منها والوعرة ، ماذا يعني لو وضعنا كلمة (قلب امرأة) بين قوسين ، لابد وكما هو شائع

وملمــوس لـدى القــاصي والداني ، لـدى كل ذكــر وأنثى ، أن القلب مستودع الحياة ، فيها أسرار وعلنيات ، يمكننا أن نحشد كل شيء ، سواء عاطفيات أو كيديات داخل هذا (قلب امرأة) المحاصر بين قوسين ، هكذا تفعل كل العناوين التي تتصدر متن الحكايات .

فاكهة الشتاء النار ، فاكهة الجسد الطعام ، حسناً وجدت النساء فواكه القلب .

جفوتي بعد حكايتي الأخيرة ، مالت حيث يسبح الآخرون ، لم يتوقد ذهني سريعاً ، وجدت نفسي داخل غابة من غير دليل أو خريطة إرشاد ، لابد أن أفقد الكثير من قدراتي الذهنية ، والكثير من زيت شعلة موهبتي بغية إيجاد مسلك أبحر فيه ، مع وضع الشك مصباحاً مناراً ، لأن المسالك غير المسلوكة دائماً تقود نحو المتاهات ، متاهات غير مأهولة بطبيعة الحال .

تدخل (وداد) كان السراج الوهاج لي ، انتشلتني ووضعتني داخل فخ جديد ، هذا التغير الجوهري جعلني أتلمس دربي بحساسية مفرطة وهلع متفاقم ، كون الحكاية الماثلة بين يدي ، تتطلب منهجية سردية مختلفة ، وقالباً فنياً لم أجربه أو لم أسمع أن جربه حاكي حكايات أو ناقلها أو سارقها من قبل .

بدأت الحكاية تضغط وتغري وتغوي .

تتوالد الأسئلة وتدفعني أن أبحث عن ممكنات الحلول ، فالدفتر الصغير وبعد عدة جلسات جديدة وحكايات متفرعة غرقت داخل ضجيج يضج من منافذ مجهولة .

صاحبي ، لم أنتزع منه في تلك الرحلة القديمة سوى جملة حوارات دلّت على شخصيته المتحركة ، هذا التبدل يدخل الحكاية

داخل معضلة (الفصامية) مما يدفعني إلى اللجوء إلى مصادر طبيّة لدس فقرات علميّة تثبت أقوالي ، كل قول لابد أن يكون (الفصل) ، ليست الحكايات حشد تهريجات كلماتية وقذف أمراض النفس والرؤى الطوباوية على سطوح الورق ، الحكاية خطاب جوهري ما بين رائي المتمثل بالراوي وبين المتلقي ، فالراوي يمتلك الكثير من العيون المخفية ، إنها تطارد حركة الحياة ، تقتنص وتطرح البضاعات كونها مطلباً عقلياً ومحركات دافعة لديمومة الحياة .

أوّل المغامرة دوّنت ما قالته لي (وداد) ، دوّنت ما جرى بيني وبين صاحبي عرّاب الحكاية في تلك الأيام ، عندما جمعتنا الحرب جنديين في وحدة عسكرية ، رغم أن لغماً أرضياً كان بالمرصاد ، انفلق وعزلنا إلى هذه اللحظة ، لم أجد رغبة أو دافعاً يهيج ذهني للبحث عن واحدة أو أكثر من الرفيقات ، يمكنهن أن يقدمن معروفاً سردياً تكحل الحكاية وتدفعها إلى ضفة اليقين ، هذا الشطر غير وارد ، كون نسائنا باقات أسرار .

كان التأمل وفراغ الليل والدفتر الصغير وحوارات الفراش تزيد من ضياعي ، حتى طبيعة قراءتي تغيرت ، بت لا أمتلك الرغبة الكاملة لإنهاء كتاب ، أتصفح وأقرأ صفحات قبل أن أجد القراءة كابوساً يخنقني ، أبدل الكتاب ثم الكتاب تلو الكتاب .

ما أيقظ فيّ الغيرة ، النار التي أعادت لمرجل الذهن إنارة الرحلة ، جاءت مصادفة ، بعد ستة أشهر من التقلب والتردد والإحباط والغرق التام وسط ركام التفاصيل الملفقة ، تناقلت الألسن خبر إطلاق سراح المعتقلين ، هذا الخبر جاء بعد خبر أدخل بيوت (جلبلاء) في رعب مستطير .

الخبر الأوّل يوم تناقلته الألسن ، أن قوّات مجهولة ، تأتي منتصف الليل ، لا تطرق الأبواب ، يتم تحطيمها بواسطة عبوات لاصقة ليست

شديدة التأثير ، بل ضيقة الخسائر ، مهمتها كسر أقفال الأبواب ، لتندفع أمواج بشرية كاسحة ومدججة بكل أنواع الأسلحة الغريبة ، تركل الأقدام أبواب الغرف لتنهال على الرجال النائمين ، تحت هلع أطفالهم وهذيانات نسائهم ، تصفع الأيدي وتركل الأقدام تلك الأجساد الخائرة ، قبل عصب عيونهم و(كلبجة) أيديهم وأقدامهم ودسهم داخل مركبات شبحية لتنطلق بهم نحو المجاهيل ، ذلك النشاط الشبه ليلي دفع الناس أن تغادر البلدة لتسكن في أمكنة مجهولة خشية السقوط في شباك الوشاة ، المخبرين السريّين ، الذين تحولوا إلى جنود الشيطان بعدما فلتت ضمائرهم من واجباتهم الأخلاقية والوطنية ، ولوثوا مهنتهم المخابراتية إلى وسيلة انتقام ومقامرة ، أغرقت البلاد في فوضى مشاكل مما أنهض القلاقل والدعوات لإخراج الناس من سباتها والدخول إلى نيران الطائفية والعرقية والبضاعات الشوفينية الخائسة .

ها هم بعد عام ونصف يتم تحريرهم أبرياء .

عادت البلدة إلى الحديث المتشعب حولهم ، كانت الشائعات تنحصر حولهم ، كونهم كانوا أصحاب مراكز متقدمة في الحزب المخلوع ، وأنهم يتواصلون سراً للملمة أشلائهم المبعثرة وإمكانية قيام ثورة شعبية عارمة تعيدهم للسيادة بعدما لاح في الأفق خبر خروج المحتل ، هذا الخبر كان أكثر عقلانية كونه مسنوداً من قبل فضائيات خارجية تعلن أنها غير معنية أو مغرضة ، قنوات تصرخ بجهر القول ليل نهار أنها غير منحازة ، الحيادية منهجها ، لكنها دائما تسكب الزيت على النيران ، من باب حرية التعبير ، تسمح للحقائق أن تطفو على سطح الأخبار ، وأن من حق كل مواطن في هذا الزمن ، أن يعرف كل شيء عن أحداث الساعة ، كون الإنسان ميلاً متأرجحاً من أميال الزمن .

أحد المعتقلين كانت لي معه صلة علاقة قديمة ، أيام صعود الحزب وهيمنته على كل مرافق الحياة ، حاول كسبي ، رغم أن الرفاق كانوا سيوفاً بتارة ، من لا يرضخ لدعوته يقيده في خانة المناوئين للحزب والثورة ، وبعد تقريرين وربما تقرير واحد يكفي لاعتقاله من قبل أمن البلدة وبعد فلقة محترمة يخضع مستسلماً ليكون حزبياً مثابراً .

هذا الرفيق كان يختلف عن رفاقه ، سبب اختلافه يرجع لثقافته ، كان قارئاً نهماً ، يقرأ أكثر من عشر ساعات في اليوم ، يذهب إلى كل مكتبة أو إلى العاصمة لشراء الإصدارات الجديدة ، هذه الثقافة أنامت فيه جرثومة العنف وأنهضت فيه عنادل الحياة الحالمة ، كانت محاولاته ثقافية نوعاً ما ، بعدما عرف ميولي الأدبية وكتابتي الشعر ، كلما كان يأتيني يترك أوامر الحزب جانباً ، ويؤيد المقولة التي صارت تتسكع في الشوارع وعلى الجدران وأمام أبواب الدوائر الرسمية ، (المواطن الجيد هو البعثي الجيد) ، أو(سائر مع خط الثورة) كان يرى فيّ مواطناً صالحاً ، حتى لو كنت خارج الاجتماعات الحزبية ، كان يفتتح جلساته معي بالحديث عن الصفحات الثقافية في الصحف اليومية ، نخوض في متاهات الثقافة التي نملك ، نتحدث عن عناوين الكتب ونشرح مضامينها المغلقة بتأويلاتنا الفقيرة وثقافتنا المتواضعة .

كان لابد من زيارته ، حراك اجتماعي كجزء من أخلاقياتنا المتبقية .

بعد صلاة العصر استأذنت من (وداد) :

«صباح . . أطلق سراحه»

«فرحت بخروجه ، إنه إنسان معتدل وصاحب كلمة»

«كانت مشكلته الوحيدة وجوده ضمن أصحاب المناصب»

«لا أجد مبرراً يدينهم ، كانت رقاب البلاد كلها خاضعة تحت سكين الشوفينية»

«مشكلتنا الجديدة ، لا يوجد من يفهم الحياة ، ليس لدينا من يمتلك ميزان العقل ليوزن بها الأمور ، ويعالج مسبباتها ، نحتاج لمن يمتلك الشجاعة الكاملة لفتح أبواب المستقبل وردم الأنفاق القديمة»

«ما لم نتعاون ستواصل سفينتنا الغرق»

«سيستغرق هذا أجيالاً وأجيالا»

صمت .

تناولت عكازي وخرجت ، وجدت المساحة المسطحة أمام منزله غاصة بالمركبات ، ما إن رآني نهض واستقبلني بحرارة ، أجلسني لصقه ، كثر من الوجوه كانت معروفة لدي ، بعد جملة تراحيب والسؤال عن الصحة والأحوال . . قال (صباح) وعلى ما يبدو قبل مجيئي كان يتحدث عن قصته داخل المعتقل قبل أن يبتدرني بالعناق :

«كدنا أن نضيع بلا سبب»

قلت :

«الباطل سراب ، حبل واهن ، عندما تشعر أنك على حق ، لابد من أنَّ ساعة العسرة تهيء لك مفتاح الفرج ، حمداً لله على سلامتك أخي العزيز أبو الـ نور»

«آه يا بدر . . لكم كنت مشتاقاً للقراءة ، رغم فوضى المعتقل ، رغم الأجساد المتكدسة ، والتي لم تعرف لم هي موجودة في هذه العنابر العفنة ، وجدت دافع القراءة يلح»

«ولا يهمك ، يمكنك أن تتزود من مكتبتي بما ترغب ، لدي كل

الإصدارات الحديثة والتي بدأت تمطر ـ بعد سنوات كساد ـ على شوارع عاصمتنا الحبيبة ـ بغداد ـ »

«سأقضي بقية حياتي القادمة في قراءة كل الكتب الجديدة»

تدخل أحد الحضور :

«أستاذ صباح . . ما أخبار الزملاء»

«مررنا بمواقف محرجة ، أكثر الحالات التي شغلتنا هو مرض الزميلين ـ حبيب وإسماعيل ـ كادا أن يموتا ، بقيا لأيام طويلة داخل صالة طوارئ في إحدى المستشفيات وتحت حراسة محكمة»

كلمة (حبيب) مثل مطرقة هوت على رأسي . . قال أحدهم :

«على ما يبدو الرحمة انتهت ، حتى الأمراض المستديمة لا تنفع ولا تشفع للمبتلين بها هذه الأيّام»

قال (صباح) :

«لا أتمنى أن تمروا بما مررنا به ، هذا زمان العجب»

بعد نصف ساعة تقريباً نهضت ، مشى معي إلى الباب الخارجي . . قال :

«تمنيت أن نجلس وقتاً طويلاً ، أريد معرفة أخبارك الثقافية»

«عن قريب سأزورك ، ربما هناك أشياء كثيرة تشغلني ، لمست مفتاحاً لها ، إنك تمتلك هذا المفتاح المفقود»

«أكون شاكراً لو طلبت مني أية معلومة أو حكاية حول ما كان يدور في المعتقل»

«دعني أراجع نفسي ، سأكون عندك عندما أكون جاهزاً»

تعانقنا وتفارقنا .

لم يكن (صباح) بمنأى عني ، كنّا نترافق أحياناً أو نتقاطع في

السوق ، أو في الطريق ، نقف لدقائق ، أحدثه عن مشاريعي الكتابية ويتلهف لقراءتها ، قرأ لي عدة مخطوطات قبل طباعتها ، سرد لي وقائع حياتية قديمة ، وحوادث عاشها ، كونه هاوي صيد ، معظم لياليه صرفها داخل غابات الظلام بحثاً عن الأرانب ، كونها الطعام المفضل لديه ، أفادتني حكاياته الشخصية في كتابة بعض القصص القصيرة وفصول حافلة بالغرائبية من حكاياتي ، وصلت البيت ، كانت (وداد) جالسة في أرجوحة الحديقة . . قالت :

«زيارة سريعة»

«ليس هذا المهم ، بل مفتاح القفل الذي كنت بحاجة إليه وجدته»

«كثرت مفاتيح الأقفال لديك ، أخشى أنك سترميها سريعاً ، كونها لا تفتح لك باب الحكاية»

«بل هو مفتاح أبواب الحكاية كلها»

«وهل أدخلت ـ صباح ـ ضمن مشروعك الجديد»

«ليس هو بالضبط ، بل صاحبنا ـ حبيب ـ »

«حبيب!»

«تكلم ـ صباح ـ عن المعتقل ومر اسمه على لسانه»

«ربما هناك ألف ـ حبيب ـ في المعتقلات»

«لم يمر ببلدتنا سوى ـ حبيب ـ واحد تبوأ منصباً حزبياً مهماً»

«إن كان هو وما هي خطوتك التالية؟»

«اتفقنا على جلسة قادمة ، سأطرح عليه الكثير من الأسئلة»

«لو كان هو ، لا عذر لك بعد ذلك ، عليك أن تبدأ بـ حكي حكايتك»

«ربما سيدفعني نحو مغامرة جديدة»

«ستضيع نفسك في متاهات ، أرى تمسكك بأسلوبك المعهود في الحكي ينقذك من هذا التردد»

«التجديد هو مطلبي»

«وهل يفلح التجديد في إحداث تغير جوهري في الحياة؟»

«ما حكوه لنا كان خاضعاً لقوالب جاهزة أو بالية لذلك مضت إلى النسيان»

«ولكن التجديد يتطلب عقولاً متجددة»

«بالفعل ، أرى أن أوان التجديد قد جاء كون العقل اليوم بات فارغاً أو حائراً ، إنه يبحث عن وسيلة خلاص»

«حسناً . . وما هي خطوتك الأخيرة كي تحكي؟»

«ربما سأزور ـ حبيب ـ لو عرفت محل سكناه»

«قد لا أوافقك على هذا ، لا تتصل بكائن خرج من ثوبه وكاد أن يقذفني في الجحيم»

«كل شيء من أجل الحكاية»

«ماذا لو عرف أنك زوجي ، أو أنني زوجتك»

«سأكون حذراً في هذا الجانب ، من أجل أن يحكي لي بصدق»

«آه . . كنت السبب في هذه المعمعة التي سلبتك عقلك»

«تعقيد الأمور شرارة المغامرة ، أشعر أنها بدأت تكتمل»

«لو عرف بنا ربما لن يفوه بشيء ذي أهمية»

«سأسعى كي لا يعرف عنّا شيئاً»

صمت .

بدأ الغروب يستفز بقايا النهار ، قمنا ودخلنا البيت .

نافذة الحكاية

كان بمفرده .

جالساً على كرسي بلاستيكي ، نهض وأجلسني قبل أن يدخل البيت ويأتي بكرسي ويجلس قبالتي ، على وجهه بانت آثار السجن ، تلك السمرة الخفيفة التي كان يتصف بها ، استحالت إلى قهوة سادة ، بدا أكبر من عمره . . قال :

«رغم أنني لا أتمنى لعدوي أن يمر بما مررنا به ، لكن كنت أتمنى أن تستطلع أحوالنا كي تكتب عنّا»

«عشت فترة في معتقل ، معتقلات اليوم قاسية ، سابقاً كان من الممكن أن تصل إلى أي معتقل بيسر ، يمكنك أن ترشو السجانين ، حتى المدير ، أمّا اليوم من يعتقل يضيع خبره لسنوات»

«لم تنفعنا أعمارنا ولا أمراضنا المزمنة ، كل معتقل مجرم وإن لم تكن ضده تهمة»

«يوم اعتقالك دمعت عيون ـ جلبلاء ـ كلها»

«هذه مشاعر نبيلة من إنسان أنا فخور كوني عايشته»

«إن ما شغلني هو ، أخبار الرفيق ـ حبيب ـ»

«كاد أن يلفظ روحه لولا إسعافه والبقاء لفترة طويلة في ردهة الطوارئ»

«لا أكتم عنك الحقيقة ، تشغلني حكاية ـ حبيب ـ العمود الفقري فيها»

«لدي الكثير من تفاصيل حياته ، يمكنني أن أسرده لك بكل مصداقية»

«قد لا تكفي حكاياتك عنه لتكملة مشروعي»

«ما أعرفه من تفاصيل عنه ، فوق احتمال رواية»

«ما عندك من كلام يفيدني ، ولكن رؤيته باتت شرارة حكايتي»

«حبيب ـ عشت معه ليالي طويلة ، بعد تهجير القرى ورجوعه إلى البلدة»

«إن ما يهمني تلك الفترة التي عاشها قبل تهجير القرى»

«في المعتقل حكى لي أسراره ، قالها بندم ، كان يتكلم وما بين حكاية وحكاية كانت عيناه تغرورقان بالدموع ، كان نادماً على ما فعل»

«وددت أن أسمع سيرة حياته من لسانه»

«يمكننا أن نزوره»

«من أجل هذا جئتك»

«أي وقت ترغب ، أخبرني كي نزوره»

«في أقرب فرصة»

«غداً في الصباح»

«اتفقنا»

***

(صباح) سرد لي تفاصيل اعتقاله ، كان غارقاً في نومه ، بعد وجبة متاعب صحية جراء تهيج مثانته بأكداس حصا وصلبان رملية ،

تمكن من النوم أخيراً بعد جرعات من المهدآت ، وشرب حساء أرنب كما وصفوه له .

***

«كنت كالحالم ، كابوس ثقيل جثم على صدري ، كنت أتقلب في الفراش ، أكافح للتخلص من شرنقة أذرع تلتف حولي وتخنقني ، قبل أن تند مني صرخة ، فتحت عيني وجدت رجال غرباء متعسكرين من أخمص أقدامهم حتى رؤوسهم ، جلست أنظر إليهم ، لم يمهلوني فرصة كلام أو سؤال ، كمموا فمي وعصبوا عيني وشدّوا وثاق يدي وجرجروني ورفعوني ووضعوني في مركبة انطلقت بنا ، وجدت من غير اللائق أن أسأل ، أنت تعرفني وتعرف طباعي ، خلت القضية تتعلق بما جرى بيني وبين زوجتي السابقة ، بعدما افترقنا وحصلت بيننا مشادة بخصوص ملكية البيت ، كل توقعاتي كانت تصب في هذا الجانب ، انتظرت ساعة الوصول لمعرفة دواعي هذه الهمجية في ظل الديمقراطية ، واضعاً في بالي ما جرى لبعض الزملاء ، عندما أتت أرهط مسلحين ليلاً والبعض نهاراً ، قادوهم تحت ذرائع شتى ، بملابس وباجات حكومية ، بمركبات دفع رباعي ، لا يركبها إلاّ رجال يمتلكون امتيازات نادرة ، يقتلون ، يعتقلون ، كأن قانون الحكومة وضع لحمايتهم ، تلك الأرهط ، كانت تسرح وتمرح ، تثير الرعب ، يداهمون المنازل ، يحطمون الأبواب والنوافذ ، بطريقة بربرية ، مثل الدببة الجائعة ، أو مثل الفيلة الغاضبة ، يأخذون من يريدون ، وبعد يومين تكتشف البلدة أنهم قتلوا وأحرقت جثثهم ، دوائر الشرطة والجيش تنفي قيامها بأية اعتقالات ، فتسجل دعوات ـ حبر على ورق ـ ضد مجهولين يتنكرون بلباس الحكومة ، يمارسون القتل تحت أجندة أجنبية ، حضرني المشهد وخلت

قضية قتلي وحرقي لا مناص منها ، لكن ظنّي لم يكن في محله ، كدسونا في غرفة مستطيلة ، وجدت نفسي بين زملاء من البلدة ، لحظتها عرفنا أن القضية تتعلق بحياتنا السابقة ، بدأت فكرة تصفيتنا تتفاقم وفرص النجاة تتضاءل ، بقينا بين سجناء قذرين ، أرجو المعذرة ، إنهم ليسوا كما ذكرت ، إنهم أبرياء ، السجن قذرهم ، غيّر براءتهم إلى وحشية في المظهر والتصرفات ، من كافة شرائح المجتمع ، وسط فوضى حكايات يشيب لها الرأس ، إن أوّل سؤال واجهنا جميعاً جعلنا خائرين ، فقدنا روحنا وانتظرنا خاشعين ساعة شنقنا»

***

صمت .

«أصبحت حكايات ، المهم أنكم عدتم سالمين»

«ما زلت أشعر بالخوف ، في كل لحظة أتوقع أن رجالاً مسلحين سيقتحمون المنزل ويعتقلونني طالما الشائعة تروج لها الفضائيات وتتناقلها الألسن»

«كيف صدقوا مثل هذه المهاترات»

«قالوا إنكم أعدتم تنظيم صفوفكم ، وهيأتم أنفسكم للقيام بثورة مسلحة لاسترجاع السلطة بعدما أعلن المحتل أنهم مغادرون البلاد في الأشهر القليلة القادمة»

«عندما لا توجد تهمة أو دليل إدانة لابد أن المعتقل يجابه بهذه ـ الكليشة ـ الجاهزة»

«بقينا تحت الاستجواب ، طلبوا منّا أن نعترف بهذه التهمة مقابل إطلاق سراحنا بعد أن نوقع تعهدات نعلن فيها توبتنا وطلب الرحمة من الحكومة»

«هذه كمائن سياسية شيطانية»

«لو فعلنا ذلك لوجب علينا القصاص ، كما حصل مع الكثيرين ، جلبوا أسلحة وقنابل وأحزمة ناسفة وأوقفوهم بينها وتم التقاط الصور لهم ، مع تأكيد أنهم يعملون ضمن فرق إرهابية ، بناء على طلب المحققين ، كي يكون مبرراً لاعتقالهم ، تحصن موقع الحكومة أمام الرأي العام العالمي ، مقابل إطلاق سراحهم ، لكن الذي حدث أن كل من كذّب وحمّل وزره كذباً تلك التهم الجاهزة ، من أجل تمتين موقف الحكومة ، وجد نفسه مداناً بمواد قانونية ، تجرمه فحق عليه العقاب ، وتم شنقه»

صمت .

استغرق بنا الوقت ساعتين قبل أن أتركه على أمل أن نلتقي صباحاً .

***

كانت (وداد) متعبة ، غارقة في قيلولتها العصرية ، لم أرغب بإيقاظها ، توجهت نحو غرفتي ، سحبت مجموعة أوراق وبدأت أدوّن ما قاله لي زميلي (صباح) ، راجعت بعض الفقرات في الدفتر الصغير ، كانت الأفكار تغزوني وتقلقني ، وجدت أن ما حكاه لي يقترب كثيراً من حكايات (وداد) ولو أنه كان متحمساً في سرده ، كأنه كان هو من عاش تلك الوقائع العاطفية ، أو كان شاهداً عليها ، بينما (وداد) كانت تحكيها ببرود وبخوف واشمئزاز ، فطبيعة الحكي بهاتين الطريقتين لم تغيرا من جوهر الحكاية ، فالمسالك المختلفة دائماً تلتقي في الهدف ذاته .

هذا الانسجام والتوافق لم يوقدا شرارة الرغبة كي أحكي ، كان

(حبيب) درباً سالكة للوصول إلى جوهر معركتي ، أعدت كتابة الكثير من المقاطع ، تمكنت من إضافة فقرات أخرى توالدت في مملكة خيالي ، وقبيل الغروب ، تركت طاولتي وتوجهت لإيقاظ (وداد) ، نهضت ، بدت متناعسة ، ظلّت ترمقني بنظرات فهمتها . . همست :

«بدر . . مشتاقة إليك»

«شوقي أكثر»

«الليلة لي»

«حسناً . . سأترك الكتابة هذه الليلة من أجلك»

استقامت وفتحت ذراعيها ، دنوت وأحاطت عنقي بيديها وبدأت تمطرني بالقبلات . . قلت :

«لا تثيريني»

«لا أحتمل شوقك»

«دعيها لليل ، أريدها استثنائية»

«أريدها أكبر حكاية»

«كما ترغبين ، عندها أستطيع أن أنطلق لخوض حرب حكايتنا الورقية»

«من أجل هذا سعرت تنور عاطفتي كي أؤجج رغبتك الثورية في الحكي»

«هذا يعني أنك حقاً شريكتي في الحكي»

«وفي الفراش أنسيت هذا»

«والفراش أيضاً»

نافذة أخرى للحكاية

وجدناه داخل حديقة شبه يابسة ، كان ضئيلاً ، متناعساً ، حاول أن ينهض ، لكن (صباح) ابتدره ومنعه من التحرك ، عانقه وعانقته . . قال (صباح) :

«على ما يبدو إنَّ الحريّة أعادت لك بعض قواك المسلوبة»

«لا أريد أن أسمع هذه الكلمة السخيفة ، حريّة . . إنها العبودية ، الحريّة أكذوبة عالميّة»

«حقاً . . ألسنة الساسة جعلتها المفردة القذرة بعدما كانت عروس المفردات في كل لغات البشرية»

صمت .

نظر إلي ، أغمض عينيه وفتحهما ، عرفت أنه سقط في دائرة الشك ، كان السؤال في عينيه يتلاعب ، لم أرغب أن أعلن عن نفسي ، تركته يجتهد .

قال (صباح) :

«كيف حالك؟»

«كما تراني ، أقضي معظم وقتي هنا ، أشعر بحياة قاسية ، علل ما قبل الشيخوخة لا تتركني ، جاءت باكرة لتعطلني وتلقيني فزاعة ما عادت تخيف الطيور»

تدخلت في تلك اللحظة :

«أستاذ ـ حبيب ـ كيف حالك؟!»

رمقني بنظرة متعبة ، ظلّ ناحتاً عينيه فيّ . . قال :

«هل أنت من ـ جلبلاء؟»

«أباً عن جد!»

«لم أعرفك»

«بل تعرفني مثلما أعرفك»

«ذاكرتي متعبة وقواي العقلية مشتتة ، السكّر والضغط وتوقف كلية واحدة وتسارع ضربات القلب ومشكلات القولون والأمعاء والاثنا عشري ، وسوفان الرقبة ، كلها اجتمعت في جسدي في وقت مبكر»

«أنا بدر!»

«بدر . . يعني قمر»

تدخل (صباح) :

«بدر . . كاتب الحكايات»

تنفست الصعداء بعدما توقف عن الكلام ، خشيت أن يفوه بأكثر من ذلك ، ليعرج على من أكون وزوج من أكون . . قال :

«لو كنت معنا لكتبت حكايات مثيرة»

«من أجل هذا جئتك»

«يكفيك أستاذ ـ صباح ـ إنه يمتلك ذاكرة قويّة وهو قارئ فطن ونهم»

«إن ما يشغلني هو حكايتك»

«حكايتي أنا!»

«شاءت الصدفة أن ذاكرتي بدأت تلح على كتابة حكايات بلدتنا ، وجدتك أكثر الشخصيات استحقاقاً للتدوين»

«ربما ستغدو حكايتك دارجة لو حشرتني فيها»

«حسناً . . قبل أن نخوض متاهات الحكاية ، لابد لك أن تتذكرني جيداً»

«لست على ما يرام كي أدقق في ملفات الماضي ، كلها ركام فوضى ومكابدات»

«كي لا أتعبك ، أنا بدر ، أتتذكر تلك الليلة العصيبة»

«ليلة عصيبة!عشت مئات الليالي العصيبة»

«ليلة مشينا معاً نحو وحدتنا العسكرية في شرق البصرة»

حاول أن يفتح عينيه على سعتيهما ، كانت كرتا عينيه غائرتين ، لم يكن يتملك تلك الوسامة التي ظلّت محفورة في ذهني ، أين هي تلك الإشراقة التي كانت تشرق على المسارح وفي المسيرات الشعبية؟ ، حقاً إن الزمن ملعون ومجنون وسارق نظرات الوجوه . . تكلم :

«آه . . ما الذي أتى بك من الموت؟»

«لم أمت ، بترت قدمي»

«آه . . فلت من عشرات المعارك الشرسة ، ها أنت ما زلت تمتلك قواك العقلية والبدنية»

«يبدو أن الحزب أخذ كل عافيتكم»

«كنّا معتوهين»

«هذه حال الدنيا ، لا شيء يثبت ، كل محدث لا بد أن يذهب بشرٍ أحدث»

تدخل (صباح) :

«كيف تدير حياتك؟»

«الجيران يمدون يد العون لي»

«تم جلب خادمات بيوت ، يمكنك أن تطلب واحدة ـ تداريك ـ» . .
قال (صباح)
«فاتحت مكتباً ، سيزورني شخص ويرتب لي الأمور»
قلت :
«أستاذ حبيب ، إن ما أريده هو جواب لسؤالي القديم»
«لم أعد أتذكر سؤالك»
«يمكنني أن أطرحه بشكل آخر ، فالجواب هو صلب حكايتي»
«ذاكرتي متعبة ، ربما لا تسعفني على سرد ما جرى لنا من بعد إصابتك»
«ربما لن أحتاج لهذا»
قال (صباح) :
«أستاذ حبيب . . بدر . . يروم كتابة حكايتك ، يريد أن يصنع منك رواية»
«ومن أنا كي يكتبني رواية؟!»
«كل ما يبغيه ، ما يريده منك ، سماع ما حكيته لي من لسانك»
«حكيت لك ما حكيت ، يمكنك أن تحكي له كل ما حكيته لك»
«حكيته له مثلما حكيته لي ، لكن خياله لم يقر بما حكيت ، يريد سماعها منك»
«أشعر بوهن ، الكلام الكثير يضر بي»
قلت :
«ليس بالضرورة أن تحكيها دفعة واحدة ، يمكنني أن أزورك أو أبقى معك لفترة زمنية تكفيك أن تحكي حكايتك لي»
صمت .

قال (صباح) :

«يمكنني أن أعيدها لك وعند وجود ثغرات يمكننا أن نأتي إلى ـ حبيب ـ لكي يفسر لنا غوامض الأمور»

«يمكنني ذلك»قال (حبيب)

«حسناً . . أنا بحاجة إلى تجاربك العاطفية فقط» قلت .

«آه . . إنك تثير في دمامل الخبث» قال .

«عفواً . . لك الخيار أن تساندني أو تمتنع ، لكن ما أود حكايته قد يمسك في الكثير من التفاصيل» قلت .

«حسناً . . كانت لدي رغبة أن أكتب سيرة حياتي للخروج من هذه الشرنقة الحياتية ، وبدأت بذلك عندما كنت جندياً ، كتبت الكثير من الأوراق ، وبسبب التنقلات والمعارك لم أستطع تكملة سيرة حياتي» قال .

«لو عثرت على تلك الأوراق لربما جنبتك تعب الحكي»قلت .

«لازالت موجودة كما هي رغم مرور سنوات عليها»قال .

«حسناً . . يمكننا أن نعمل معاً لرواية الحكاية»قلت .

«لكنني لا أجيد فن الروي» قال .

«لا يهم ذلك ، ستكون شريكاً معي في سرد الحكاية ، فما أروم أن أحكيه ، سيخضع لقالب فني جديد يقبل إشراك جملة رواة ، وربما القرّاء أيضاً ، يتضافرون من أجل تكملة فقرات الحكاية معاً» قلت .

«حسناً . . أمهلني بعض الوقت ، وضعتني في مخاض ، سأراجع أوراقي ، ربما هناك أشياء لا تسرني أو يمكن إضافتها» قال .

«هذا ما لا يسرني ، أريد حكايتك كما ولدت ، لا أرغب أن تحرك الأشياء التي استقرت»قلت .

«حسناً . . » قال .

قال (صباح) :

«وما دوري أنا؟»

«أنت موجود في الحكاية»قلت .

فرح ، فرك يديه . . قال :

«كانت لدي أمنية أن أكتب حكاية لكنني عجزت»

«يمكنك أن تكتب حكايتك داخل المعتقل»قلت .

«إنها فكرة معقولة» قال (صباح)

نهض (حبيب) مستنداً إلى عكازه ، دخل البيت ، بقينا نتحاور عن جمالية القرية في هذا الزمن ، بعدما صعد الحزب واغتصب السلطة ، بدأت هجرة الفلاحين إلى المدن ، بحثاً عن عيشٍ أفضل ، لكن سنوات الحصار الكبير ، بدأت الناس تزرع أية رقعة أرضٍ من أجل العيش ، ها هم الآن بدأوا يهربون من ضجيج المدن ونتانتها ، شاع الفساد واختلط الحابل بالنابل ، فوجدت الناس الهروب إلى القرى خير منقذ ، فالعيش صار أفضل بسبب توفر المال ، ووصول الخدمات إلى كل القرى .

عاد (حبيب) يحمل طرداً عليه غبار ، جلس وفتح الطرد ، أخرج بضعة (كاسيتات أشرطة) ، وكدس أوراقاً مكتوبة بخط منمق . . قال :

«هذه الأوراق فيها كل ما تريد ، وهذه الأشرطة الممغنطة فيها حكايات صوتية ، يمكنك أن تكتبها»

«بدأت الشرارة تحرقني ، ربما سأنهض وأفر إلى البلدة لبدء حكايتي»قلت .

تدخل (صباح) :

«يجب أن تقرأ هذه الأوراق قبل الشروع بالحكي»

«حتماً سأقرؤها عدة مرات» قلت .

قال (حبيب) :

«مطلبي الوحيد عدم ذكر الأسماء الصريحة»

«هذا أوّل الشروط التي عاهدت أن لا أعمل بها» همست مع نفسي .

أعدت الأشرطة الممغنطة إلى المظروف ، وبعد حوارات جانبية تشعبت نحو حرب (إيران) و(حرب الخليج) و(سنوات الحصار) و(حرب السقوط) وما جرى من فوضى في حياتنا ، ودعناه على أمل أن نلتقي في مرات لاحقة لسد الثغرات التي تتوالد حتماً عند الكتابة ، لتكملة مشروعنا الروائي المشترك .

متاع الحكاية

هل بدأت حكايتي؟

أظنها لم تكتمل كي أكتبها ، قرأت أوراق (حبيب) ، وسمعت الأشرطة الممغنطة ، قبل أن أحوّل الحكي الملفوظ عبر ألسنة الفواكه إلى كلام مكتوب ، كانت الأوراق مشروع حكاية شبه كاملة ، لا مقتطعات من سيرة أدبية متعثرة كما قال ، وجدت من المناسب أن أترك ما كتبه (حبيب) كما هو ، دون المساس بقدسية رغبته في تدوين جزء حيوي من حياته السابقة ، سأتركها كما هي ، تأخذ حيزها ومكانتها ، ولكن ما فاجأني أنني وجدت باقة أوراق فيها مقاطع شعرية وخواطر ومذكرات ليست يومية ، بعد قرائتها عرفت أنها تعود إليه ، من خلال طبيعة رؤيته الكتابية وحلمه ومطاردته فتاة واحدة ظلّت تؤرقه وظلّ يبكيها أو يغنيها بصمت وعزلة ورغبة وأمل وذوبان .

كانت المشاعر بحاجة إلى القليل من التعديلات ليست جوهرية بقدر ما هي تشذيب الجوانب المترهلة والمكررة وتصحيحات قواعدية ، لم أتدخل فيها ، خشية أن تتبدل لهجته وتشوبها لهجة دخيلة ، مما يشكل طفرات ذوقية عند متلقيها ، بدأت أكتب وأمزق ، تراكمت الأوراق من حولي ، لم تسعفني (وداد) بكنس الغبار المتراكم ، لتحديد مسار يقودني نحو بر الحكاية بعد التخلص منها .

***

جاءت الشعلة بعد ستة أشهر من زيارتي الوحيدة إلى قرية (تل الجن) والتي تبعد عن بلدتي (جلبلاء) بنحو ثلثي نهار ، في الطريق الماضي إلى بلدة (خانقين) يوم رافقني (صباح) للقاء (حبيب) ، يوم وجدناه بيأس تام يراقب حياته المنقرضة .

جاءني (صباح) بعينين دامعتين ، ينعى وفاة (حبيب)في مشفى البلدة بعد إصابته بجلطة دماغية أخرسته .

موته دفعني إلى مخاض الحكاية .

بدأت أكتب بحماسة ولهفة ، واضعاً في بالي تقديم عرفان أو وثيقة للذكرى ، (وداد) دمعت عيناها أيضاً ما إن صفعها الخبر ، وجدتها رغم أنها كانت تمقته لسبب مذكور أعلاه ، أو كما سيأتي ذكره أدناه ، كونه حاول إغواءها وفشل في مسعاه ، ليس كما جاء على لسان (وداد) ، بل كانت أوراقه تؤكد أنها كانت رفيقة معقدة ، رفضت الاحتراق بـ نار الحياة السريّة معه .

عانيت كثيراً لوضع مفتتح الحكاية .

في البدء كان القرار أن أكتفي بحكايته عبر أوراقه وإضافة فصل أخير لما جرى بعد توقف الحرب وأعرج إلى حكايتي مع (وداد) ، لكن هذا الأسلوب الكريه ما عاد ينهض أو يثير ذاكرة القارئ ، بعدما تحصف وتثقف وامتلك آليات نقدية تساعده على خوض متاهات الحكايات المعقدة لفكها وبيان قوتها أو تفاهتها ، فقارئ اليوم (ضمني) و(حقيقي) ، لم يعد قارئاً خارج (النص) ، يمر على الحكاية مروراً عابراً ، فهو منتج ومتفاعل ومكمل للنص ، يتدخل في مصائر وسير ووضع الحلول التي يقترحها للشخصيات ، قارئ اليوم ناقد فاعل ومتفاعل .

ليس آخراً . .

(صندوق الحكاية)

استقر بي رأي ملزم ، أن أجعل من حكايتي وحكاية (حبيب) عملاً مشتركاً ، أوراقه وأشرطته الممغنطة ، دليل لا يمكن نكرانه أو التلاعب بما جاء فيهما ، يحكي هو وأنا أحكي ، علي أن أجعل حكايتينا متناغمتين ، إحداهما تكمل قيافة الأخرى ، راويان يرويان ، حاكيان يحوكان حكاية متداخلة ، ذلك مطلبي التجديدي في فن الحكي .

تركت ذاكرتي تختار المسلك المؤدي إلى ضفة الحلم ، كون الحكايات الثورية هي التي تحكي حاكيها .

أخيراً . .

(عنوان الحكاية)

لم أجتهد بوضع العنوان الرئيس لحكايتي ، في البدء وجدت العنوان (فواكه قلبي) كما وضعه (حبيب) في مقدمة أوراقه ، عنواناً مغرياً وذا دلالة عاطفية جاذبة ، لكنني آثرت تلك الليالي في قرية (المنسيّة) ، لسبب نفسي ضاغط تعذر عليّ الفكاك منه ومخالفة ما أملاه عليّ مزاجي .

«فواكه قلبي»

(١)

كنّ عشر إناث في قاعة طويلة ، تسع منهن تتراص أسرتهن بنسق تكاد تتساوى مسافاتها البينية ، بموازاة نافذة تطل على فناء ساحة المدرسة ، سرير منفرد ، تنام عليه الست (خولة) .

***

ساعة من الترقب وبلورة فكرة ارتكاب فعل المغامرة ، تكفي لتهيئة جسدي قارباً متزوداً بوقود رحلة ليلية ، أشبه بالغوص في مكان قفر بحثاً عن طريدة مأمولة متخفية في الجوار ، ينشغل فكري بكشط دعاسيب التردد والقلق المتفاقم ، قبل أن ينقلب جسدي إلى قربة فارغة ، فاغرة فمها ، تنشد طعاماً شهياً ، يوجد في موقع مكهرب بأجساد إناث غاطسات في جحيم نوم غير مأمون .

***

تزيد المسافة الفاصلة ، ما بين غرفتي وغرفتهن على الثلاثين متراً ، بناء على آخر عملية تخمين لعقلي ، ذلك الإحساس نما مع أوّل خطوة خطوتها باتجاه بحر الرذيلة ، ما إن رميت بقدمي اليسار في حوض الظلام ، تحمست لفكرتين ، فكرة إشباع رغبة عاطفية كانت تزلزلني ، وفكرة لا شعورية ضغطت وناصفت دافع رحلتي ، فانساق لساني يقيس مساحة ساحة مفروشة بسجادة ليل غير دامس .

في أوّل ليلة .

لساني لهج ، لا أعرف بالضبط هل كان فعلاً محموداً للهروب من قلق المجهول والوصول من غير منغصات إلى سرير السعادة الليلية ، أم أنها تراجيديا الظمأ الأزلي الموجود فينا ، ينتفض أوان المحن لتخفيف وطئها ، وقد تكون عملية إسعاف فوري للخروج من مأزق العقبات المحذورة غير المتوقعة .

على أيّة حال ، جسدي نفض شوارد الهلع مع كل خطوة خطوتها ، مع مباركة لساني برقم دوّنه ذهني في سجل أوّل صولة لا أخلاقية نحو مستنقع الجسد .

***

عندما تتهيأ جوارحي للفوز بوليمة شهوانية ، يكون ذهني في أقصى درجات التحفز واليقظة ، خطوة خطوة أخطو ولساني يحسب ، أحياناً أتوقف عندما أشعر بأنني قفزت رقماً ، أو التبس علي الحساب ، إنني في مرتين على ما أتذكر عدت إلى الوراء ، من غير مبرر طبعاً ، هاجس ما ، غريب ومباغت ، غازلني ووجدت نفسي تندفع لتلبية سلطته ، من غرفتي بدأت أخطو من جديد وأعد أرقام خطواتي من جديد أيضاً .

لم تتوافق محاولاتي الحسابية الليلية ، في كل ليلة كنت أحصي رقماً يختلف عن محاولاتي السابقة ، لم أعر الموضوع أهمية ، فدرجات الرغبة تتفاوت ما بين مغامرة وأخرى ، مما ينعكس الأمر على مسافة كل خطوة ، كان مزاجاً تافهاً ، أحسب وأترك الرقم ، بعدما صارت الأرقام التي حفظتها تسبح في مأزق مغلق ، لم تتجاوز الخمسين خطوة ، الأمر الذي جعلني أدون في سبورة ذهني أن المسافة الفاصلة

من باب غرفتي إلى باب غرفة الإناث (ثلاثون) متراً بالتمام والكمال ، بعدما جعلت من كل متر خطوتين وأضفت أمتاراً أُخر كي يقر ذهني ويطمئن إلى رقم شبه معقول .

***

ينحرف باب غرفتي عن باب غرفة الإناث المقابلة قليلاً بمسافة لا تعدو المترين ، هذا ما جعلني في وضعية مأمونة لرصد بعض الحالات العفوية من كوّة غرفتي ، أحياناً أستغرق وقتاً طويلاً ، متلهفاً أتلصص راصداً أجسادهن وحركاتهن ، كنت أشعر بمتعة كبيرة وأنا أغوص عميقاً إلى أعماقهن ، تجعلني شبه متخلص من حالة السأم والغربة والوحدانية ، صارت تلك الكوّة بمثابة نافذة على عالم خاص ونادر ، تربطني بما يجري خارج غرفتي لحظات العزلة ، كلما نفد زيت الرغبة ، يبقى الفضول مرضاً عضالاً ، يجندلني في لحظة تلصص ، أنام على بطني ، وبعينين قلقتين أراقب كل صغيرة وكبيرة ، تتراءى في شاشة أوهامي .

تهيمن الكوّة على ثلثي مساحة المدرسة ، غرفة الإدارة وغرفة نوم الإناث وغرفة المخزن تقع ضمن محيط الرؤية الجيدة .

***

عندما أفقد القدرة على احتمال الخواء الحاصل ، نار جسدي تلفح ، قلبي يفضح نواياي ، شهيقي وزفيري يشاركان في تفعيل رغبتي ، أنهض من سريري وأبدأ الخطو ، لساني مع كل خطوة يضع في خانة الخيال رقماً ، ومع كل رقم يدرك الجسد كم ألتهم من خطوات ، وكم رف ظلام أخترق ، وكم بقي في صحن الليل من توجسات وخوف للوصول إلى سرير الست (خولة) .

أحياناً تضطرب قدماي ، تتضاربان ، فأمضي متعثراً كسلحفاة على رمال ، مما يزيد هلعي ويفقدني التركيز لدقائق بسبب تفاقم درجة الرؤية ، ببطء أتلمس طريقي ، محافظاً على مسار سيري ، أي حساب جديد يفوق الحسابات الليلية السابقة يعني أن الجسد فقد بوصلته وصار يبحر في مأزق العماء ، لابد من العودة إلى الوراء والبدء بسيرٍ مدروس وحسابٍ جديد .

***

لم يحصل أن حصل انحراف في سيري ، لكن الفكرة ظلّت قائمة كلما أبدأ برحلة نحو عالمي ، أخترق ظلاماً طاغياً يتحول مع كل خطوة أخطوها إلى مطهر مجاني ، يقشر تكلسات روحي ، فتضمحل شوارد الخوف المتعلقة جرّاء لعبة التفكير ، وسجر مرجل الرغبة بغية إطفاء صيحات جسدي عند أنثى ناصفتني هموم الليل ، من غير ملاحقات ، أو تحرشات لسانية أو نظراتية أو رموشية أو اللجوء إلى طرف ثالث في معادلة الإغواء ، أو تبادل رسائل غرام كاذبة .

***

عند باب القاعة .

قاعة الإناث أكون بـ كامل الجرأة وتمام الصحو ، جائع متوحش يرتمي فوق وليمة ملهمة .

كل ما حولي يصبح رماداً ، في المسافة الفاصلة يتضح هلعي شظايا رماد ساقطة ، دليلاً ساطعاً على جريرتي ، يستحيل كل عارض محض سراب ، قد أصغي قليلاً من الوقت ، في محاولة جمع المعلومات قبل بدء صولتي ، غالباً ما كنت أجد الطريق سالكة ، لا

عارض إلاّ أوهام الخيال ووساوس قلب في ساحة الفضيحة يتهيأ للولوج إلى مدينة الكبائر .

سريعاً تعودت أن أهمل عذابات الأنوف الضاجة ، وروائح أجساد متعرقة تختلط لتكوين قيامة شبق صادع ، ضياع دقيقة يعني ضياع الحلم ، يعني خسارة قاموس الليل إثماً مبيناً ، يندفع الجسد ، أدفع باب الغرفة ببطء ، ببطء شديد ألغي المسافة التي تجمعني بـ فاكهة ليلي .

***

لم يعد باب الغرفة يرسل صريراً يستوقفني ، يجبرني على الاحتراس ، بيقظة ونبض قلب متصاعد أخترق ظلام الغرفة بعينين تبحثان عن جسد انتفض ، كل شيء ممكن وقوعه ، نوم البشر غير متكافئ ، هناك بشر لا توقظه المدافع ، ومن البشر من ينتفض من سابع نومه لطنين بعوضة تاهت على جسد النائم .

***

في أوّل ليلة تسلل .

توالدت عندي رهبة مباغتة ، أنتجها صرير الباب ، وقفت طويلاً أترقب نتيجة عكسية ، حتماً ستحطم حياتي القادمة ، تأرجحت بين فكرة العودة وفكرة التحوط لبضع دقائق ، قبل أن يتلاشى خوفي سريعاً بعدما مر الموقف لصالحي .

لم يستمر التعذيب النفسي طويلاً ، جاء المدد من الليل ، قهقهة هازئة حررتني من خوفي ودفعتني بـ بسالة أخطو نحو سرير الست (خولة) .

رصدت برودي ، قلت لها سبب تجلد عاطفتي :

«صرير الباب سلبني رغبتي»

من يومها فقدت فكرة التردد ، أخذت (خولة) ملعقة طعام سمن وعالجت (نرمادات) الباب ، مبعث الهلع .

***

عندما يرتكب المرء حماقة في مكان مجهول ، في عالم غامض لم يتوفر لديه الوقت الكافي لمدارسة أحابيله ، ستنتظره نتائج متوازنة بين فلاحه وإخفاقه ، ففي تلك اللحظة يقيني أجاب بوضوح بعدما تجمد عقلي على شاشة الذهول ، أن الأجساد الـ عشرة المرتمية في الفردوس المغلق حتماً ستنهض متحمسة لتمزيقي ، سيشهرن أظفارهن ، سيكشرن عن أنيابهن ، سيغدون لبؤات دهم عرائنهن ، سيجردنني من كامل هندامي ، ويرمينني خارج العالم شلواً ممزقاً ، فالمرأة تستحيل إلى نمرة مفترسة عندما تكون في قلب الخطر ، رغم ضعفها ، كونها تختبىء قوة كامنة توظفها في اللحظات العصيبة ، هذا ينطبق أيضاً على كل قطة محاصرة في غرفة ، حاجتها إلى الحرية ، أو تعرض حياتها للخطر يدفعها إلى أن تنهض من أعماقها قوة تضاهي قوة نمر مفترس .

لا فرق بين امرأة في خطر وقطة في قفص التعذيب .

***

الخوف في حالات المغامرة الجسدية وارد ، الشيطان يحاول إيقاد تنور الرغبة ، طالما الرغبة ترفع من نبض القلب ، والقلب المنتفض يقلل من فرص الرؤية بوضوح ، بعدما يدمر هدوء الذهن ، ويعصف بـ أوراق العقل .

***

متكشفة الساقين تنام (خولة) تشعر باختناق لو قامت بتغطية ساقيها بغطاء ، تشعر بحرية تامة في النوم عندما تترك ساقيها

متحررتين وتكتفي بتغطية منطقة الصدر والبطن إلى مثلث (برمودا) .

«تلك طبيعتي حين أنام»

كلام همسته في أذني في ليلة صر الباب ، بعدما أماتت فيّ شوارد التوجس .

***

في أوّل صولة .

بعدما تخلصت من شبكة الظنون الملتفة حولي ، صرت قرب سريرها .

شجاعتي المتكاملة دفعتني أن أمرر أناملي بشيء من التحفز على زغب ساقيها الناعم ، نابض القلب وقفت قرب ساقيها الممددتين ، كانتا تلمعان في ذاكرتي ، ربما وهج الرغبة أنارت سريرها ، أضفى عليها هالة قدسية ، رفعت قيمتها عن واقع الحال ، كل شيء فيها واضح ومتزن ، رغبتها ، لهيب جسدها ، ظمأ غورها ، فلتان لسانها عند العناق .

جسد ممدد . . أنفاس دافئة . . جسد واقف . . رغبة متفاقمة .

لم أجد بداً من تصعيد نسبة الضجيج في دمي .

بدأت أصابعي ترتجف ، تكهربها لوامس الدفء ، (خولة) الفراش ، لم تعد تشبه (خولة) الواقع ، لم أجد فرصة تفكير ، ربما بمستطاعي أن أعزو ذلك للعناء الذي تتحمل وزره ، غزت جيوش الرجفة لتستعمر كامل جسدي ، أنفاسي شبه المتذبذبة تدوي في الظلام المكهرب بأنفاس أجساد أنثوية غارقة في نومها السابع .

***

(خولة) . . رغم خفتها ومرحها ، تحبذ التمدد بكامل عريها في الفراش ، لا تنهض بسهولة ، تبقى خدرانة ، تتصاعد من كل فتحات جسدها رياح تئن ، تلك كانت لعبتها الإغوائية ، تستمتع حسب زعمها بالملامسة الإغرائية ، أناملي تثير عاطفتها ، تؤجج براكين غورها ، تتلوى لوقت يكفي لنضج شهوتها ، لا يقرع جرس الرغبة إلاّ حسب مزاجها ، عندما يدق تنهض مجنونة ، تحتضنني بشيء من الوحشية ، تمصمص صفحتي وجهي ، تحرث جسدي بقبلات مطرية ، قبل أن تغرق في بركة الهذيان ورعشة الغليان العاطفي ، ترتخي ساحبتني للغوص بثورية بربرية إلى أعماقها الأمازونية .

***

مذ تعارفنا عاطفياً ، من غير بوادر نظرات مفضوحة وابتسامات دعوة صريحة ، من غير ساعات احتراق وتبادل مقبلات التودد وفرش سجادة الدلال ، بدأ الليل يستحيل إلى جحيم ، ليلي الغارق بالوحدة ، الطويل الذي لا تنجلي عباءة حلكته ، ما لم أتقلب على فراشي مقروصاً بشرارة الشبق ، تغزوني جيوش الأرق ، أصطلي بنار الحيرة ، عقلي يرضخ لسلطة العماء ، لا فرن يستوعب هذه النار الساجرة كلما ارتمى الليل على العالم ، أجدني متسولاً ، متوسلاً يبحث عن محسن ، عليلٌ رافض يجرجروه إلى طبيبٍ مختص .

***

(خولة) . . فتحت أسوار مدينتها من غير دواعي حرب أو تهديد أو حصار ، رحت أتطهر كل ليلة في رياضها بضياء قمرها المثير ، وماء بئرها النمير .

غمرتني بشجاعة نادرة ، دفعتني كلصٍ محترف يتسلل نحو هدف

مضمون ، تخف حدة خوفي حين ألتمس فراشها ، سواء أكانت نائمة أم كانت تتقلب محترقة شوقاً لقدومي ، أجد لعبة الملامسة وسيلة لإخماد شوارد الخوف فيَّ طالما تنهض نار الرغبة فيها .

***

أناملي تعمل وقلبي ينتفض ، لا تنهض حرارة (خولة) تظل فاقدة حضورها ، لم تكن تشبه (خولة) الليالي المنصرمة ، لم تكن تحافظ على نسق ثابت لرغباتها ، ففي كل ليلة ترتفع حرارتها ، تشتد حدة ظمئها ، كما كنت أصفها همساً في أذنيها ، وكانت تطلب مني تكرار الكلمات ، أكدت دائماً أنها تشعر بـ نار إضافية كلما مرت الكلمات عبر أذنيها ، تخترق مصاغيها قبل أن تصب في موقد الرغبة ، هناك في قلبها مجمرة السعادة خامدة ، تعيد كلماتي غير المهذبة حسب زعمها الروح للجمر الخامد ، تتأجج نيران الشهوة ، تنتقل الحرارة إلى عروق جسدها ، عندها تفقد رشدها ، عندها تطلبني بعنف ، عندها تعصرني بـ شراسة وأعصرها بـ حيوانية ، ترغب أن أكرر مفردات الرذيلة بـ همس في أذنيها ، اصف (برمودتها) بما توصف في الأجواء الشعبية ، أصف فعل الممارسة كما يسب أحدهم صنوه وهو يهدد بأنه (. . . . . . . أمّه) ، بكل البذاءات الشائعة في قاموس القاع تسكرها وتحرقها أو تغرقها في عسل السرور .

***

(خولة) . . تعشق المغامرة ، خفيفة الروح ، لدنة الجسد ، رغم افتقارها إلى درجة جمال مقبول ، لا تمل من خلق فرص مزحة ، من يلتقيها يعشقها ، وهذا ما ينسف بالنسبة لها فكرة القلب الذي يعشق كل جميل ، فجمال الروح غالباً ما يتغلب على جمال الوجه والجسد ،

للروح مغناطيس جاذب يكهرب العيون ، (خولة) فقدت جمال وجهها لصالح خفة روحها ، صارت أكثر جاذبية وأقرب للقلوب التي تلتقيها ، ترغب دائماً في تحقيق مقالب مرحة أو كما كانت تهمس لي دائماً بأنني سأسقط ذات غفلة في فلك عاطفي جديد هي من تصوغ حبائله ، وكنت أهز رأسي وأهمس في أذنيها كلاماً مضاداً لفكرتها ، كنت أقول :

«هذا وقت الحب لا وقت الهذر»

(خولة) عاشقة متهيئة دائماً وأبداً لفعل الحب ، لم تتأخر كلما كنت أتسلل إليها ، كانت تنهض نمرة جائعة تتبعني كظلّي ، لم تكن تتردد كلما كنت أهمس في أذنيها نشيد لهفتي ، كانت تترك سريرها وتأتي من غير ملل أو خوف .

***

ما بال (خولة) نائمة أو متناومة ، ما بالها لا رغبة تمتلك كما عهدتها في كل صولاتي الليلية معها ، سادني اعتقاد في تلك اللحظة أنها توقعت صرصاراً يمشي على ساقيها ، لذلك مدّت يدها وهي شبه نائمة لتبعده ، لحظة نهضت على غير ما كانت حين تنهض ، لم تكن تلك النارية ، كائنة مستغربة ، لحظة اصطدمت يدها بيدي ، قالت لي إنها كانت في حضن كابوس خانق ، أناملي غزت في اللحظة الحاسمة وخلصتها من ضائقة نفسية شرسة .

طول بقائها في الفراش ، أفقد بصري ميزة رؤية الأشياء بوضوح ، كانت غشاوة القلق تضبب درجة الرؤية ، خلاف الليالي المنصرمة ، عندما كانت تنهض كما يخرج القمر من جوف الظلام .

حين نهضت(خولة) وعرفت الصرصور الذي توقعته ، وجدتها

متكاسلة ، شبه عليلة ، أو معتلة كونها كثيرة التعب ، هي طبّاخة فطورنا وغدائنا وعشائنا ، والباقيات يتناوبن على غسل الأواني والقدور وتنظيف غرفتي النوم .

ففي ظهيرة ذلك اليوم عملت لنا قدراً كبيرة من (الكشري) . . (طبخة رز مع عدس) ، لابد أن التعب نال منها وأخمد فيها نار العاطفة ، أسلمت نفسي لهذه الفكرة وأنا أتفحص من خلل الظلام وجهاً لكم لثمته ومسحته بلساني ، خلال فترة وجيزة لا تعدو الشهرين ، لم تهمس كما كانت تفعل أو كما كانت تلقي بنفسها علي وتغرقني في بحر نعاسها ، ألقت بشعرها المنفوش بيديها إلى الخلف .

همست كي أهدئها :

«أنا . . حبيب .!»

تأوهت هامسة :

«متعبة أرجوك»

«ليس بوسعي النوم يا خولة . . ارحميني»

«استلق جنب واحدة أخرى»

«أترغبين في توريطي بجناية»

«لا تخش شيئاً ، بإمكانك أن تدس نفسك في فراش أيهن ستجد حضناً يحتويك»

«خولة . . أنت تهذين»

«أنا مريضة»

«لن أتجاوز حدود الملاطفات العادية»

«لسانك ثعبان ، دائماً تسقطني في حبائلك وتسحبني إلى بركة الرذيلة»

«سأنتظرك في غرفتي»

اكتفت بتأوهات متناعسة وبزفير صائت .

قبلتها . . مستفزاً خرجت .

انتظرت كثيراً ، لاهثاً ألفظ أنفاسي ، قلبي يضرب بعنف ، الليل شامل الظلام ، لم تعد النجوم تنفع طالما كانت غيوم متقطعة تمضي في بساط سماء غارت مصابيحها .

***

شبّاك غرفتي .

فتحة دائرية قرب رأس سريري ، مررت عيني ، كان الليل كلّه أشباح تنفك وتتشابك ، فشلت أن أشق ستار السواد الموجود بين غرفتي وغرفة الإناث ، كنت بعينين خائفتين أو قلقتين أبحث عن (خولة) ، عن شبحها الخفيف وهي تدنو من مستوطنة عذابي ، (خولة) لم تظهر ، قلبي حسسني أنها غير راغبة ، موقد روحها منطفئ ، كلماتي لم تكن بروقاً تحرق الحطب الموجود في مرجل عاطفتها ، ندمت لأنني لم أعانقها طويلاً كي أثيرها ، لم أقبلها قبلات طويلة كي أنسف فيها جبال الكسل ، وأفرك (برمودتها) كي أنهض غريزتها الأنثوية المدمرة .

شجاعة (خولة) كلما غامرت من أجل لحن القلب «لم فقدت شجاعتها؟» ، فكري لم يقتنع بما ذهبت إليه .

ترددت لحظة دفعني هاجس الرغبة ، أن أتسلل مرة أخرى إلى غرفة تعج بأجساد مائعة ، متكشفة ، غارقة في نوم عميق ، وسط حرارة أنفاس متشابكة ، روائح تختلط لتنتج روائح أخرى ، أصوات شخير لأنوف تسحب شهيقاً صائتاً وتزفرها بصفير وحشرجات .

فكرة تجبرني على التمهل ، تخمد أوار رغبتي .

وقفت شبه متخاذل ، ليس من السهولة بمكان أن أخترق حاجزاً محرماً مرتين ، فالمحاولة الأولى محض مغامرة في لحظة عماء ، يكون الجسد لحظتها في أقصى درجات الشجاعة ، متهيئاً للموت ، عقلي فقد وهجه وانساق طائعاً تحت فحيح شهوة غاصبة أكسبتني شجاعة نادرة ، أن أغامر باقتحام المكان مرة أخرى فيه شك واضح ، وقفت طويلاً أراجع أوراق مغامرتي الأولى ، شرق أمامي ضوء الإخفاق جنباً إلى جنب ضوء الفلاح .

متأرجحاً بين الأقدام والأحجام وقفت .

تحت سطوة الفكرة بقيت مرتجف الأوصال ، شيء ما يضغط ، يكاد يكتم أنفاسي ، يسرع نبضات قلبي ، لم أحتمل نيران شهوتي ، بدأت تتفاقم بعدما كانت غير فاعلة ، مجرد روتين لابد منه قبل أن أغطس في ظلام النوم .

خرجت .

وجدت شبحاً يتحرك من خلل الظلام ، شبحاً يتجه جنوباً ، إنه يمضي ، يضمحل ، يذوب في السواد ، وقفت أنتظر عودته ، كل شيء وارد ، لابد أن (خولة) متضايقة ، مضت تفرغ جسدها من ضغط القاذورات ، قد تريد تجفيف مستنقع مثانتها ، كي تتهيأ لي ، طال مكوثي بباب غرفتي ، لم أحتمل فكرة المكوث ، مشيت باتجاه الجنوب ، عند باب غرفة المياه سمعت صوت الماء ينهمر من الصنبور ، تناغم الصوت مع ضربات قلبي بمشاركة فاعلة مع شهيقي وزفيري ، دخلت واحتضنت الشبح الواقف ، شبح ناعم ودافئ ، من فرط هلعي فقدت لحظتها مذاق تمييز الأشياء ، أطوالها وأحجامها .

(خولة) ممتلئة ، مكتنزة الجسد ، قصيرة نوعاً ما .

هذا الجسد الذي صار بين أحضاني يمتلك نعومة مضافة ، نحيفة ، طويلة .

لم تكن هناك فرصة لمراجعة نفسي ، كف مباغت لطمني وألقاني في عالم الخذلان ، دار بي الليل وألقاني في سديم يدور في فخ مفاجأة ثقيلة ، نهضت وتهيأت لمجابهة مجهولة ، حاجز ما يمنعني من رد الاعتبار لشخصي المتردد في ليل ثقيل .

شبح أنثى واقفة ، نمرة مستفزة في ليل شبه حالك ، تهيأت بما أعدت من وسائل دفاع لتدافع عن مملكتها ، لساني انطلق ، نطق متعثراً ، توسل بكل ما في قواميس الخضوع من كلمات ، لم أجد ثغرة تغريني ، أو تمنحني فرصة انتصار معنوي ، لم أكتسب بطاقة عفو .

قالت بشيء من غضبٍ مكتوم :

«تجاوزت حدودك أستاذ»

اتضحت شخصيتها ، جف لساني ، لم أجد هناك داعياً يدعوني أن أواصل كلامي ، كنت لحظتها أبحث عن قطعة فضة ، سقطت على منجم ذهب .

صمت .

ليل رحيم يواصل سترنا ، واقفة هي ، ربما نادمة على ما فعلت ، وقفت أمامها ، أنفاسي تواصل عزف نشيد الخوف والهزيمة . . همست :

«لا توجد حواجز بيننا يا ست»

«ليس بوسعي مواصلة الكلام معك الآن»

«إذاً . . في الغد ربما نرفع هذه السدود التي تكاد تتعتق بيننا»

«غداً سنضع حداً نهائياً لهذه القضية السخيفة»

انسحبت وذابت في دقيق الليل ، لحظتها فقدت كامل رغبتي ،

كأنها انتزعت فتيل قنبلة وشيكة الانفجار ، عدت إلى غرفتي ، شبه نائم ، شبه مجنون ، متعب ، مصعوق .

عانيت كثيراً قبل أن ألتمس مركب النوم .

❋❋❋

(٢)

مع توهج الشمس ، متأنقا ، متطيباً بعطر قوي الرائحة ، كلّي يقين أن معركتي العاطفية مع فتاة الحلم كما كنت أصفها قد اكتملت فصول استحضاراتها .

وقفت بـ عين قلقة أراقب سرب إناث يرفلن بحرية تامة ، يتمايلن في مشيهن ، رصدت الاختلاف الذي طرأ على حركات سيقانهن ، على هزات صدورهن ، كن يحركن أثداءهن لغاية واضحة ، عجيزاتهن تهتز بإغراء تام ، حصل هذا التحول مذ حللت بينهن ، شاب متأنق وعشر إناث في مدرسة في قرية في بقعة أرض منسيّة ، لم أجد فيهن بذور تمرد ، كلهن تشاركن بخطط مدروسة ، بتباين مفضوح في إبداء فروض الود وإلقاء أشراك الرغبة إلاّ واحدة كانت مثالية في تعاملها ، تتجنب السقوط في لعبة الانسجام خارج حدود الواجب ، بقيت عادية ، لا تجامل ، نظراتها متعالية ، لم تتمكن طرفة واحدة من الطرف التي كنّا نلقيها أن تصنع ولو شبه بسمة أو شبحها على ثغرها المزموم .

«وداد . . أنثى معدنها غير مكتشف» . . كلام ردده لساني .

اكتمل حضورهن إلاّ واحدة ، ليست هناك بوادر رسميات أو شكليات تبدو عليهن ، مثل ملك في مملكة نساء كنت أستشرف عالماً أنثوياً شبه مفتوح ، عالماً غريباً بعيداً ، تصفعني صباحات الخير ورشقات ابتسامات ثغور ما عادت ترغب في الطلاء بأصباغ التلوين ،

سرب إناث خارج العالم الفوضوي ، مقصيات من إشعاعات الحضارة ، مرميات في بقعة أرض خارج العالم تقريباً ، لم يعد التبرج مشكلة لابد منها ، هنّ في مكان ليس هناك عيون شهوانية تصطاد الملامح ، أو تخجل الملامح النسوية من الظهور أمامها من غير تكحيل وتلميع وتبرج ، يمشين نحوي ، يدخلن غرفة الإدارة ، كما ترعرعن على الفطرة والبراءة والظهور المتواضع ، عيونهن خارج المألوف ، ربما البعد المكاني والظرف الزماني نفثا فيهن أوار التحرر أو وحشية العزلة ، يغمزن بلا حياء ، رموشهن تتراقص ، كأنها لوامس حشرات حديثة التجربة في محاولة جذب الطرائد .

حركاتهن وكلامهن حصنتني سريعاً بمصل الجرأة ، اكتشفت أنني لم أعد ذلك الفتى الخجول ، المتردد ، المهزوم أمام الأنثى في كل المناسبات .

تشربت نفسي التجربة سريعاً ، من غير مقبلات الاصطياد ، من غير النظرات والابتسامات ، ورقتي (الجوكر) للوصول إلى قلاع الحب عند الأنثى ، من غير كتابة المشاعر الجريحة على أوراق رسائل .

***

قبل وصولي إلى قلعة العواطف ، تلك المدرسة المنسيّة ، كانت دائماً تأتي فرص ذهبية من جانب واحد ، كنت أرتعش وأنا أنظر إلى واحدة تبتسم بوجهي ، أو تغمزني برمشيها ، خوف يستولي علي ، أذوب في شيء مجهول ، كما لو أنني بصدد ارتكاب جريمة ، أتوارى عن الأنظار ، يمر زمن طويل قبل أن أسترد صحوتي ، أكتشف أن تلك البنت الراغبة في اصطيادي ، قد أهملتني بعدما وجدت أمامها فتى مهزوماً ، فتى غير مؤهل لقيادة دفة الرغبات لأنثى حرون .

البنت تعشق كل جريء ، كما هو سائد في شرقنا الجريح ، الأنثى هي من ترمي بشرر عاطفتها ، قد تتكرر المحاولة لكنني أغدو لحظتها صخرة تريد أن تنفلق من شدة الخوف ، الأنثى كيان جرد من فاصل الخوف ، هي أشجع من الرجل في الحالات العاطفية ، هذا ما جاء في الشريعة السماوية ، رغم أنها ناقصة عقل ودين ، مخلوقة مائية الجسد ، ضعيفة ، رقتها رقة زجاج شفاف ، رغم أن الزجاج يذبح من الوريد إلى الوريد ، كذلك المرأة ، ربما هذا النقص الفسلجي ترك الفراغ لتنمو فيه جراثيم العاطفة بوحشية .

المرأة كما هو سائد أكثر إقداماً على المغامرة الجسدية ، خلاف الذكر الذي أعطي الجرأة في القتل والسلب والنهب ما لم تعط هي ، تلك الأفعال الخشنة الشنيعة .

***

لم أعد ذلك الفتى الخجول أمام الأنثى ، هكذا وجدت نفسي بين عشية ليلة وضحاها ، أين المفر قال عقلي ، عشر إناث مثقلات بـ هم القلب ، مثل قرب فارغة أمام مطر عاصف ، انزاح خوفي وصرت في قلب الحدث مثل نمرٍ يرعى جحفل أغنام شبه ضال ، علي أن أختار طعامي وفق خارطة طريقٍ ، لم أعد أشعر بدبيب القلق كما كان يحصل لي في ما سبق حين أكون وجهاً لوجه مع أنثى عابرة أو يجمعني عمل ما بها .

***

شغلت نفسي بمراقبة الساعة الجدارية بعين مفضوحة ، عين تريد شيئاً آخر ، تريد حركة ساقين ناعمتين لا حركة أميال تحصي أنفاس أزمنة عاطلة .

قلبي يعزف لحن مسرة مأمولة ، يخرج اللحن عبر فمي قلقاً ،

يجفف اللسان ، أمد يدي بحثاً عن ماء كي أبقى متوازناً ، متهيئاً لمعركة انتهت بسلام ، رغم أنني تلقيت لطمة كف ما تزال تحفر في رأسي غضب الهزيمة .

طال وقوفي قليلاً .

توافرت فرص شبه مثالية ، أضعتها بسبب تهوري أحياناً أو عدم استغلالها بشكل متوازن غير مثير ، لكن رغبتي ظلّت متأججة ، لم تخمد بل ظلّت تستعر وترغب .

لساني يجف ، بيد واثقة أعيد له طراوته ، أرتشف الماء من قدح ظل بيدي ، أبلل شفتيّ ، أسقي كلمات قلبي ، كي لا تجف كلمات غطست في بحار الأرق قبل لملمتها ، تشكلت بعسر ، ليس من المعقول ولا مقبول أبداً ومطلقاً ضياعها ، تهيأت لتفعل فعل السحر في خضم المنازلة الكبرى .

حتماً الكلام الحلو ، الكلام المنمق ، يصرع أية طريدة ماكرة ، فكرة واثقة داعبت أوتار ذهني .

أصرف كلماتي إلى الصمت ، إلى الصباح المتنفس ، إلى الوجوه المرهقة ، إلى البسمات المصطنعة ، في انتظار أنثى لا تملك جمال صويحباتها ، لكنها تمتلك خفّة دم مستور ، غلق كل منافذ رغباتي .

***

لم تظهر (وداد) . . ! لساني يطلق صهيله ، كانت السبّاقة دائماً ، أوّل الحضور ، باكرة تنهض وتنتهي من روتينياتها الصباحية ، بخفتها وجرأتها تخطو نحو غرفة الإدارة ، يتحجر اللسان في حضرتها ، لا يهدأ القلب إلاّ برؤيتها ، خلت تأخيرها جاء لصالحي كما اشتهيت ، كما

رسمت في بالي طيلة ليلة حفلت بـ مفاجأة لم أضعها في الحسبان .

قرعت (أم عليوي) فرّاشة المدرسة جرس بدء الدروس ، خرجت المعلمات من الإدارة ، مررن بي ، واقفاً كنت بالباب ، يتغامزن ، يتهامسن ، كل شيء واضح بالنسبة لهن ، لا أسرار تجترح أوقاتنا ، كلّنا عائلة واحدة ، بيننا الأدب المزعوم سقط بالضربة القاضية ، أخلاقنا انصهرت في فنجان القدر ، لم يعد اللسان يستحي ، كل الكلام صار مسموحاً في عزلتنا التربوية .

مضين وهن يتلفتن ، يغمزنني برغبتين واضحتين ، رغبة امتلاكي ورغبة مطاردتي للست (وداد) ، كنت أقرأ في عيونهن أوراق التوسل والدعاء من أجل سقوطي في امتحان (وداد) ، سقوطي يوفر فرصة جديدة لامتحان جديد في صف واحدة تنتظر شهادة حظها .

توزعن على صفوفهن .

ما بين لحظة وأخرى يخرجن رؤوسهن بشيء من التلصص ، ثغورهن تنفرج ، إنها تطلق فراشات الرغبة ، وربما مواصلة تحرير الدعاء كي يستمر فشلي في امتحان القدر .

ربما نار الغيرة تتضح من خلال حركاتهن ، كل واحدة كانت تتمنى أن تغدو (وداد) لابد هذه الفكرة شملت أذهانهن ، أنظر إليهن ، أمنحهن ابتسامة ود ، أهز رأسي ، تنسحب الرؤوس الحائرة بفرحة غامرة ، كل واحدة وضعت في بالها ابتسامتي (سهم خارق) انطلق من قلبي يطلب قلبها .

بقيت في وقفتي أراقب حركة التلاميذ ، راصداً معاناة (أم عليوي) لإدخالهم إلى الصفوف .

برزت (وداد) من غرفة النوم ، شمس أشرقت من بعد سلطة غيوم

أو مستعمرة ضباب ، كما هي ، لثامها يحجب ملامحها ، ثغرها يجهل سحر البسمة ، رغم وجودنا معاً ، لم أر ثغرها الدقيق يشتعل ببسمة ولو عابرة ، خلاف صويحباتها ، كنّ ضحوكات ، يحررن ضحكاتهن بغير مناسبة ، صدى ضحكاتهن يمضي عبر الفضاء إلى كل فجٍ عميق ووادٍ سحيق .

جاءت من غير علامات غضب ، تمشي بخطواتها المعتادة ، غزالة في مرج أخضر ، خلاف ما توقعت ، كنت على يقين أنها تضمر لي معركة ـ لابد منها ـ لتضع حداً نهائياً لمطارداتي الغزلية لها ، إن لم تكن رضخت للأمر الواقع وثبت بالدليل الليلي القاطع أنني أرغبها أنثى شريكة فراش لا شريكة نزوات .

قالت من غير تكلفة ، كما كانت تقول في كل الصباحات التي مرت ، ناحتة عينين عسليتين في عيني :

«صباح الخير أستاذ . . حبيب»

لم أصدق نفسي ، كدت أحضنها ، غلبتني الشهوة وقفلت على عقلي ، مطاردة علنية لشهرٍ من التوسل والكلام وتدخلات (خولة) انتهت إلى مثولها وخضوعها ، أقررت الفكرة من غير استئناف ، شخصيتها المتوازنة أعدمت رغبتي الفورية لاحتضانها ، خلت معركتي انتهت معها ، شهران وأنا ألاحقها ، شبعت آهات وحسرات ، مزقت قواميس من الكلمات في ذاكرتي ، كنت أزورها في الصف لمراقبة طريقة إلقاء دروسها ، غارقاً في بحيرة صوتها ، في عينين تتحركان ببراءة ، كانت تتشجع في الكلام ، تتمرد كلّما أشعلت المسافة بيننا ببسمة ، لا تبالي بنظراتي ، تواصل فرض ألقها التدريسي ، غير مبالية برائحة ذكر خطر يبحث عن متنفس عاطفي ، واقفاً ، حافراً بعينين

ملتهبتين كيانها المستفز ، يترقبها من كثب ، ينهشها بنظرات غير عاقلة على مهل .

تماديت في محاولاتي معها ، لا أعرف لم هذه (المعقدة)من بين إناث مكتنزات متهيئات للعبة الحياة والذوبان من خلال نظراتهن ، أو طريقة كلامهن ، شغلت ذهني ، سلبت كامل فكري ، ربما تحفظها جعلني أكثر رغبة في الانجذاب إليها ، باءت محاولاتي الخجولة بشيء من الفشل وضياع الوقت ، قبل أن ترصدني (أم عليوي) المستخدمة ، طلبت أن تتدخل كي تربطني معها بـ(عمل خبيث) إن كنت عازماً على الزواج منها .

ها هي تبدو هذه المرة لطيفة في نظراتها ، متسامحة ، مغرية ، في طريقة إلقائها تحية الصباح ، أقنعت نفسي أنها استسلمت أخيراً من غير أن تكلفني كثيراً من الوقت وحرقة أعصاب ، من غير تكليف نفسها أيضاً خسائر أخرى من سويعات عمرها ، العمر في بلدان الشرق قصير ، القلب لا يمتلك الكثير من الفرص والوقت الكافي كي يثبت حضوره العاطفي ، كون حياتنا محجوزة لساستنا ، وقلوبنا منشلغة بـ تعبئة الخوف والرهبة لتجنب السقوط في برك التمرد وعيون الوشاة ، ليس لنا سوى هذا المتنفس الوحيد لممارسته من غير مخبرين أو كتّاب تقارير يحولون نظراتنا وهمساتنا العاطفية إلى مؤامرات انقلابية ، لتقودنا إلى غياهب السجون والمشانق ، باستثناء (تابو) العائلة وناموسها الدموي ضد العلاقات العاطفية المقدسة بين أولادها وبناتها .

يبقى الحب في نظرنا جريمة شرف ، رغم أنه الطريق السليم لمستقبل مديد ، وأجيال بشرية متفوقة .

مستقبل وفاق خال من النفاق .

آن أن أتهيأ لعالمي الخاص ، ليس ثمة مجال لفلسفة الأشياء ، وإعطاء تفاسير مقنعة لكل فعل عفوي أو مرسوم مع سبق الإصرار .

سمحت لها بالدخول ، بهدوئها المعتاد دخلت ، خطواتها تنسجم مع إيقاعات قلبي ، جلست على الأريكة ، اقتربت بشيء من التحفظ منها ، تململت في جلستها ، وجدتها ترغب في النهوض ، عرفت أنها ما تزال تعشش فيها بوادر رافضة ، قد تكون مقدمات خجل أو إضافة قدسية الدلال على نفسها ، كل الإناث يتشاركن في هذا المطلب ، لا يمنحن أنفسهن إلاّ بإضافة مسحة دلال أو غلو لأنفسهن ، نغمة تحسس الذكر وتستفز غريزته مما يضاعف من قوة رغبته ويزيد من كثافة عمائه .

ما تزال (وداد) تمنع جلوسي قربها ، خلاف ما كنت أعمل مع المعلمات جميعهن من غير حساسيّة ، كنّ متواضعات وأنا أجلس لصقهن ، رغم توتر جسدي وصعود حمى غريزتي ، قلت لنفسي :«لا بأس حتى الطيور والحيوانات لا تعطي إناثها نفسها بيسر للذكور ، ما لم يبدِ توسلات وحركات إغرائية قد تتطور إلى رقصات إرضاء ، ذلك هو ناموس الأشياء المتنافرة»

«لا تتعجل الأمور يا أستاذ حبيب!» . . رددت في نفسي لأخمد هلعي .

بادرتها بود :

«حسناً . . سأجلس في مكاني»

(لننه هذه القضية التي تشغلك»

«قضيتي طلب بسيط بين يديك ، حق مشروع لا يخالف أعرافنا»

«أنت تعرف حدودي»

«ليس هناك حدود بين الإناث والذكور»

«آن أن تكف أستاذ عن ملاحقتي»
«أنك تختلفين عنهن»
«وأنت تختلف عن الرجال أيضاً»
«ما هي أوجه الاختلاف؟»
«خرجت من عالمك البشري ، وأرجو المعذرة عن معنى هذا الكلام»
«يا ست وداد . . أنت لا تدركين حدود الجحيم الذي أعيشه من أجلك»
«لديك وسائل بديلة!»
«لا أجد غيرك جديرة بأن تركب معي سفينة الحياة»
سكتت .
دخلت (أم عليوي) ، وضعت قدح الشاي أمامي ، وجدتها ترمق (وداد) بنظرة مقصودة ، قبل أن تغمزني بنظرة ثقيلة ، فهمت نظرتي إليها ، خرجت وهي تسحب الباب .
قامت وفتحته . . عادت لتجلس .
قلت :
«لا تفهميها كما خطر ببالك»
«أنا أفهم الأشياء كما أشتهي»
«لم كل هذا العناد مع زميل يودك»
«أرجوك أستاذ حبيب . . كفاك ملاحقة ، بدأت أفواههن بـ خلق حكايات ليست محببة بيننا»
«مجرد مزاح صديقات»
«أنت لا تفهم وضعي ، أنا من عائلة محافظة لا تتفاهم إلاّ بلغتي

السكين والرصاص»

«أعتقد أن طلبي حق مشروع ، أنا أبحث عن رفيقة تلائمني في حياتي»

«أستاذ حبيب . . أعتقد أنك تفهم نفسك جيداً ، أنت متعب ، تحتاج لراحة خارج نطاق هذا العالم الذي وضعونا فيه»

«قد يكون القدر هو من أراد جمعنا في هذا العالم كي نتحد مثلاً»

«قراري سبق أن قلته لك ، أنا محجوزة لابن عمّي»

«ربما العشرة ستجعلك تغيرين موقفك منه»

«هذا تجاوز على الأعراف أستاذ»

«لا تسيئي فهم كلامي ، لتكن العلاقة وديّة بيننا»

«الشيطان يجلس الآن بيننا»

«الشيطان حقيقة ، نحن نستدرجه ، بوسعنا أن نتحدى كل شيء بعقولنا ، فقط لو عرفنا كيف نفكر»

«لن أشاطرك كلامك ، الشيطان عليه اللعنة منحه الله القدرة على تحريك قلوب ضعاف النفوس ، يوم طرده الله من الفردوس بسبب كبريائه ، لعنة الله عليه وعلى أعوانه»

صمت .

فكرت أن أغير دفة الحديث .

«لم أكن أتوقعك في الليل»

«بل كنت تترصدني»

«حسناً . . أليس ذلك يعني مدى اهتمامي بك!»

«لا تشغلني هذه الأمور الدنيوية»

«كنتِ قاسية معي»

«كل كائن يدافع عن نفسه في لحظات الخطر»

«مهما يكن تقبلت منكِ ذلك»

«أرجو أن ننهي هذه الأمور نهائياً ، قررت أن أرتكب حماقة لو تماديت أكثر في محاولاتك معي»

«حسناً . . أنا منذ هذه اللحظة خارج عالمك ، ولكن لو فكرتِ بالقضية ستجدينني أكثر رغبة وتعاطفاً معك»

ما بين الكلام والصمت كانت أميال الساعة تبتلع جسد الوقت .

قرع الجرس ، دخلت جوقة المعلمات . . ثغورهن تطلق آهات .

صاحت (خولة) :

«بدأت أشم رائحة ربيع باكر يا أخوات»

صاحت (أميرة) :

«حين نفك عقدة هذه المعقدة ، ستغدو حياتنا ربيعاً دائماً»

قامت(فريدة) . . أغلقت الباب . . عادت إلى منتصف الغرفة . . وقفت . . رفعت يديها وبدأت ترقص .

تعالى التصفيق ، زغردت (سميرة) ، قامت (خولة) وراحت تهز جسدها اللدن .

جالساً لا أستحي ، الكلفة تم رفعها بيننا ، ما إن وجدت نفسي غريقاً في بحر لا يرحم من الشهوات ، تحيطه كواسج وتماسيح جائعة ، كل شيء أصبح عادياً ، الجسد ما عاد يرتعش ، أسناني لم تعد تطحن خوفي ، شفتاي ما عادتا ترتجفان حين أتكلم ، صرت وحيداً بين عشر إناث متفاوتات في طول القامة ولحم الجسد والرغبة ، رغم أنهن بدون أو تظاهرن خفيفات الروح ، جميلات المشاعر ، ودودات العشرة ، معاً في مدرسة تبعد عن بلدتي (جلبلاء) بخمسة وثمانين كيلو متراً

حسب ما هو مدون في لوحة المعلومات ، عبر طريقين ، طريق عام مسلفت ، وطريق جبلي ينحرف شمالاً عن الشارع العام ، ثم يلتوي باتجاه الشرق ، تتخلله وديان تغمرها مياه الأمطار شتاء .

المدرسة تقع في قرية صغيرة على الحدود الشرقية للبلاد يسمونها (المنسيّة) .

في تلك اللحظة قامت (وداد) وخرجت كعادتها ، متزمتة ، رافعة أنفها ، طرقت الباب وراءها بعنف ، تقدمت (خولة) منّي . . صاحت :

«أكسرت رقبتها أم فشلت؟»

قلت :

«عنيدة . . متمردة»

صاحت (خولة) :

«سأرقص كما خرجت من ـ برمودا ـ أمي بينكن لو تمكن أستاذ ـ حبيب ـ من كسر أنفها»

قلت :

«لم كل هذا الهجوم عليها ، ربما هي خائفة الآن»

قالت (بدرية) :

«مرّ شهران ولم تصل إليها»

قلت :

«صغيرة عقل»

تدخلت (إيمان) :

«متخلفة ، لا تفهم بأمور الحياة السعيدة»

قلت :

«دعوها ، لابد أنها ستلين مع الأيام»

قالت (جيهان) :

«أستاذ حبيب . . قتلتني الغيرة ، هل يجوز أن تعيش واحدة مثلها بيننا خارج عالمنا»

قالت (حمدية) :

«الأنثى تستسلم حين يتكاثف الهجوم عليها»

استمر الحوار صاخباً . . متداخلاً .

مستفزاً أعوم في بحر أصوات عسلية ، أوركسترا كركرات متحررة خارج نطاق المألوف ، هن مرحات وأنا مهموم برغبة صارخة لا يخمدها إلاّ عالم الست (وداد) .

(٣)

علاقتي بـ(خولة) لم تكلفني كثير وقت ، ما إن وصلت المدرسة ، قادماً متذمراً لاعناً القرار الذي ألزمني أن أكون مديراً لها .

عانيت . . توسلت .

لم تفلح جهودي لإلغاء القرار التربوي الذي صدر بي ، وصولي المنطقة غير مزاجي فجأة ، وجدت نفسي بين عشر إناثٍ ، فاتنات ، متحررات .

رؤيتهن جعلتني أشكر صاحب القرار الذي نفاني من صخب بلدتي ، بعدما كلت له أكيال لعنات .

استقبلوني بود ، أنزلت حاجياتي ، سرير منامي ، حقيبتي ، جلست بينهن ، خجل قديم متذبذب يقتلني ، وراح الحلم الكبير الذي صارعت كثيراً من أجله ، يتحقق من غير تكلفة ومطاردات أو سهر ، وكتابة الكثير من الكلمات الغزلية الفارغة في أوراق ، قبل أن تتعرق وتتمزق في جيوب خيالي .

حلم حب فتاة كان بوصلة حياتي الدائمة .

ظل الحب أرقاً وقلقاً أكلا ليلي ، نهشا فكري ، كل فتاة حاولت استمالتها بنظرة خائفة أو ابتسامة جافة ، واقفاً بدروب الطالبات ، جائباً متاهات الأزقة ، لم أجد ما يزيد من عزيمتي ، أو بادرة تشجعني على مواصلة صيد واحدة تنتشلني من الغرق في مياه مراهقتي .

إنني بين جبال لحمية متحررة ، لحم . . لحم يتحرك ، يلتهب ، عيون لا تخاف ، لا تخجل ، ملؤها دهشة ، ثغور ظامئة ، أجساد تنطق شهوات بـ لا خوف .

واحدة من بينهن أكثر شعبية ، (خولة) ، فتاة سمراء ، تتكلم كثيراً ، شجاعة في نيل حصص رغباتها ، تضحك كثيراً ، صاحبة نكتة ، روحها خفيفة ، تفرض نفسها من غير تردد ، قامت وجلبت لي قدح شاي ، بدأت أذوّب السكر ببطء ، خشية أن أفقد توازني وأقلبه .

عيون قاتلة ترصدني .

نده ثغر :

«أنت واحد منّا أستاذ»

شكرت صاحبة الصوت :

«أنا خادمكم المطيع»

قالت (خولة) :

«لا تفكر بأي شيء أستاذ ، نحن هنا عائلة واحدة»

دق جرس الدرس ، خرجن إلاّ (خولة) .

(خولة) أفعى بيت ، مسالمة ، تحمل روحاً متدفقة بالعشق .

جلست أمامي ، كانت بشوشة ، عروقها مستفزة ، تحاول مساماتها تحرير بوادر ثورة لا سياسية ، ثورة أخلاقية على ما يبدو ، تعتمل داخلها ، تنتظر فرصة ملغومة لتندلع .

قلت لها :

«من أين أنت؟»

«من بلدة المهابيل»

«آه . . إنك قاسية على بلدتك يا ست»

«أنا قاسية على رجالنا»

«لابد أنهم يعاكسونك كثيراً»

«لو حصل هذا لكانت أجمل البلدات عندي»

«لكنهم مسالمون وطيبون»

«أرواحهم خبيثة ، عقولهم غفلة»

«أنت أدرى بشعاب بلدتك»

«محض أجساد غبيّة ، يقضون حياتهم بتفاهة ، يتربعون صدور المقاهي ، يتناوشون بعضهم بفاسد الكلمات ، لا هم عاطفياً يسكنهم ، مخانيث ، تفو عليهم»

«حقاً إنها بلدة مقاهي»

«قل بلدة ملاهي»

«مهما يكن إنها جميلة ، طالما أنتجت واحدة مثلك»

حفرتني بعينين متكلمتين . . قالت :

«هل زرتها؟»

«مرة واحدة»

«وكيف رأيتها؟»

«لو كنت أعلم أنكِ ساكنتها لما بارحتها؟»

ضحكت . . ناحتاً عيني فيها ، شاركتها فرحتها .

قالت :

«لو كنت أعلم أنك زرتها لأمرت شقيقي أن يلقي القبض عليك بداعي السطو»

«سطو!»

«نعم . . سطو غير مسلح على بنات البلدة»

«ليتني كنت حرامي بنات على أن أكون معلماً في منفى»

«وجودنا هنا جعل المنفى منتجعاً»

«حقاً . . نسيت هذا الجانب الحيوي من العزلة»

«هل ما زلت تسطو على البنات؟»

«وهل توجد بنات جاهزات لأسطو عليهن؟!»

«ليتني رأيتك في زيارتك لأمرت أخي بسجنك»

«على ما يبدو أنه في موقع مهم»

«ضابط شرطة»

«آه . . في المرة القادمة سأكرر زيارتي لبلدتك كي أسجن فيها بناء على رغبتك»

صمت .

دخلت المستخدمة تحمل قدح ماء .

قالت :

«أستاذ غرفتك جاهزة»

«حسناً بعد الدوام سأرتب أشيائي»

قالت(خولة) :

«أستاذ ، أنا سأرتب غرفتك ، أنت مرهق من السفر»

«حسناً لن يأخذ منّا ذلك وقتاً»

خرجنا .

في الزاوية الشمالية لبناية المدرسة غرفة منفردة ، وجدت أشيائي متراكمة ، بدأت (خولة) بسحب السرير ، قرب كوة بمثابة شباك أوقفت السرير ، كنت مرتبكاً ، عروقي تكاد تتمزق ، أنظر إلى فتاة تعمل من أجلي ، كانت ترمقني بنظرات خلسة ، فيها معان بدأت تتضح .

قلت لها :

«الكوة ستمرر الهواء البارد»

«هنا أحسن أستاذ»

«لكنني لا أحبذ البرد»

«هذا المكان يليق بك ، إنه مكان مريح ، على أقل تقدير يسمح لي أن أراقبك من خلال هذه الكوة»

«يبدو أنك سرقتِ مهنة أخيك»

«سمِّها هكذا»

«ولم تراقبينني؟»

«مجرد رغبة ، هل تمانع؟»

«من غير سبب!»

«حقيقة يجب أن أقولها من غير لف ولا دوران ، بدأت في التو أخاف عليك أستاذ»

«هذه أوّل مرة أسمع مثل هذا الكلام»

«تلك هي الحقيقة»

«أهي رغبة أم هناك أشياء يجب التحوط لها؟»

«ربما الاثنان معاً»

«حسناً . . أرجو أن يكون خوفك ناجماً عن رغبة شخصيّة»

نظرت إليّ ، رصدت وثوقي من كلامي من خلال نظراتي ، والبسمة التي طفرت من بين شفتي .

«حقيقة . . أنا أخاف عليك من كل شيء موجود هنا»

«هل يأتون إلى هنا؟»

«لم يحصل أنهم جاءوا»

«خلال الاجتماعات الحزبية ، كنّا نسمع التعليمات الواردة ، إنهم يتسللون إلى بلداتنا بشتى الطرق ولهم أذناب تعمل لصالحهم»

«أخي كان يضحك من تلك التعليمات ، كونهم يدخلونهم في إنذار ويحرمونهم من النزول إلى البيوت»

«هل كان حقاً يضحك؟»

«أرجو المعذرة هو لم يضحك بل أنا أقول هذه الكلمة»

اصفرَّ وجهها ، وجدتها تبحلق بـ عينين تجمدتا ، نما خوفها من كلمة (يضحك) ، كلمة كانت كافية لشنقها وشنق أخيها بتهمة التهجم أو السخرية من تعليمات السلطة الحاكمة .

«لا أفهمك يا ست ، لا تهتمي ، مجرد كلام خارج نطاق الواقع»

«حقيقة أستاذ . . أريد حمايتك»

«لم لا تتركين موضوع الحماية علي ، أنا من يحميكن من أي طارئ»

«لا تذهب بعيداً أستاذ نحن هنا في مأمن تام»

«مجرد مزحة»

«لكنني لن أمزح»

«حسناً كما تشائين»

نظراتها . . بسمتها . . الموقف . . كل شيء يعمل على تهيئة أرضية لرغبة خجولة ، دافع ما شجعني أن أتحرك ، صرت قربها ، كانت منهمكة بـ فتح حقيبتي ، مررت يدي وأوقفتها ، يدي مسكت يدها ، أطرقت برأسها ، لم تدافع عن حرمتها ، وجدتها أرضاً عطشى ، دولة بلا حكومة ، تنتظر مستعمراً يغتصبها ، وأنا غيم حابل بالماء ، لم تصرخ . . تأوهت :

«لنترك هذا الأمر إلى وقت آخر ، أخشى أن ترانا واحدة»

فقدت صلتي بالحياة ، وجدت طريدة أسقطت نفسها في شباكي من غير إغراء أو إغواء ، وجدت نفسي فوقها على السرير ، وتحول العالم من حولنا إلى فحيح وشهقات .

رنين جرس الدرس ، يشبه رنين الجحيم ، دائماً يصدح أوان الرغبة ، ويميت وهج اللحظات الجميلة .

دفعتني بود ، وخرجت بهدوء .

بقيت في غرفتي ، خائفاً أترقب ، استحياء تام يتلبسني ، إثم كبير تكفلت بحمله .

باقة هواجس شيطانية وحفنة ظنون ملتبسة تغزوني .

«ماذا عملت؟» لساني يقرعني ، «ماذا لو اتخذت إجراء عدوانياً ضدك يا حبيب؟» لا يمتلك عقلي جواباً ، «ماذا سيكون موقفك يا سعادة المدير؟» . . مائتاً صرفت هلوساتي .

نهضت . . رتبت هندامي ، فقدت كل إشكاليات الخجل والخوف في لحظة تحد .

عدت إلى الإدارة .

(خولة) عادية ، لا شيء يميزها ، ليس هناك ما يستحق التفكير به ، كأن لم يحصل الذي حصل .

لحظتها مات قلقي .

وسارت أيامنا التالية كلها روتين .

(٤)

مع منتصف الليل (خولة) تتسلل إلى غرفتي .

حواراتنا دافئة ، ننثر عواطف تلاقحت سريعاً على دقائق الظلام ، نندمج في قتالٍ جسدي وحشي .

عند منتصف الليل ، العالم كله غارق في نومه ، الكلاب تكون قد خمدت من هول النباح بوجه المجهول ، تتسلل (خولة) تحمل بالون شهوتها ، لم يعد هناك وقت استهلالي ، لم نعد نحتاج إلى وقت نروِّض فيها عواطفنا كي تندمج وتتلاقح .

تدخل . . تلقي بنفسها عليَّ ونصير في زورق الفرح مجنونين .

ليال تمضي . . حبنا يتفجر .

ذات ليلة تجمدت عيوننا في الظلام ، شبح يقف في عتبة الباب ، شبح جاء ينصت ، أو يشتهي كما عرفنا في ما بعد .

موقف لا يحتمل .

روّضت (خولة) مخاوفي :

«سميرة . . نسميها المفلفلة ، تشتهي وتستحي»

«ستفضحنا»

«لا تخف . . إنها محترقة لـ حضن فحل»

«قلبي ينخلع ، لا أعرف ماذا أقول!»

«دعني أجلبها لتشاركنا ليلنا»

نهضت (خولة) بكامل عريها .

لم أصطد كلمة من الحوار المتشابك في الخارج ، بدأت كلاب الليل برشق نباحات مكتومة ، من بعيد عواءات ذئاب أو بنات آوى تحاول تشويه رخاء الليل بالصخب أو بالغزل .

شبحان دخلا .

قالت (خولة) :

«أستاذ حبيب . . تفاهم معها»

لبست وخرجت (خولة) .

شبح واقف ، سبحت في بركة خجل .

مسكتها وقدتها إلى السرير .

قلت :

«أرجو أن لا أتجاوز على شخصكِ الرقيق»

قالت بعبرة تخنقها :

«أنا إنسانة تعيسة»

«بالعكس ، أنت فتاة حالمة»

«لكنني غير محظوظة»

«بالعكس أنت محظوظة ، أنا لم أحتمل جمالك ، كنت أخاف أن أتجاوز عليك ولو بنظرة»

«لكنك كنت تهرب من نظراتي»

«لا تسميه هروباً ، بل احترام واجب يليق بك ، خفت أن تفسري نظراتي على أنها صبيانية»

«بالعكس . . العيون الي تمطرنا بالنظرات تشعرنا بالربيع والنسيم والمطر»

«آه . . سوف أحرر بروقي ورعودي ومطري على ربوعك يا ست»
صمت .

حررت آهة طويلة ، ضوّعت بدفء وصرخة رغبة مكبوتة ، تشجعت أن أمد أناملي وألامس أناملها ، شعرت باختلاجات ورعشات تنمو فيها ، تسارع نبض قلبها ، وراحت تزفر بـ غير انتظام .

وجدت نفسي ملتهبة ، لم أعد أعرف كيف اقتحمت أسوارها المجهولة .

التحمنا .

حرائق تشتبك بحرائق . . أنين يصطدم بأنين . . لهاث يشرخ الظلام المتحمس لسترنا .

(سميرة) محترقة أكثر مما كنت ، تتلوى وهي تشد وترخي نفسها ، تصك أسنانها ، كأنها تشكو من ألم الطلق ، تحاول نهش جسدي بلسان حار ، بأظفارها رسمت على خدي خرائط مراهقة إيروتيكية تأجلت لأسباب (وظيفية) ، تعضني بأسنان شبه كافرة ، بلسان مسنن كمحراث تحرث بشراهة براءة وجهي .

بدأت أذكي نيرانها ، أنقر على أمكنتها الحساسة بنقرات تصاعد من إيقاع الرغبة ، كنت أشعر بمحراث يحرث جسدي ، لسانها جائع ، أظفارها بربرية ، تشجعت أن أضغط عنيفاً على موطن الشهوات (برمودتها) .

وقت الحب قصير .

لوّث ديك هدأة الليل بصيحة عميقة .

مرتبكة ارتدت ثوبها .

حائراً بقيت ساقطاً في الوجوم .

بسرعة البرق ذابت في الظلام المتحلل .

(٥)

كيف سارت أموري؟ لم حدث كل ذلك؟

أسئلة تواصل تمزيق ذاكرتي ، ها أنا في فراش بائس ، لا أملك سوى ذاكرة من حريق ، أيامي تمشي كـ سلحفاة حبلى أو هرمة ، لم أعد أمتلك رغبة في العيش ، العالم خارج غرفتي يحترق ، وأحترق أنا بأوراق ذاكرتي ، أشياء ثمينة فقدتها ، فقدت مسالك الحياة ، لم أعد سوى جسد مليء بأوبئة تشل حركتي ، ليس لي سوى ألبوم مواقف حافل بقصص لا تمحى ، تؤنسني ، تطرد من حولي ملل الحياة ورتابتها ، كلما داهمني هاجس (الجلطة) أفتح صفحة من صفحات عمري ، أعيد حرارة اللحظات الراسخة ، تلك الوباءات التي شكّلت حاضري .

كلما بدأت برحلة نحو تلك الأيام ، إلى ليالي المنسيّة ، أجد سفينة متهيئة لنقلي ، ظلّت حاضرة تواصل منحي جواز الحرية والإبحار نحو الأعماق المتوهجة بـ لآلئ مسرات عشتها وعاشتني .

يوم شبابي .

يوم حلمت أنني تخرجت من معهد المعلمين ، شاب تحمس للحياة القادمة ، أحمل على عاتقي أن أكون إنساناً يريد بناء الحياة ، جملة خطابات فارغة كانت تقتحم أعماقنا صباح كل (خميس) ، تصعد فينا نيران القتل والتدمير ، تمنحنا أجنحة خيالية لنطير على العالم بأسره ، لنغير كل ما هو ضد لطبيعة حياتنا ، كلمات منمقة

محشوّة ببطولات (سوبرمانية) تطلقها ألسنة المعلمين :

«كل العالم خطأ ، الكل ينافي الإنسانية إلاّ نحن ، لنا موارد تكفينا لبلورة وطننا وبنائه من جديد وفق المبادئ الخلاّقة والفكر النيّر لرمزنا المفدى وحزبنا القائد ، نحن أمّة خلقنا لنذير العالم ، ألسنا صاحب أوّل شريعة وأوّل مسلّة قانونية وأوّل ساعة رملية ، وأمة وسط ، ومهبط الأنبياء؟!»

هكذا ينفخون نيران المجد الضائع كجرعات تعزيمية لتنشئة مواطن صالح يمشي على سكة النظام ، يرددون دائماً شريعة طينية قد انسجمت لإنسان ما قبل العقلانية ، إنسان الكهوف والغابات ، إنسان لم يكن بحاجة لأسرار الحياة الكبرى كي يتمكن أن يعيش ، تلك المسلّة ، وضعها كما يقول أحد أصحابي (حمار الروابي) ، ما تزال تميمة وطنية تتباهى بها كل سلطة غاصبة .

يبغون إنساناً بليداً ، فاتحاً عينيه على طول الخط ، حاملاً سيف الانتقام .

في ما بعد أو بالأحرى الآن بعد مخاضات تعسفية ، توصلت إلى قناعة تامة ، أنّ السياسة عالم خائس ، من تسيّس تسوس ، فالسياسي هو لا كائن ، قد تكون كلمتي بحقه تحمل شيئاً من البلادة ، لكن الأزمنة أثبتت أنهم كلاب غادرة لا تصلح لرعي الرعية ، قال (أرسطو) قولته المعتبرة فيهم :

«السياسي . . هو العدو الوحيد للحقيقة»

السياسة مستنقع الكواسج والتماسيح ، السياسة بتقديري بيت الرذيلة ، كل سياسي هو مفترس متربص بالحياة الجميلة ، إن أخفق في تطويع الحياة لصالحه ، ينخرط في نباح طويل بوجه كل نور ، السياسة

عندما تتدخل في شؤون الحياة ، عندما تحاول تصهير المجتمع في بوتقة واحدة ، لتسيّر الناس على أهداف شوفينية ، راديكالية ، تحاول تقليمهم كما تقلم الأشجار ، تتدخل في ملبسهم ومطعمهم ، تغدو حوض تطهير ، كما يقول أبو الاشتراكية ، الملعون (لينين) :

«لا أخلاقية في السياسة ، هناك فقط نفعية»

السياسة مكناسة إمّا تكنس الرعية نحو النعيم وإمّا تسوقهم نحو الجحيم ، ويعتمد ذلك على اليد التي تحملها .

والقوّة الدافعة لها ، غالباً ما تختبئ وراء كواليس معقدة ، تزق سموم الفناء لتحقيق غاياتها الشيطانية .

كل سياسي جندي إبليس عليه اللعنة .

كنت بدافع الغرور والظهور أتحرك كالمكوك ، فتى نشطا ، متباهياً بزي مهندم ، لامع ، يثير السخط أكثر مما يجذب الانتباه ، رصدتني أعين السلطة الساهرة ، شاب من شباب المرحلة الثورية ، مؤهل لحمل الراية في رقعة جافة ، سيحييها ويجعلها يانعة تثمر فرساناً وقرابين تطيل من عمر الحزب .

السياسة لها عيون متحفزة ، ترصد الـ حمير المتعافية لحمل ونقل وترويج بضاعتها .

من غير تأخير ، أصدروا قرارهم الظالم بحقي ، خلته ضريبة عملي المتواصل بتفانٍ وإخلاص ، رغم صدور قرار وزاري ، يلزم كل (حديث التخرج) العملَ في مدارس القرى والأرياف لثلاث سنوات قبل نقله إلى مدارس المدن .

قالوا لي :

«رفيق حبيب . . لا يوجد لدينا في الوقت الحالي ، من يحمل

مواصفاتك الوطنية العالية ، لكسب تلك الشرائح القروية إلى الحزب وتثقيفهم ، كي يغدوا مشاريع تضحية من أجل توحيد وإحياء الأمة المفككة تحت رسالة خالدة ، وإعادة مجد زهوها البائد على أيدينا ، البلاد أجبرت على الحرب ، علينا أن نحافظ على بنيان الداخل كي يكون بنياننا الخارجي متيناً بوجه العدو القادم لإلغائنا»

«أريد الخدمة هنا ، أنا مرتاح مع التنظيمات الطلابية»

«رفيق حبيب . . نفذ واسكت؟»

يائساً ، متذمراً ، جرجرت نفسي ، لم أنم تلك الليلة ، خرجت إلى الشوارع ، الرفاق مكهربون بالخوف ، ناحتون رؤوسهم وأعينهم في الفضاء ، إنهم يبحثون عن المجهول الحائم في الفضاء ، كلهم يتوقع أن الحرب آتية من السماء ، أسلحتهم حرة ، أفكارهم جبانة .

أجوب متاهات الليل ، أبحث عن كوّة تلقيني في غياهب العدم ، قبل أن أشعر بلا قيمتي في الحياة .

صباح المسافر يأتي سريعاً .

علي أن أشد الرحال إلى متاهات الجبال ، إلى عالم غير مكتشف ، ربما ناسه وحوش لم تكتوِ بعد بنار الواقعية الجديدة ، لم تعرف أن الحياة قربهم مدججة بسموم الحرب ، وضعت في بالي أنني سأعاني طويلاً لخلق فواصل محبة وألفة بيننا ، لابد أنهم سيتهمونني بالجذف والجنون لو طرحت عليهم أفكار المرحلة الجديدة في حياة البلاد ، ربما سيجدون أن السياسة دين جديد هابط عليهم ، تجبرهم على ترك دين آبائهم والخضوع لرجلٍ ضرورة يمتلك الكثير من وسائل الإقناع والإمتاع .

طريق متعرج ، يخترق الجبال والوديان . . (التراكتور) يرقص ويخضني كقربة خض اللبن .

شغلت عيني وفكري بملامح أمكنة غير مأهولة ، عالم يابس ، لا شيء سوى تراب متراكم ، تهب دفقات الرياح ، ترفع رفوفاً من التراب ، تلولبها على هيئة أسطوانات غبارية تتعامد مرتفعة نحو فضاء كالح ، ترافقها موسيقى زمهريرية كأنها زئير أسود جائعة ، أو حشرجات ـ بلغمية ـ جراء مروق رياح عاصفة عبر تجاويف وأخاديد أسطوانات معدنية ، لم أجد أثراً لنبات يوحي بأن الحياة ممكنة ، إلاّ أشواكاً وعاقولاً ، نباتات صحراوية تعيش بطريقة استثنائية ، لم أجد شجرة واحدة تمنح الراحة للنفس المؤرقة .

قلبي ينقبض ولساني سراً يلعن من ألقاني خارج حديقة حلمي .

بعد مرور ساعة وإحدى وأربعين دقيقة كما قال سائق (التراكتور) ، من الشارع العام وحتى القرية ، مضافاً إليها ساعة ونصف الساعة من بلدتي (جلبلاء) ، وجدت نفسي في قرية بيوتها متناثرة ، داخل مدرسة طينية بلا سياج ، غرف متقابلة ، في الجهة الشمالية قاعة طويلة لنوم الكادر التعليمي ، خمس غرف متلاصقة للدروس ، غرفتان صغيرتان متلاصقتان في جهة الشرق ، غرفة لدورة المياه ، وغرفة فيها خزّانات الماء .

منظر الإناث العشر شرّد من ذهني تلك الثورة التذمرية التي تنامت فيَّ قبل وصولي .

كان ليلي تفكيراً وأرقاً ، أخرج إلى فضاء المدرسة المترامي ، من تلك القاعة حيث الإناث راقدات ، أسمع عزفاً متشابكاً لأنوف تشخر ، قبل أن أجد نفسي واقفاً أتأمل السواد ، لا شيء يتضح ، تتفاعل رغبتي وتتفاقم حيرتي ، قبل أن أكتشف الموت من أجل لحظة سعادة مطلباً وراحة ، عندها أندفع نحو سرير منفرد ، تحت النافذة ، سرير (خولة) ، أسقط عليها وأدخل معترك الشرور .

(٦)

كـانت ليلة مـجنونة ، أو ملتـبسـة ، بقـيت أنتظر ، لـم أجد وازعـاً أو رغبـة تدفعني أن أتسلل ، قد تكون هناك واحدة مؤترقـة مثلي ، يرفض النوم السكن في عينيها ، كلنا مؤترقون ليلاً ، تأخذنا ـ الصفنات ـ ، تشرقنا وتغربنا ، فالشهوة أرق عضال ، لا ينجو من زوبعته راقد في غربة في غـرفـة ، أرق يحـضـر مع الليل ، لا ينجلي أو يموت ، بحكم المكان ، بوازع الفراغ موطنه الليل .

كان قلبي يتمـزق ، دقاته فاقت المألوف ، نبض يدمدم في قلبي ، يفضحه صدري ، يستجيب له لساني ، وراح يجف ، وألهث ، لساني ينطق أو يهذي :

«لما لم تأتي ـ خولة؟ ربما سئمتني! ربما نامت ونسيت ما عـزمنا عليه!»

أسئلة تحتدم من غير جواب مقنع ، فهي معروفة بالنسبة لي ، بصدق رغبتها ، بقوّة صراحتها ، تمثل كلما تنهض ريح العاطفة فينا ، يدفعني الهلع ، ينهضني ، يرميني في لجة رغبـة ، يريدني أن أذهب إليها ، أن أتسلل عبر المسافة الغارقة في العتمة ، أخترق الظلام ، عابراً الأنفاس الشاخرة ، ضاغطاً بإصبعين على أرنبة أنفي كي لا يثار ويطلق (عطسة) جراء رائحة الآباط وعرق النوم وربما رياح الأجواف الهاربة .

حتماً هي هناك ، على سريرها قرب النافذة ، ما إن أصل ، ومثلما كنت أفعل ، سأمرر أناملي المستفزة ، أخرجها من نومها ، وأسحبها من الفراش .

الرغبة قفلت عقلي وقذفتني ، وجدت نفسي داخل غرفتهن ، الفانوس مطفأ ، لم أهتد لوسيلة توصلني إليها ، وقفت أفكر بطريقة ما ، قبل أن تباغتني واحدة أتت من الحمّام . . همست :

«ها . . أستاذ!»

مرتبكاً قلت :

«إحساس باغتني أن غريباً يتجول داخل المدرسة»

«أنا كنت أتجول ، لا رغبة لدي بالنوم»

«وأنا أيضاً أشعر بأرقٍ ثقيل حرمني النوم»

«ولم تقف هنا؟»

«لا أعرف!»

لم تعقب ، ظلّت واقفة وصامتة ، تشجعت ، قلت لها :

«إذا كنتِ مؤترقة لنجلس ونتحاور عسى النوم يكرمنا بسحره»

«ولكن!»

«لا داعي للخوف»

«جلوس الليل مشكوك في أمره ، ربما تضبطنا واحدة»

«لنجلس في غرفتي»

«أفضل الجلوس في الإدارة»

«الإدارة أقرب إلى غرفتكن»

صمت .

مشيت ومشت ورائي ، كان الفانوس ينير أرجاء غرفتي بضوءٍ

متراقص ، جلست هي على سريري ، جلست قبالتها على كرسي خشبي . . قالت :

«كيف تقضي الليل؟»

«سهر وتفكير»

«لم لا تأتي وتجلس معنا»

«أشعر أن ذلك يحجم من حريتكن»

«المدير السابق كان أحيانا ينام معنا في القاعة»

«أما كان يخجل؟»

«كان عكسك أستاذ ، كان خجولاً ، نضعه وسطنا ونمطره بكل أنواع الكلام الصريح والمقالب»

«وماذا كان يقول؟»

«كان يصرخ : ارحموني ، ستطلقني زوجتي يا أخوات»

«أما كان يتجاوز حدوده؟»

«ماذا تقصد؟»

«يعني ، يخرج من ثوب أبوّته»

«حاولت الست ـ خولة ـ معه ، كان يهرب من الغرفة ويسهر أحياناً في الخارج حتى الصباح»

«يا له من غر جبان»

«على ما يبدو أنك شجاع أستاذ»

«أليس على الإنسان أن يكون شجاعاً في مثل تلك الحالات»

«هل أنت متزوج أستاذ»

«أتمنى أن أكون كذلك هذه اللحظة بالذات»

«ماذا تقصد بهذه اللحظة بالذات؟»

«لأنني وجدت من تكمل نصف ديني وتقيم دنياي»

سكتت .

كانت تنظر بعينين تبرقان من خلال ضوء الفانوس ، علامات الخجل تنمو وتضمحل على ملامحها . . قالت :

«لم لا نعلن هذا؟»

«أبهذه العجلة!»

«خير البر ليس آجله»

«علينا أن نخوض تجربة التعارف أولاً»

«تقصد الحب ، آه من الحب ، أنت تطرح المستحيل»

«على ما يبدو أنك احترقتِ بناره»

«مرة فاشلة أستاذ»

«هذا يشعرني بالغيرة»

«كانت لحظة عابرة وانتهت بسلام»

«وهل ما زال صاحب النار موجوداً؟»

«كلا . . قتل في حادث سير ، كان جارنا ، فتى لم أشعر بميل نحوه ، عندما أعلنوا أسماء الطلبة المقبولين في الكليّات والمعاهد ، كلفته والدتي أن أرافقه إلى (بغداد) ، لم يبد اعتراضاً ، هناك في (بغداد) دخلنا مطعماً ، عند المغاسل وجدته يقف قربي ، مد كفّه ووضعه على كتفي ، شعرت بشيء من الرجفة ، خشيت أن أتخذ أي إجراء عدواني ، كان الدور التحتي للمطعم غاصاً بالزبائن ، وحدنا كنّا في الطابق العلوي ، فجأة احتضنني وهمس في أذني : «أميرة . . أحبك!» لا أعرف كيف ذبت بين أحضانه .

«وهل استمر ذلك بينكما؟»

«كلا . . حين عدنا أعددت نفسي لـ حب سيثمر عن زواج»

«وماذا بعد؟»

«وجدته يغطس في وحل الخجل»

«ربما شعر بلا قيمته بعد تلك العاطفة الجارفة»

«بالضبط . . كتب رسالة لي يعتذر ، أنه من غير وعي ارتكب تلك الفعلة ، وسمّاها جبانة»

«ربما كان زير نساء»

«كلا . . بل راح يختفي قبل أن يذهب إلى حفلة عرس ورجع ميتاً»

«وهل بكيته؟»

«كل فتاة تبكي عند فقد عزيز قلبها»

«حسناً . . ، يبدو أنا سأموت لو . . . »

ضحكت ، تشجعت أن أدنو منها ، اختلجت ، وجدتها صامتة . . قالت :

«أشعر أنك قريب إلى نفسي»

«بالطبع . . أنت من بين كلهن محط إعجابي يا ست ـ أميرة ـ »

لم تمتنع ، وجدتها أنثى عطشى ، أخذتنا موجة عاطفية طويلة .

صاح الديك إيذاناً ببدء بوادر الفجر .

قمت وقامت ، رتبنا نفسينا . . قالت :

«انتظرني كل ليلة»

«علينا أن نتفق على ساعة الموعد ، لا أريد أن نتواصل كل ليلة خشية سقوطنا في عيني واحدة»

«ليكن آخر الليل هو الوقت الملائم»

«حسناً . . !»

«ليكن هذا سراً بيننا»

«هذا ما نسيت أن أطلبه منك»

«حسناً . . جمال الحب في سره»

«أهذه فلسفة؟»

«ربما كلام خطر في بالي»

صمت .

احتضنتها مرة أخرى ، كدت أن ألقيها على الأرض ، لولا أنها سحبت نفسها وخرجت إلى الفضاء الشاحب ، من خلال الكوة رأيتها تذهب إلى دورة المياه .

عادت بعد دقائق لتدخل قاعة الفواكه .

(٧)

ما قيمة المدن إذاً؟ بدأت ألعنها ، طالما وجدت فردوسي المفقود ، بعد مرور شهرين ونصف الشهر كنت أمتلك ثلاث مدن لحمية ، فيهن ضوع الخلود ، يعطينني ما أشتهي ، يحطمنني حين أشعر أن جسدي متمرد .

في الليل ، في أوله تحديداً تأتي (خولة) ، تمطرني برقصاتها ، بضحكاتها ، لا تشبع ، حتى إنني فكرت أن أتخذها زوجة دائمة ، كنت خلال حمى العاطفة أهمس أو أهذي بتلك الرغبة ، كانت تضحك ، لا تخاف ، زميلاتها عرفن مدى العلاقة التي شرنقتنا ، لم يبدين غيرة أو تذمراً ، كانت (خولة) شعلة المدرسة ، هي من تطبخ طعامنا ، ترتب كل شيء ، لا تمل ، ترفض معاونتها في أثناء عملها .

مرة سألتها :

«لم كل هذا التعب؟»

«حين أعمل تخمد نيران أحشائي»

«لنتزوج كي أخمد حرائقك إلى الأبد»

«ومن قال إنني سأرضى بك زوجاً!»

حررت قهقهة طويلة ، خلتها تضحك عليَّ ، كدت أن أتركها لولا أنها بـ شيطنتها تداركت نفسها ، ضربت بباطن كفها على صدري . . أردفت :

«رجل واحد لا يكفيني أستاذ ـ حبيب ـ »

«ألم تجربي قدراتي الليلية؟»
«ليس هذا ما أريد من الزوجين»
«لا أفهمك!»
«ليت يسمحوا لنا أن نتخذ رجلين أو ثلاثة أزواج ، مثلما أجيز لكم التعددية ، أليس من حقنا أن نطلب تعدد الأزواج ، بعدما حسبونا نصف المجتمع؟»
«تخترقين المحرمات يا ـ خولة ـ »
«أتدري لم أتمنى أن يكون لي مجموعة رجال في بيت واحد!»
«ولم يا ملعونة؟»
«سأجلس كل ليلة عارية على فراش ـ .. .. ..ـ وأجعلهم يتقاتلون في ما بينهم ، أو يتصارعون من غير إيذاء بعضهم ، والفائز من بينهم هو من يبدأ جولة الفراش معي ، تحت أنظار الخاسر طبعاً»
«بعيداً عن التشبيه ، مثل تجمعات الكلاب مواسم السفاد»
«بالضبط ، أجعلهم يتقاتلون مثلما تتقاتل الكلاب حول كلبة»
«إنها فكرة مدمرة»
«تلك الكلبة تشعر أنها أسعد أنثى في العالم ، تشعر أنها محط إعجاب ومطلب كلاب الدنيا ، الكل يخوض القتال كي يلاصقها»
«وهل تمتلك الكلاب تلك المشاعر والأحاسيس؟»
«أما ترى الذكور أفواجاً يلهثون خلفها ويتوسلون»
«لكل كائن طريقة تجانس متلائمة مع طبيعة غريزته»
«طريقة الكلاب هي الأجمل»
« على ما أعتقد طريقتنا هي الأمتع»
«كانت تغدو ممتعة لو سمحوا لنا بالتعددية»

«آه لو سمعك رجال الدين لزحفوا إلينا ورجموك يا ـ خولة ـ بحجارة الدنيا»

«وهل تسمح لهم بذلك»

«حتماً لا . . سأصب كل إطلاقات حزبنا القائد في رؤوسهم العنيدة»

احتضنتني وخضنا شوط جماع خارج نطاق المنطقة المغلقة بـ غشاء الشرف .

***

كنت أسمع أن الغني بخيل ، يلهث لجمع المزيد من المال ، بعد تجربتي مع (خولة) و(سميرة) و(أميرة) ، وجدت نفسي في حيرة ، كنت أفقد شيئاً فشيئاً تلك الرغبة الضارية فيّ ، أنغمر في عالمي ، أحقق سعادة جسدية ، لكن هناك أضواء قادمة من مكان قريب ، تغريني أن أغامر ، رغبة تمخضت عن صيد جديد دسم ، كانت المعلمات طرائد في متناول اليد ، لا تكلفة بيننا ، كثيراً ما أختلي بواحدة طيلة الدرس ، نتناقش في كل شيء ، لم أجد دافعاً يدفعني لفتح ممرات الشهوة المشتركة إليهن ، وجدت جسدي فاقداً نيرانه طيلة الليالي ، نظرات تحفرني ، تمهد الطريق أمامي للمغامرة ، فكرّت أن أمنح نفسي راحة ليلية كي أتهيأ لفتح مدن جديدة ، مثل سائح لا يرغب في المرور في مدينة مرتين ، طالما راودتني فكرة بدت معقولة ، كل فتاة مدينة فاضلة ما لم توطأ ، كل أنثى فردوس مفقود طالما غشاء الخطيئة صامد ، لكن الفكرة لم تختمر ، عجزت عن إيجاد منفذ الوصول إلى الغاية ، أتت من خلال (خولة) صاحبة الفضل الكبير في مسيرتي العاطفية .

***

ذات ليلة كنّا أنا و(خولة) على موعدٍ ضربناه في أثناء الدوام .

كنت واقفاً أتأمل الفضاء الملبد بالغيوم ، من وراء النافذة ، طيور تأتي من وراء الجبال الممتدة ، تحلّق في الفضاء قبل أن تنقض على الأرض ، باغتتني من غير أن أشعر بدخولها :

«أين تسرح أستاذ؟»

«طيور الزاغ والزرازير بدأت تجتاح بلادنا»

«انتهيت من مصيبتي الشهرية»

«أعرف»

«يبدو أنك تحسب معي»

«شيء لابد منه في هذا المكان المنقطع عن العالم»

«الليلة سنسهر»

«حسناً . . أنا أحترق!»

خرجت .

تهيأت لتلك الموقعة ، حلقت ذقني وسبحت ، جلست أنتظر مجيئها ، فجأة برزت في العتمة ، اقتربت من الكوة ، همست :

«أستاذ حبيب . . سأنتظرك في فراشي ، بعد نصف ساعة يمكنك أن تغزوني»

قالت كلمتها ومشت دون أن تسمع ردّي ، راقبت شبحها يضمحل في الظلمة ، لا أعرف كم بقيت في فراشي ، لكنني هجست أن الوقت الذي انتظرته جاوز الساعة ، هكذا تدرب ذهني على حساب الدقائق التي تفصلني عن المغامرة ، ساعة واحدة كانت كافية لتهيئة جوارحي من أجل السباحة في بحيرة الإثم ، ليست هناك مشكلة ، فأنا أعرف مكان نومها ، قرب النافذة ، أعرف كم خطوة تفصلني عنها ، بوصلة

ذهني بدت دقيقة ، لا تنحرف في أثناء الظلام ، ليالي كثيرة شققت بحر الظلام وشاركتها فراشها حتى وقت متأخر ، حسب رغبتها طبعاً ، حين تتكاسل من ترك سريرها والمجيء إلى غرفتي . . كانت تقول :

«أشعر براحة كبيرة ونحن نتجانس بين إناث نائمات»

«ربما ستكتشفنا واحدة»

«لا تخف ، كلهن يعرفن طبيعتي العاطفية»

«ليكن ذلك طالما هي رغبتك»

خرجت إلى العتمة ، مشيت على رؤوس أصابعي كـ لص يدخل منطقة مجهولة ، كان (الفانوس) منطفئاً ، كما كانت العادة ، ففي ليل العواطف كانت تضع القليل من الوقود في خزّان (الفانوس) كي ينتهي بسرعة ، وصلت الفراش ، جلست أتلمس دربي ، وجدت جسدها متراخياً ، نائمة ، تعجبت ، كيف نامت ، دائماً حين كنت أتسلل إليها ، أجدها متهيئة ، لم أشغل نفسي بشيء لا يستحق التفكير والتأخير ، كنت مضطرم الشهوة ، مررت يدي تلامس حرارة ساقين منفرجين ، الزغب الناعم يكهربني ويزيد من ضراوة شهوتي ، صعدت بهدوء إلى السرير وتمددت ببطء ، صرت معها ، تململت وعانقتني شبه نائمة ، غمغمت قبل أن تغيب شفتاي بين شفتيها ، في غمرة العناق المحموم تسللت يدها إلى كائني ، فجأة انتفضت ، بقيت جامدة لا تتحرك ، باغتني ذلك الهاجس الدائم ، احتمالات الخطأ ممكنة في يوم ما ، فليست الذاكرة دائمة يقظة ، حاولت أن أقنع نفسي أنني لم أخطى الاتجاه ، فالنافذة دليل قاطع على أنني في سرير الست (خولة) ، لا اختلاف يوجد ، حين دخلت الغرفة بكامل وعيي ، جسدي تجرد من شغب الهلع والتردد ، مثل كلب يشم رائحة طريدة ، تسللت وتأكدت

من المكان ، الفراش نفسه ، الوسادة نفسها ، النافذة ، نفسها الأجساد التسعة ترتسم أشباحها بوضوح أمامي متراصة بنسق شبه منتظم .

وجومها لم يستمر بعدما مسكت معصمها بعنف ، دنت من جديد منّي . . تأوهت :

«أهذا أنت أستاذ؟!»

«أنا . . نعم أنا!»

سمعت صوت بكاء خافت ، احتضنتها بعنف ، ولحظة مررت أناملي في شعرها ، تجمدت أوصالي ، لم أعد أتحرك ، كانت (خولة) تمتلك جدائل طويلة ، بينما هذا الرأس الذي أحتويه يحمل شعراً مجذوذاً . . همست :

«لم توقفت؟»

«من أنت؟»

«أما عرفتني؟»

«صوتك ذبيح والخوف بدأ يأكلني»

«حمدية!»

«حمدية!»

«لا تتغابى أستاذ»

نهضت وسحبتني إلى الخارج ، قادتني كمريض إلى غرفتي . . قالت :

«هنا يمكننا أن ننجو من الخوف»

بكل برود مارست نشاطي معها . . قالت :

«أين شبابك؟»

«لم أكن أتوقعك!»

«لولا ـ خولة ـ لحرمتنا من عواطفك»
«إذاً هي السبب!»
«وهل أنا لا أستحق الحب؟»
«بالعكس . . أنت سيدتهن»
«ولما لم تفاتحني برغبتك؟»
«من باب الاحترام والمودة»
«حاولت استمالتك ، لكنك كنت تهرب من نظراتي»
«أنت الآن مدينتي الفاضلة يا ست ـ حمدية ـ »
كان الليل يمضي ، وكنّا منهمكين بـ لعبة الحياة التي لا تنتهي ، بعد شوط لاهث نشدنا قسط راحة .
قلت لها :
«كيف حكتما خيوط اللعبة؟»
«اتفقنا على تبديل مكان نومنا»
«أكانت رغبتك؟»
«كانت تحكي لي عن شبابك»
«ملعونة!»
«كنت لا أصدق كلامها»
«وماذا قالت؟»
«قالت سأجعلك تجربين ذلك بنفسك»
«واتفقتما على تبديل الفراش»
«كما رأيت»
«أنت دافئة جداً يا ـ حمدية ـ »
«ما العمل .؟ هرمنا هنا ، عالم بلا ذكور يغدو جحيماً»

«وهل جربت هذا من قبل؟»

«عدة مرات!»

«مع من؟»

«مع فتى في القرية ، كان يرعى البقر ، وجدته منفرداً ، شجعته على ذلك»

«ألم يتمرد؟ألم يخف من لعبة جديدة عليه؟»

«وجدته يستمني ، في ظل جدار ، باغته ، وقف يبكي»

«ماذا بعد؟»

«للحق أقول اشتهيته»

«من أوّل مرة!»

«ما العمل كنت محترقة ، مجنونة أبحث عن أي شيء يسكت عذاب برمودا»

«وماذا بعد يا مصيبة؟»

«هددته بالفضيحة ، إن لم يفعل معي»

«ألم تقدِّي ثوبه من دبر؟»

«لو هرب لفعلت ذلك ، لكنه وقف يتوسل»

«وماذا بعد . . أكاد أحترق»

«أنمته على صدري ، وتركته يمسح كائنه بـ برمودا ي»

«وهل استمر في ذلك؟»

«كلا . . كنت في قريتهم في مكان بعيد من هنا ، ثلاث مرات عملنا ذلك قبل أن أجد نفسي منقولة لا أعرف لم إلى هنا»

«ربما شموا رائحة سرطان جاء يلتهم أخلاق أبنائهم وقرروا إبعادك»

«هذا ما وضعته في بالي»

«أرجو أن لا يشموا رائحتك هنا أيضاً»

«أنت ستشبعني حتماً»

«ما دمتِ فرن عاطفة ، بوسعي أن أتدفأ فيك»

«إيّاك أن تنكث بهذا الميثاق»

«أعدك بهذا»

أمضينا بقية الليل ، ما بين العناق والتقبيل .

صاح الديك .

خرجت سعيدة بعدما مصت شفتي وطبعت قبلة صائتة على خدي .

(٨)

(خولة) فتاة حالمة ، جسدها لدن ، تمتلك خفة روح ، حرارة لا تنسى ، قررت أن تكون الحبيبة المعلنة ، رغم اعتراضي على ذلك ، لأنني توقعت أن ذلك سيؤثر على سلوكهن ، فالنساء غابات غيرة وحسد ، كل أنثى تشعر أنها جريحة عندما تشم رائحة حب تتلبس زميلتها .

وقفت ذات ظهيرة ، منتصف الغرفة . . قالت :

«ما رأيكن يا أخوات في فكرة جديدة خطرت لي»

صاحت (إيمان) :

«أفكارك لا تخرج من فلك الزواج والحب»

سكتت ، ندت ضحكة من الجميع . . أجابتها (خولة) :

«فكرتي الجديدة ، أن يتزوجنا الأستاذ ـ حبيب ـ كلنا ونعيش هنا إلى الأبد»

قالت (حمدية) :

«أنا معكِ أول الموافقات»

قالت (أميرة) :

«وهل يتمكن من العدل بيننا»

صاحت (خولة) :

«ديك شامي»

«سيذبحوننا جميعاً بتهمة خرق الشرع» . . قالت إيمان .

كنت أموع من كلامهن رغم أنني أمتلك أربعة منهن ، امتلاك الديك لدجاجاته ، تلك هي غاية الفتاة عندما تكون في منفى ، يحدوها الشعور بالتوحد مع كائن ما ، مهما كان ، لأن العيون تتجرد من رغبتها ، ويكون نداء القلب سيفاً باتراً لكل تردد ، عالم النساء قارة صادمة ، يعجز الجنس الذكوري من الأزل وإلى الأبد عن اكتشافها ، نحن نمتطي صهوة القارة في لحظات الغباء والهذيان ، بينما هي تمتلك صولجان حريتها ، كل امرأة قارة غامضة ، غاضبة ، تتشكل في دقيقة وتضمحل في ثانية .

بقية الإناث ، حاضرات ، أمكنتهن مؤنثة ، واقفات بلهفة على رصيف الرغبة ، من خلال نظراتهن ، من خلال كلامهن ، وجدت نداءات أغوارهن تستنطق الحجر ، إناث يكبرن بسرعة ، محرومات من اللذة ، نائيات في مكان بعيد ، لا شيء سوى الفراغ القاتل ، فالخلوة تنهض المشاعر ، ومشاعر الأنثى مدينة فاضلة مغلقة ، فارسها أي ذكر يصول لاستباحتها .

صاحت (جيهان) :

«أنا أقترح ، أنّ أول عقد قران يتم على ست ـ وداد ـ »

نهضت (وداد) وبارحت الجلسة كعادتها ، لكنها لم تطرق الباب بوجهنا كما كانت تفعل في كل لحظة غضب . . صاحت (خولة) وراءها :

«ستموتين غيرة يا معقدة»

تعالى الضحك . . قالت (بدرية) :

«وكيف نواجه المجتمع يا ست ـ خولة ـ ؟»

«وما علاقة المجتمع بنا .؟ نحن أحرار في ما نختار!»

أجابت (بدرية) :

«سيرجموننا أمام العالم وعبر شاشة التلفزيون»

قالت (خولة) :

«سيكون الزواج على قسمين ، قسم منّا زواج شرعي ، والبقية جاريات»

قلت لها :

«سنبني مملكة هنا ، أنا الملك وأنتن الملكات ، ومن هنا ننطلق لنحرر العالم من رثاثة القرون البالية»

تعالت الضحكات ثانية ، قرع جرس بدء الدرس ، نظرت إلى الساعة ، وجدت الكل ينظرن بدهشة ، جاءت المستخدمة (أم عليوي) تركض . . صاحت :

«ست ـ وداد ـ قرعت الجرس»

«ولم فعلت ذلك؟»

«هكذا مزاجها ، إنها تتصرف بـ صبيانية أحياناً»

قالت (كريمة) :

«أستاذ حبيب . . من يوم حجزوها إلى ابن عمّها قسراً تعقدت»

قالت (أميرة) :

«لو كنت مكانها لتحررت وبنيت ما أشاء من علاقات انتقاما لشريعة البيت»

قلت :

«سأحكي معها في القضية ، يجب أن نمنحها حقها!»

في تلك اللحظة كان التلاميذ في صفوفهم .

خرجت .

الساحة خالية ، الست (وداد) جالسة على كرسي بباب المستخدمة .

تقدمت منها ، لم تنهض . . قلت لها :

«لا يستوجب أن تكوني قاسية مع نفسك»

«لا أحبذ هكذا كلام»

«أنت في مكان ناء ، من الممكن أن يسبب لك متاعب نفسية ، نحن هنا عائلة ، ليس كل ما يقال جد ، على المرء أن يغدو متكيفاً مع الأجواء التي يجد نفسه مرغماً فيها»

«كلامكم يستهدفني»

«أنت السبب في ذلك»

«وما جريرتي؟»

«التمرد يلفت الانتباه ، ويشجع الآخرين على التحرش»

«قلت لك أنا محافظة ، لن أسمح لأحد باختراق حدودي»

«لا أحد بوسعه التجاوز على الآخرين»

«لم لا تكفوا؟ربما أرتكب حماقة كبيرة في القريب العاجل»

«ست ـ وداد ـ أنتِ إنسانة عاقلة ، وعيك الديني دليل نضجك وثقافتك»

«ولم لا تقول هذا الكلام لهن»

«آه لو فكرت بي لما كن يتجرأن على ذلك»

«أنت تفكر بـ غرائزك أستاذ»

«الغريزة حق مشروع ، أنا أريدك رفيقة حياة لا رفيقة درب»

«قلت لك أنا محجوزة لابن عمّي»

«على كلٍ ، أنت لست مخطوبة ، بل هناك كلام فقط ، هذا ما تقوله الست ـ إيمان ـ »

«لا فرق لدينا ، كلامنا قانون ملزم التنفيذ»

«ليس هذا وقت فتح الباب لموضوعنا ، أريدك أن تنسجمي معهن»

«نبههن أن لا يثقلن مزاحهن معي؟»

«حسناً سأسوي هذه القضية معهن»

تركتها جالسة في مكانها ، خرج التلاميذ بعد تذمر ، تقدم مني أحدهم . . قال :

«أستاذ قتلنا الحر»

قلت له :

«ليس لديكم دروس ، أخرجوا!»

هرب يصيح في زملائه ، خرجوا ليعاودوا الصخب واللعب ، دخلت الإدارة . . صاحت (خولة) :

«حمامة أم غراب»

قلت لهن :

«عليكن التخفيف من مزاحكن ، على أقل تقدير في هذه المرحلة ، يمكننا أن نستميلها بطريقة ودية ، هي قروية ، تكره المزاح ، أرجوكن أتركوها لحالها ولو لبعض الوقت»

قالت (حمدية) :

«لم لا تنقلها أستاذ؟»

«لا صلاحية لدي لنقلها!»

قالت (خولة) :

«عينك عليها أستاذ»

« ليس هنا بيت القصيد ، البلاد بدأت تخوض حرباً كبيرة وطويلة ، الحزب يؤكد ترصيص الصفوف لمواجهة الخطر القادم من الشرق ، المرأة باتت في عين السلطة نصف المجتمع ، النصف الحيوي ، الرجال تنتظرهم الأسلحة كي يسدوا الحدود ، على النساء أن يتهيأن لحمل عبء مواصلة الحياة الداخلية ، وإعداد أنفسهن لإنجاب جيش من الذكور»

تكلمت (جيهان) :

«أية حياة داخلية ، ما إن تخرجنا حتى رمونا هنا في هذه الرقعة المنسيّة »

قالت (بدرية) :

«كان من الممكن نقل هذه العائلات المتناثرة إلى المدن لإخراجها من سباتها ، لا أن ترمينا في أحضانها»

صاحت (خولة) :

«أنا مع توجهات السلطة ، لولا وجودنا هنا ، لما عرفنا معنى الحرية »

قالت (جيهان) :

«لعبت على الحبلين مع أساتذة المعهد ، وضحكت على ربع الطلاب ، أما كانت تلك حرية؟!»

أجابت :

«لكل مرحلة لون خاص من اللعب»

قلت لها :

«وهل لرجال القرية مرحلة أيضاً؟ »

ضحكت . . وقالت :

«قرية أنت فيها على رجالها أن يموتوا بحسراتهم»

صمت .

تلاقت النظرات ، في تلك اللحظة رن جــرس الدرس ، تحــركن ومضين إلى الصفوف ، بقيت وحدي لا أعرف ماذا أعمل ، دائماً اجترار الكلام كان عزائي الدائم ، بحثاً عن سلوى لنفسي وإخماد نيران غربتي .

(٩)

أحياناً لم أجد دافعاً عاطفياً يستفزني في الليل ، ينتابني الشعور بالخـواء والكسل ، لا أرغب في اللعب مع واحـدة ، لكن الرياح تأتي دائماً خلاف رغباتي ، أجد نفسي بين اثنتين ، أحياناً أجد نفسي بين ثلاث إناث ، متعباً أواصل حواراتي الجسدية ، تمتد جلساتنا ، لاشيء يدور خارج نطاق الجسد ، وغالباً ما كنت أمارس نشاطي تحت ضوء الفانوس ، قبل أن أباغت في ليلة لا أنساها ، كانت الساعة بعد منتصف الليل بدقائق ، كنت على موعد مع (أميرة) بعدما اعتذرت (خولة) متعللة بتعب جرّاء قيامها بطبخة (برياني) للجميع ، جاءت تمشي وكنت أترقبها من الكوّة ، نقرت الباب ، هرعت إليها ، لم أتمالك نفسي ، احتضنتها ونقلتها إلى الفراش ، كنّا ذائبين في حوارنا اللا . . مخجل ، تناهى إلى سمعي وقع خطوات ناعمة ، حاولت (أميرة) أن تبعد عن ذهني الظنون . . قالت :

«لا تخش كلهن غارقات في النوم»

«أظن أنني سمعت صوت أقدام غير طبيعية»

«ربما قطة!»

أرهفت السمع ، لا شيء سوى الظلام السائد ، أصوات كلاب تنبح ، عدت لأنهمك مع (أميرة) ، وهاجس الشبح يلجمني ، لم تمض سوى دقائق حتى أنار عود ثقاب العتمة ، قبل أن ينير ذبالة الفانوس ،

لم أمتلك فكرة في تلك اللحظة كي أتدارك القضية ، جلست عارياً ، كانت (خولة) تكركر ، (أميرة) لم تبد اهتماما ، ملامحها ظلّت تحتفظ بحرارة عناقنا . . قالت (خولة) :

«لم توقفتما؟»

قلت :

«لم يتبق فيّ وميض رجولة بموقفك هذا»

قالت :

«ليتني أمتلك كاميرا لنشرت صورتكما في تلفزيونات العالم»

قالت (أميرة) :

«اتركينا أرجوك ، خربت علينا الذوق»

أجابت (خولة) :

«حسناً . . سأطفىء الفانوس ، ولكن لن أبارح الغرفة ، يعجبني سماع حواركما في الظلام»

قلت لها :

«كان يجب أن لا تشعلي الضوء كي تستمتعي بما نهذي به»

قالت (أميرة) :

«أرجوك يا خولة . . نقطة نظام»

أجابت :

«حسناً . . سأنتظر جالسة في الباب»

خرجت إلى باحة المدرسة ، لكنها بدّلت رأيها ، وجدتها تتجه نحو الحمّامات ، عدنا إلى عناقنا . . قالت (أميرة) :

«لا تترك مقالبها»

«فتاة تستحق الحياة»

«وأنا!»

«أنت تستحقين الخلود»

«أرجوك لا تجامل»

«لندع الحوار جانباً ، أعيدي لجسدي حرارته المفقودة»

«أنت تختلف هذه الليلة»

«لا أعرف كنت أرغب في النوم أكثر مما أرغب في الأنس»

«حسناً امنحني شوطاً آخر لأتركك تنام»

حاولت أن تعيد لي الرغبة ، كنت ألهث ، بعد نصف ساعة قامت وارتدت ثوبها . . قالت :

«الملعونة قتلت رغبتك»

«سأعوضك في الليلة اللاحقة»

خرجت وبقيت متمدداً على سريري ، لا رغبة لي سوى في التحديق في سقف مظلم .

(١٠)

ذات ليلة ، لم تأتِ (خولة) .

رغبت أن أتسلل إليها ، فكرت أن أخيط ثوبها بالفراش ، حملت معي إبرة وخيطاً ، في العتمة وجدت شبحاً يتحرك ، خلت الشبح (وداد) ، إذ كانت كثيرة الخروج ليلاً إلى دورة المياه ، في ما بعد قيل لي إنها لا تحتمل ماء مثانتها ، تعاني من التهاب في مجاريها البولية ، كونها بنت قرية تعتاش على نهر صغير يحمل فضلات قرى تعج بالأغنام والأبقار ، ماء ذلك النهر ألحق أمراضاً تناسلية في الكثير من أبنائها ، قبل أن تتصدى الحكومة لحفر بئر ارتوازية أنقذت البقية من الوبال المزمن .

دفعني هاجس الرغبة أن أباغتها ، مشيت نحو الحمامات بداعي الاغتسال ، وجدت الشبح يهمس :

«ماذا تريد؟»

«لا أستطيع النوم»

«ولم؟»

«لا أعرف!»

«أنا أعرف»

«ماذا تعرفين»

«تحتاج إلى فراشٍ دافئ»

«ولم لا تكوني أنت تلك التي أحتاجها؟!»
«ليت ذلك يحصل»
«كل شيء رهن أيدينا»
«الأمر بيدك»
«لنتحدث في هذا الموضوع بروية»
«أخشى أن تباغتنا واحدة فتفسد علينا خلوتنا»
«لنتحدث في غرفتي»
«ربما تتفقد مكاني واحدة ، عندها تشم رائحة جريمة عاطفية ترتكب تحت جنح الليل»
«تعالي ورائي ، سنتحدث باقتضاب»
«سآتي»
مشيت ، حائراً ، صوت أعرفه ، ناعم ، خجول ، يا ترى صوت من؟ التبس علي الأمر ، في غرفتي انتظرت ، مرت الدقائق ثقيلة ، كدت أخرج ثانية ، قبل أن ألمح شبحاً يسير نحوي ، مسكت يدها وسحبتها . . قلت :
«تعالي واجلسي»
«لا وقت لدي»
«كيف نتفاهم هنا؟»
«أريد منك كلمة شرف»
«أنا كلّي شرف»
«هل تريدني حقاً؟»
«بكل تأكيد»
«حسناً . . يمكننا أن نعلن خطوبتنا غداً»

«من غير مفاتحة أهلينا»

«ليس لدي أهل ، أنا حرّة أعيش عند أختي»

(كريمة) فتاة خجولة ، كانت ترمقني دائماً بنظرات تشبه خطف البرق ، أو فلاشات الكاميرات ، للحق أقول لم أضعها في بالي ، كانت وحيدة ، تستعطف الناظر ، لم أكن أتوقع أنها كانت تؤسس جسراً سريّاً للوصول إلي . . قلت لها :

«ست ـ كريمة ـ أنت إنسانة حالمة بالنسبة لمشاعري»

«شكراً أستاذ أنت كبير في نظري»

«لا يجب أن نقف هكذا»

«أخاف أستاذ .!»

«ولم الخوف؟»

«لا أعرف»

«تعالي واجلسي ، سأشعل الفانوس كي نبعد أية شبهة»

«لا . . لا . . أرجوك لا تشعل الفانوس سيروننا من بعيد»

«لا يصح ست ـ كريمة ـ أنا مديرك»

«حسناً سأجلس خمس دقائق فقط»

جلست على السرير ، صمتنا قليلاً ، لم أكن أمتلك رغبة في خوض غمار لعبة الجسد . . قالت :

«أستاذ حبيب . . يمكننا أن نتزوج هنا ، من غير تعقيدات»

«أحببت أن نتصارح في كل شيء ، نتعارف أكثر ، أريد أن أكتشف أعماقك ، أن أتجول في ربوع أغوارك»

«كل شيء سيأتي في ما بعد»

«لكن التعارف يقربنا أكثر من بعضنا»

«أنا أعرفك ، أعتقد أنك عرفتني جيداً»

«ليس هذا مـــا أعني ، أريد أن أتلاطف مــعك ، أريد أن أروّض جسدي على التآلف مع جسدك كي يأتي الزواج من غير صدمات وعراقيل في ما بعد»

«لا أفهمك ماذا تريد؟»

«يعني قبلة مثلاً تحرك روحينا كي تنسجما»

سكتت ، عرفت من صمتها أنها تخوض مستنقع الخجل ، وربما المفاجأة صدمتها من حيث لم تحتسب ، خالجني شعور أنني إزاء فتاة لم تجرّب الحب من قبل ، لم ترتبط بعلاقة خارج نطاق واقعها العائلي ، انتهزت فرصة صمتها . . قلت بشيء من التوسل :

«ست ـ كريمة ـ أحبك ، لا أحتمل صمتك»

قالت بحسرة :

«أعرف!»

«أرجوك أنا أموت ، أنا أذوب ، آه لكم أشتاق أن أحتضنك وأطير بك إلى عالم بعيد»

«أحقاً ما تقول!»

«صدقيني ، أنا صادق في ما أقول ، أنت الآن نبض قلبي»

«لا أصدق»

«حسناً . . تعالي ، اقتربي منّي ، لتسمعي بأذنيك نبضات قلبي ، إنها تختلف عن نبضات قلوب الناس ، قلبي ينبض باسمك ـ كر- ري . . مة!»

«أنت تبالغ أستاذ»

«آه . . لا . . لا . . لن أكذب ، اسمعي قلبي يناديك . . تعالي»

«لو كنت تكذب سأزعل منك»
«تعالي واسمعي قبل أن يخرج الصوت ويوقظ العالم»
«أنا أستحي أستاذ!»
دنوت منها ، لم أحتمل حرارتي التي تفاقمت ، احتضنتها وسقطنا على الفراش ، تأوهت :
«أحبك أستاذ ـ حبيب ـ »
«أموت فيك يا ـ كريمة ـ »
خضنا شوطاً متعباً ، كانت تموع بين أحضاني ، تتأوه كعطشانة ، تتلوى كأفعى تريد سحق ضحية ابتلعتها ، وكنت أطبق عليها ، أسحب من رحيق أغوارها . . قلت :
«ـ كريمة ـ لنعتبر نفسينا زوجين»
«وماذا تسمي هذا»
«أعني أن نكون متحررين أكثر»
«أنت حر معي وأنا حرة معك»
«أريد أن نلتحم أكثر ، نتصارح حقيقة ، ليس هناك من يوقف حبنا»
صمت .
بدأت أسحب ملابسها ، قاومت بوهن ، كانت سكرانة ، فاقدة قدرتها على المقاومة ، صرنا معاً . . قالت :
«لا تتجاوز حدودك أستاذ ، دع الخاتم حتى ليلة الزفاف؟»
«أعرف حدودي جيداً ، لست ممن يطمع بأكثر من إراقة عصير العذاب المدمر على أسوار ـ برمودا ـ ك»
ضحكت .
«حلوة كلمة ـ برمودا ـ »

«ساقان وجذع يشكلان المثلث ، و ـ برمودا ـ واحة تخريج المجانين»
صمت .

تجمدت أوصالنا ، كانت (خولة) واقفة ، بيدها عود ثقاب ، بدأت (كريمة) تبكي ، أطفأت (خولة) الشعلة ، تقدمت من (كريمة) حاولت ترويضها . . همست :

«جئت أبارك لكما هذه الخطوبة الليلية»

قلت :

«شهادتك لا تكفي يا ست ـ خولة ـ »

«تلك هي المعضلة ، أعتقد أن شهادتي في هذا القمقم تكفي»

«عليك أن تكتمي الأمر يا ست ـ خولة ـ» . . همست (كريمة)

«لا تخشوا منّي!» . . أجابت .

دنت وطبعت قبلة على خد (كريمة) ، تكلمت :

«أختي العزيزة أرجو كتمان هذا الأمر»

«لا تخشي يا ست ـ كريمة ـ أستاذ ـ حبيب ـ شاب ، يمتلك قلباً وروحاً مثالية ، وهو وحيد في هذا المكان ، ونحن أيضاً لدينا عواطف ومشاعر ، ولنا الحق في اختيار نصفنا الضائع ، مهما يكن لابد من واحدة من بيننا تكون من قسمته»

قلت لها :

«هيّا اخرجي؟»

«حسناً . . ليلة هانئة لكما»

خرجت .

لبست(كريمة)ملابسها على عجل ، احتضنتها ، وجدتها تتمرد ، تريد أن تنفلت من بين يدي ، قاومتها . . قالت :

«سأحرق نفسي ، إنها ستفضحني»

«أرجوك . . هي دائماً تحب المزاح ولكن ليس إلى هذا الحد»

«أنت لا تعرفها أستاذ»

«بل أعرفها حق المعرفة»

« تعرفها!»

شعرت أنني وقعت في ورطة . . صححت كلامي :

«دائماً تمازح في كل شيء ، لكنها طيبة القلب على ما يبدو»

«علي الذهاب ، سأتوسل إليها ، سأهددها أنني سأحرق نفسي وسط المدرسة لو فاهت بشيء»

«أرجوك ـ كريمة ـ انسي هذا الموضوع ، أنا سأتكفل في القضية»

كانت واقفة ، احتضنتها وقبلتها ، وهمست في أذنها :

«من أجل حبنا أطلب منك نسيانها»

«حسناً .»

«في الليلة القادمة سنغير الساعة»

«أرجو أن يكون ذلك في درسي الشاغر»

«حسناً سأبدل الجدول من أجلك ، سأمنحك دروساً شاغرة كي تتواصل شجرة الحب النمو يا ـ كرّومة ـ »

خرجت مرتاحة .

عدت إلى فراشي ، كنت متوقعاً أن الليل لم يبق منه سوى شوارده الذائبة .

تمددت على سريري ، عيناي في السقف .

بعد دقائق شرود .

صاح الديك صيحة عجب!

(١١)

الست (فريدة) قصيرة القامة ، شعرها طويل تحرره على كتفيها ، كانت الست (خولة) دائماً تمسك شعرها من الخلف وتجعلنا نضحك ما نشاء ، كانت ترسل لي نظرات لم أخرجها من فلك الطبيعية ، أحياناً تطلق تنهيدة حارقة تطلع معها بالون شهوات مترسبة ، كلما تكون معي في الإدارة ، ناحتة نظرات رغبة في عيني ، تضج بمعاني عاطفية ناضجة .

مرة قالت :

«أستاذ حبيب . . أنت تشبهه!»

«يخلق من الشبه أربعين»

«حسناً لقيت أحدهم ، عليّ أن أفتش عن البقية»

«ربما ولدوا وماتوا وربما لم يولدوا بعد»

«أنت تشبهه إلى حدٍ كبير ، حتى إنني بت لا أفرق بينكما»

«ومن هو هذا الذي يشبهني أو أشبهه؟»

«أخي فريد!»

«أكيد معلم؟»

«كلا . . سافر إلى خارج البلاد هرباً من حياتنا»

«ولم سافر ، للدراسة أم للعمل؟»

«لا هذا ولا ذاك!»

صمت .

«اتهموه زوراً ، مرة قالوا شيوعي ومرة شيعي من أعضاء حزب الدعوة»

«هناك الكثير من الشباب وجهت لهم التهمة نفسها»

«حقيقة ، رفض الانتماء للحزب ، لذلك طاردوه»

«نحن في مجتمع منغلق ، علينا أن لا نسبح خارج الواقع»

«كان بائع صحف متجولاً»

«حقيقة لا يمكن إخفاؤها ، الذين يتثقفون يشكلون هماً ضاغطاً عند الحكومة»

«وهل الثقافة جريرة؟أليس من حق المرء أن يخرج من دائرة البلادة وينفع المجتمع بتطور عقله؟»

«ربما هذا المكان يسمح لنا أن نتكلم بـ نوعٍ من الحرية وبوضوح طالما نحن خارج حزام الواقع»

«أحب أن أكون صريحة ومن غير دوافع حقد أو تمرير غضب أو احتجاج على ما يجري»

«هذا النوع من البشر أقدرّه حق تقديره»

«كان أخي يهوى كتابة الشعر»

«تلك حرية شخصية»

«لكن رجال الأمن داهموا بيتنا وصادروا أوراقه»

«الوشاة يوجدون في كل محفل ، ربما هناك سوء تقدير أو سوء فهم»

«كان يصدر مجلة يدوية فيها أشعاره وكتابات أصدقائه»

«نحن نخضع لحكومة ترى أن أفكارها هي المناسبة لهذا الجيل الضائع»

«بعد ستة أشهر أعادوا أوراقه على أنها نظيفة»

«ولم تخلى عنكم؟»

«طلبوا منه كتابة أشعار تمجيد!»

«ربما لا أستطيع قول شيء إزاء هذا الموقف»

«كان يقول : الشعر مثل الحلم يأتي عفوياً من غير انتظار»

«على ما يبدو ، أخوك شاعر من الوزن الثقيل»

«لم يخرج شعره من دائرة العاطفة»

«كلنا أوان المراهقة كتبنا خربشاتنا على الورق»

«كان يعاني من علّة»

«معظم كبار الشعراء ولدوا من معاناة»

«كان يشكو من عقم»

صمت .

«أشعر أنكم من أتباع ـ أهل البيت»

«وهل هذا يشكل عيباً؟»

«كلا . . ليس هذا انحرافاً في عقيدة المرء ، أو خروج من الملّة ، لكن تعرفين الوضع في البلاد ، كل شيء يخضع لرقابة حساسة ، الكل يجب أن يخضعوا لفكر السلطة ، الناس على دين ملوكها ، أهل البيت تاج رؤوسنا ، ومنائر يجب السير وراءهم للفوز برضوان الله سبحانه وتعالى»

«أنا لدي رؤية شخصية ، أن القسرية لا تصلح لتطويع المجتمع كي يكونوا كالبنيان المرصوص»

«أنا معك ، ولكن من يصغي لـ صوت الحق؟»

«يوم جئت ، تهامسن حولك ، كنّا نخشى من مكانتك الحزبية»

«وهل كلهم سلبيون؟»

«أنت تختلف»

«على المرء أن لا ينسلخ من جلده ، مهما ألبسوه من ثياب ، عليه أن يحافظ على كيانه»

«يبدو أنك متحضر أستاذ ـ حبيب ـ !»

«أنا أنتمي لحضارة الحياة السعيدة ، أمّا وجودي ضمن الحزب فهو وجود روتيني ، كان يجب أن نلبس عباءة الغباء من أجل أن نعيش تحت مخالب الكواسر»

«كلامك خطير أستاذ!»

«لا خطورة في كل ما نقول ، المرء هو من يطوق نفسه بـ سياج الكهرباء»

«ما العمل .؟ الكل يخشى على روحه من المتاعب»

«لكن الكثير من الناس يزجون أنفسهم في قواقع مجهولة المخارج»

«هذا حال كل المجتمعات ، هناك الكثير من الانتهازيين يولدون في كل مرحلة»

«على المرء أن يحترس في كلامه ، ويتحرى عن الطرق التي سيمشيها»

صمت .

«أخي ـ فريد ـ كان يرتدي ثوباً أسود في كل محرم من أجل إحياء يوم عاشوراء»

«أعتقد أن هذه الطقوس وردت إلينا من الخارج ، هي التي جعلتنا

أمام أنظار الغرب ناساً متأخرين عن ركب الإنسانية ، وجعلتنا ننقسم ونتلاسن من غير سبب ، أليس الله جلّ في علاه خالقنا جميعاً ، وكتابنا واحد ونبينا واحد ، ودينا واحد ، دين تسامح؟!»

«أنا أنظر إلى القضية من هذا المنظار»

«الغرب يحاول طمس الكثير من حضارات الشرق ، أنت تعرفين أن حضارتنا تتعلق بالغيب والآخرة وسعادة الإنسان بعد الممات ، وهذا لن يتفاعل مع توجهاتهم ، لديهم حضارة الآلة والبضاعة والمال ، إنهم حزب الشيطان عليه اللعنة»

«أليس هذا يسبب لنا التأخير عن ركب البشرية؟»

«شيء أصبح أقوى من إرادة الناس ، علماؤنا يدركون خطورة القضية ، هم غير مقتنعين بذلك ، لكن أي تصريح بذلك من قبل أحدهم ، سيؤجج الموقف ويشرخ المجتمع ، وربما يقوده إلى منزلق خطير!»

«مصيبتنا أن بلدنا أصبح عرضة لهجمات تدميرية ، الكثير من الشبّان وجدوا متنفساً لعقيدتهم ، وبعضهم راح ينفذ مخططات خارجية ، كتنفيس عن القمع والإقصاء المتعمد والانزلاق الخطير نحو الراديكالية»

«من هذا المنطلق ، الحكومة تحاول حجز الناس داخل حديقة مكهربة خوفاً عليهم من فايروسات الغرب»

«لكننا نستورد بضاعتهم»

«لا يجوز الربط بين قوت البطون وقوت العقول»

«أهذا من عندك أم هو توجه؟»

«يمكن لكل متبصر أن يقرأ أوراق مرحلته من غير اللجوء إلى مصادر»

«ثق أستاذ ـ حبيب ـ هناك كلام يوضح أن الحكومات غالباً ما تصنع الخلخلة داخل مجتمعاتها من أجل غايات كبيرة»

«أفهم من كلامك ، أن الذي جرى من تفجيرات في ـ المستنصرية ـ وبعض الأماكن الأخرى كانت من تخطيط حكومتنا!»

«لا تفسر كلامي على أنه توجهي في الحياة!»

«اتفقنا أن نكون صريحين وإن كانت أفكارنا لا تماشي الواقع»

«سمعت أن المخابرات الخارجية تستخدمنا كـ أحجار الشطرنج للوصول إلى غاياتها الاستراتيجية»

«كثر الحديث عن نظرية المؤامرة ، وعن أطماع الغرب ، لكن القضية كلها منذ الأزل وإلى الأبد ، تتعلق بسوق المال ، الغرب يستعمر البلدان من أجل توفير خامات لصناعاته وتوفير أسواق تصريف لبضاعاته»

«سمعت من إذاعة أن الغرب هم يصنعون الحكام»

«هذا الكلام غالباً ما يشاع بعد زوال كل حكومة ، إنها تثير الرأي العام العالمي ، الغرب لديه شرق منشرخ عن أفكاره ، الشرق يريد تسوية المجتمعات بنظام سمّوه الاشتراكية ، الكل يتساوون في الحقوق والواجبات»

«وهل تفلح الأنظمة الاشتراكية في بناء مجتمع سعيد»

«كلا . . مجرد عقيدة فاسدة لسلخ المرء عن معتقداته الفطرية ، وزجه في مستنقع الرضوخ!»

«الاشتراكية أن تعيش تحت ضغط الفقر والضياع ، أن تكون نمال خدمة لجمع قوت الطغاة»

«إن مشكلتهم هي أنهم أولوا اهتمامهم بالثقافة ونسوا أهم دافع لقوة المجتمع ألا وهو المال»

«على عكسهم فعل الغرب ، اهتموا بالمال أكثر مما اهتموا بالثقافة»

«هذا عين الصواب ، الأشتراكية ولدت لتدمير الأديان وسلخ الإنسان من حبل الخالق»

«نعم . . عكس الغرب الذي انسلخ من الدين تدريجياً ، لذلك بغى وطغى بعدما تحصن بالمال والآلة الحربية»

«ليس ذلك فحسب ، بل راح يتحين الفرص لتفكيك تلك المجتمعات كي تغدو قرى صغيرة سهلة المنال»

صمت .

«أستاذ ـ حبيب ـ لا تأخذ كلامي على أنني غير منتم للواقع»

«لا تخشي يا ست ـ فريدة ـ نحن الآن خارج الواقع ، أنا أحب النقاش الصريح ، لست من كتّاب التقارير ، أنا أيضاً غدوت ضحية لهم بعدما جردوني من حلمي ورموني هنا بينكم ، أليس هذا جزءاً من عملية الإقصاء؟»

«كل ما قلته من كلام سمعته من إذاعات خارجية»

«كل شيء ممكن ووارد ، سلطتنا تريد أن تبسط نفوذها عربياً وعالمياً ولو على حساب الشعب»

«كان أخي يتحدث لنا عن أشياء مخيفة ستحصل في بلادنا ، طالما الحزب نتاج عقل إنسان ينتمي إلى طائفة هي غير طائفتنا»

«كثيرون يتوقعون نهاية سريعة لهذا الحزب»

«قال مرة : خيراتنا ستضيع طالما وقعت بأيدي رعوية لا تتورع لو عطشت أن تشرب الدم»

«وهل كان يحمل شهادة»

«كان في المرحلة النهائية في كلية الآداب ، قسم اللغة الفرنسية ،

كان يبيع الصحف في العطل الرسمية»

«وهل تعرفين أين يسكن الآن؟»

«موجود في بلاد بعيدة ، نجهل تلك البلاد ، لم يتصل ولم نمتلك وسيلة كي نتصل به»

«حسناً وماذا بالنسبة لك؟»

«انتميت للحزب كي نبعد الشبهة من عائلتنا»

«حسناً فعلت ، لولا ذكاؤك لما قبلوك في دار المعلمين والمعلمات»

«على المرء أن يمارس لعبة ـ التقيّة ـ كي ينجو من مخالب الذئاب»

«هذا ما يسرني ويجعلني أهتم بك وبفكرك»

في تلك اللحظة وجدتها تبتسم ، تأوهت كعادتها ، بان صفّا أسنانها الدقيقة ، بقيت حافراً وجهها بنظرة عميقة ، شعرت أنها بدأت تلح بسؤال عبر تلك النظرة الطويلة ، للحق أقول لم أكن أعرف أنني أيضاً تأوهت ، وكنت أبتسم بوجهها . . قالت :

«أستاذ ـ حبيب ـ أنت إنسان رائع»

«وأنت كذلك»

«كلا . . أنا قصيرة ، لا أحد يتمنى في يومنا هذا أن تكون امرأة قصيرة رفيقته أو . . . . . . »

«أو ماذا؟»

«أو شريكة حياته»

«لم كل هذا التشاؤم؟!»

«حقيقة شائعة»

«بالعكس أنت تحملين روحاً ثقافية وشفافة ، لابد أنك تخبئين كنوزاً ثمينة في أغوارك»

«هذا كرم منك ، لا تعطني حجماً كبيراً لا أستحقه»

«لا تجعلي طولك هماً يأكل جمالك ، المرأة القصيرة لديها براكين من العواطف المدمرة للرجل الصريح»

«لم نعد نمتلك وقتاً نصرفه عن الاهتمام بأنفسنا ، نحن خارج العالم»

«أعتقد أنه المكان الملائم لتنمية الشخصية وبناء العقل خارج اضطرابات الواقعية»

«هذا الجانب هو الذي يسكت فينا صيحة الغربة»

«بعد زمن محدد سوف نترك المدرسة ، ونعود للعالم من جديد ، وليس لدينا إلاّ الذكريات»

«ربما نكتشف أن العطلة خانقة ، سنحن للدوام ثانية»

«المرء متغير المزاج»

«الحكومة سبب تغير أمزجتنا»

«هذا هجوم غير مسلح»

«أخي كان يقول هذا»

«على ما يبدو هروبه لم يأتِ من فراغ»

«كان يعتبر إهمال المجتمع وتفريغه من أحلامه وعدم توفير مناخات الترفيه له هو سبب تمرد العقل وعدم انسجامه مع التطور الحاصل في العالم»

«كثير من الحكومات تؤسس لتخريب العقل البشري ، كي تفرض أفكارها قسراً»

«تلك الحكومات التي تزج شعوبها في الحروب»

«التاريخ يقول هذا»

صمت .

«ستنتهي العطلة ونعود محملين بالحسرات»

«مهما يكن . . علينا أن نتكيف مع كل ظرف ، الحياة شقاءات متواصلة»

«وجودنا معاً ، وتناغم أفكارنا ، ومرحنا ، كل هذه الأشياء تخفف من وطأة وحشة المكان»

«القدر يكتب ونحن نطيع»

صمت .

***

تلك كانت بداية لاشتباك ليلي غير معهود .

ففي ليلة ذلك الحوار حدث أن قمت من النوم ، اكتشفت شبح واحدة تتجه نحو الحمّام ، وقفت أنتظر عودتها ، لم أحتمل ضغط مثانتي ، توجهت نحو دورة المياه ، سمعت وشيش الماء داخل الحمّام ، ووجدت الباب غير مقفل ، وقفت أستطلع الأمر ، مررن الـ فواكه في خيالي ، تمنيت أن تكون واحدة منهن ، كان الليل صامتاً ، تصاعدت حمى الرغبة ، وجدت نفسي أدنو من باب الحمّام ، لا أعرف كيف طرأت بذهني أن المستحمة ربما (وداد) ، تشجعت أن أقتحم عليها الحمّام وليكن ما يكن ، دخلت وجدت جسداً يلمع ، تكورت على نفسها . . قالت :

«أهذا أنت؟!»

«نعم»

«أرجوك أستاذ»

«لا أحتمل بعدك ست ـ فريدة ـ »

«أرجوك أستاذ أتركني؟!»

بدأت تنتحب وهي تتكور، تقدمت منها، بيدين مرتعشتين مسكت طراوة كتفيها، كان الماء يواصل نزوله من الصنبور، وكنت أرتجف خوفاً من جسد (فريدة) العاري . . همست :

«ست فريدة . . أنا تورطت معك!»

«أرجوك أستاذ ليس هذا من طبعي»

«وأنا أيضاً!»

«لكن ست ـ خولة ـ تتحدث عنك كثيراً»

«ربما تبالغ، أو تريد من كلامها إشباع فراغها»

«الباقيات أيضاً تحدثن عنك»

«هذا دليل مبالغتهن»

«كلامهن أشعرني بالخوف منك»

«وماذا قلن؟»

«إنك!»

«إنني ماذا؟»

«لا أستطيع قوله»

«هل قلن خيراً؟»

«قلن أشياء لا أصدقها»

«حسناً . . ضع في بالك أنهن يبالغن في الكلام»

«ولكن ما يحصَل فيه شيء من الواقع»

«لا شيء يحصل إلاّ عبر ألسنتهن»

«هل حقاً ما تقول!»

«حين تنسجمين معي ستعرفين حقيقة كلامي»

صمت .

يداي تعملان بهدوء ، تنزلقان فوق جسدها الرطب ، وكانت أنفاسي تتصاعد بلهاث ممزوج بالخوف سحبتها نحوي ، حاولت أن أحتضنها وأمطرها بوابل قبلات ، وجدتها تتمرد ، لا تسمح بذلك . . قلت :

«ست ـ فريدة ـ أحبك!»

«لا أصدق»

«ثقي بي!»

«يمكنني أن أثق بك لو أعلنت عن حبك لي أمامهن»

«ولكن سيناصبنك العداء»

«فليكن ما يكن ، المهم أنت معي»

«غيرة المرأة جحيم»

«لا تخش سأحترس منهن»

«ربما يتخلصن منك»

«ولم هذه الفكرة؟»

«أنت تعرفين نحن في غابة وهناك عشر لبوءات وأسد واحد»

«وكيف تريد أن أثق بكلامك؟»

«حبنا بصمت واحتراس يوصلنا لتحقيق غايتنا»

«حين تكف ألسنتهن عن الكلام عنك ، يمكنني أن أصدقك»

«ثقي أنهن كاذبات»

«أرجوك أستاذ ـ حبيب ـ أتركني قبل أن يفتضح أمرنا»

«ليس قبل أن تقبليني نزيلاً في قلبك»

«أرجوك . . سنتناقش في هذا الموضوع غداً»

«ربما هذا هو أفضل وقت للمناقشة»

«أرجوك أستاذ سوف أجن»

«حسناً . . لا أريد سوى قبلة واحدة فقط تجعلني حبيباً دائماً لك»

«أنت تطلب المستحيل»

«أرجوك يا ست أنت الحبيبة التي أبحث عنها»

«لا أمتلك وقتاً كي أصدقك»

«ثقي أنت الواحدة التي كنت تملئين فؤادي بالسلام والراحة»

«ولم سكت كل هذه المدة؟»

«كنت أنتظر أن تنضج ثمرة محبتنا»

«أرجوك . . غداً سنتكلم حول هذا الأمر»

«ست ـ فريدة ـ لن أحتمل أكثر من هذا»

جذبتها إلي ، أنزلت وجهها بين يديها ، حاولت أن أصل إلى ثغرها ، قبل أن تستدير وأجد نفسي أحتضنها من الخلف ، لم أفك يدي رغم أنها كانت تحاول بشتى الطرق ، بدأت تغرز أسنانها في معصمي ، تستعمل أظفارها ، وكنت أجد الشجاعة الكاملة لمواصلة عملي ، تخلصت من جحيم عاطفتي ، وجدت نفسي إنساناً لا قيمة له ، تراخيت ، لبست ملابسها على عجل وخرجت ، بقيت متخاذلاً أفكر بنفسي ، بتفاهة الشهوة التي أخرجتني من جلدي ، لم أجد رغبة تدفعني كي أستحم وأخرج لأواصل لوم نفسي في المنام ، وجدت شبحاً يقتحم الحمّام . . قالت :

«يا لك من نمر جائع»

«آه . . أهذا أنت يا ست ـ خولة ـ »

«تسبح في برك اللحم وتتركني أتمزق في فراشي»

«لا . . لن أتخلى عنك»
«وما الذي تبقى فيك ، إنما الحب هو الصولة الأولى»
«ما زلت أحتفظ بحرارتي»
«لدي خارطة طريق ، أنت بدأت تتجاوز على خططي»
«ليس هذا أوان التناقش في ما بعد سنتفاهم»
«كنت أزمع قيادتها لك ، لكنك خرجت من طبيعتك»
«كانت حمى عابرة ولم تكن النتائج مرجوة كما اشتهيت»
«لو تركت الأمر لي لكنت تنعم بليلة مثالية»
«حسناً . . لن أتجاوز على استراتيجيتك العاطفية بعد الليلة»
«هيّا استحم ، لا أطيق صبراً هذه الليلة ما لم تحطمني»
«سأكون في غرفتي خلال ربع ساعة»
خرجت .

وجدت الرغبة تعاودني ، اغتسلت ومضيت إلى غرفتي ، لكنني لم أجد الست (خولة) ، بقيت وقتاً أنتظرها ، قبل أن أغيب في نعاس شديد .

أغلقت باب الغرفة ونمت .

(١٢)

قالت :

«جيهان»

قلت :

«من ألصق بك هذا الاسم الكبير ـ جيهان ـ يعني الدنيا!»

«قيل لي : الممرضة هي أسمتني بعدما ماتت أمي على ولادتي»

«آه . . فتحت جرحاً أليماً يا ست»

«مضى على ذلك ربع قرن أستاذ ـ حبيب ـ »

«لابد أن أمك المرحومة كانت جميلة مثلك»

«أشكرك أستاذ ، هذا لطف منك»

«لو كان الأمر بيدي لما جعلتك تخرجين من البيت»

«هذا كلام كبير بحقي أستاذ»

«هنا الحياة قاسية ، ملامحك ربما تأخذ شكلاً خلاسياً في ما بعد»

«هنا أشعر براحة خاصة بعد مجيئك ، المدينة مقيتة ، ناسها غيرة ورياء وأحقاد وكذب»

«كنت أزمع الهرب خارج البلاد ، لألتحق برفاقي لولا رؤيتك مع الأخوات»

«لكنك لم تنظر إلي بقدر نظراتك للست ـ خولة ـ »

«ألم تطلقن عليها أم الجميع»

«ألا تستحق هذا الكلام؟»

«الست ـ خولة ـ إنسانة متحررة ، روحها وثابة ، يجب أن نشعرها بكثير من الود كونها مربيتنا إن جاز التعبير ، لولاها لربما خضتن جملة متاعب وخصومات»

«هذا الدافع هو الذي يميت غيرتي»

صمت .

كانت أصوات التلاميذ تتعالى من الصفوف ، وصلنا الباب الجانبي للمدرسة ، وقفنا نتأمل التلال ، كانت أسراب الطيور تحوّم في الفضاء . . قالت :

«الطبيعة هنا رغم قسوتها تشعر الإنسان بشيء من الحرية»

«كلنا نلهث خلف هذه الحرية المزعومة ، ولكننا لا نعرف ما هي الحرية؟»

«الحرية هي أن يعيش المرء بسعادة من غير منغصات»

«ومن يسمح لنا أن نتذوق السعادة؟»

«السعادة وهم نحلم به»

«لكن هناك من يعيش بيننا سعيداً في حياته»

«كل واحد يمكنه أن يسعد نفسه بمجرد ترضيخ فكره لمتطلبات الظرف»

«لكن الظروف قاسية ، والحياة تغدو جحيماً شيئاً فشيئاً»

«ولم هناك فئة سعيدة ، لا تقولي المال وراء ذلك؟»

«طالما فكرنا بمظاهر الحياة وزيفها نغرق أكثر نحو أعماق التعاسة»

«ربما النساء أكثر شعوراً بالألم والضياع نتيجة كثرة أحلامهن اللاواقعية»

صمت .

«لم لا نتجول خارج المدرسة قليلاً!»

«لا مانع لدي ، ولكن لم يبق سوى ثلث ساعة للدرس»

«يمكنني أن أغيّر الحصة الدراسية من أجل سعادتك»

صمت .

«لنتأمل الوادي قليلاً ، أعشق النظر إلى الوديان والجبال والطيور المهاجرة في مثل هذا الوقت»

«ربع ساعة فقط أرجوك أستاذ ـ حبيب ـ »

مشينا صامتين .

كانت الرغبة تصطلم فيّ ، أنفاسي تتسارع ، وصلنا حافة الوادي ، وقفنا . . قلت :

«اليوم أشعر براحة غير طبيعية ، بدأت أشعر بقوّة داخلية ، برائحة شيء جديد المذاق»

«بدأت تتغزل سريعاً»

«بل شعور مهتاج يتملكني»

«ربما لأنك تمشي معي»

«خشيت أن أقول هذا الكلام»

«مثلك لا يخشى الخوض في هكذا كلام»

«لن أخوض في ماء ما لم أقس قاعه»

«ربما هناك كواسج وتماسيح»

(هناك مغامرة تستحق أن يموت المرء بعد تحقيق رغبته عبرها»

«أنت مراوغ وجريء أستاذ ـ حبيب ـ »

«أحياناً أفقد جرأتي»

«لم أجد فيك هذا الخذلان مذ جئت»
«عندما أجدك ماثلة أمامي ، تنهار معنوياتي وهذه ليست مجاملة»
«هذا مجرد كلام عابر»
توقفت ، وقفت تنظر في عيني . . قالت :
«أشعر من نظراتك لي ، أنك تجاملني»
«ست ـ جيهان ـ أنتِ إنسانة كبيرة في نظري ، تختلفين عن الزميلات»
«على ما يبدو كلامك تميمتك لتحقيق رغباتك»
«لا أفهمك!»
«هذا الكلام سمعته من ـ خولة ـ أنك قلته سابقاً وربما ستقوله بعدي لمن ترغبها»
«أعتقد . . هناك التباس في هذا الموضوع»
«أستاذ ـ حبيب ـ من غير لف ودوران ، أشك أنك زير معلمات»
«أرجوكِ ست ـ جيهان ـ لنكن صريحين في موضوعنا ، الفتيات في ما بينهن غيورات ، كل واحدة تؤسس عالمها السعيد وفق مزاجها ، لا تصدقي في ما يقلن ، كل واحدة تريد أن تنفر الأخريات من حولي كي تنفرد بتحقيق رغبتها ، إنها رغبة مشتركة لامتلاكي»
«ولكن الذي أسمعه واقع حال ، يكاد يكون ملموساً لا فقط مهموساً»
«أنت شاعرة ست»
«لا تتهرب من الموضوع؟!»
«بدأت المحكمة ، أنا أحتاج إلى محامي دفاع»
«الست ـ خولة ـ ستدافع عنك»

ضحكت ، وضحكت معها .

«على ما أعتقد أنك شاعرة»

«كنت أكتب خواطر عمودية ، بعضهم يصر على أنها قصيدة نثر أو شعر حر ، لكنني أجزم أن ما أكتبه وما يكتب اليوم خواطر عمودية مشوهة المبنى وفارغة المعنى»

«لو سمعك شعراء اليوم لقلبوا الدنيا على رأسك»

«وهذا لو حصل أكبر دليل على أنهم خواطريون محض»

«الشعر لا يموت يا ست ، بل يسبت طويلاً كي يعيد حساباته ويعود بحلة حداثوية ، يوائم مزاج الناس»

«أعتقد أن الشعر مات بموت ـ رامبو»

«ومن هو هذا الرامبو؟»

«صبي قال كلاماً عجيباً هز العالم بأسره وانزوى ليموت موتاً شنيعاً وهو في قمّة شبابه»

«الكبار يموتون باكرين»

«يوم كتب ـ الإشراقات ـ وعرضها على فطاحل باريس ، كتّابها وشعرائها ونقّادها ، ضحكوا عليه»

«كلهم يضحكون على كل ما هو جديد»

«واحد فقط من الحضور الأدبي في المقهى ، كان يمتلك الحاسة السادسة ، وبعد النظر ، ومفتاح الأجيال اللاحقة ، نهض وصاح في الجميع ، وهو يشهر أوراق ـ رامبو ـ الإشراقات :إذا لم تكن هذه واحدة من أحابيل القدر ، فنحن إزاء أخطر عبقرية في التاريخ»

«سمعت به لكنني لم أقرأه»

« في العطلة الدراسية سوف أجلب لك كتاباً عنه»

«سأعيش على نار حتى العطلة الربيعية»

«لقد كان ذلك المتنبئ ، يزن كلمات ـ رامبو ـ بميزانين ، ميزان أحابيل القدر ، أي أنه كان يتوقع أن ـ رامبو ـ سليل الأنبياء لغرابة ودقة وفلسفة كلامه ، أو أنه حقاً شاعر عملاق ولد ليخلد»

«هذا يعني أنه صنو ـ شكسبير ـ »

«بالضبط ، مات ـ شكسبير ـ مات المسرح»

«المسرحيون سيغضبون من كلامك»

«تلك هي الحقيقة ، مئات الآلاف من المسرحيات كتبت من بعد ـ شكسبير ـ لكن المخرجين ما زالوا يتعكزون على مسرحياته في كل المهرجانات»

«من يريد الشهرة لابد أن يتعلق بأذيال شهير»

«يبدو أنك تحب الكتب أستاذ ـ حبيب ـ »

«كل شاب يجد نفسه مندفعاً لمواهب رفاقه»

«أما كتبت الشعر ، عفواً الخاطرة؟»

«لدي الكثير من الأوراق التي دفنت فيها أرق أيامي ولياليَّ»

«حبذا لو اطلعت عليها»

«إنها لا تستحق القراءة»

«مهما يكن ، إنها نبضات مرحلة ستنقرض ، عليك أن تحتفظ بها ، قد تنهض فيك الرغبة للكتابة في لحظة ما ، أو تكون ممرات لموهبة راقدة فيك حتى إشعار آخر»

«وأنت أما زلت تكتبين؟ لم أجدك تكتبين شيئاً!»

«لا أقول هجرته نهائياً ، بل وجدت المرحلة تطلب الزيف والمجاملة والتلميع الفارغ لذلك تأنيت»

«ستعودين إليه عندما يبدأ قلبك بالاخضرار من جديد»
«أريد اخضرار الحياة»
«الحياة في قلوبنا»
«لكن قلوبنا ماتت»
«هذا شعور فردي»
«يمكنك أن ترى الموت ماركة مسجلة على وجوه الناس»
«ربما التغيير الحاصل وتوسع نطاق الحرب أكست الوجوه بالحيرة والتساؤل»
«حدثني عن شعرك؟»
«كنت أسرق الأبيات من الكتب القديمة كي أقرأها بين فقرات الاحتفالات»
«من يسرق الشعر يسرق القلوب أيضاً»
«تلك هي اللعبة السياسية ، يجب أن نصبغ كل شيء بصبغة الواقع الجديد ، كل حكومة جديدة تلهث خلف أي شيء يلمعها ، حتى لو كان هذا الشيء رماداً أو مستنقع فضلات»
«أأنت تفوه بهذا الكلام؟»
«وهل فيه ما يخالف مزاجك»
«لكنك من حماة الحزب والثورة»
«كنت!»
«والآن؟!»
«لم أكن!»
«ولم كل هذه الاجتماعات؟»
«إسقاط فرض»

«كلامك خطير أستاذ»

«لا تفهمي كلامي ضمن مفردات الخوف ، أعني كنت فتى المسارح ، جرأتي هي التي كانت تدفعني إلى ذلك ، وكنت أتلقى الدعم والتشجيع من المسؤولين ، ما العمل يجب أن ننقاد كـ الخرفان طالما المرحلة تتطلب ذلك»

«أنا أيضاً كنت أقدم الاحتفالات ، لكنني كنت أكتب أبياتي الشعرية من ذاكرتي»

«يعني زيّفت الواقع»

«لم أكتب غير قصائد الحب»

«أنت شاعرة ، أمّا أنا لست بشاعر»

صمت .

كنّا نسير بهدوء ، نتوقف أحياناً ، نلتقط حصى جاذبة للانتباه ، أو زهرة برية منفلتة ، تلتقي نظراتنا ، تنفرج شفاهنا ، في داخل كل واحد منّا بركان يبغي الاندلاع . . قالت :

«أرجو أن لا نتأخر»

«الحديث ربما سيسوقنا إلى متاهة»

«لنبق هنا ، كلامنا كثير ، ووقتنا قصير»

«أتدرين الرغبة التي تستولي على مشاعري الآن ما هي؟»

«رغباتك تتوالد بسرعة أستاذ ـ حبيب ـ »

«كنت أتمنى لو لم تكوني مخطوبة»

«وماذا كنت تعمل»

«أخطفك!»

صمت .

«ولم الخطف؟»
«الخطف يليق بـ هذا الجمال»
«وعاقبة الخطف مأساوية أو حياة غير جديرة في مجتمعنا»
«الجمال يحتاج إلى مغامرة كي يستكمل رتوش جماليته»
«هذه فلسفة جديدة»
«من يرافقك يغدو فيلسوفاً»
صمت .
وجدتها تصارع مشاعرها ، تحاول كبت انفعالاتها . . قالت :
«أستاذ ـ حبيب ـ حقيقة . . أنا لست مخطوبة لأحد!»
«لكنك تلوثين بنصرك بحلقة»
«حلقة خادعة أستاذ»
«لم تسورين نفسك بهذا القيد ، أنت تقتلين أنوثتك بهذا اللجام العقيم ، دعي العيون تتنفس بك!»
«ألبسه لسبب وجيه ، أريد إيهام ست ـ بدرية ـ بأنني مخطوبة!»
«ولم؟!»
«لا تتركني لحالي ، دائماً تفاتحني بخصوص شقيقها»
«آه . . الآن ارتحت»
«تلك هي الحقيقة أستاذ ، وأرجو أن يكون هذا سراً بيننا»
«أنت في قلبي ست ـ جيهان .»
صمت .
وجدت نفسي تتشجع بعدما لاحت فرصة عاطفية جديدة أمامي ، لم تعقب ، كانت ترمقني وتهرب بنظراتها ، دنوت منها ، كانت مختنقة بضحكة مختلجة . . قلت :

«يجب أن نتحرر من الخوف الذي يقتلنا!»

«ليس كل ما لدينا من كلام وأحلام يمكننا أن نتحرر منه»

«على أقل تقدير تلك الأشياء القريبة والحميمة لنا وتتعلق بما حولنا»

«هناك تابو يمنعنا»

«التابو وليد أنفسنا ، لم نضع السواتر الوهمية حواجز تخنق آمالنا؟»

«هيمنة المجتمع أقوى من إرادتنا»

«ست ـ جيهان ـ أنا معجب بك كثيراً»

«وأنا أيضاً أستاذ»

«يوم وصولي وجدتك أكثر جاذبية ، قلبي صرخ ، أبقيت مشاعري مخنوقة ، كنت أبني جسري الخاص إليك سراً ، في انتظار ربيع قادم كي أمطرك بحناني ، حين وجدتك منسجمة معي حررت غيومي دفعة واحدة»

«وأنا أيضاً مذ جئت وضعتك في البال فارساً يستحق أن يركب مركبة الأحلام»

«أكاد لا أصدق ، أكاد أن أجن ، آه لو أمتلك القدرة على الطيران لطرت بك إلى عالم بعيد جداً»

«لا تجامل أرجوك ، الحب السريع يذوي سريعاً»

«حبي لك يختلف عن مفهومية الحب عند الآخرين»

«وكيف يختلف ، كل الشبّان يقولون ذلك من فرط العاطفة المتوالدة فجأة فيهم»

«حبي بدأ من يوم جئت ، كنت بحاجة إلى هذه الفترة كي أحتويك!»

«أرجوك أستاذ لنكتم هذا الأمر»

«لنحدد وقتاً نتبادل فيه مشاعرنا ، ونخطط شوارع مستقبلنا»

«رغم أن الحب في بلدنا ليس له مستقبل ، لكن الحاجة ملحة ، القلب يحتاج إلى الحب كي ينفس الإنسان أرقه ، ليكن أوان الدروس الشاغرة فترات مناسبة كي نخلو لأنفسنا»

«ست ـ جيهان ـ أريد منك توقيعاً على اتفاقيتنا العاطفية»

«أنا رهن طلباتك»

«ليتني أحتضنك وأطير بك فوق هذه الجبال ، لنرحل إلى بلاد بعيدة أو جزيرة نؤسس فيها دولة الحب»

«ليت ذلك يحصل»

«ست ـ جيهان ـ قلبي ينفلق»

«أكاد أسمع هيجان ثورته»

«أشعر أنني أتمزق»

«أرجوك أستاذ ـ حبيب ـ أترك الأمر لوقت آخر»

«لن أحتمل ثورة عواطفي»

«وماذا أفعل كي أوقف موتك عفواً ثورتك»

«غوري يتصدع ، لم أعد أحتمل الفوضى المتنامية في قلبي وتصادمات مشاعري»

«انتظرني في الليل»

لم أتمالك نفسي ، كأنني مررت بأول عاطفة ، كدت أحتضنها لولا أننا بدأنا نقترب من المدرسة ، وسط عيون واقفة تحاول أن تستوعب مشهدنا الودود .

(١٣)

جاء الليل .

حاولت أن أتحايل بأية طريقة لإيجاد منفذ يجمعني بالست (جيهان) ، صارت فاكهة مشتهاة ، بعدما تشربت روحانا بـ عصير الرغبة ، واتفقنا على اتحادنا القلبي ، خلوة قصيرة وحوار مكشوف كانا كافيين لنقع معاً في مستنقع شهواتنا ، وجدتها وهي تمشي كـ طفلة تعلمت المشي للتو ، تمشي وتقع ، كانت (جيهان) تخطو كما يقول المثل الشائع على البيض ، تنقل خطوة وراء خطوة ، عينها عليّ ، وفمها مفتوح ، كنت أسمع شهيقها وزفيرها ، صدرها الناهد يعلو ويهبط ، كانت متهيئة بكامل أنوثتها ، بكل مشاعرها المحترقة ، لأي فعل كان من الممكن أن أرتكبه ، كلما لفظت تنهيدة شبق ، أو أطلق من فمي الظامئ آهة عميقة ، تدنو مني ، تريد أن تقتحمني ، أن تبحر نحو أغواري ، كانت الفرصة متاحة ، أن أمشي بها أمتاراً أخرى ، حيث الوادي يسترنا من كل عين .

بقيت بعد العشاء على سريري أحصي الدقائق ، كانت الساعة تتعثر ، والليل متثاقل ، وقلبي رفض الهدوء ، (خولة) تمتلك فراسة عاطفية ، تباغت كـ أنها جان ، خفتها شبحية ، تظهر وتختفي في لمحة بصر ، لا أعرف كيف اخترقت المسافة الغاطسة في العتمة ، وجدتها فوقي ، ألقت بجسدها بين أحضاني ، قبلتها بضع قبلات سريعة . . قلت لها :

«أشعر بصداع عنيف»
«لدي باراسيتوًل»
«أخذت قرصين لم ينفعا»
«أغسل رأسك بماء بارد»
«غسلت»
«أمرك غريب هذه الليلة»
«أشعر بدوار كبير ، ورغبة في التقيؤ»
«تناولت كثيراً هذا المساء»
«ذلك هو السبب»
«ربما ارتفع ضغطك»
«هذا لم يحصل لي من قبل»
«حسناً . . إذا شعرت بتحسن أنا في فراشي»
خرجت .

راقبتها تضمحل في العتمة ، بقيت عند الكوّة غير مصدق أنها تركتني بيسر ، خلتها عملت لي مقلباً جديداً ، كانت من ألاعيبها أنها تستبدل فراشها مع زميلة ما ، رغم أنني شممت رائحة تلك المؤامرة بينهن ، وصارحتها لكنها كانت تتهرب ، وتصر أن الصدفة لعبت دورها في ربط عواطفي بعواطف (حمديّة) .

بقيت أتدارس الاحتمالات كلها ، قد تفاجئنا في لحظة ذوبان ، مثلما فعلت مرتين ، بدأت مشاعري المستفزة تخمد ، وجدت الخوف ينمو ، خوفاً لم أشعر به في كل الليالي المنصرمة ، الست (جيهان) فتاة رزينة ، لا تجامل ، توسلت كثيراً بغية كتمان علاقتنا ، تلك هي ملابسات الحب الأوّل لكل فتاة ، لم أعرف كم من الليل مضى ،

وجدت شبحاً يخرج إلى شاشة العتمة ، توجه نحو الحمّام ، تشجعت بعدما تأخر خروج الشبح ، قلت لأفاجئه ، تسللت بطيئاً ، وصلت الحمام ، وجدت الشبح يغتسل ، دخلت واحتضنت الشبح ، تجمدت أوصالي ، بقيت أسير صعقة كهربائية ، ليس بوسعي التخلص منها ، كان الجسد ضخماً ، مترهلاً ، لم تحرك ساكناً ، بقينا دقائق ، أريد معرفة ذلك الجسد الإسفنجي المتكور بين أحضاني ، فجأة شعرت بيد تمتد لكائني ، بدأت تعصره ، لم أحتمل أكثر مما احتملت ، في تلك اللحظة تأوهت :

«آآآآآآه!»

عرفتها ، كانت (أم عليوي) ، حاولت أن أدفعها ، وجدتها تتشبث بالـ عمود المتوتر ، توسلت :

«أرجوك أستاذ ارحمني»

«ماذا بك؟»

«أكاد أنتحر من هول شوقي إليه»

«أما تخجلين ، أنت بعمر أمّي»

«الدنيا ظلام ، تخيل أنني واحدة من المعلمات»

«اتركيه؟أنت تهرفين يا عجوز»

«أرجوك ، لا تدعني أمزق نفسي في هذا الليل»

«آه . . دعيه قبل أن نقع في فضيحة»

«أنت جئت ترغبني أليس كذلك ، لا تقل لا!»

«أنا أرغبك!»

(جئت وشبكتني ، هذا عمودك واقف دعه ينزف دموعه»

«اتركيه يا عجوز»

«ذقني أرجوك ، كي تعرف أنني أمتلك حرارتهن نفسها»
«آه . . عليك اللعنة ، مزقتيه»
«أما شبعت من المداعبات الجافة مع إناث لم يجربن حب الليل»
لم أجد كلاماً مناسباً ، وجدتها تعرف كل شيء ، وجدت العالم منغلقاً ، والليل يضغط على مشاعري ، ظلّت تعصره ، تكاد روحي تطفر ، فقدت الإحساس ، بدأت تمطر خدّي بالقبلات وتحرر توسلاتها عبر فم يقذف رائحة كريهة ، لم أجد مخرجاً ، وأنا واقف ، ضائع ، دخلت مملكتها ، شعرت براحة ، كادت هي أن تطير . . قالت :
«خمس سنوات وأنا لم أتذوق لحم رجل»
خرجت يائساً ، لا رغبة أمتلك للعيش ، تمنيت في تلك الليلة ، وفي تلك اللحظة بالذات ، أن أفر إلى الجبال باتجاه الذئاب العاوية ، رغبت أن تهبط كائنات خرافية لتمزقني وتلقيني على الجبال ، وصلت غرفتي ، تمددت على سريري ، ما بين اللوم والتقريع دخل شبح الغرفة ، صار فوق رأسي . . قالت :
«أستاذ إذا رغبت تعال إلى غرفتي»
«أخرجي؟!»
خرجت هاربة ، بقيت أتلوى على سريري ، أبحث عن شيءٍ يميتني ، بدأت أحشائي تتقلب ، أكاد أقيء ، لم أحتمل تلك الرائحة الكريهة التي تشربت مساماتي ، تلك المملكة العفنة التي سحت فيها في لحظة غباء ، خرجت راكضاً نحو الحمّام ، خرج صوتي من غير إرادة منّي ، وجدت شبحاً يقف ورائي ، يداً بدأت تفرك ظهري . . قالت :
«أنت مريض حقاً أستاذ ـ حبيب ـ »
قادتني إلى الغرفة ، وجدت نفسي بين خمس زميلات ، أنظر

إليهن ، كن يشفقن علي ، عملن لي كوب حليب ساخن ، شعرت براحة ، جلست بينهن . . قالت (خولة) :

«أكثرت من تناول ـ الباقلاء ـ أستاذ ـ حبيب ـ »

قالت (أميرة) وهي تعاين حرارتي من خلال كفها على جبيني :

«حرارتك طبيعية أستاذ ـ حبيب ـ »

قلت :

«أشعر بشيء يمزق معدتي»

قالت (سميرة) :

«تحتاج إلى قدح حامض»

قلت :

«لا داعي للقلق ، حرمتكن من النوم»

أجابت (خولة) :

«أنت عزيز علينا أستاذ»

قالت (بدرية) :

«في المساء كنت بحالة جيدة»

قالت (حمدية) :

«لم لا تستحم أستاذ عسى أن تشعر براحة»

قالت (خولة) :

«وهل بإمكانه الاستحمام وهو بهذه الحالة؟»

قالت (أميرة) :

«حقاً يحتاج لمن يسبحه»

«لم لا نستدعي ـ أم عليوي ـ لتسبحه»

ضحكت (خولة) :

«هيّا لنأخذه نحن إلى الحمّام ونسبحه معاً»
أجابت (سميرة) :
«ولم كلنا يا ست؟»
«كي لا نتهم بعضنا البعض»
قلت :
«دعوني أرجوكن ، أستطيع أن أغتسل من غير عناء»
خرجت إلى الحمّام وعدت ، جلست على السرير ، وجدت ـ أم عليوي ـ واقفة في الغرفة ، رمقتها بنظرة جانبية . . قلت :
«ماذا تعملين هنا؟»
«سمعت صوتاً وجئت»
«خذي راحتك!»
خرجت .
«لنتركه يرتاح» . . تكلمت (أميرة)
«لا يصح تركه ربما يسوء وضعه!» . . أجابت (خولة)
قلت لهن :
«أشعر بتحسن ، أرجوكن خذن راحتكن»
خرجن .
بعد دقائق عادت (خولة)وصلت سريري . . همست في أذني :
«لدي عتاب شديد معك»
«عتابك لي راحة بال»
«هذه المرة عتاب جاد»
«خلصيني من عتابك»
«تركتني أكتوي بـ النار وأفرغت نيرانك في تجويف تلك البقرة!»

(١٤)

يالها من فتاة ماكرة ، تمتلك أنف كلب صيد مدرب ، لا يمر طائف إلاّ من خلال عينيها ، حاولت أن أعرف شيئاً من أسلوبها في اقتناص الأشياء ، كنت أرمقها بنظرات ثاقبة ، وجه جميل ، مدوّر ، أسمر ، عينان واسعتان ، شعرها جديلتان ، لا ترمش عيناها عندما تحفر وجهي بنظرة صريحة . . قلت لها :

«لا تسيئي الفهم ، ما في بالك انسفيه»

«أستاذ ـ حبيب ـ أنا لا أتكلم وفق تخمينات أو حدس محض»

«كنت أشعر بمغص خفيف»

«لكنك لحظة قبلتني ، كنت مشتعل الرغبة»

«قلت لك ، مغص أحجم رغبتي»

«أستاذ ـ حبيب ـ لكنها حكت لي»

«من!»

«البقرة . . أعذرني أنا أناديها البقرة»

«لا أفهم شيئاً مما تقولين»

«قالت : إنك أخذتها وقوفاً ، كانت فرحة لأنها لم تذق تلك الطريقة طيلة حياتها»

«آه . . ربما هناك خلط حصل ، ربما هي حلمت بشيء من هذا القبيل»

«أستاذ ـ حبيب ـ أتدري ما في هذا الكيس»

«لا أجيد لعبة التخمينات»

«افتحه؟!»

مددت يدي مرتجفاً ، كانت تنظر إلي بشيء من الدهشة ، لم أبدِ انفعالا ، فتحته ، وجدت سروالي الداخلي . قلت :

«آه . . يبدو أنني نسيته»

«في الحمّام!»

«طبعاً . . عندما ذهبت أستحم ، تركته لأغسله في الصباح»

«أستاذ ـ حبيب ـ سروالك كان عند البقرة»

«ولم أخذته؟»

«عندما أنهيت عملك معها ، أرادت أن تثبت صحة كلامها لي»

«ست ـ خولة ـ لندع هذا النقاش العقيم جانباً»

«لم أكن أتوقع أنك تنحدر إلى هذه الهاوية أستاذ ـ حبيب ـ »

«أرجوك أنا متعب»

«كان يجب أن تأتي إليّ كما كنت تجيء ، لتناصفنا المتعة»

«أعدك أنني لن أكرر هذا الخطأ ثانية!»

صمت .

قامت ومشت نحو النافذة ، كنت أنظر إليها من الخلف ، واقفة بوداعة ، راحت تتأمل الفضاء الملبد بالغيوم ، نهضت ومشيت نحوها ، وقفت لصقها ، نظرت إلى حيث تنظر ، الجبال هادئة ، الغيوم تزحف . . قلت :

«ست ـ خولة ـ تعرفين مدى حبي لك»

«كنت مهتمة بك أكثر مما يجب»

«أنا لا أنكر هذا»

«يجب أن أعترف أنني هيأت لك زميلاتي فواكه ليلية ناضجة»

«كنت أشعر بـ هذه الرغبة لديك»

«لكنك بدأت تتصيد لوحدك»

«صدقيني . . لن أنسى هذه الخدمة التعليمية الممتازة»

«لكنك أوقفت رغبتي الكبيرة منتصف الطريق»

«أنا رهن رغبتك التربوية»

«لكنك حطمت نفسي»

«قولي رغبتك ، أنا جاهز لتلبية طلباتك»

«رغبتي ليست طلبات شخصية»

«وما هي رغبتك يا عزيزتي»

«لا أعرف كيف أصفها ، كنت دائماً أحب أن أسقط زميلاتي في وحل الحب»

«يا لها من رغبة اشتراكية ، رغبة مشاعية في زمن التكنلوجيا»

«دائماً أشعر بضغط القلب ، عندما أجد زميلات معي يجهلن أو يتحاشين العلاقات العاطفية ، أتحرك كثيراً كي أسقطهن في بئر الرغبة»

«وهل هذه الرغبة قديمة ، أم وليدة هذا المنفى التعليمي»

«كلا . . كنت خلال الدراسة أمارس هذا النشاط التربوي من أجل إشباع رغبات أساتذتي»

«ليتني كنت أستاذك يا ـ خولة ـ »

«ألست أستاذي الآن»

«آه . . حديثك أفقدني صوابي»

«في أثناء الدراسة فشلت مع عدة فتيات ، ظلّت العقدة تعتمل فيّ ، مجيئك إلينا فتح لي باباً لممارسة موهبتي»

«ولكنك ما زلت في منتصف الطريق»

«نعم . . ما زلت أواصل نجاحي ، قبل أن تعمل هذه الفعلة المقيتة خارج حساباتي»

«غلطة ممكن تصحيحها»

«أتدري أستاذ ـ حبيب ـ كنت أتمنى أن تكون هناك مدرسة خاصة بـ فن الإغواء»

«لكنت مديرتها»

«الكثير من نسائنا يجهلن كيف يجعلن أزواجهن ذباباً يلتصق بهن»

«يا لك من شيطانة إنسيّة»

«تلك هي الحقيقة ، الحياة الداخلية مهدمة عند الغالبية العظمى في بيوتات مجتمعنا»

«والله فكرة أن تكون هناك مدرسة أو مؤسسة مجانية التعليم متخصصة بتعليمكن فن جعل البعل أكثر ثورية أوان العواطف»

«كلامي ناجم من رؤية الكثير من البيوتات»

«إنها فكرة ولكن من يتقبلها في مجتمعنا الشرقي»

«قل مجتمعنا الشرفي»

«لا فرق الشرق يعني الشرف»

«والغرب»

«الغرب كلمة تدل على الظلام والضبابية والموت والتفسخ والتغرب»

صمت .

في تلك اللحظة رنّ جرس الفرصة ، تعالت أصوات التلاميذ ،

عـدت وجلست خلف الطاولة ، ظلّت (خـولة) في مكـانهـا ، دخلت المعلمات . . صاحت (إيمان) :

«أشم رائحة خصوبة»

قالت (بدرية) :

«وجود ست ـ خولة ـ ربيع دائم»

أجبت :

«ست ـ خولة ـ تحلم أن تطير مع هذه الغيوم»

أجابت ست (أميرة) :

«ست ـ خولة ـ كل ساعة تبدل فارس أحلامها ، بعدما فاتها القطار»

التفتت ست (خولة) . . قالت :

«أنا سائقة قطار الحياة هنا ، أين أرغب أقف وأحمل معي من أريد إلى محطتي كي أركبها خيّالها»

قلت :

«الست ـ خولة ـ لن تكبر يا ستات ، ستبقى صغيرة العمر ، كبيرة العقل»

قالت ست (حمدية) :

«رفضت عشرات الخطّاب ، ماذا تنتظرين يا ـ خولة بنت الأعور؟!»

«أبي أعور ، ولكن أبيك طلّق أمك وأنت في بطنها»

قالت ست (بدرية) :

«ستأخذين رجلاً أعور أيضاً ، أليست البنت على سر أمها؟»

«لا يهم . . المهم يمتلك ذلك الشيء المرعب الذي يريح شق السعادة»

أطلقن ضحكات عالية ، في تلك اللحظة اكتشفت عيوناً ترمق من خلال فتحة المفتاح في الباب ، قمت وتوجهت نحو الباب ، سمعت أصوات أقدام تركض ، فتحت الباب . . صاح تلميذ :

«أستاذ . . ابن الفرّاشة يراقبكم»

«ابن العاهرة!» . . زلق لساني .

عدت .

«ستات . . خففن أصواتكن»

قالت ست (خولة) :

«عندما أحقق رغبتي الكاملة ، عندها سأعلن زواجي من أوّل شاب يتقدم لي»

أجابت ست (حمدية) :

«سأذبح خروفاً لو كان المتقدم الأوّل أعور»

قلت :

«هذا إجحاف بحق ست ـ خولة ـ »

أجابت ست(خولة) :

«لا تهتم أستاذ ـ حبيب ـ لدي طبخة فريدة لها ، ستكتوي بنار الحرمان وبهارات العاطفة»

صاحت ست (جيهان) :

«آه . . ذكرتينا بالطعام ، ماذا أعددت لنا هذه الظهيرة»

صاحت ست (خولة) :

«زقنبوت!»

(١٥)

ظلّت (جيهان) شاغلة بالي ، وجدت فرصة أعاتبها :

«حرمتني النوم»

«وددت أن ألتمس صدقك»

كانت واقفة قرب النافذة ، من وراء الطاولة أنظر إلى سيقانها ، بيديها تمسك قضبان النافذة ، شعرها يتهدل على كتفيها ، وددت أن أنهض وأحتضنها .

«لدينا فرصة جيدة»

«امسح هذه الفكرة من بالك»

«فكرة زرعتها في واحة فكري ، لا أتجرأ على المساس بقدسيتها»

«دع فكرك يسرح في مستنقع فواكهك الليلية»

«ماذا تعنين؟»

«وصلت الفكرة»

«أفكارك تنبع من فلسفة نادرة»

«كنت أعتقد أنك طاهر القلب»

«ربما هناك التباس في الأمر»

«كل دخان ينجلي طالما الرياح زائرة دائمة المرور»

«ست جيهان . . لنتصارح»

«تصارحنا»

«لكنك خالفت ما اتفقنا عليه»

«ثمة أمور بدأت تكسونا بغشاوة»

وجدت الكلام لن يجدي ، قمت ودنوت منها ، لم تتحرك ، تشجعت ومررت يدي لتسقط على كتفها ، شعرت برجفة سرت في أوصالها ، وندت منها جهشة ، راحت تبكي ، تأزم بي الموقف ، ربت على ظهرها :

«ما الذي يضيق صدرك؟»

«أنت!»

«ست جيهان . . ثقي حبي لكِ بلا حدود»

أنزلت يديها والتفتت ، في عينيها وجدت قارة دموع ، برعشة يد مسحت دموعها ، فتحت ذراعيها واحتضنتني ، ومضت تمطر وجهي بسيل قبلات :

«أحبك أستاذ ـ حبيب»

«وأنا أيضاً!»

فكت عناقي ، تراجعت إلى الخلف وجلست على الأريكة ، دنوت منها ، وقبل أن أجلس ، أشارت بيديها ، كانت الست (خولة) واقفة في الباب ، صاحت :

«أخيراً وجدت نصفك الضائع أستاذنا العزيز»

قالت (جيهان) :

«ست خولة . . أنا وأستاذ ـ حبيب ـ قررنا الزواج»

أجابت وهي تضحك :

«ومن قال إنني سأوافق»

قلت :

«حقاً لا يجوز ذلك من غير مشورتك»
قالت :
«حسناً سأوافق شريطة أن تتعانقا أمامي»
قلت :
«هذا شرط جهنمي»
أجابت :
«ما لم تفعلا سوف أفضحكما»
قالت (جيهان) :
«إذا كان هذا الأمر يروقك ، حسناً ما أسهل هذا»
قامت وتوجهت نحوي وعانقتني وأنا غارق في عرقي ، قبلتني ، وضعت (خولة)كفها على فمها وزغردت .
تخلصت من عناق (جيهان)ودنوت من (خولة)سحبتها من يدها إلى الأريكة ، دفعتها .
صاحت (جيهان) :
«آه لو كنت رجلاً»
قالت (خولة) :
«وماذا كنت تفعلين يا حبيبة؟»
«لمزقت غشاء برمودتك العفنة»
أطلقت ضحكة . . قالت :
«أستاذ ـ حبيب ـ سأضيف شرطاً قاسياً عليكما»
«دعينا من ثرثرتك ، ماذا أعددت لنا؟»
«ما لم تريني دماء برمودتها هذه اللحظة سأفعل ما عزمت عليه»
قالت (جيهان) :

«أستاذ ـ حبيب ـ سأخرج كي تحشره في فمها»
قالت (خولة) :
«موافق ولكن بشرط أن تكوني مراقبة لنا»
صحت :
«كفاكما هزلاً»
قالت (خولة) :
«ومتى الزفاف حضرات العاشقين»
أجابت (جيهان) :
«سنرتب الأمر وترقصين لنا»
قالت (خولة) :
«أعدكما أنني سأرقص عارية لو تزاوجتما هذه اللحظة أمامي»
صمت .
نهضت (خولة) . قالت :
«سأطبخ لكما هذه الظهيرة برغل على بصل فقط»
قلت :
«ما يحلو لك لا رأي مخالف له»
خرجت ، تنفست (جيهان) . . قالت :
«ملعونة»
«دعيها إنها تمزح»
«مزاحها ثقيل»
«الغربة غيرتنا ، يجب أن نتحمل كل المتاعب»
«أستاذ ـ حبيب ـ ليلة أمس شممت رائحة أمور غريبة»
«آه . . ليلة أمس ، كنت بصحة متردية»

«وما بال البقرة؟ كانت مسرورة وهي تتشاور مع ـ خولة ـ »

«من طبيعة المرء أن يشعر بسعادة مفاجئة ما بين فترة وأخرى»

«وما بال ـ خولة ـ كانت تأتيك كثيراً»

صمت .

في تلك اللحظة دق الجرس ، فتهيئنا لـ فرصة صاخبة .

(١٦)

جاءني مختار القرية ، جلس قبالتي ، رجل نحيف ، يتدثر رغم اعتدال الجو بعباءة صوفيه ، على رأسه عقال يضبط (شماغاً) يخفي رأسه ، كانت أصوات التلاميذ تتداخل في الصفوف ، ضغطت الجرس ، أتت (أم عليوي) . . قلت لها :

«شاي لعمّي المختار»

خرجت وعادت بقدحين . . قلت له :

«أصبحنا مثلكم منقطعين عن العالم ، لولا جهاز المذياع لما عرفنا هل العالم ما زال يعيش ويتخاصم»

«أستاذ ـ حبيب ـ أجدادنا كانوا هنا ، ليس بوسعنا العيش خارج هذه الجبال والسهول ، وضع الله رزقنا هنا ، هنا نقبر موتانا وهنا يجب أن نعيش»

«رغم بعدكم عن المدن لكنكم تتمتعون بحياة خالية من أمراض العصر ، حياتكم فيها طعم الحياة»

«لدينا وسائل راحة ، تعوضنا كل شيء ، ما زلنا ننتظر وصول الكهرباء كي تغدو منطقتنا نعيماً»

(الدولة تعهدت أن تنير كل بيوت البلاد ، لكن تعرف هناك مخاطر بدأت تحيق بنا ، هناك دول لا تعيش من غير تحرشات وحروب ، الاستعمار دائماً يبحث عن الفرائس كي يمتص نعيمها ، ها هم أشعلوا نار الحرب بيننا كي يحققوا غاياتهم الشيطانية من ورائها» .

«نشم رائحة الخير في هذه الحكومة ، ما نريده هو عدم استمرار هذه الحرب»

«قل لي كيف ترون أطفالكم ، ألم يغيروا طبائعهم؟»

«دائماً نطلب في صلواتنا التوفيق لكم ، الحكومة أتت لنا بهذه المدرسة لتعلم أطفالنا أشياء جديدة ومفيدة ، أطفالنا بدأوا يتغيرون ، قبل بناء المدرسة كانوا يلعبون بالتراب وعليه ينامون»

«سمعنا عبر الراديو أن الحكومة تزمع تعليم الكبار القراءة والكتابة ، هناك فرصة لكم كي تخرجوا من الجهل ، ستتعلمون القراءة والكتابة ، الحكومة أعلنت استمرار ثورتها التعليمية على وباء الأميّة»

«والله هذا حلم كبير ، لا أكتمك السر ، نسوتنا لديهن رغبة للجلوس مع أبنائهن هنا في الصفوف ليتعلمن مثلما يتعلمون»

«لا مانع لدي إن كنّ يرغبن في ذلك ، لدينا الوقت الكافي لتعليمهن»

(حسناً هذا الخبر يفرحهن ، ولكن قد يهملن أعمالهن المنزلية»

«كنت أرغب بجمع الرجال والنساء من أجل التناقش في أمور تهم الجميع ، ضمن فقراتنا التربوية مجالس أولياء الأمور ، تتم مناقشة أوضاع أبنائهم ، وشرح تطورات الحرب ونتائجها على المجتمع»

«لنؤجل هذا التجمع لما بعد زواج ابني ـ هاشم ـ بعد أسبوع»

«أبارك لكم مقدماً باسمي وباسم أخواتي المعلمات»

«أنتم مدعوون للغداء معنا ، مشاركتنا الاحتفال تكريم لنا ، ستنيرون بيتنا بوجودكم أستاذ ـ حبيب ـ»

«هذا كرم لا ننساه»

قام ، صافحني بحرارة وخرج .

دق الجرس ، دخلت المعلمات . . صاحت خولة :

«أشم رائحة فرح»
قلت لهن :
«المختار لديه حفلة زواج ابنه بعد أسبوع ، دعانا للغداء»
صاحت ست (خولة) :
«آه . . لكم أشتهي الرقص ، أكاد أن أنساه»
قلت :
«رقصك لا يشبه رقصات نسائهن ، رقصك جنون ورقصهن تراث»
قالت :
«سأعلمهن رقصاتي الغربية في جلسة واحدة ، سأجعلهن يلعن تراثهن الرث»
قالت ست (أميرة) :
«يا لها من فرصة كبيرة للترويح عن النفس ، مللنا هذا الروتين»
أجابت ست (حمدية) :
«لدي فكرة تقديم هدية لهم ، ماذا تقولون؟»
قلت :
«وماذا نقدم في هذا القمقم؟»
قالت :
«لنجمع مبلغاً من المال ونقدمه لهم»
قالت ست (إيمان) :
«لا أعتقد أنهم سيتقبلون المال ، يحسبونها إهانة»
قلت :
«لندع هذه الفكرة جانباً ، سنكون معهم وهذا يكفي»
صمت .

(١٧)

(المنسيّة) .

قرية متناثرة البيوت ، ما يلفت النظر ، لكل رجل امرأتان أو ثلاث ، عرفت في ما بعد أن إناثهم لذكورهم ، يتبادلونهن عند سن مبكر ، في كل بيت يوجد أكثر من عشرة صبيان وصبايا ، بلغ مجموع التلاميذ والتلميذات اثنين وخمسين .

أمّا فكرة بناء المدرسة فوجدتها في سجل بجلد سميك ، في دولاب حديدي داخل غرفة المخزن ، كان ذلك عن طريق الصدفة ، يوم بحثت عن مكان لتفريغ بعض نيران تأججت في داخلي ، وجدت فكرة غرفتي تثير الشبهات في أثناء الدوام ، كانت (خولة)متوقدة مثلي ، تحاورنا عن نفسينا ، قبل أن تثار رغبتانا . . قلت لها :

«ليتنا كنّا في الليل الآن»

«اصبر حتى يأتي الليل»

«الصبر في حضرتك جحيم»

«وما العمل؟»

«عقلك ماكر في التدبير العاطفي»

أطرقت برأسها ، كنت أنحت عيني فيها ، صدري يفضح قلبي ، أنفاسي تخرج صائتة ، رفعت رأسها ، نثرت غابة شعرها . . قالت :

«لدينا مكان شبه آمن»

«هيّا . . بت لا أحتمل»
«لنذهب إلى غرفة المخزن»
كانت فكرة جميلة ، بحثت عن المفتاح . . قالت :
«لا تبحث هنا ، المفتاح عند البقرة»
«ولم عندها المفتاح؟»
«تضع فيها أشياءها الخاصة»
«حسناً . . سأسحب المفتاح منها وتعالي خلفي»
«لا . . أنت ابق هنا . . أنا سأذهب إليها»

خرجت ، رحت أنظر إليها من الباب ، كانت تموع في مشيتها ، وكنت أحترق ، رأيتها تحاورها ، بحثت في جيوبها ، أخرجت سلسلة مفاتيح ، تناولت(خولة)كميّة من المفاتيح وتوجهت إلى غرفة المخزن ، بعد عدة محاولات وتجريب المزيد من المفاتيح ، تمكنت من فتح الباب ، وقفت دقائق قبل أن تدخل ، مشيت كلص إليها ، كانت أنفاسي تتطاير ناثرة رائحة شهوتي ، دخلت وجدتها أمام دولاب حديدي يعلوه الغبار ، رائحة خانقة لفئران فاطسة معجونة بغبار خانق وأشراك عناكب تتدلى من السقف ، متعاشقة مع المهملات المتكدسة ، وقفت قربها . . قالت :

«أخشى أن يشعرن بنا»
«لا تخافي . . إنهن في غرف الدروس»
«أهذا مكان يصلح لفعل الإثم»
«في الخرائب تأتي الرغبة ثورية»
«ليتك تصبر حتى الليل»
«لذة الرغبة تكمن ساعة هياجها»

«هذا بالنسبة لكم»

كانت(خولة)متحمسة أكثر منّي ، راحت تغيب شفتيها بين طيّات شفتي ، تمص رضابي ، وجدت نفسي أحتضنها ، كانت تتأوه ، قبل أن تستسلم ، لم أكن أمتلك زمام عقلي ، أو إرادتي ، فقدت كل شيء ، ورحت أحتضنها وأرخيها ، حتى سال بحر عواطفي وغرقت في عرقي . . قالت :

«دائماً تضيع علي المتعة»

«لا أستطيع أن أمتلك زمام الأمور في حضرتك»

«هذه آخر مرة أستجيب لغرائزك العابرة»

«يمكننا أن نعوض الخسارة ليلاً»

خرجت .

بقيت ألملم نفسي ، أحاول أن أميت العاصفة التي اجتاحت قلبي ، وجدت سروالي مبللاً ، يا لمصيبتي ، في تلك اللحظة دق الجرس ، كانت دقاته تنسجم مع دقات قلبي ، خرج التلاميذ من صفوفهم حاملين صخبهم ، بقيت أبحث عن وسيلة تنقذني من ورطتي ، دق الجرس ثانية ، متعرقاً كنت ، مختنقاً ، انتبهت لظل يسد علي الباب ، استدرت بلا مبالاة ، وجدت (خولة) واقفة في الباب . . قالت ضاحكة :

«أستاذ ـ حبيب ـ أنت تسبح في بحر العرق»

مضت دون أن تزيد كلمة ، أو تنتظر مني ما يجود به لساني من كلمات مناسبة ، فرغت الساحة من الصخب ، جاءت (أم عليوي) . . قالت :

«أستاذ هل تطلب مساعدة؟»

«كلا . . أنا أبحث عن بعض الأوراق المهمة»

«أنت تسبح في عرقك أستاذ»

«حسناً انتهيت»

«أستاذ هذا المكان أمين»

رمقتها بنظرة ، ظلت تحدق بوجهي وهي تبتسم .

«ماذا قلتِ؟»

«يمكنك أن تفعل إذا كنت ترغب»

«أخرجي؟»

«أستاذ حبيب . . أنت لا ترحمني ولا ترحم نفسك»

«ماذا تريدين؟»

«لكم فرحت معي تلك الليلة»

«كانت مصادفة»

«لنعتبرها مصادفة أخرى أيضاً»

وجدتها متحمسة ، كنت أسبح في عرقي ، كانت تتلفت . . قالت :

«ذهبن لتناول الغداء»

«سأتغدى في ما بعد»

«أستاذ حبيب ، لا واحدة تنفعك غيري»

«وما نفعك؟»

«أنت تفعل معهن كما تفعل مع الحجر»

«لكنك عجوز»

«أحشائي نارية»

وجدتها تدخل ، تلاعبت نفسي ، شيء ما يلجمني ، صارت قربي . . توسلت :

«أستـاذ أنت سكبت عـصيـرك خـارج الحـيـاة ، دعـه يمشي في مصاريني»

«لكنه نائم»

«تراخت أمامي ، فتحت بنطالي وأنا شبه معتوه ، كأنني ملجوم بشيء مجهول ، أخرجته وراحت تمهطه ، وجدت النار تستفيق ، وحين جهز الأمر ، استدارت وأخرجت ردفيها ، بركت كما يبرك البعير أو ككلبة خضعت لسلطة كلب ، توسلت ، كما لو كانت تصرخ بصمت :

«أرجوك أرغبها وقوفاً»

في لحظة من لحظات الغـيـبـوبة ، ولجـتـهـا ، كل شيء تم بلهـاث وخـوف وذوبان في مـسـتنقع العـرق والرذيلة ، قـامت وقـبلتني ، بدأت أشعـر بقيء وتقلب أحشـاء ، دفعـتهـا ، هرولـت خـارجة ، لم أحـتـمل لعابي ، تقيأت وسط الغبار وفوق أكداس سجلات ودفاتر عتيقة .

تناولـت سـجـلاً جلدياً مـغـبراً ، خـرجت مـتـوجـهـاً إلى غـرفـتي ، استـبـدلت بنطلوني ، توجهت نحو الحمّام ، أزلت عـرقي وعـدت إلى غرفة الإدارة ، كانت المعلمات خالدات للصمت .

لم أجد واحدة منهن ترغب بالكلام . . قلت :

«يبدو أنكن متعبات»

كـانت العـيـون ترمـقني ، لم يحـصل أن صـمـتن لبـضع دقـائق من قبل . . قلت لتمزيق سربال الصمت :

«الفاتحة!»

تكلمت (خولة) :

«على روح البقرة!»

ثمة أمر خطير يلوح ، شعرت بأوصالي ترتجف ، كلام ملغوز حررته

(خولة) ، لكن بشيطنتها ، أعادت لي الرشد . . قالت :
«ألم أقل لك ، تلك البقرة تعرف أسرار المدرسة»
«يمكننا أن نجد أية معلومات بقليل من الجهد»
«المهم أنت سعيد الآن»
«ليس قبل أن أجدكن سعيدات»
«تركنا السعادة اليوم»
«ما خطبكن؟»
«المعقدة عملت لنا حفلة أخلاقية»
«وما الذي حصل هذه المرة؟»
«اتهمتنا بأننا محظيات لك»
«سيكون لي كلام معها»
«دعها . . إنها معتكفة في غرفة البقرة»
صمت .

فتحت السجل ، كي أهرب من نظراتهن ، خالجني شعور أنني افتضحت . . بدأت أقرأ :

[تم تشيد مدرسة (أم الكرامة المختلطة) . . بتاريخ/الأول من كانون الثاني/ من/ العام ١٩٧٨ . . في قريّة (المنسيّة) ، بناء على توجهات الحزب القائد لإشاعة العلم في كل شبر من أرض الوطن]

في البدء ، كان يديرها أستاذ (ح .ج .م) كأوّل مدير لها ، مع ثلاثة معلمين ، بعد مرور سنتين تم تعين المعلمة (ه .إ .ع .ق) ، تلك المعلمة وجدت صعوبة كبيرة في التآلف مع ثلاثة رجال غرباء ، قبل أن يبادر المدير (ح .ج .م) بمفاتحتها في مشروع الزواج ، تزوجا وبقيا هناك ، قبل أن ينتقلا بعد مرور خمس سنوات إلى التعليم الريفي ، جيء بمدير جديد

(ع .ك .ز) لم يفكر في يوم ما بمغادرتها ، كونه كان بلا رجولة ، كما سمعت من الفرّاشة بعض التفاصيل البسيطة ، قرر أن يموت فيها ، قبل أن يفكر بمغادرة البلاد بحثاً عن علاج لحالته ، وقبل وصولي كمدير لها ، كان هناك مدير خجول اسمه (ح .ح .إ) ، أسمعتني المعلمات الكثير من المقالب التي كانت الست (خولة) مدبرتها ، كان يموت خجلاً ، دون أن تثار مشاعره ، أو يتخذ قراراته التعليمية لوقف حرشاتهن ، كان يعتبرهن بناته ، حرر لهن حبل المودة والعبث ، فتطاولن عليه ، لم يحصل أن اتصل بواحدة منهن ، رغم وجود رغبات باحت بها المعلمات من قبل زميلاتهن ، كان يهرب منهن ، وفي الليل كان يغلق باب غرفته حين ينام ، شتاء وصيفاً ، خوفاً من غزواتهن العاطفية الجارفة ، عملت له الست (خولة) طبخات من الألاعيب والمقالب .

من بينها ليلة كان يستحم ، كان غالقاً الباب على نفسه ، خشية أن تداهمه (خولة) ، كان ناسياً ملابسه ومنشفته خارج غرفة الحمّام ، فكانت غلطة ألفية بالنسبة له ، بقى داخل الحمّام حتى الصبح ، لم يستطع الخروج ، قبل أن تتنازل (خولة) عن مواصلة لعبتها معه ، وتعيد له أسماله .

من بين المقالب التي سمعتها ، ذات ليلة دخلت عليه (خولة) عارية وكان يتناول عشاءه ، دائماً كان يغلق بابه ، لكنه كان أحياناً ينسى ذلك ، تجمدت أوصاله ، حاول أن يغطي وجهه ، لم تنفعه محاولاته ، وجد نفسه بين إناث تكالبن عليه ، ظلّ يتوسل وظلّت (خولة) تصر على طلبها أن يتعرى معها ويرقصان ، طال بهما الوقت وشبعا ضحكاً ، قبل أن تنسحب (خولة) من الساحة ويعود لعشائه ، لكنه لم يجد بقية رغبة عنده لتناوله .

(١٨)

وصولي تلك المدرسة أخرجهن من حالة الكساد العاطفي ، كن نسين أنهن إناث تنتظرهن كوكبة ذكور ، تلك هي الرغبة المشتركة لهن ، كل أنثى تعد نفسها عربة رغبة لسائق يسوقه قطار (القسمة والنصيب) .

بعدهن عن مدنهن ، بعدهن عن أنظار الذكور أمات براعم عواطفهن ، لم يعد لديهن رغبات ، فتيبست أشجار شهواتهن ، ذبن في حياة خالية من المشاعر الغرائزية والأحلام الوردية ، كنت أراهن يدخلن الصفوف بملابس نومهن ، من الفراش إلى غرف الدروس ، كئيبات الوجوه ، يائسات من الحياة ، لم تعد مساحيق التجميل ذات أهمية في مكان مظلم ، دنيا المرأة لا تنار إلاّ بوجود عيون ذكور تطارد مفاتنهن ، لا قيمة لأنوثتهن ما لم تكن هناك سهام شهوة تنهال عليهن ، حتى إنهن نسين أن هناك مستقبلاً يحتوي قصور أحلام وسعادة ، لكن كلامي يوم الوصول أشعرهن بقيمتهن ، بدأن يعدن أشياء حيوية فيهن ، نائمة كانت ، استفاقت تبحث عن وغزة حس ، بدأت ملامحهن تعيد تلك الومضات المنطفئة ، تحركن بشكل لافت للنظر ، وكنت أرى نظرات (أم عليوي) تطارد بغرابة الحركات الدؤوبة لهن ، كانت تبتسم وهي تنقل نظراتها بينهن وبيني ، مع غمز ذي مغزى ، بدأن يخرجن ملابسهن النائمة من حقائب متربة ، سرعان ما وجدت ركام ملابس زاهية

متناثرة على قضبان النوافذ ، رحن يغتسلن كثيراً ، يهدلن شعورهن أمام أشعة الشمس ، وكنت أراقب ذلك التبدل الحاصل فيهن ، أقول في نفسي ، يا لقوّة الإنسان وضعفه ، يا لرائحة الذكر في عالم النساء ، هذه الأمور نفسها تحصل عندما توجد فتاة بين حشد رجال ، كل واحد يبحث عن جماله الحقيقي لإلفات نظرها ، كثيرون يلعنون أنفسهم ، لأنهم لا يحملون صفات جمالية تلفت انتباه الإناث ، شكل مقبول أو صوت مغناطيسي أو حظ سعيد .

بقيت كما أنا ، لا أشعرهن بأنني مهتم بواحدة منهن ، أستجمع المعلومات التي تنفع مزاج ذكر يرغب في بناء حياته القادمة ، أخذني سيل جارف ، وجدت نفسي لا أجيد السباحة ، بدأت أغرق . . أغرق . . أغرق . . في بئر عميقة ، في حديقة فواكه تغري بـ لذّات جنونية متجددة .

***

كانت لدي محاولات فاشلة من قبل لإغواء فتيات صغيرات كنّ يلعبن داخل الأزقة في الظهيرات ، سألت ذات يوم فتاة صغيرة عن سبب وجودها دائماً بالباب جالسة تحت شمس تموز اللاهبة ، أجابتني أن أمها تطلب منها أن تخرج قبل أن تدخل غرفة النوم مع أبيها ، حاولت أن أعرف منها وعلى لسانها سبب دخولهما الغرفة معاً في الظهيرة ، هل رأت ماذا يفعلان ، رفضت أن تحكي لي شيئاً من القضية ، بالطبع كانت تعرف ورأت كل شيء بوضوح ، رأيت الجواب يصرخ من أعماق عينيها .

كل طفل غالباً ما يمتلك حساسية مفرطة تجاه الأشياء المخالفة لذوقه ، يمتلك حسّاً فطرياً يدفعه مغامراً لكشف الأشياء الجديدة عليه ،

صمتها ونظراتها الحافرة شجعاني أن أغويها ، عرضت عليها أكاذيب لترافقني إلى البيت ، وعدتها بمجموعة من اللعب والهدايا ، سال لها لعاب براءتها ، كانت أمّي تنام الظهيرات ، وكنت في غرفة سطح المنزل أنشغل بقراءة الكتب وكتابة خواطري ، صعدت إلى سطح منزلها وقفزت إلى سطح منزلنا ودخلت معي الغرفة ، تفاجأت بعدم توفر ما وعدتها به ، ظلّت واقفة ، حائرة :

«أنت تكذب علي»

«إنها موجودة في دولابي ، أمي نائمة أخاف أن أنهضها من نومها»

«لماذا لم تحضرها قبل أن تناديني»

«لم أتصور أنك ستأتين بهذه السرعة»

«أنت تكذب علي»

«صدقيني يا ـ وردة ـ إنها في دولابي»

«سأذهب وحين تحضرها سوف آتي إليك»

«أرجوك اجلسي قليلاً»

«لماذا تكذب علي؟»

«لن أكذب عليك ، سوف أعطيك كل ألعابي»

صمت .

دنوت منها ، بدأت ترتجف ، وجدت العبرة تخنقها ، تكاد تبكي :

«لا تخافي يا ـ وردة ـ أنا أحبك ، وحين نكبر أتزوجك»

«أخاف أن تفعل معي كما يفعل أبي مع أمي!»

«كلا . . حين نكبر نـ عمل مثلما يعملون»

«ولماذا يـ عملون هذا ألا يستحون!»

«هذا الـ عمل حلال يا ـ وردة ـ حتى يصبح لك أخاً»

«هل كان أبوك يـ عمل مع أمك مثل ما يـ عمل أبي مع أمي»
«نعم كان يـ عمل ذلك»
«ولماذا لم يكن لك أخ؟»
«ربما سيكون لي أخ عن قريب»
«وهل إذا عملت معي مثلما يعملون يكون لي أخ؟»
«كلا يا ـ وردة ـ سيكون لك ابن»
«أنا أريد أخاً لا ابناً»
«أبوكِ وأمكِ سيجلبان لكِ أخاً»
«وأنت إذا عَملت معي ألاَ يكون لي أخ؟»
صمت .
«سنتكلم في ما بعد حول هذا الموضوع»
صمت .
«وهل كنت تنظر إليهما من ثقب الباب عندما كانا يعملان؟»
«عيب أن ننظر إليهما ، الله سيعاقبنا على هذا»
«وهل كانا يطردانك في الظهيرة كي يـعملان ذلك»
«أبي قبل أن يموت كان يـعمل ذلك في الليل»
«ألم تقل إنك لا تنظر إليهما»
«كلا . . لم أشاهدهما»
«وكيف تقول إنه كان يـعمل ذلك في الليل»
«لأنه كان في النهار في عمله»
«أنت تكذب علي يا ـ حبيب ـ »
«صدقيني لن أكذب عليك»
«وماذا تريد مني؟»

«لنجلس معاً ، ضعي رأسك في حضني»
«وهل أنا طفلة كي أضع رأسي في حضنك»
«كلا . . أريد أن تشعري أنني أحبك»
«وما هذا الواقف في سروالك»
«ها . . لا . . لا . . لا شيء»
«أنت تريد أن تعمل معي مثلما يعمل أبي مع أمّي»
«إذا عملت ذلك معكِ أهربي منّي»
«لن أجلس معك حتى تنيم هذا الواقف في سروالك»
«سوف ينام حين نجلس»
«وهل حين تقف هو أيضاً يقف؟»
«سوف لن أجعله يقف من أجلك»
صمت .

مسكتها بعنف وقربتها إلي ، بدأت ترتجف أكثر ، تحاول أن تتملص ، وقعنا على الأرض ، صارت تحتي ، تحاول أن تخفي وجهها عن ثغري ، وكنت متحمساً أقبّل كل ما يلتصق فمي به ، قبل أن أكتشف أمّي واقفة علينا ، نهضت مرعوباً ، بكت (وردة) ، دنت منها ومسكتها من يدها ، قادتها خارجاً . . همست في أذنها :

«اذهبي . . إن عدت مرة أخرى سوف أخبر أمّك»

(١٩)

تحرك عقلي صوب (بدرية) بعدما وجدتها تخرج من قالبها الرزين ، بدأت تتحرش بي ، وجدتها تغمزني وتحرك رأسها كلما التقت نظراتنا ، بدأت تضرب على كتفي كلما سنحت لها الفرصة ، وكانت تردد :

«أوووووووف منك أستاذ ـ حبيب ـ»

تفاعل فكري كي ألقيها فاكهة ناضجة في سلّة قلبي ، لم تدعني أبلور الفكرة في ذهني ورسم وسيلة توصلني إليها ، على ما يبدو أنها طبخت نفسها في قدر الانتظار لي .

كنت في غرفتي ، لحظة جلبت لي العشاء ، جلست على الكرسي . . قالت :

«أرجو أن العشاء يروقك هذه الليلة»

«آه . . لو كنت أنت العشاء لكان ألذ وأطيب»

ضحكت . . قالت :

«لو كنت أعلم بذوقك لطبخت لك نفسي»

«أحب أن أتناولك من غير طبخ»

«لابد من طبخ كي يغدو الطعام لذيذاً»

«ليس كل طعام ، أنت مطبوخة من غير نار»

«آه . . منك . . أنك مخادع أستاذ . . . من تختار؟أنا أم العشاء»

«يجب أن لا أحتار ، أنتِ أختار»
«يبدو أنك شاعر أستاذ»
«غدوت شاعراً بوجودك»
«حقاً الشاعر ذوّاق»
«حسناً هيّا أريد أن أبدأ»
«من غير طبخ»
«يمكنني أن أطبخك وألتهمك في الوقت نفسه»
«كم واحدة طبخت قبل أن تطبخني»
«أنت أول طعام يجب أن أطبخه بيدي وأتناوله من غير شريك»
«وأين كنت مني طيلة هذه الأسابيع»
«كنت أطبخك سراً»
«لكنني لم أشعر بنارك»
«ناري تأتي في ما بعد»
«وهل تطبخ بالليزر»
«نظراتي تتكفل بالعملية»
صمت .
نهضت ودنوت منها ، لم تتحرك . . قالت :
«تناول العشاء أستاذ ، سيبرد»
«أريد أن أتناولك»
«أبهذه السرعة ومن غير مقبلات»
مسكتها ، لم ترتجف . . قالت :
«أخشى أن تباغتنا ـ خولة ـ»
«فوق السرير يمكننا أن نراقب الساحة من خلال الكوّة»

صرنا معاً .

«كنت دائماً أتساءل ، كيف تصبر الأنثى على حرائقها الدائمة»

«كنّا نتحاضن زوجين زوجين ونتخيل»

«سحاق!»

«لم أكن قد سمعت بهذه المفردة من قبل»

«من علمكن هذا الانحراف الخطير»

«الملعونة ـ خولة ـ»

سكتت ، كنت أتأمل سحنتها من خلال العتمة ، كانت غارقة في بحر النشوة ، عرفت لحظتها أنها ربما خاضت أشواطاً من المغامرات الجسدية ، جاء النزيف سريعاً ، شعرت بذلك من خلال لهاثي . . قالت :

«ليس من المسر أن تنهي بسرعة»

« أنت حارقة ، لم أحتمل نارك»

«السرعة تبدد النشوة»

«يمكننا أن نتواصل»

قمت من السرير ، توجهت نحو كوز الماء ، غرفت الطاسة وعدت . . قلت لها :

«أشربي؟»

«لست عطشانة»

«فقدنا الكثير من ماء جسدينا»

«اشرب أنت»

«حسناً لنقتسم الماء»

«فكرة جميلة ، لكل منا نصف فراش ونصف طاسة ماء»

رشـفت قطرات ، رشـفت روحي مـعـهـا ، قـربت الماء من فـمي ، شربت ونحيت الطاسة ، عانقتها . . همست :

«أما شبعت مني»

«ومن يشبع من أنثى بجمالك»

«لا تبالغ»

«أتدرين أنك محط اهتمامي مذ رأيتك»

«حقاً المرء يكذب أوان العاطفة»

«لكن الفتاة تعشق من يكذب عليها»

«ليس كلهن»

«لا أقول كلهن ، بل معظمهن»

«الفتاة تشعر بأنوثتها وقيمتها حين تسمع كلمة إطراء بحقها»

«أليس الإطراء كذباً؟»

«لكل أنثى طريقة تدير بها قوافل عاطفتها»

«وما هي طريقتك؟»

«أن تكذب علي»

«منذ مجيئي كنت أعد العدة للوصول إليك»

«لا تكذب أستاذ؟!»

«لكنني صادق في ما أقول»

«أريد طريقة أكثر كذباً»

«أنت تكفين العالم»

«هذا عين الصواب»

«ثقي . . لهفتي دليل صدقي ، لم أرفع بصري عن مؤخرتك كلما أعطيتني ظهرك»

«قل لي لم مؤخرة النساء مثار اهتمام الرجال»

«حين تعطي الأنثى ظهـرها ، يمكن للعين أن تنفلت من إسـار الخوف والقلق وتتمعن بكامل الصفاء هذا الجسد المتلوي أمامها»

«لكنك كنت تهرب منّي دائماً ، كلما رمت صيدك»

«كنت أخاف أن أحترق بجمالك»

«ليكن كذبك محترماً»

«وهل الكذب يحترم أحياناً؟»

«عندما يكون مهذباً ، أبيض كما يقولون ، يكون كذباً مرموقاً أو محترماً»

«بدرية . . أنت بدر حقاً نورت حياتي»

«لا تستطيع إقناعي ، لدي الدليل الذي يدينك ، على أنني كنت خارج حساباتك العاطفية»

«ثقي أنني كنت أضعك في البـال ، كنت أحـاول الوصول إليك بطريقة محترمة»

«كم مرة انفردنا في الإدارة ، لم أجد في عينيك نظرة إعجاب»

«كنت أخشاك يا ـ بدرية ـ »

«لكنك كنت منفتحاً مع ـ خولة ـ »

«خولة . . تشكل عندي حالة خاصة ، إنها زميلتنا ، بل هي أمّنا إن جاز القول»

صمت .

كان الوقت يمضي سريعاً ، من بعيد صاح ديك في غير أوانه . . قالت :

«يجب أن أذهب»

«أرجوك لدي شوق فائض عن اللزوم»

«ستقوم تلك المعقدة لتفريغ مثانتها»

«الفجر لم يحن بعد»

«إنها تقوم كل ساعتين»

سمحت لها أن تنفلت من بين يدي ، وقفت غير مصدق بباب غرفتي ، ماع شبحها في الظلام ، عدت إلى سريري ، رحت أستعيد اللحظات التي ذابت وأنا ألتهم عشائي .

(٢٠)

كنت جالساً ، لم أبال بنقرات خفيفة ظلّت تتردد في صدغي ، قبل أن أستقيم في فراشي ، خلت واحدة من زميلات الليل ، عطشت وجاءت تبحث عن شفاء ، قبل أن أفتح الباب ، وجدت شبح أنثى ، دفعتني ودخلت ، عند السرير عرفتها . . قالت :

«لم تخلف وعدك!»

«أنا!»

«ألم تواعدني؟!»

حاولت أن أتذكر ما يتفوه به فم أنثى في ظلام متخلخل جراء ضوء الفانوس المتراقص ، وجدتها تطوقني بأسوار عاطفية خانقة ، كل حلم خامل يريد أن ينمو من غير زمن ، لا مجال للف والدوران ، يائساً وقفت ، مقفل العقل ، مشلول اللسان ، لم تمهلني فرصة البحث عن كلام ، اتهمتني بقولها وجاءت تتحرى . . قالت :

«انتظرت كثيراً قبل أن أتخذ قراري»

«حسناً فعلت وجئت»

«هل حقاً أنت مهتم بي؟»

«نعم كل الاهتمام كما ترين»

«خولة . . قالت أستاذ ـ حبيب ـ وضعك في البال زوجة ، قلت لأتأكد

بنفسي ، فهي كما تعلم كثيرة المزاح والمقالب ، لذلك لم أتردد في المجيء»
«يا لها من ملعونة ، كيف باحت بسرٍ ما زال مقفلاً في قلبي»
«ألم تفاتحها بالموضوع؟»
«لا أعرف!»
«أستاذ ـ حبيب ـ قل الحقيقة أنا لا أحب المجاملات ، هذا مشروع عمر وحياة»
«أنا أيضاً لا أحب المجاملات يا ست ، ما يحيرني كيف اهتدت إلى سر كتمته في أعماق قلبي»
«لم أتردد لحظة واحدة ، قررت أن أتجاوز حدودي ، وددت أن أعرف الماء من مصبه»
«حسنا فعلت يا ست ـ إيمان ـ ما سمعته هو عين الحقيقة ، ربما راقبتني وأنا أحتويك بنظراتي السريّة»
«هل حقاً تريدني زوجة؟أنا لن أتأخر في جوابي لو كان هذا الأمر يشغلك»
«بالطبع لا أحد سواك يكمل ديني ، تأخرت عليك كثيراً على ما يبدو ، كان يجب أن أمهل نفسي وقتاً ، أنت فوق كل احتمال»
«ومتى بإمكانك أن تفاتح والدي؟»
«في أقرب فرصة»
«لم لا تعطيني إجازة كي أذهب وأخبرهما»
«لا أحب العجلة في هذا المشروع الحياتي الكبير ، في العطلة يمكننا أن نرتب الأمور»
«حسناً . . عليك أن تخبرني بالوقت المناسب»
رأيتها تهم بالخروج ، تشجعت ، مسكتها من معصمها ، وقفت من

غير مقاومة . . قلت لها بخوف :
«ست ـ إيمان ـ أموت فيك»
«لا أريدك أن تموت ، أريدك أن تعيش من أجلي»
«الموت فيك يعني العيش معك»
«أرجوك أستاذ ـ حبيب ـ لنترك هذا الأمر لما بعد عقد القران»
«ست ـ إيمان ـ أنا عقدت قراني عليك في هذا الليل»
«أرجوك ربما ستكتشفنا واحدة»
«دعيهن يعرفن أننا أصبحنا معاً»

صمتت ، قرّبت ثغري منها ، تمايلت في الضوء الكابي للفانوس ، شعرت أنها تحاول أن تبدي مقاومة خجولة ، احتضنتها . . تأوهت :
«أستاذ أرجوك أنا خائفة»
«لا تخافي يا روحي»

ماعت بين أحضاني ، ندَّ منها صوت نحيب صامت ، مسحت دموعها ، ومضيت أدفن ثغرها بين شفتي ، وجدنا نفسينا على السرير ، لا أعرف كم من الوقت مضينا وماذا فعلنا ، كنّا غارقين في تعرق تام ، هي متمددة قربي ، راضية ، وديعة ، مطيعة ، راغبة بعد أن كانت ترتعش ، وكنت أداعب بأنامل خدرة كتفها . . قالت :
«متى نكون معاً؟»
«قريباً يا روحي»
«ليت ذلك الآن!»

تعالى صياح ديك ، هرعت ناهضة ومنفلتة من أحضاني لتذوب في العتمة .

***

للحق أقـول ، لم أكن قـد وضـعت الست (إيمان) في بالـي ، رغم بياض بشرتها ، ورقة صوتها ، كنت أعتبرها مجرد أنثى خالية من العواطف ، كثيراً ما كانت تقتحم خلوتي في غرفة الإدارة ، تتعذر بأشياء لم تحرك مشاعري ، لكن مجيئها المفاجئ في الليل وضعني في حالة من التأمل ، لم أجد تأويلاً مناسباً لفعلتها ، في البدء خلتها ماكرة اختلقت لنفسها تلك الحكاية للوصول إلي ، رغم أنني أدرك أن (خولة) تكافح بشتى الوسائل لإسقاطهن في حبائلي لغاية في نفسها ، ربما استغلت ودية العلاقة العلنية بيننا ، هكذا طبع الأنثى الجريحة ، أو من تمتلك رغبة صادقة في اصطياد شريك مناسب تعرفه ، في عالم منغلق ، بعيد ، لابد من نافذة حرية للتنفس ، حاولت أن أعيد في ذهني تلك اللحظة التي تفوهت فيها رغبتي كما قالت لي .

أخيراً تذكرت كلاماً من هذا القبيل مر عبر لساني ، كنت داخل غرفة الماء ، كانت (أميرة) قربي ، كنّا نتحاور بكلام عادي ، فقدت شعوري في تلك اللحظة ، كان رأسي تحت صنبور الماء . . قلت :

«انتظركِ في الليل!»

حين أنهيت غسل رأسي لم أجد (أميرة) قربي ، وحين انتصف الليل عرفت أن (أميرة) لم تسمع كلامي ، وأن (إيمان) ربما مرّت ، أو جاءت من أجل الماء ، تصادف وجودها مع الكلام الذي خرج من فمي ، هذا الظن بدا أكثر قرباً للحقيقة ، حين استحضرت كل نظراتها السابقة لي ، أخيراً قررت أن لا أفكر بالكيفية التي تم فيها تعارفنا الجسدي ، طالما هي أنثى مكتنزة الجسد باللحم والشحم ، بيضاء البشرة ، مجروحة المشاعر ، صارت من غير بذل جهد ، فاكهة يانعة في حديقة عواطفي .

(٢١)

(وداد) . . رفضت الرضوخ لتوسلاتي ، كادت تخرج من طورها العقلاني لحظة ضربت الطاولة بكتاب واندفعت خارج الإدارة ، كنّا معاً ، أنا والست (خولة) والست (أميرة) والست (حمدية) وهي ، واحدة واحدة انسحبن بحجج مبيّتة ، بقينا معاً ، ظلّ الصمت سيد الموقف ، كنت أتصفح جريدة قديمة ، أشياء كثيرة تعتمل وتنهض فيّ ثورية متفاقمة ، بدأ نبض القلب يتسارع ، وحشرجات الرغبة صائتة ، كانت منهمكة بتصليح أوراق الامتحان اليومي ، تشجعت وقلت :

«ست ـ وداد ـ ما زلت أنتظر كلامك»

رفعت رأسها ، تأففت . . قالت بحدة :

«أي كلام ، لا كلام بيننا خارج أمور المدرسة أستاذ»

«لا أعرف بت لا أحتمل نفسي مع كائنة راقية تفسر الأمور خارج نطاق العالم»

«أي عالم أستاذ ـ حبيب ـ عالم فاسد ، سرطان يفتك بالأعراف والقيم التربوية النبيلة»

«أنا أنشد الجانب النقي من العالم»

«لا نقاوة في عالم مظلم وضعونا بقصدية فيه»

«ما معنى القصدية يا ست؟»

«أنت تحاول سحبي لمستنقع السياسة»

«لا . . لا . . لا تفكري بهــذا الجــانب ، كنت أريد أن أجــعلك الطرف الساند لي في الحياة»

«سبق وأن قلت لك كل شيء وأنهينا هذا الموضوع»

«إصراري لك دليل حي لنبل عواطفي ورقة مشاعري اتجاهك»

«أستاذ ـ حبيب ـ أنا لست أجمل من هذه الكوكبة العاطفية من حولك»

«لا يعنيني الجمال بقدر مسحة الأخلاق المتجمعة فيك»

«لو كنت مجنونة لصدقت كلامك»

«الجنون عند المرأة أحياناً ضرب من المغامرة الناجحة»

«أنا محجوزة أستاذ أليس هذا يكفي»

«لِمَ لمْ نغير هذه اللهجة المخادعة بيننا»

«أنا واعية في ما أتصرف وواثقة في ما أقول»

«لنكن أصدقاء خارج نطاق الأطماع الشخصية»

«لا رفقة بين كائنين بينهما الحياة ساحة حرب أزلية»

«لنحاول أن نبدل هذه الساحة بـ حديقة سلام»

«كل الذين تعاشـروا بالطرق الشرعيـة حلموا بذلك ، سرعان ما اكتشفوا أنهم وسعوا من ساحة المعركة بينهما»

«أنت فيلسوفه ست ـ وداد ـ »

«كل إنسان بوسعه أن يغدو فيلسوفاً لو عرف كيف يتأمل الحياة من حوله ، وكيف يختار سبل معيشته»

«ليتني أكون قريباً منك لتعلميني الفلسفة الحياتية الصالحة»

«عندما تترك فلسفة الأهواء بوسعك أن تتفرغ لفلسفة الحياة»

صمت .

عادت إلى أوراقها ، رحت أتأمل ربع سحنة تهرب من حجاب ، أنفاً لكم تمنيت أن أقبض عليه بأسناني ، رموشاً تبرز كشوارب قط ، لم تبد انفعالا ، وكنت أصطلي بنيران بدأت تلتهم أحشائي ، ماذا لو هجمت عليها ، هل تبدي ردة فعل؟هل تصرخ؟أم أنها ستصمت كي لا تنكشف أمام زميلات هيأن احتفالاً كونياً للحظة سقوطها من برج كبريائها ، أسئلة كانت تنهشني ، الشهوة نيران تتوسع ، لساني فقد السيطرة جرّاء تنامي حرائق قلبي ، لم أجد بداً من النهوض من وراء الطاولة ، في تلك اللحظة وضعت القلم ، لمحتها تتهيأ لاتخاذ موقف إجرائي رادع كرد فعل لأي طارئ يعنيها . . قالت :

«أستاذ ـ حبيب ـ إيّاك تفكر أنّ جلوسك هنا من مصلحتك»

«كلا . . نهوضي بسبب عطشي»

«ترموس الماء قريب منك»

«ست ـ وداد ـ أتمنى أن أموت في هذه اللحظة»

«كلنا نتمنى الموت في عالم فقد موازينه الثابتة»

«لنعد حساباتنا؟»

«لم يعد بيننا ما يستحق المجادلة»

«حسناً . . اليوم نحن مدعوون لحفلة زفاف ابن المختار»

«شيء لا يعنيني»

«يجب أن نعكس محبتنا لهم»

«لدي ما يمنعني من ذلك»

«أنت واحدة منّا ، لا يجب أن تتمردي على الأشياء الواجبة ، يجب أن نحافظ على أخلاقياتنا»

«أستاذ ـ حبيب ـ أنت لا تعرف ما الذي سيحصل في هكذا احتفال!»

«ما الذي سيحصل؟ ، ناس متزمتون ، يمتلكون تقاليد وأعرافاً ليست نادرة علينا»

«ليس هذا ما أعني»

«نعيش بينهم ، يجب أن نشاطرهم أفراحهم وأتراحهم»

«الزميلات سيندمجن في عالم جنوني»

«لا أفهم كلامك»

«سترى كل شيء بعينيك»

«تلك هي حياتنا الجديدة التي تناضل السلطة لبنائها خارج أطلال المواريث»

«لا يمكنني أن أخرج من ثوبي أستاذ ـ حبيب ـ »

«ست ـ وداد ـ هذا تمرد على واقع حالنا»

«فسره كما تشاء»

«لا . . لن أفسره كما تتوقعين ، لكنني أحاول أن أجعلك في مكانك اللائق»

«أنت تتجاوز حدودك أستاذ»

«لا تفهمي كلامي بالضد»

«أنا أعرف من أنا»

«أعني أنت بحاجة إلى رفقة طيبة كي تتخلصي من الشؤم الذي يسكنك»

«أنا واضحة وجديّة ونقية من كل أمراض العصر»

«في عينيك دموع قديمة»

«من قال لك هذا الكلام؟»
«ملامح المرء مرايا تعكس أغواره»
«على ما يبدو أن كلاماً كثيراً يحاك حولي بينهن وأنت أيضاً جزء من اللعبة»
«أعتقد أنا راع ومسؤول عنكن ، لن أسمح بأي كلام فيه تجريح ، أو انتقاص من قيمة أيٍ واحدة منكن»
«أنا لا مشاكل لدي أستاذ»
«نفورك عنّا ، يشعرني أن خطوبتك قسرية»
«ومن قال هذا الكلام؟»
«مجرد تأويل»
«ولم تضع هذا التأويل في بالك»
«لا أعرف ، دائماً هناك ـ مغناطيس ـ يجذبني إليك»
«أستاذ ـ حبيب ـ ألم نتعاهد على ترك هذا الموضوع نهائياً»
«أنت بوسعك ترك كل شيء ، أمّا أنا فأحتاج إلى وقت طويل ومعلمة تعلمني ذلك ، ما ينبت في كياني صرح تراثي ، يحتاج إلى قرون وربما حروب كونية كي يزال»
«انشغل بأمورك العابرة معهن ، إنهن يعطلن فيك كل آلامك»
«ما زلتِ تتهمينني بشيء أنا بريء منه»
«ليس اتهاماً ، بل واقع حال»
«إن كان يغيظك ذلك سأتفرغ لك»
«عدت لموضوع مات»
«اتهامك لي يجّعلني أدور مثل الناعور حولك»
«أنت تغرق في سعادة جنونية أستاذ»

«مرحي لا يعني أنني سعيد»

«أنا أراك هكذا»

«سعادتي لا تبدأ ما لم أكن مع واحدة وضعتها في البال»

«كلام عواطف زائلة»

«لم لا نجرب هذا الكلام ، يمكنك أن تتأكدي أنك لم توفقي في تفسير هذا الجانب الحيوي فيّ»

«أما يكفي هذا الجدال!»

«طالما أنتِ في البال سيبقى قلبي يعزف نشيده الخالد»

«أستاذ ـ حبيب ـ تعاهدنا أن لا نتطرق لهذا الكلام»

«ست ـ وداد ـ بت لا أطيق نفسي ، ارحميني»

«أطلب الرحمة من الله كي ينجيك من وباء الشيطان»

«أرجوك ست ـ وداد ـ لنكن معاً ، أنا . . أنا . . أحبك»

«أستاذ ـ حبيب ـ سأخرج أذا لم تكف عن هذيانك»

«امنحيني فرصة واحدة ، أنا مستعد أن أبرهن لك على حبي ، أطلبي منّي أي شيء سأعمله ، سأرتمي بين قدميك لتعرفي صدق نواياي»

«أريد منك أن تبتعد ، لا ترتمي من أجل فتاة ، هذه نصيحتي لك»

«كلما حاولت أن أبتعد أراني أقترب أكثر وأحوم حولك»

صمت .

كنت واقفاً وراء الطاولة ، شربت قدح ماء ، بدأت تصحح أوراقها ، لا أعرف كيف اقتنعت أن سكوتها المفاجئ دعوة واضحة للمغامرة ، حفرتها بنظرة أفقدتني صوابي ، استقر عقلي على فكرة معقولة ، قلت سأتقدم منها ، ليكن ما يكن ، استبعدت من بالي أنها ستتخذ إجراء

فورياً يمنح الآخرين مادة دسمة للقيل والقال ، خطوت نحوها خطوتين وجدتها تواصل قراءة الأوراق أمامها ، ارتاحت مشاعري ، خلتها سقطت في بئر الرغبة ، لكنها قامت في الخطوة اللاحقة ، نحتت نظراتها الغاضبة فيّ ، وقفت أتأمل عينين سوداوين ، جواب غامض يبرز من مآق عميقة ، كنت مثل أسد في لحظة قنص ، طريدة واقفة تقرأ تحركاتي ، ربما تستدرج إلى ذهنها مدى الجوع المتنامي فيَّ . . قالت :

«خطوة واحدة منك ، سألم الدنيا هنا»

عرفت مدى صدقها ، بدأت ترتجف ، تغضب ، ماتت رغبتي ، لم أجد كلاماً يهدىء ثورتها . . أردفت :

«أستاذ ـ حبيب ـ إيّاك أن تفهم أن صمتي خضوع»

«بالعكس ، وددت أن ألقي نظرة على الأوراق»

«أنا دقيقة في التصحيح»

«فكرت . . ربما الغضب أفقدك بعض دقتك»

«عد لطاولتك؟»

«لم لا أساعدك!»

وجدتها تسكت ، تشجعت أن أبدأ الخطوة القاتلة ، حملت الأوراق وكتابها ، ضربت الطاولة بالكتاب وتناثرت الأوراق من يديها وخرجت ، سحبت نفساً عميقاً ، شعرت أنها أهانتني ، لم أحتمل فعلتها ، لكنني تمكنت من كظم غيظي ، وجدت تلك الفعلة سيتبعها ندم ، وربما ستأتي لتعتذر عمّا بدرت منها ، عندها سيكون الباب مفتوحاً لقلبها المقفول ، عدت إلى طاولتي ، جاءت (خولة) تركض ، ضربت كفاً بكف . . صاحت :

«أكيد فشلت»

«عنيدة ، تحتاج لوقت طويل لكسر حدة عقدتها»
«كان يجب أن تعمل بفكرتي»
«كدت أن أعمل لولا دوافع ذاتية منعتني»
«قلت لك ، اهجم عليها ، لا أعتقد أنها ستتخذ موقفاً مناهضاً ، ربما ستبكي قليلاً ، قد تلكمك ، قد تحفر جسدك بأظفارها ، أو تغرز أسنانها في معصميك ، قبل أن تشعر بأن لا قيمة للحياة بدون عواطف نارية جائحة»
«وهل برمودتها تستحق هذه المجازفة؟»
«أنا متأكدة أنّ برمودتها قطعة كعك محروق ، إنّ ما نريده هو كسر أنفها»
«كانت متحسبة لهذا الأمر»
«ليتني كنت أنا الذكر لأخذتها عنوة ، ليس ذلك فحسب ، بل أسفك دم برمودتها العفنة أيضاً»
«لنمهلها وقتاً أطول ، حتماً هذه التحرشات ستحرك عواطفها»
«صدقني أستاذ ـ حبيب ـ إنها لن ترضخ ، أعرفها جيداً ، السبيل الوحيد للوصول إليها ، إمّا بتنويمها بحبوب ، أو باقتحام الحمّام عليها عندما تستحم»
«لكنها تستحم خفية»
«لم لا نرفع قفل الباب الداخلي للحمّام كي تكون في حصن غير منيع»
«لا أحبذ هذا الجانب العنيف»
«لكنك أفلحت في الوصول إلى الست ـ فريدة ـ »
«الست ـ فريدة ـ كانت متحمسة لي ، كانت دائماً تلاحقني بنظراتها»

«وداد . . سترضخ لو كررت هذا الفعل معها ، تحايل معها كما تحايلت مع ـ فريدة ـ »

دق الجرس ، دخلت المعلمات ، وحدها (المعقدة) ظلّت خارج التجمع ، كانت عيونهن تنهال علي ، سؤال واحد قرأته في نظراتهن ، تعذر علي الإجابة عليه ، رغم وفرة الوقت ، والحراسة المشددة التي فرضنها حولي كي أفلح في تحقيق رغبة تنامت في قلب وفكر (خولة) قبل أن تغدو كابوساً ظلّ يخنقني في يقظتي ونومي .

(٢٢)

مع الدردابات الأوُّل للطبل .

مشينا معاً ، كانت (خولة) منطلقة ، تطلق ضحكاتها وهي تتمايل في مشيها ، كنت أنظر إليها ، مستذكراً لحظاتي معها ، يا لها من أنثى لا تمل المرح ، لا تشبع من الحب ، وصلنا جمع الناس ، رأيتهم يبدون حماسة ووداً وهم يهيئون أمكنة لجلوسنا ، ارتفعت أيدي الرجال في ترحيبات لا تنتهي ، تعالت زغاريد قبلية من فم النساء ، كان العريس شاباً في السابعة عشرة من عمره ، تجلس لصقه فتاة ضئيلة الجسم ، مصبوغة السحنة ، صغيرة تبدو ، لا يعدو عمرها بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، شباب يواصلون الرقص ، تقدم الرجل الذي زارني ، والد العريس ، حيّاني بحرارة . . قال :

«عرسنا اكتمل بوجودكم»

قلت له :

«نحن جزء منكم ، كل ما يفرحكم يفرحنا»

قال :

«انتظرناكم على الغداء»

قلت له :

«كنّا منهكين جراء الامتحانات»

«ستبقون على العشاء»
«يكفينا ترحيبكم بنا»
«نحن أصحاب أصالة وأخلاق حميدة ، ضيوفنا قلوبنا»
انسحب .

تقدمت امرأة من الست (خولة) ، همست في أذنها كلمات ضيعها صوت الطبل ، قامت الست (خولة) معها ، توسطت حلقة النساء ، بدأت ترقص ، تصاعدت الزغاريد ، تصاعدت طلقات بنادق ، وجدت عيون الرجال محفورة في جسد الست (خولة) ، كانت ماجنة ، أفعوانية ، قامت الست (إيمان) تبعتها الست (بدرية) ، سرعان ما شكلن حلقة أنثوية متحررة ، رقصن ربع ساعة أو يزيد ، عدن يتضاحكن ، متعرقات ، مائعات ، جلسن .

سارت الأمور على وتيرة ثابتة ، تشابك الكلام بالضحك .

قبل الغروب بقليل تقدم المختار والد العريس . . قال :

«العشاء جاهز»

لم نملك دافعاً يمنعنا من عدم قبول دعوته ، دخلنا بيته ، في باحة حوشٍ واسع ، كانت البسط الصوفية ممددة ، جلسنا متقابلين . . قالت الست(جيهان) :

«يا جماعة ماذا تقولون في العروس؟»

قالت الست (سميرة) :

«ليتني كنت مكانها»

صاحت الست (إيمان) :

«ويحك أوصلت بك الأمور أن تستلقين تحت هذا الولد الغر»

أجابت :

«فاتنا قطار العمر يا ست ـ إيمان ـ »
قالت الست (خولة) :
«لم لا نزوجك من أستاذ ـ حبيب ـ لتتخلصي من نيرانك»
صاحت :
«يااااااه . . لن أموت لو يحصل هذا»
قلت :
«أرجوكم . . دعوا الكلام ، وراءنا ليل طويل»
قالت الست (حمدية) :
«أستاذ ـ حبيب ـ يمكنك الزواج بها سراً ، خلّصنا من أنينها الليلي»

«أرجوكن يا ستات ، الست ـ سميرة ـ محترمة لا يليق بها إلاّ زواج محترم» . . أجبتها .

قالت الست (خولة) :
«ومن أين أتيت لها بالاحترام أستاذ ـ حبيب ـ »
أجابت الست (سميرة) :
«من أمكِ ـ البربوكة ـ »
قلت :
«يا ستات أرجوكن حوّلن هذا الموضوع ، قبل أن نفقد قدرنا بينهم»

في تلك اللحظة تقدم موكب شبّان ، كل واحد منهم يحمل صحناً ، وضعوا الصحون أمامنا ، وضعوا طاسات لبن ، جاء المختار والفرح يندلق من عينيه . . قال :

«تهنوا يا أستادات»
بدأنا نلتهم اللحم ، أنهينا عشاءنا ، شربنا الشايات ، وجدت ولداً

يقف رهن الانتظار قربنا . . قلت له :

«أين المختار؟»

قال :

«أستاذ هو أبي»

«أين هو؟»

«لديه عمل؟»

«أيمكننا أن نراه؟»

«كلا . . »

«نريد أن نغادر»

«ليس قبل أن ينتهي من عمله»

«أيطول عمله»

«لا أعرف!»

«أيمكنك أن تخبره»

«كلا . . لا يجوز أن أخبره»

«ألست ابنه؟»

«بلى . . »

«قل له أستاذ ـ حبيب ـ يريد أن يراك»

«لكنه . . لكنه . . »

«هل من شيء»

«لا أستطيع أن أقول ذلك»

وجدته يرتبك ، يتصفح وجوه الزميلات ، قمت وتقدمت منه :

«هل من أمر!»

«أبي داخل الغرفة»

«قل له الجماعة يريدون المغادرة»
«لا أستطيع أستاذ!»
«هل يمكنني أن أخبره أنا»
«كلا . . »
«لا تحيرني!»
«أستاذ أبي مع أمي!»
أدار وجهه ومضى ، عدت إلى الزميلات . . صاحت (سميرة) :
«ها أستاذ أبشر»
«لم يفه بشيء»
قالت (خولة) :
«عند ـ خولة ـ الخبر اليقين»
أمطرتها العيون . . قالت :
«تقتضي العادة هنا ، مع دخول العريس على عروسه ، أن يدخل الأب على زوجته في الوقت نفسه»
«حفلة جماعية» قلت .
«تلك هي العادة عندهم»
بعد نصف ساعة تقدم منّا المختار ، محمر السحنة ، مضطرب النفس . . قلت :
«لقد أتعبناكم يا عم»
«لا تقل هذا الكلام ، أنتم شرفتمونا»
«نتمنى لكم الفرح الدائم والسعادة للعروسين»
«هذا كرم سنفتخر به»
«نتمنى لكم ليلة سعيدة»

«فرحنا بكم ، تحيـاتي للـ ستـات وهن أثلجن صدورنا برقـصهن الجميل»

تصافحت معه ، ظلّ يشد على يدي قبل أن يرخيهما ، كانت في عينيه حبّات دموع ، وقلبه ينبض بتسارع ، عانقته من غير شعور وعدنا إلى ليل مدرستنا .

(٢٣)

ما إن انتهيت من ارتداء ثيابي ، حتى اندفع الباب ، وجدت الست (خولة) واقفة . . قلت :

«متعب»

«رغم أنني أكثر منك تعباً ، جئت لأزيل تعبك وتزيل تعبي»

«لا رغبة أمتلك هذه الليلة ، تعبنا كثيراً وأكلنا كثيراً»

«لحم جديد»

«من .؟!»

«لا . . لن أقول لك ، مفاجأة كبيرة»

«كيف ومتى؟»

«في العاشرة سأنتظرك في الحمّام»

مضت وتركتني في حيرة من أمرها ، حاولت الوصول إلى غايتها ، من يا ترى صاحبة (اللحم الجديد) هذه المرة ، عشر فواكه في صحن قلبي ، تسع (ستات) والمستخدمة عاشرتهن ، كن في حديقة قلبي فواكه دائمة النضج ، يا ترى ماذا طبخت في ليلة فقدت فيها كل حس عاطفي ، جرّاء التهامي كمية كبيرة من اللحم واللبن ، ليس ثمة عاشرة غيرها ، وهل يعقل أنها رضخت أخيراً؟هذا هو الخيار الأصعب ، كل الاحتمالات تجزم أن (خولة) فقدت ذاكرتها .

كنت أشعر أحياناً بنوع من الشرود والهروب من العالم الذي

أسكنه ، إذ ليس من الجائز أن يتحول الجسد إلى قربة تنتظر الامتلاء ، أو تفريغ متواصل من غير راحة ، صحيح أنني كنت الجائع الدائم للجسد ، للقبلات التي ظلّت حلماً بعيد التحقيق ، لكن جوعي تحول إلى هم ضاغط ، إلى شعور بالملل والفتور ، وتفاهة العيش .

جلست على سريري .

حاولت أن أهيىء جسدي لطبخة ليلية مختلفة ، لواحدة عصية ربما كسرت الست (خولة) رقبتها بعدما ناقشت قضيتي مع نفسها ، فتصاعدت فيها حمى الرغبة ، وباتت تحترق ، فكرت إن كانت الست (وداد) المتمردة ، أو واحدة من القرية ، تمكنت من إسقاطها في بركة الرغبة ، فواكه قلبي (التسع) ذقتهن ليلاً ونهاراً ، وجدت المضي في التفكير تعباً مثقلاً للجسد ، تمددت على سريري في انتظار تلك اللحظة المفاجأة ، لكن فكرة أن تكون الست (وداد) المعقدة بعيدة عن مضارب العقل ، ظلّت متمردة ، لا تمتلك مشاعر متخاذلة ، حتى وصل بها المقام أن تتناول طعامها وحدها ، بعدما تهجمت عدة مرات على (خولة) ، لأنها كانت تأتي بالطعام لجميعنا .

***

كنت واقفاً في الباب ، من خلال الظلام المنخور بشاحب ضياء النجوم ، رأيت الست (خولة) تخرج ، رفعت يدها وهي تمضي نحو الحمّام ، جسدي تنمل ، بدأت العواطف تتحرك ، بقيت أنتظر الفرصة الملائمة ، أخيراً اندفعت ببطء ، قابلتني واحدة . . قالت :

«أستاذ ـ حبيب ـ لم يفرغ الحمّام بعد»

«ست ـ بدرية ـ »

«نعم»

«ليس لدي رغبة في الاستحمام في هذا الوقت»

كان وشيش الماء ينسكب من (الدش) ، يمزق أعصابي ، وقفت في الباب أواري الست (بدرية) ، خرجت واحدة أخرى متلفعة ، لم تحرك ساكناً ، خلتها الست (وداد) ، قبل أن أنسف توقعي ، كونها لا تستحم في الليل ، دخلت ، أصغيت لصوت الماء ، في ذلك الظلام كانت شاشة الذهن تبرز مفاتن الست (خولة)متلامعة بوهج الماء المنير ، لم أحتمل نفسي ، نقرت الباب نقرات خفيفة ، إشارة متفق عليها ، انسحب الباب ، دخلت ، وجدت جسداً شبحياً يقف ، لم أتمالك نفسي ، ألقيت ثيابي على عجلٍ من أمري ، احتضنت الجسد ، يا لمصيبتي الشهوة أعمت بصيرتي ، كيف لم أشعر بكمية اللحم الذي التحم بلحمي ، نسيت في تلك اللحظة أجسادهن ، خلت الإناث يغدون نسخة واحدة عند احتدام العواطف ، تأوهت هي ، تأوهت وراء تأوهها لأثير غريزتها ، صرنا كتلة واحدة ، بعدما نزفت كامل وعيي ، جلست على أرضية الحمّام ، جلست قربي . . همست :

«أستاذ ـ حبيب ـ أحبك»

«آه . . صوتك جديد عليّ»

«مذ رأيتك صرت المعذبة بهواك»

«لا أملك وقتاً لأتعذب ، من أنت؟»

«ليس هذا مهماً ، أنا رهن رغباتك»

«سأخرج لئلا يفتضح سرنا . . على ما يبدو أنني فقدت عقلي»

«أنت في المكان الصحيح أستاذ ـ حبيب ـ حسناً . . سأتبعك إلى غرفتك»

لبست ثيابي ، مثل لص في كمين تسللت إلى غرفتي ، أكاد لا

أصدق نفسي ، لقد رأيت الست (خولة) تتجه نحو الحمّام ، شممت رائحة مؤامرة شائكة حيكت بدقة ، جلست أفكر قبل أن أجد جسداً يلج الغرفة ، جاءت ذات الصوت الجديد . . جلست بشجاعة هذه المرة بعدما فكّت قيد عاطفتها . . قلت لها :

«مازلن غير نائمات . . من أنتِ؟»

«لا يهمني ذلك . . أنا ـ حسنة ـ شقيقة أم ـ عليوي ـ »

«شقيقة المستخدمة . . ومن أوصلكِ إلى هنا؟»

«حبي لك أوصلني ، لن أغادرك حتى لو قلبوا الدنيا على رأسي ، لن أغادرك ما لم تحبني»

«أكاد لا أصدق هذا ، ربما أنا في حلم»

«مذ جئت إلى هنا ألقيت صنارة حبي في طريقك كي أفوز بك ، لكن الظروف منعتني حتى جاءت الفرصة ألست أجمل من المعلمات كلهن؟»

«نعم أنت جميلة الصوت والجسم ، ليت هذا حصل من وقت طويل»

«لدينا الوقت الكافي للتعويض عمّا فاتنا ، يمكنني أن أتسلل كل ليلة إليك»

دنوت منها ، لصقها جلست ، ألقت رأسها على كتفي . . قالت :

«هل تحبني حقاً أستاذ ـ حبيب ـ »

«كل الحب»

«لم لا تطلبني من أختي»

«حبنا يحتاج لوقت كي ينضج ، علينا أن نعرف بعضنا جيداً»

«عندما نتزوج حبنا سيتحرر من كل القيود»

احتضنتها ، ومضينا في شوط عنيف من القبلات . . همست :

«كيف رسمت خطتك يا حبيبتي»

«اشتقت إليك ، لم أجد طريقة مثالية للوصول إليك ، حتى وجدت المغامرة سبيلي الوحيد للوصول إلى حلمي»

«أكنت تتوقعين أنك ستفلحين؟»

«فاتحت أختي بالموضوع ودفعتني للمغامرة»

«وماذا بعد؟!»

«لا أحب أن أخوض في لعبة خاسرة»

«ومن قال إنني ألهث خلف السراب»

«سمعت من أختي كل شيء عنك»

«حسناً أنا لك . . ولست أهتم بواحدة غيرك»

لم تكن لدي رغبة في مضاعفة جهد جسدي ، كانت قبلاتي باردة ، لا حرارة فيها ، شعرت هي بذلك . . همست :

«أنت متعب جداً أستاذ»

«نزفت جهد جسدي فيك داخل الحمّام»

«حسناً . . لنتفق على مواعيد دائمة ، يمكنني أن أتسلل في الليل إليك»

«دائماً الدرس الأول أكون وحدي في الإدارة»

«علينا أن نجد جواباً مقنعاً لمجيئي نهاراً»

«حسناً . . يمكنك أن تجلبي لنا الخبز بدلاً من تلك الطفلة»

«إنها شقيقتي الصغيرة»

«حسناً . . في الغد سأضع جدولاً تربوياً نموذجياً يلائم شهوتك يا ـ حسنة ـ سأملأ الفراغات بالدروس ولن أدع معلمة بلا درس»

«سأنام سعيدة هذه الليلة من غير كوابيس وأرق حتى مجيء الصباح»
«تصبحين على خير حبيبتي ـ حسنة ـ»
وقفنا .

كانت تتنفس بقوة ، كنت متعباً ، عروقي تتراخى ، طبعت قبلة سريعة على خدي ، انطلقت إلى الليل ، مشيت وراءها ، رأيتها تتوارى ، عدت وتمددت على سريري ، بعد دقائق وجدت شبحاً فوق رأسي ، لم تمهلني وقتاً لمعرفة هويتها . . همست :

«لحم جديد ولذيذ أليس ذلك»
«يا ست ـ خولة ـ كدت أفقد صوابي»
«واحدة واحدة سأسحلهن حتى يوم الفرح الكبير ، سأجعل كل نساء القرية عضوات فاعلات في مدرسة الحب المحرم»
«أي فرح أكبر من فرح هذه الليالي التي نعيشها»
«هناك فرح سأسميه الفرح العاري»
«سمعت بهكذا فرح في بلدان أوربا»
«نعم سأقيمه هنا»
«كي يرجمونا»
«سأنفذ ما أرسمه في بالي»
«دعي فكرتك للأحلام»
«أية أحلام ، لقد أقمته مرتين في أثناء دراستي في دار المعلمات»
«أصدق ما تقولينه»
«بعدما أسقطت زميلاتي كلهن رفيقات غرفتي ، أقمنا حفلة عارية لأستاذنا ، وضعناه عارياً بيننا ورقصنا بجنون حوله»
«أرجو أن لا أكون الضحية القادمة»

«ستكون الملك العاري بين كوكبة أميرات عاريات في ليلة تاريخية»

«دعي الحفلة جانباً ، ما الذي أتى بك؟»

«حسنة»

«كانت طبيعية جداً ، على ما يبدو أنها خبيرة بهذا الأشياء»

«دمرتنا بسحاقها الليلي»

«نعم . . تشاركنا الاستحمام والسحاق ما بين فترة وأخرى»

«أرجوك لا تزجينا في ورطة عشائرية؟»

«لا تخشَ . . يمكنني أن أسحلهن كلهن إلى حضنك ، إنها أخت البقرة ، تعيش مع أمها الضريرة ولها أخت صغيرة تجلب لنا الخبز صباح كل يوم»

«معلومات جديدة لم أسمعها»

«كل شيء يأتي في موعده المحدد»

«ولم تنام بقرتك في المدرسة»

«لا علم لي ، مذ جئنا وجدناها تسكن تلك الغرفة ، ربما سئمت حياة القرية»

«دعينا منها ، لا تورطينا بقضية قد تهلكنا»

«حفلتي حفلتي ، أريدها مثالية»

«ليت تركت الجميع ووفرت طاقتك لإقناع المعقدة»

«ما زلت أفكر بطريقة جهنمية لكسر رقبتها»

«لم أجد حلاً مناسباً سوى تركها»

«ثق لو تمادت في غيها ، سأحرق كل ثيابها وأتركها عارية ليتفرج عليها التلاميذ»

«ربما تنتحر وتزجنا في ورطة إرهاب»

«سأعترف وأتحمل وزر الجريمة وحدي»

«دع هذه القضية أرجوك»

«ستموت أنوثتي وأنا أحترق في رؤيتها»

«ما العمل . . ليس لدي فكرة ملائمة سوى نقلها»

«لا . . لا . . أرجوك . . لا تضع هذه الفكرة في بالك»

«أريد أن أريحكن منها»

«تلك هزيمة لن أقبلها»

«ما العمل؟»

«لابد أن أحقق رغبتي ، حفلتي العارية لن تكتمل ما لم تتوسطنا بـغصن جسدها اليابس»

«صدقيني مللت من تحقيق رغبتك ، بت أمقت نحافتها ، شكلها القروي جداً بدأ يثير اشمئزازي»

«هي رغبة . . رغبة كبيرة بالنسبة لي»

«حسناً . . أنا متعب»

«أنا أيضاً متعبة ، هي أتعبتني ، تصور أنها نقلت فراشها إلى غرفة الفراشة ،لتنام معها»

«ربما تستطيع الملعونة كسر عنادها»

«أستاذ ـ حبيب ـ ماذا قلت؟»

«ربما تستطيع كسر حدة عنادها»

«أنت قلت شيئاً غير عادي»

«لم أقل سوى ما قلت»

«أستاذ ـ حبيب ـ ليس بيننا أسرار»

«ولم هذا التفكير؟»

«لا أريدها أن تقلدني في عملي ، لا أريدها أن تنجح في مهمة ما زلت أفشل إزاءها»

صمت .

خفت أن أفوه بشيء ، قربت فمها من أذني ، خلتها ستغرز أسنانها في رقبتي . . همست :

«آن أن نحتفل عن قريب»

«كيف؟!»

«أنت أنقذتني من ـ البقرة ـ من غير محاولة مني»

«لا أفهمك»

«كنت قد وضعتها الأخيرة في حساباتي»

«جاءتني فرصة من غير سابق تخطيط ، توقعت الشبح الواقف قرب الماء في تلك الليلة هو أنت ، قبل أن أشعر بأنها بقرتك»

«المهم صارت جاهزة لحفلتنا»

قالت ذلك وخرجت هاربة ، قفزت لأصطادها ، ذابت في الظلمة وسقطت على الأرض .

جلست أنظر إلى الفانوس ، أي كابوس عشت ، كان حلماً جميلاً ، عدت إلى فراشي ورحت أسترجعه ، وخارج الغرفة في العتمة أصوات ذئاب تعوي وكلاب تنبح وظلام لا يرحم .

(٢٤)

قلبي محنتي .

لم يخطر ببالي أن قلب الذكر بوسعه أن يغدو حديقة واسعة ، متحررة السياج ، تستوعب وبكامل التنسيق شتى أنواع الأشجار النافعة والضارة ، النباتات العقيمة والزهرية ، كل تشكيلات الفواكه ، الشتوية والصيفية ، السمينة والنحيفة ، الجسورة والجبانة ، المحتالة والغبية ، كلها تجتمع لتشكل لوحة مسرات متواصلة .

صار قلبي حديقة ضاجة بفواكه طازجة ، أتناول ما أشاء وفي أي وقت أرغب ، فتدرب الجسد على الاستجابة الغريزية السريعة ، خارج التوقيتات الواجبة والراحة لإنتاج عسل الروح قبل إراقته ، أحياناً في أثناء الدوام أشعر بوجيب القلب ، يباغت ويدفع ، يسعر بركان الرغبة ، أبحث عن أدنى فاكهة ، هذا المطلب المتوقع دفعني أن أستبقي واحدة دائماً شاغرة ، كنت كلما نبض قلبي ، أضع من أرغبها في بالي ، أذهب إلى غرفة الدرس ، بنظرة واحدة تعرف فاكهتي سقوطها في صحني ، سرعان ما تنسلخ من شجرتها ، تضع طالباً مراقباً وتأتي ، في غرفة الإدارة نتلاحم ونقتل وحشة أغوارنا المتنامية .

هكذا مضت أيامي ، ونسيت العالم ، نسيت الأهل ، الأصدقاء ، نسيت رغبتي في اعتلاء المناصب الحزبية ، كل شيء مات في حضرة الحب ، وبركان الجسد المشاغب ، بعد سنوات من الحرمان ، لكم كنت

عبثاً أحاول التقرب من واحدة تضعني في بالها فارساً لأحلامها ، فراحت تتهاوى محاولاتي وأقبع يائساً في مخاضات الفشل ، فكل من حاولت إغوائي ظلّت متأهبة لاستقبالي ، تمد حبائلها الشيطانية ، نظراتها الصارخة ، فمها المفتوح ، بينما كنت بدوري أتوسل بـ حظي المتكاسل أن تندفع صاحبة الرغبة لتستكمل مشوار ثورتها العاطفية .

كتبت الكثير من الرسائل لفتيات كنّ يسكنّ في الجوار ، لم أجد فرص مناسبة لتمرير رسائلي ، تحت سيف الخوف الذي ظلّ مرفوعاً على عنقي .

كانت العواطف العابرة ، تجرفني نحو انحراف خطير ، رحت أنزوي في أي ركن أو دورة مياه ، لأنزف عصير حياتي بطريقة بشعة ، ويوم دخلت (دار المعلمين) شغلني الحزب بـ(التنظيمات الطلاّبية) ، لم تخرجني تعجبات الزميلات ، لم أجد في نفسي دافعاً شهوانياً يشجعني على تقديم نفسي حبيباً لواحدة منهن ، رغم وجود علاقات مفضوحة ، كانت تجري أمامي ، كثيرات كنّ يتقربن من الأساتذة من أجل مساعدتهن في الدروس والدرجات ، فالتعليمات كانت تنص على أن أوائل المتخرجين والمتخرجات يتم تعيينهم داخل المدن ، لذلك وجدت زميلات يعملن كل شيء من أجل الفوز بـ رضا جناب المدرس ، الأمر الذي دعا إلى سقوط مخزٍ لمدرسين ضحايا زواجات مزاجية من طالبات بأعمار بناتهن .

تقوقعي العاطفي داخل وادي الخذلان ، قابلته حماسة نادرة للتفوق في مهنتي الحزبية ، وعند التخرج بتفوق وإضافة الدرجات العشر كتكرمات حزبية للذوات لمعدلي ، لم تنفعني في التعين في بلدتي (جلبلاء) ، وجدت نفسي مقاداً إلى حدود العالم ، وسط

صحراء وجبال ، قرية حدودية منسيّة ، ما تزال بعيدة عن رائحة الشواء الناجم من احتراق الآليات الحربية والأجساد البشرية الطرية بفعل القذائف .

وجدت عالمي المفقود ، كل ما يتمناه شاب محروم متوفر من غير عناء .

تسع إناث معلمات ، يضاف إليهن المستخدمة ، ثم (حسنة) غزالة القرية كما رأيتها في منامي ، وربما أعطتني ما لم أجده واقعياً من الستات ، لا أعرف لم الحلم أشهى من الحقيقة؟ ، صرن يانعات داخل حديقة قلبي ، استثناء (وداد) ، تمردت لتنبت خارج أسوار اللعبة الأزلية للبشر ، عدم امتلاكها الجمال المميز ، لم يوقف دافع الغريزة لاختراقها ، كنت أشعر أنني ديك وهن دجاجاتي ، ليس من المعقول أن يهمل الديك دجاجة تسرح وتمرح مع دجاجات اعتلاهن فوق مزبلة العلم ، هذا الديك الذي هو أنا ، ظلّ يتمزق من أجل هذه الدجاجة العاقة ، أصبحت شيئاً مختلفاً من وجهة نظر غريزتي ، شعرت أنها تمتلك نوعاً من اللذة المدمرة ، فجاذبية الأنثى غالباً ما تأتي من خارج أطر الجمال ، خفة الروح والدم والجسد والصوت كلها مقبلات مدمرة للذوق ، فهذه الدجاجة (وداد) صارت الجوهرة المفقودة بالنسبة لي ، أو الحلقة المفقودة لتكملة مشروع ذكورتي ، اعترف أن محاولاتي معها كانت مرتبكة ، رغم توفر الفرص لأكون أكثر تودداً ، كانت تحتاج إلى نوع من الكلام الآخر ، هذا ما باغتني الآن بعد ضياع جهود وفقدان شخصية ، كان يجب أن أدخل إلى مملكتها من حيث تحتطب ، لا من حيث أرغب ، ليست كل أنثى جريحة العواطف ، حتى لو كانت في غابة رجال ، ربما تستمد عنادها من تلك البهرجة الفوضوية التي تحيطها .

(وداد) ضوء مختلف نشده ظلام قلبي ، تلك الحديقة التي ظلّت تفتقر إلى فاكهة جديدة ، رفضت السكن ، بقيت خارج السور تواصل ذبولها ، كان يجب أن أدنو منها من باب التمسك بـ الأخلاق الحميدة ، التمسك بالشريعة المستقيمة ، أن أتظاهر أمامها بمواصلة الواجبات الشرعية المطلوبة ، ربما كانت تأتمن جانبي ، لأن المؤمن ينجذب روحياً نحو المؤمن ، تلك الفرصة الوحيدة التي ظلّت تؤرقني ، وكانت الباب المفضي لفاكهة متمردة ظلت تدمر أعصابي .

(٢٥)

مرة حاولت أن أتخذ إجراء غير مألوف ، وكانت صاحبة الفكرة الست (فريدة) ، كنت جالساً في باب المدرسة ، أتأمل النجوم ، تقدمت منّي ، جلست على الأرض . . قالت :

«أستاذ ـ حبيب ـ لا تحتار»

«أحتار!»

«أراك كثير التفكير هذه الأيام»

«أفكر بكل شيء ، أفكر بكن ، بالأخبار القادمة عبر المذياع ، ربما في الغد القريب سنكتوي بنار الحرب ، إنها بدأت تجتاح وتلتهم الحدود ، بدأت تخترق أحشاء مدننا ، ربما سنستيقظ ذات ليلة على نارها»

«أنت تفكر كثيراً بـ وداد»

«لم أعد أفكر بها ، الحرب بدأت تأكل أعصابي ، إنها تقترب منّا»

«هل حقاً ترغبها زوجة»

«كانت رغبة عابرة ، كل الرغبات تموت عندما تدنو منّا الحرب»

«لم لا تغتصبها»

تجمد لساني ، كلام كبير ينطقه لسان أنثى (تربوية) كنت أعتبرها عاقلة ، رصدت جمودي . . واصلت كلامها :

«بإمكانك تخديرها والعمل معها ، عندها سترضخ للأمر الواقع»

«لكنها طريقة بشعة ست ـ فريدة ـ »
«لا حل أمامك طالما هي سلبت عقلك»
«لا . . لن أرتكب هذه الحماقة الصفيقة»
«حسناً لم لا تقتحم عليها الفراش في الليل ، أعتقد أنها ستسكت»
«ما الفرق بين العملين»
«حاولت أن أقنعها لكنها رفضت»
«ومن أمرك بذلك؟»
«كلّما رأيتك تتأملها ، أشعر أنك إنسان تستحق التعاون»
«أشكرك ست ـ فريدة ـ »
«رغم تفكيرك بها ، أجد أن هناك من تناسبك زوجة»
«من!»
«ست ـ أميرة!»
«هي أكبر منّي»
«ثرية ووحيدة أمّها!»
«لم أضع مشروع الزواج في بالي»
«يجب أن تتزوج كي تتخلص من التفكير»
«أرجأت هذا المشروع لما بعد هذه الكارثة القادمة»
«شيء لا يعنينا»
«كيف . . البلاد تمر بمحن غير محمودة العواقب ، إنها الحرب يا ست ـ فريدة ـ ليست حرب أطفال»
«نحن هنا في هذا العالم المنسي لن يمسنا ضيم ، والحرب بعيدة منا»

«ست ـ فريدة ـ الحرب نار ، ونار الحرب غول يمتلك مخالب طويلة وأسناناً دموية»

صمت .

رأيتها في تلك اللحظة أنثى ناضجة ، رغم وجودنا معاً ، لم أشعر تجاهها في لحظة ما ، أنها فاكهة تثير غرائزي ، كانت تنظر إلي بشيء من الحيرة ، أسئلة كانت تندلق بخجل ، وكنت أبتسم ، تبادلني البسمة ببسمة ، ترفع عينيها وتنزلهما . . قلت لها :

«أراك سعيدة هذا اليوم»

«لأنني جالسة معك»

«دائماً كنّا نجلس معاً لكنني لم أر السعادة على وجهك»

«السعادة مطر يأتي في موعده المحدد ، ألم يأتِكَ في تلك الجائحة»

«وهل هذا وقت المطر؟كان ذلك مزنة عابرة»

«ربما لديك أمطار محجوبة عني!»

«ست ـ فريدة ـ أنت تختلفين عنهن ، مذ حصل الذي حصل بيننا شعرت أنني تجاوزت عليك»

«أنا جديّة في الحياة ، ما حصل محنة عابرة ، كلنا نمتلك هذه المحنة ولكننا نكبح جماح ثوريته ، والضعيف فينا من ينفلت من سكة صبره»

«تعجبني المرأة الجديّة والحريصة»

«وكيف تراني بعد الذي حصل»

«كرم على كرم»

«لا تبالغ!»

«الجمال سلعة بائرة من غير جوهر نقي»

«لكن الشباب يلهثون وراء الجمال»
«أنا لست منهم»
«وضعت هذه الصفة في بالي للشاب الذي يتقدم لخطبتي»
«إذا ما فكرت أن أتقدم هل هناك مانع أو سد يحجم رغبتي»
«أحتاج إلى بعض الوقت كي أراجع أوراقك»
«أوراقي مكشوفة لديك»
«ليست كلها»
«تجاوزت عشرتنا عدد أصابع اليدين والقدمين»
«ربما نحتاج للمزيد من الآثام العابرة»
«حسناً . . عليك طرح ما في بالك من أسئلة»
«أوراقك لا علاقة لها بالأسئلة»
«حسناً . . ماذا تريدين»
«أن تنأى عنهن جميعاً»
«يمكن تحقيق هذا المطلب فوراً»
«بلسانك فقط تستطيع ذلك»
«حسناً يمكننا أن نخطو الخطوة الأولى»
«ليظل الكتمان متواصلاً»
«أليس الحب كتاباً مفضوحاً؟»
«لكنهن يجهلن الذي وقع ما بيننا حتى هذه اللحظة»
«هذا ما أرجوه»
«تجنب الكلام الواضح أمامهن»
«حسناً . . علينا أن نختلي باحتراس شديد»
«لنحدد ساعة تناسبنا»

«آخر الـ فجر الكل نيام»
«تلك المعقدة منحوتة على سجادة الصلاة وعينها على بابك»
«في غرفة الإدارة»
«أخشى أن تعرف»
«لتعرف!»
«سأفكر بهذا الأمر»
«ست ـ فريدة ـ حقاً أنت إنسانة فريدة مكانك قلبي»
«أنت سريع الغزل أستاذ ـ حبيب ـ »
«قلبي يتفتت كلما جلست إليك»
«أرجو أن تروّضه على الحب النقي»
«بينكن يفقد السكر طعمه»
«للحق أقول ما زلت ظامئة لك»
«وأنا كلما أختليت استعدت لحظاتنا»
«أي اللحظات كانت أطعم؟»
«ربما دخولي عليك في الحمّام»
«آه كانت حقاً لحظة مرعبة ، ثورية عارمة ، كانت تشبه ليلة زفاف»
«ليتنا نستعيدها الآن»
«مهما اختلينا في ذات المكان ومهما كانت قوّة الرغبة لن نستطيع أن نستدرج حماسة تلك الموقعة ، دائماً الأشياء الأوّلى هي التي تمتلك ومضات الخلود»
«حقاً كنت مسكوناً بالخوف والرغبة والمجهول والمغامرة»
كانت تنظر إلى الأرض ، وكنت أفترسها بنيران جسدي ، قامت ، مسكتها من يدها . . قالت :

«أستاذ ـ حبيب ـ أرجوك ، هذا ليس المكان اللائق بنا ، اتفقنا أن تمضي علاقتنا بكتمان»

«لندخل إلى الإدارة»

«ليس هناك سبب»

«لدينا السبب ، سنقول نعد سجلات الدرجات»

دخلت وتوجـهت إلى الإدارة ، أتت من غـيـر تردد . . وقـفت تتلفت . . قلت :

«لا تخافي»

«المكان غير لائق»

دنوت منها ، مسكتها من رمانتي كتفيها . . قلت :

«ست ـ فريدة ـ أموت فيك»

«أنت تموت فينا كلنا»

«ما العمل ضغط الشهوة ينطقني»

«الكذب يحلو أوان الإثم»

«طيلة ليالينا لم أذق طعم الراحة كما الآن»

«ربما كذبنا كثيراً في تلك الخلوات»

«أرجوك . . كلما كنت معك أمطرتني بالكذب»

«حسناً . . أنت إنسانة لن تتكرر»

«أحقاً ما تقول؟»

«ستجدين الجواب في قوّة فعلي»

«أرجوك حطمني»

أغمضت عينيها وماعت بين أحضاني .

(٢٦)

ذات أصيل كنّا جالسين منتصف ساحة المدرسة ، على (بساطين) متقابلين من صوف ، لم أشعر بأنني تناومت ، قبل أن تجفلني رشقة ماء على وجهي ، وجدت نفسي وسط موجة ضحك ، كي أدافع عن نفسي قلت :

«حديث الست ـ خولة ـ أنامني»

صاحت (خولة) :

«عجيب أمرك أستاذ ـ حبيب ـ وسط كل هذه الجواري وتنام»

قلت :

«حديثك عن الرقص والغناء ينعسني»

قالت (حمدية) :

«أستاذ ـ حبيب ـ قليل النوم هذه الأيّام»

صاحت (خولة) :

«وكيف عرفت يا ملعونة»

قالت :

«وجهه ذابل ، عيناه فقدتا بريقهما»

وسط الحوار والضحكات شعرت بشيء يسري من أسفل بطني ، خلتها قطرات إدرار ، صاحبها ألم خفيف ولذيذ أنهضني ، توجهت نحو دورة المياه ، هناك رأيت قطرات غير عادية ، لزجة ، تنزل بتعاقب ، شيء

جديد لم أشعر به أبداً ، احتفظت بالأمر ، عدت ، وجدت عيونهن محفورة في ، على مضض جلست ، تناولنا عشاءنا الجماعي .

عند الغروب انفض جمعنا ، تمددت على سريري ، فكرت في الأمر بجدية ، تذكرت أن هذه الحالة ممكنة عند الشباب ، يحصل عن طريق اتصالات جسدية مشبوهة ، مرض زهري غير خطير اسمه (سيلان) ، شيء من الارتباك بدأ يرافقني ، فالمكان منفى ، لا دواء ، لا طبيب ، وجدت فكرة طرح القضية على الفراشة بطريقة سرية مقبولة ، استندت إلى متانة علاقتها بعجائز القرية ، لتسهل فرصة حصولي على إرشادات نافعة ، قمت ومضيت إلى غرفتها ، وجدت (وداد) تقرأ في المصحف ، وقفت بالباب ، ختمت قراءتها ونهضت . . قالت :

«تفضل أستاذ ـ حبيب ـ »

دخلت وجلست على كرسي .

«مجيئك غريب أستاذ»

«كنت أرغب في التشاور في أمر خاص مع ـ أم عليوي ـ»

«إنها مشغولة في الحمّام»

«حسناً سآتي في ما بعد»

«ربما هي على وشك المجيء»

«وجودي قد يثقل عليك»

«بالعكس ، أنت عزيز أستاذ»

«حرمتك من القراءة»

«ليالينا طويلة»

«أشعر بشيء من عدم الراحة لانفراط عقدك عن زميلاتك»

«هذا الموضوع ختمناه بالشمع الأحمر»

«أعرف مدى جديتك في الحياة وتحفظك ، لكن للضرورة أحكام»
«أستاذ ـ حبيب ـ وجودي بينهن قد يضعنا في ورطة كبيرة»
«لكنك كنتِ معهن قبل مجيئي»
«الآن بدأت الأمور تسلك تشعبات غير محمودة العواقب»
«نحن هنا منقطعون عن العالم ، عن أهالينا ، نحن عائلة واحدة ، المشاحنات الطفيفة حالة روتينية داخل كل عائلة ، يجب أن نتحمل البعض وأن نوسع من أحجام قلوبنا كي تتواصل الألفة بيننا»
«أستاذ ـ حبيب ـ ثق أنهن لا يتورعن من ارتكاب أية حماقة إن جاز لي التعبير»
«إنهن يقتلن الملل ، الحياة هنا لا تطاق»
«علينا أن نشغل أنفسنا»
في تلك اللحظة دخلت (أم عليوي) . . قالت :
«أرجو المعذرة أستاذ ، تأخرت بسبب غسل ملابس المعلمات»
«ولمَ لمْ تؤجلي ذلك ليوم الغد؟»
«قلت أتخلص منها الآن»
«كنت أريد مشورتك في قضية»
«على رأسي وعيني طلبك أستاذ»
«ليس هنا»
قالت (وداد) :
«حسناً سأخرج لدي شغل»
«ست ـ وداد ـ جئت أطلب مشورة صحيّة فقط» . . قلت .
«ومن قال إنني فكرت بشيء غير متوقع»
خرجت ، وقفت أمامي ، تلعثمت كيف أبدأ كلامي ، رغم أنني

ألقيتها فاكهة غير ناضجة طبعاً في صحن قلبي لمرتين ، وجدتها متحمسة . . قلت :

«أريدك في مشورة»

«أمرك أستاذ»

«ليكن سراً»

«سأضعه في قلبي وأقفل عليه»

«اليوم شعرت أن شيئاً بدأ ينزل منه»

«سائل»

«كما تقولين»

«لا داعي للتخوف . . عندما يفيض الماء عن الإناء ينسكب»

«لكنني قلق»

«لديك كل هذه الإناث»

«تلك هي المصيبة»

«وما تريد أستاذ؟»

«أن تتشاوري مع عجائز القرية في الأمر عسى أن تجدي الدواء»

«حسناً في الغد سأسأل ـ أم سوادي ـ خبيرة بالطب العشائري»

«هذا كل ما جئت من أجله»

خرجت .

كانت الست (وداد) تتمشى في الساحة ، وصلت إليها . . قلت :

«أتعبتك قليلاً ست ـ وداد ـ »

«تعبك راحة أستاذ»

«الليل جميل»

«أعتقد بدأ الجدل العقيم»

«عذراً لم أكن أعني شيئاً»

«أنا آسفة»

«تصبحين على خير»

لم أسمعها إن كانت قد أجابت على كلامي ، وصلت غرفتي وتمددت على سريري ، بدأت أفكر بكلام (أم عليوي) ، هل حقاً بدأت مياه عواطفي تفيض عن اللزوم ، ربما كانت على حق ، فهي امرأة مجربة ، على كلامها الماثل في صدغي نمت .

(٢٧)

(إيمان) . . ربما شعرت بأنها مهملة من قبلي ، بدأت تتمرد ، وكنت أقرأ في ملامحها كلمات نفور وعتاب ، حتى كلامها الطبيعي صار مبتوراً ، صارت منفعلة ، تأتي إلى الإدارة عندما أكون وحيداً ، تجلس ، تقوم ، للحق أقول لم يثرني التبدل الحاصل في طبيعتها ، مرت أيام قبل أن تباغتني في خلوتي :

«أستاذ ـ حبيب ـ جئت لأتخاصم معك»

«وما أحلى الخصام مع فتاة تمتلك صحة ورقة وجمالاً»

«أنت تفرق بيننا!»

«من قال هذا؟»

«حصص دروسي أكثر من حصص دروسهن»

«أنا رهن طلبك ، سأغير الجدول من أجلك»

صمت .

تراجعت إلى الأريكة وجلست ، كانت دامعة العينين ، تحاول أن تجهش ، بانفعال واضح ، قمت من وراء الطاولة دنوت وجلست قربها ، فردت منديلي لأمسح عينيها . . قلت :

«لا يليق بك البكاء»

«أستاذ أنا آسفة على ما حكيت»

«أعرف مكانتك وحكمتك وطبيعتك»

«هل تسامحني أستاذ»

«أنا رهن طلبك»

«أنا نادمة على تسرعي»

«بالعكس أجدها فرصة مثالية كي نقيم صداقة خاصة»

«أنا أعزك أستاذ»

«وأنا أضعك في عيني»

«هل حقاً ما تقول أستاذ»

«وفي سويداء قلبي إن جاز لي الكلام»

«لا تغرقني بحنانك أستاذ»

«حناني بحر سأسخره من أجلك هذا الصباح»

صمت .

كانت تتفاعل وتختلج ، شعرت أنها صارت فاكهة قيد النضج ، كانت أغواري تصرخ ، وكانت أصوات التلاميذ تتهادى متشابكة ، تندلق من الغرف الدراسية ، تشجعت وقلت :

«ست ـ إيمان ـ أعجابي يزداد بك»

«لا أصدق»

«أقول كلامي أمامك ومن غير تردد»

«لكنك أهملتني طيلة الليالي المنصرمة»

«لا يجوز أن نشعر المقابل بإعجاب سريع ما لم يكن هناك تخطيط مسبق ومدارسة أوراق الآخر»

«وكيف رأيتني بعد تلك الليلة»

«كدت تفسدين هذه اللحظة بدنان دموع»

«ثق أستاذ ـ حبيب ـ الدموع هي التي قادتني بل منحتني الجرأة لطرح هذا الموضوع»

«لنكن صريحين ونضع النقاط على الحروف ، أنا أرغبك شريكة حياة»

«اتفقنا على هذا ولكنك لم تحرك ساكناً»

صمت .

لم أحتمل صمتها ، كانت مطرقة الرأس ، مددت يدي ، مسكت معصمها ، وجدتها ترتجف . . قالت :

«لنترك هذا الأمر لليل»

لم أعقب ، واصلت الضغط على معصمها ، بدأت تلهث ، قربت رأسي وطبعت قبلة على خدها .

«ليت الليل يأتي الآن»

سحبت نفسها وهرعت خارجة .

(٢٨)

في اليـوم التـالي دخلت علي ، كنت منهـمكاً بمراجعـة الدرجـات الامتحانية ، وجدتها متفتحة ، وقفت قربي ، من ضوع الرائحة التي غزت الإدارة ، تنشقت رائحة الغرام المفتوح ، قمت وعانقتها ، لم أجدها ترتجف هذه المرة . . قلت :

«متألقة اليوم»

«حبك منحني هذا الفرح الغامر»

«لنخرج قليلاً»

«من أجل هذا جئت»

خرجنا إلى الطبـيعـة ، كانت العيـون تندلق من نوافـذ الصفـوف ، كلها كـانت تحسب حسـابات لا تخـرج من طور الغيـرة ، وصلنا المكان الذي يشرف على الوادي الكبير .قلت :

«لنجلس هنا»

جلسنا . .

كان قلبي يتسارع ، وكانت غاطسة في فرحـها الكبيـر ، مسكت معصمها . . قالت :

«لنهبط إلى الوادي»

هبطنا . .

مشـينا معـاً ، فجأة وجدت ذئبـاً صـغيـراً في زاغـور يحدق بعـينين

لامعتين ، سحبت مسدسي على عجل ، وجهت المسدس وأطلقت طلقتين ، مات الذئب . . قلت :

«لنعد ربما هناك قطيع كامل في الجوار»

وجدتها ترتعش ، وعند الصعود إلى المرتفع وجدنا نفسينا أمام التلاميذ والمعلمات . . صاحت الست (خولة) :

«راهنت أنك ارتكبت جريمة»

«ولم هذا الظن؟»

«رأيناك تقود هذه ـ المكرودة ـ إلى حتفها»

تشابكت قهقهات الجميع .

صعدنا وعدنا وسط تصفيق التلاميذ .

(٢٩)

جاءتني الفراشة تحمل بعض الأعشاب . . قالت :

«ضع هذه الأعشاب في كوب ماء محلى مغلي أو كوب حليب ساخن ، واحتسيه سوف يتوقف نزيفك»

تناولت من يدها الكيس الورقي . . قلت :

«اكتمي هذا الأمر»

ضحكت . . وقالت :

«مقابل سهرة»

«ملعونة اخرجي ، كادت أحشائي تتمزق مرتين معك»

«أنا الآن مختلفة عن تلك الليلة»

«وما هو الاختلاف»

«وضعت مادة الشب فيه»

«وما يفعل هل يخيط الغشاء»

«كلا . . إنه يضيقه»

«ملعونة ، المشكلة في عرق جسدك»

«سأستحم وأتطيب وأتهيأ لك ، ماذا قلت»

«حسناً من غير فضيحة»

«من غير فضيحة»

«متى؟»

«الآن»

«الآن»

«نعم الآن . . هذا الوقت ملائم الكل نيام»

«اخرجي يا ملعونة»

أطلقت ضحكتها ومضت .

(٣٠)

ساءت حالتي .

لم أعد أرغب في معاشرة (فواكه قلبي) ، كنت أتجنب محاولاتهن ، لقد كان ضغط الألم واضحاً على ملامحي ، لم أعد أتناول طعامي كما كنت ، بدأ الشرود يأخذني بعيداً عن نفسي ، المعلمات واصلن سعيهن للوقوف على حالتي الصحية ، عملن كل شيء ، حتى في الليل لم يبارحن غرفتي ، كن يتناوبن السهر في ما بينهن .

ذات ليلة كانت الست (حمدية) جالسة على السرير ، كانت متناعسة ، وكانت تبادلني البسمات . . قلت :

«أتعبتك معي ست»

«لا تقل مثل هذا الكلام ثانية؟هذا واجبنا تجاهك»

«لم لم تأخذي راحتك»

«راحتي هنا طالما أنت تعاني من متاعب صحية»

«أتدرين أنك أكثر جدية من الزميلات»

«لا أفهم معنى كلامك»

«أنت صريحة مع الحياة»

«الحياة تحتاج الجد والصراحة»

«صراحتك أكثر من المعتاد»

«هكذا جبلت»

«ست ـ حمدية ـ أنت متعبة جداً»

«سيزول تعبي عندما نجدك بيننا كما كنت»

«أشعر بفراغ كبير يحاول ابتلاعي»

«أنت بحاجة إلى الراحة»

«لم تعد الراحة مطلبي ، وحدك تدسين بذور الصحو والعافية في جسدي»

«أنت تعاني من مرض لا يجب الاستهانة به»

«ربما أنت علاجي»

صمت .

نهضت ودنوت منها ، تلاصق جسدانا ، بدأت أداعب كتفيها ، سرعان ما أسقطت رأسها على صدري .

همست :

«أحبك أستاذ ـ حبيب ـ »

شعرت بسائل يجري من مجرى البول ، مصحوباً بألم ، سمعت تأوهي . . قالت :

«وضعك لا يساعدك»

«هبط عصيري»

«أبهذه السرعة؟»

«هذه علتي»

صمت .

في تلك اللحظة ، تناهى وقع خطوات مرتبكة داخل الساحة ، نهضت (حمدية) وتوجهت نحو الباب ، تراجعت نحوي . . قالت :

«أستاذ حبيب!»
«ما الذي يجري؟»
«رجال غرباء داخل المدرسة»
«ماذا تقولين؟ ربما جاءوا!»
«على ما يبدو كذلك»
بعد دقائق وصلت(خولة) ، وجدتها مرعوبة . . قالت :
«إنهم يطلبونك!»

لم أتمالك نفسي ، مرتبكاً دسست مسدسي بيد (خولة) ، حشرته بدورها داخل سروالها ، وخرجنا نحو الليل ، وجدت أشباحاً يتوزعون الزوايا ، أربعة أنفار ملثمة الوجوه تنتظرني قرب الإدارة ، فتحت الباب وولجنا . . قال أحدهم :

«قبل أن نتناقش في الأمور ، يجب تنظيف قلوبكم من أي توقع طرأ ببالكم»

قلت :
«ليس قبل أن نعرف بعضنا»
«أنت أستاذ ـ حبيب ـ أليس كذلك؟»قال الصوت نفسه .
«أنا هو!»
«أليس من سراج يوضح ملامحكم؟»

خرجت (خولة) وعادت تحمل فانوس غرفتهن ، في أثرها المعلمات يتعثرن في مشيهن ، لم أهتدِ لملامح واضحة ، كانوا أربعة أنفار متوسطي القامة ، ملثمين . . قال أحدهم :

«لسنا قتلة!»
قالت الست (خولة) :

«ما ذنبنا نحن؟»

قال أحدهم :

«جئنا نوضح رسالتنا ، نطلب منكم أن تفندوا تعليمات دولتكم ، إنهم يشوهون إرادتنا في الحياة»

«نحن هنا من أجل تعليم الناس القراءة والكتابة ، لا نملك الخيار للخروج خارج المقررات المنهجية»

«ولكن طريقتكم هل ترونها نافعة؟»

«نحن لا نملك صولجان الوقت ، أينما نجد فراغاً أمنياً ، منفذاً يماشي متطلبات مسيرتنا ، نقتحم غابات الجحيم لتوضيح ملابسات قضيتنا»

«حقاً . . إنكم جديرون بحمل راية كفاحكم»

«ما نريده منكم ، توضيح بعض فقرات المناهج المشوهة في الكتب ، إذ ليس من المستحب أن نجمع ما بحوزتكم من كتب تعنى بالوطنية العنصرية ، والتأريخ المزيف وحرقها أمام عيونكم»

«كل ما يرضيكم سنعمل به»

«حكومتكم ، تنعتنا بالمتمردين ، وتقول عنا (عصاة) أليس من حقنا أن نجابهكم بالسلاح ، لا نريد سوى حقوقنا لنتعايش معاً ، نحن بشر مثلكم ، لنا تراث وأصالة ، نريد أن نعيش كما نرغب»

«نحن نواجه هذه المنفى ، ربما نجد أنفسنا في ورطة لو علموا بهذا الأمر»

«خيارنا توضيح قضيتنا إلى الناس ، هناك خلط مشين للأوراق ، لسنا قطّاع طرق ، ولا لصوص ، ولا نحبذ الحرب ، طالما قضيتنا تتعلق بالحقوق الفردية والجمعية للناس ، نحن شعب يريد أن يختار حياته

كما يحب ، شعب يرفض الانصهار القسري ، والتهجير الإجباري»
«نحن نفهمكم ، نتعايش معاً ، رأينا مدى الحيف المفروض عليكم ، لا نملك وسيلة تنفعكم»
«لو كنّا كما يروجون عنّا في اجتماعاتهم الحزبية وندواتهم الجماهيرية ، لاتخذناكم رهائن أو حتى قتلكم ، لكننا نمتلك الرحمة ولا نحمل الآخرين أوزار الظالمين ، كم قتلوا منّا ، كم زجوا في غياهب السجون ، لكننا تمسكنا بمبادئنا ، وحافظنا على كرامتنا ، جئنا من أجل توضيح الملابسات الحاصلة ، نثمن فيكم هذه الروح في إشاعة العلم في ربوع القرى ، لكن ما نوده عدم تشويه قضيتنا ولا تشويش عقول التلاميذ بما تطبخ من أفكار راديكالية وعرقية تسرطن المجتمع ولا تدفعه نحو الأمام»
«هذا طبع كل مقاتل شريف ، يمتلك إرادة ويضحي من أجل عقيدته ومن أجل حريّة شعبه»
صمت .
تقدم أحدهم مني ، همس :
«لم نتناول الطعام منذ ليلتين»
«يمكننا أن نعد لكم ما لدينا»
تراجع وهمس في أذن المتحدث الرسمي من بينهم ، ذلك الذي كان يمتلك الحق الكامل بالحوار ، وعلى ما بدا أنه قائد المجموعة المسلحة ، كان متمرساً في الكلام ، ليس إنساناً جاء من خلف الكواليس ، قلت للست (خولة) :
«أكرمي ضيوفنا؟»
نهضت خارجة وبينما كنا نخوض متاهات الحوار ، أتت (خولة)

تحمل صينية عليها بيض مخفوق في الدهن الحر وعلبة دبس وخبز . . قالت :

«الوقت متأخر جداً ، ليس بوسعي تهيئة أفضل من هذا»

لم يفه أحدهم بشيء ، تقدموا من الصينية وبدأوا يلتهمون بوحشية ، لم يفكروا بالبقية المتجمدة في الظلام وهي تحرس ، كانت عيون المعلمات متناعسة ، تتلاعب فيها ومضات الهلع ، يكتمن تثاؤبهن بكفوفهن ، لم يبقوا شيئاً ، مسح الناطق المخوّل بالكلام بكم قميصه فمه :

«أين الشاي؟»

قالت (خولة) :

«يمكنني أن أعده في عشر دقائق»

قال المخوّل بالكلام :

«حسناً . . الدبس عوّض ذلك»

قلت :

«أخشى من أن وجودكم معنا سيسبب لنا متاعب مع حكومتنا ، أنت تدري الوشاة في كل مكان»

«كلامك يشعرنا بالإهانة»

«لا تفهم كلامي بطريقة مضادة ، أنت تعلم أنّ وشاية واحدة كفيلة بشنقنا جميعاً»

رمقني المتحدث بنظرة ، تلامعت كرتا عينيه من خلال ضوء الفانوس . . قال :

«يمكننا نقلكم إلى معسكراتنا ونعمل ما نشاء ، وربما نطلب استبدالكم بسجناء لنا عند حكومتكم ، لكننا لن ننتهج الوحشية في

كفاحنا ، إننا متأكدون من ذلك ، إذ ليس من المعقول أنّ لنا معتقلين ، لأن حكومتكم مذعورة ، إنها تشنق رجالنا من غير محاكمات أو حتى التفكير بفكرة مبادلتهم بأسراكم»

«لسنا سوى كادر تدريسي ، لا نفهم بالأمور العسكرية والسياسية»

«أستاذ حبيب . . لسنا غفلاً ، لن نتحرك من غير خارطة طريق ، لا تحاول إضاعة هويتك ، أنت معروف»

«لا أعتقد أننا نخلق الذنوب لأنفسنا»

«نعرفك ونعرف ماضيك وحاضرك»

جف لساني ، كان ناحتاً عينيه فيّ ، لم أجد كلمات تنفعني للحيلولة دون زج نفسي في معمعة خاسرة ، هز رأسه وأضاف :

«أستاذ حبيب ، كل الكادر التدريسي أعضاء في حزب الحكومة»

«ربما هذا بلاؤنا الوحيد»

«ندرك معاناتكم وضيق أفق مستقبلكم»

«عفواً . . كنت أقصد من كلامي أننا قد نواجه تهمة»

«هذا شيء مألوف لو تمكن واشٍ من كتابة تقريره»

«أخشى من رجال القرية»

«الحرب دقت طبولها ، وبدأت تتوسع وتمتد ، لا أعتقد أن حكومتكم لديها الوقت الكافي للجري وراء تلك المهاترات ، باتت منشغلة بفكرة النجاة من حرب شاملة لا تبقي ولا تذر»

«نرجو ذلك ، إنها بدأت تتوسع وربما ستصل إلينا قريباً»

«ما نريده هو إيصال مطلبنا إلى الناس ، نريد منهم عدم الوثوق بكلام الحكومة ، إنهم شوهوا سمعة ثورتنا ، وأجبرونا على العيش في الجبال»

«ربما ما تقوله أو تتوقعه ليس فيه الكثير من الصحة ، فالأخبار تعبوية ، والناس تكبر المواضيع»

«صحفكم تتكلم عنّا دائماً بالسوء وتتهمنا بالعمالة لأعداء يوجدون في عقولهم»

«كلام جرائد»

«نريد أن يعرف الشعب ، أننا إخوة في كل شيء ، نريد أن نعيش كما تعيشون»

«من حقكم أن تسيروا مركبة حياتكم كما يروقكم»

صمت .

دخل أحد المسلحين ودنا من المتحدث الرسمي بالحوار ، همس بضع كلمات غريبة وانسحب ، عاد للكلام :

«رفاقي وجدوا فتاة معتزلة عنكم ، هل ثمة ما يريب؟»

قالت (خولة) :

«اتركوها إنها تعاني من فصام شخصي»

«ماذا تعاني؟»

«كئيبة ، معقدة ، شيزوفرينا»

«أنا لا أجد معنى لكلامك»

«إنها مريضة نفسياً»

«قولي مجنونة»

«بالضبط»

«وهل حكومتكم توظف المجانين في التعليم؟ ، هل لديكم دروس في الجنون؟»

صمتت(خولة) . . أجبت :

«إنها تعاني من الغربة ، لديها مشاكل أسرية»

«قولي إنها تكرهنا»

«لو كانت تعلم بقدومكم لكانت الآن معنا»

«لو تكرهنا ، سنسحلها إلى معسكراتنا»

«بل إنها تحبكم أمها كوردية»

«كيف تحبنا؟ ، كلكم تخشون التحدث عنّا ، أنتم تنفذون أوامر حكومتكم»

«قلوبنا ليست مع حكومتنا هذه حقيقة واضحة على ملامحنا»

«وما نفع القلوب إذا كانت أيديكم هي التي تدافع عن حكومتكم»

«حكومتنا قاسية ، تعاقب من يتلكأ أو يتخاذل بالسجن أو بالشنق»

«أستاذ حبيب . . أنت أوّل إنسان يتكلم بصراحة»

«تعودت الكلام الصريح بعدما اكتشفت زيف السياسة»

«ما نريده منكم ، شرح قضيتنا بين الناس ، لسنا قتلة كما تزعم الحكومة ، ولا قطاع طرق ، نعيش في الجبال من أجل بناء غدٍ مشرق لشعبنا ، فالبلاد سقطت بسببهم في شفير حرب كبيرة ، هذه الحرب ستسلب عافيتكم وتنتزع أرواح أبنائكم ، حكومتكم مجنونة ، لا تتردد في زجكم في المحرقة من أجل أن تبقى سالمة»

«نرجو من الله أن يوقف سعيرها»

«الحرب وقعت ، وهناك من يغذي تنورها بالحطب والزيت»

صمت .

قالت (خولة) :

«لم نعد نطيق السهر ، هل تسمحون لنا بالخروج»

«هل أنتِ محامية دفاع؟ ، كلهن قانعات إلاّ أنت يا ست تتحدثين كأنكِ لسان حالهم»

«أنت أيضاً تتحدث من غير أن نسمع من رفاقك كلمة واحدة»

«أنا قائد المجموعة»

«وأنا طباخة مجموعتي»

«آه . . شكراً على العشاء»

«كان سريعاً وبسيطاً»

«في الأشياء البسيطة والمتواضعة تختبئ الجواهر والنوادر هكذا تعلمنا الأشياء في الجبال»

صمت .

نهض المتحدث وتهيأ رهطه للمغادرة ، وقف بالباب . . قال :

«لا يمكنكم نقل وجودنا إلى خارج نطاقكم ، أي كلام يخرج من أفواهكم ، يدفعنا أن نتخذ الإجراءات الصارمة بحقكم»

«نحن أحرص منكم على كتمان السر»

قدّم كفه وتصافحنا .

انسربوا داخل كتلة الظلام ولم نعد نسمع سوى نباح كلاب وصيحات (بنات آوى) وعواءات ذئاب تأتي من بعيد .

ضجت الإدارة بصخب المعلمات ما إن تحررن من كابوس ثقيل ، بدأت أراقب نظراتهن ، كنّ متذمرات . . قالت (حمدية) :

«لم أعد أمتلك شجاعة البقاء هنا»

قلت :

«هناك فارق كبير ما بين تلقينهم لنا وبين ما لمسناه من حقيقة»

قالت (خولة) :

«لنترك الكلام إلى النهار ، الصبح يقترب»

نهضن وخرجن إلى غرفتهن ، قفلت باب الإدارة وجرجرت قدمي كي أسقط في فراشي وأغط في نوم عميق ، لم أجد الوسن يرفرف على عيني ، كانت العواءات تغتصب الليل ونباح الكلاب يعصف بالقلب ، في تلك اللحظة سمعت نقرات ناعمة على باب غرفتي ، قمت وفتحت ، وجدت (أم عليوي) تتلعثم :

«أستاذ حبيب ماذا يجري؟»

«ما الذي جاء بك؟»

«أنهضتني ـ وداد ـ وحكت لي»

«لم يحصل ما يريب ، اذهبي وأكملي نومك»

«أستاذ ـ حبيب ـ لا تخفِ عنّي الكلام ، هل حقاً جاءوا؟»

«من أين لك هذا الكلام ، لابد أنك حلمت»

«ـ وداد ـ رأتهم»

«اذهبي وانسي هذا الموضوع؟ادفنيه في بئر؟»

«ربما سيأتون مرة أخرى»

«لن يأتوا»

«أستاذ حبيب . . أشعر بالخوف»

ربت على كتفها ، حاولت أن ترتمي عليّ ، دفعتها :

«هيّا إلى غرفتك»

تراجعت وبدأت تخطو وهي تتلفت ، من خلال العتمة المفككة بأشعة النجوم وجدت شبح الست (وداد) واقفة في باب المستخدمة ، رغم الجفوة والمخاض الذي خضته تفاعلت أغواري وتنادت الرغبة

لساعة عشق تزيح من رأسي ضجيج اللقاء ، وقفت (أم عليوي) ، من وقفتها عرفت أنهما تناقشتا قبل أن تتحركا من جديد ، اقتربا مني . . قالت (وداد) :

«أستاذ حبيب . . نريد أن نطمئن»

«ليس هناك ما يريب»

«كانوا مخيفين»

«ربما شعورك أنتج فيك هذا الهاجس»

قالت (أم عليوي) :

«لم نقف هكذا ، أتسمح لنا بالدخول والجلوس معك أستاذ ـ حبيب ـ ؟!»

أجابت (وداد) :

«ليس هذا وقت جلوس ، الليل جاوز حد المنتصف»

«في حضرتكما على النوم أن يغادر» . . قلت .

قالت (وداد) :

«تصبح على خير أستاذ»

اندفعت راجعة وتبعتها (أم عليوي)بعدما همست :

«يا لها من معقدة ، يا لها من فتاة غبية»

عدت إلى سريري .

عانيت بما فيه الكفاية من تفكير قبل أن أنام .

(٣١)

قبل الفجر بدقائق اندفعنا مرهوبين ، تجمعن الرفيقات داخل غرفتي ، ومن بعيد كانت قذائف تنفلق ، أخرجت نفسي من فيضان الرعب . . قلت :

«بدأت الحرب تقترب منّا!»

بقينا صامتين ننتظر بياض الفجر ، أو قرص الشمس ، كي يشرح لنا النهار كوابيس الليل ، قذيفة مفاجئة شرخت الفضاء الساكن ، هزتنا وألقتنا فوق بعضنا البعض ، تقاذفت الرفيقات وسط صرخاتهن .

وراء قذيفة غبية قذيفة ذكية ، تلك هي فلسفة الحرب ، توقعت قذائف لاحقة ستهطل ولابد أن واحدة على الأقل ستصيب كبد الحقيقة ، ضجّت البيوت بموجة من العويل ، اندفعت إليهم ، حشد نساء متهالكات ، يلطمن صدورهن ، وسط صبيان وصبايا غرقوا في البكاء ، كان الرجال صامتين ، ينتظرون فراغ النسوة من فيضان الحزن ، وسط الهرج كان جسد الـ عريس مضرجاً بدمه ، وكانت الـ عروس فاقدة قدميها .

كل شيء مر بخراب ، يوم غير عادي ، تعطلت فيه حواسنا ، وتوقفت كامل رغباتنا ومشاعرنا ، فقط العيون كانت تتحرك بفلتان تام ، اقترحت الرفيقات أن نترك المدرسة ونهرب مشياً على أقدامنا ، قبل أن نفاجأ بعدوٍ يطوقنا ، فكرة طرحتها (خولة) ، لم أمتلك وعياً صريحاً كي

أبلوره في ذهني واتخاذ القرار السليم ، جلسنا فاقدين مشاعرنا ، خائفين ، لا نعرف ما الذي يجري ، فالحرب هاجس مجهول ، مثل نهر مجهول القاع ، لابد من مراجعة ذاتية قبل اتخاذ قرار مغامرة السباحة .

بعد ساعتين من القلق والهلع والإصغاء لجهاز الراديو ، وصلت طلائع مركبات عسكرية ، هبط نقيب يرافقه جنديان ، خوف واضح يسكنهما ، ينقلان نظراتهما في كل اتجاه ، أعلن النقيب عن نفسه :

«نقيب خالد»

قدمت نفسي له . . قال :

«تستدعي الأوامر إخلاء المنطقة من آهليها»

«لا نمتلك وسيلة إنقاذ كي نطيع الأوامر»

«ستأتي مركبات مجهود حربي لإخلائكم»

عند الأصيل وصلت الحوضيات ، سبعة منها لإخلاء القرية وحوضيتان لنا .

لم أرغب في الجلوس مع السائق ، وجدت نفسي مع الرفيقات ، بعدما وضعنا حاجياتنا وممتلكات المدرسة في حوضية ، ظل الصمت لسان حالنا ، الطريق متعرج ومترجرج ، رغم ما تخلف فيّ من رعب الموقف وأنا أحدق بجسد العريس الممزق ، كان قلبي يتنفس ، ينبض لرؤية ملامح (وداد) ، كانت متكورة ، صامتة ، في نظراتها مدارات مجهولة ، ظلّ قلبي ينبض بتسارع مثلما كان يفعل لحظات مثولها معي ، أو عندما كنت أتفتت من أجل أنوثتها ، كانت ترمقني بنظرات متفاوتة في الطول ، لكنها ظلّت عنيدة لم تبادل كل ابتساماتي لها ببسمة واحدة ، أمّا الرفيقات فكن ساكنات الذهول ، مرهقات إثر ليلة حفلت بالصراحة وتسليخ الأبدان من قذارات الطفولة ومشكلات

الرغبة ، كانت عيوننا تلتقي تارة بشيء من الخوف والخجل ، وتارة تغفو بحثاً عن تفسير لما هو قادم ، أو نهاية هذا المصير الوافد من الشرق .

كان يوماً حافلاً بالتعاسة .

عند منتصف الليل وصلنا مشارف البلدة ، بعد توقفات كثيرة ، أعطونا بعض الطعام . . جاء ضابط برتبة مقدم ، بش بوجهنا . . قال :

«حيا الله الماجدات»

لم يجد جواباً يفرحه . . قال :

«ستبقون الليلة ضيوفاً علينا»

«البلدة قريبة ، يمكننا أن نصل في نصف ساعة» . . أجبته .

«تستدعي الأوامر عدم التحرك ليلاً ، طائرات العدو تجوب على الحدود»

«لا يمكننا أن نبقى هنا بين الجنود ، الرفيقات مسكونات بالهلع»

«لا داعي لهذا الخوف ، غداً سيجدن أنفسهن حاملات السلاح جنباً إلى جنب معنا»

«لا أتمنى الحرب أن تطول سيادة المقدم»

«يجب أن نفكر بكل الاحتمالات في ظل الحرب»

«جيشنا مقتدر . . سينهي الحرب بسرعة فائقة»

«هذه فكرة قيادتنا الحكيمة»

«يمكننا أن نجد مركبة توصلنا»

«حسناً . . سأتحدث مع السيد الآمر»

تركنا ومضى . . عاد يستبشر خيراً .

«ستوصلكم المركبتان»

ركبنا وبعد نصف ساعة ترجلنا داخل كراج (جلبلاء) ، وجدنا

الليل مدججاً بالرفاق .

أخذت (خولة) معها خمس رفيقات .

أخذت (حمدية) الثلاث المتبقيات .

وقفت أواريهن ، تقدم مني سائق ساومني قبل أن ينقلني أنا وأشياءنا التربوية إلى منزلي .

(٣٢)

جاءت الأوامر التربوية سريعاً ، تم تفكيك شملنا إلى أشلاء مبعثرة ، رمونا في مدارس شتى ، عدت إلى خيباتي المتناهضة ، لم تكن هناك فواكه تسعف بدني بعسلها ، صار الليل جحيماً ، بعدما صارت النهارات ملكاً للحزب الذي انتفض لقتل كل فراغاتنا ، مرابض الـ هوس بالوطنية بدأت تحتويني ، كل شيء تسربل بلون التراب ، الأشياء والناس وحتى الكلام تبدل ، خرج من ثوب البلادة ولبس ثوب الحرب .

بدأت البلدة تستقبل قوافل عسكرية تمر وتعود ، دبابات تأكل جلد الشارع الوحيد للبلدة ، وكان الناس يتجمهرون على طرفيه يلقون نظرات غريبة إلى جنود خاشعين ، تخيم على سحناتهم ومضات الخوف ، ترجرجهم الحوضيات وهم يمضون إلى الحرب .

جاءت الأوامر بعدما طرحت رفيقة متحمسة فكرة وطنية شاملة ، شملت كل البلدات التي تتعسكر فيها المعسكرات ، أو تمر بها قوافل الجنود إلى الحرب ، تم تنصيب عشرات الخيم على ممرات سير الجيش إلى خطوط الجبهة ، جاءوا بكل الفتيات الجميلات لتقديم حلوى وعصير وقطع كيك للجنود ، في تظاهرة شعبية امتدت إلى الكثير من القصبات الحدودية دعماً للمجهود الحربي .

في واحدة من الخيم وجدت (خولة) . . لم تكن كما كانت . . قالت :

«رفيق حبيب . . لم تعد أسمالنا القديمة تنفع يومنا هذا ، آن الأوان أن ننسلخ من ثوب صبيانياتنا»

«أيفقد الجسد كيانه في الحرب؟»

«في الحرب علينا أن نضع الله في مرمى عيوننا»

«هو موجود دائماً وأبداً معنا»

«رفيق حبيب . . ما حدث يجب أن يدفن في مستنقع النسيان»

«قلبي يحتاج لإعصار كي يسكت ، ربما هو الأخير كي أنسلخ من صبيانياتي»

رفعت صحناً فيه قطعة كيك وقدح عصير . . قالت :

«هذا من عمل يدي»

«أنا لست جندياً كي أحتفي بهذا المجهود الحربي»

«غداً كلنا نغدو جنوداً»

تناولت وبدأت ألتهم وأشرب .

«ليلي عذاب يا خولة»

«هداني الله ولم أعد أعير أهمية للحياة الفانية ، جرب الحياة المستقيمة ، تجد نفسك مرتاح الضمير ومروضاً من حماقات العواطف العابرة»

«أحقاً الحرب قلبت الموازين بهذه العجالة؟»

«على المرء أن يغير استراتيجيته عندما لا يجد ضوء أمل يتوهج في أفق طريقه»

«مهما حصل ويحصل ، الجسد له حربه الخاصة»

«حربان للجسد ، حرب مفروضة وحرب مكتسبة ، حربنا الآن حرب مصير رفيقي العزيز»

«بدأتِ تتفلسفين رفيقة ـ خولة ـ »

«حياتنا محض فلسفة»

«زرعتِ أشجار شائكة في غابة حياتي ، هل يمكن تركها من غير عناية أو سقي»

«داخل كل إنسان توجد هذه الأشجار ، على المرء أن يقتلع الخبيثة منها كي تبقى النافعة يانعة ومثمرة وخالدة ، كي يشعر بقيمته الإنسانية»

توقفت قافلة وبدأ الجنود يترجلون . . قالت (خولة) :

«الوطن جاء!»

تركتني وخرجت . . لم أجد دافعاً للبقاء ، كان قلبي يتمزق ، وأنفاسي تتكتم ، على مضض أتفحص أيامي الماضية ، حضر الشك وصرعني في غمامة حيرة وغيمة عذاب .

عادت .

«إن ما ظلّ يقلقني أو ربما أطرح توسلاً حوله هو . . .»

«ما الذي يقلقك؟»

«أن تجيبيني بصراحة»

«لست غريباً»

«سقط مني أو فقدت كاسيت الشريط الممغنط»

«ربما هو التذكار الوحيد الذي بوسعي أن أحتفظ به»

«أيمكنني أن أسترده»

«ربما صعب»

«هل سمعت ما جاء فيه؟»

«لا أملك آلة تسجيل»

«طلبي الأخير أن تتلفيه»

«صعب»

صمت .

تركتني ومضت نحو قافلة جديدة وصلت .

***

بعد الغروب بقليل ، ألبس الزيتوني ، وعلى الشارع العام للبلدة ، مع الرفاق نواصل السهر حتى الفجر ، لم تنقطع مواكب الجنود ، ومن شرق (جلبلاء) كان الوميض يشع ونثار مذنبات تهلهل في الفضاء ، شاع أنها تقاوم الطائرات المغيرة وتمنعها من التسرب إلى أحشاء الوطن .

عبر الجنود الحدود ، اغتصبوا (قصر شيرين) ، بدأ النهب والسلب ، هكذا هي مكتسبات الحروب منذ فجر التاريخ ، فالحرب تعني القتل وسرقة أملاك القتلى ، الحرب تدمير صبياني للجمال ، وتحويل الطبيعة إلى أطلال ومجاعة وأمراض وفقدان أخلاق .

بدأت المركبات العسكرية تتراقص وهي تحمل موجودات المدن المنهوبة ، تحول رصيفا الشارع الرئيس إلى سوق مفتوحة ، تعرض الأجهزة الكهربائية وكل ما هو نفيس وغير متوفر في البلاد ، إضافة إلى حراب أميركية ومسدسات تباع سراً ، بدأ الكثير من البيوت تستقبل الأشياء الحرام ، لم يتحرك الحزب ، لم ينطق ، كانت الحرب بالنسبة له ، حياة أو فناء ، وجد الحالة نوعاً من الحرية المباحة ، ونوعاً من الانتقام من العدو .

بدأت قوافل التوابيت تمطر البلدة .

صار لون الحياة أسود .

***

تم استدعاؤنا لخدمة العلم ، ودعت حياتي الصاخبة لأسكن بيت القدر ، بعد أشهر وجدت نفسي جندي درع ، كانت الجبهات تتفتق والجيش لم يعد يكفي لملء الفراغات المتواصلة ، فمن وجد نفسه خارج الخدمة العسكرية ، حاصرته أسلاك وطنية جديدة ، ألبسته درع الحرب .

في بلاد الحرب عقل الحزب يبتكر .

تم بناء الجيش الثاني .

الجيش الساند .

الجيش الشعبي .

ما جاء في الأشرطة الممغنطة

(اعترافات صوتية)

تحكي خولة

كل يوم أعيش ملحمة .

هذا طبعي مذ شعرت بـ نضوج أنثاي ، واستيقاظ مشاعري باكراً ، ومن لحظتها باتت إرادتي عاجزة عن السيطرة على خبث عواطفي ، دائماً في أعمق أعماقي ، ثمت ينابيع تنبجس وتحرك سفينة عاطفتي ، تمخر عباب روحي ، تؤجج ناراً غريبة ، تشب وتنهض العطش ، الجوع ، التمزق ، الذوبان ، الهروب إلى خارج جسدي ، إلى سحر هذا العالم ، إلى الموت اللذيذ ، الموت جنسياً ، يسمونه حسياً .

صمت .

لا يمكنني أن أنوجد في يوم لم أكن فيه ناراً تحرق ، هذا طبعي ، لا أقول قدري هو صانع خاصيّة عاطفتي ، وكما تعلمون ، القدر قوّة قاهرة تصحح أو تبدد مسارات الأحلام ، هل قلت الحقيقة؟ ، أم أنني واهمة في تفسير ظواهر الحياة الغيبية يا أخوات الشقاء .

صمت .

كل بنت تخضع لحزمة مشاعر تسكنها وتوجه مثل سفينة مساراتها عبر عباب الزمن ، لم أكن عاقلة ذات مرة ، مذ اكتشفت نفسي ، فتاة تمشي ، تنتفخ فيها بالونات الأنوثة ، وبدأت تشم رائحة الغرائز الذكورية ، عطور ساحرة ، تهيج أشيائي الدفينة ، تبث أنواراً تقتل السأم وتميت تخرصات العذاب المتنامي فيّ .

صمت .

فتاتي نضجت وثارت ، راحت تتلمس فواصل الجمال فيها ، قبل أن توجه عدسة الشهوة نحو الوجوه العابرة ، بعدما شبّت في غابات مشاعرها نيران الشهوة ، وبدأت تكويها شرارات الانجذاب لهذا النصف المتعب ، العدو ، الصديق ، الحلو ، المدمر ، العنيف ، اللطيف ، الخفيف ، الثقيل ، الحر ، البرد ، هذا الكائن الثنائي التكوين ، قبل أن تسقط بمحض رغبتها ـ ومن غير تردد ، أو ارتباك ، أو ندم ـ في وادي الشجاعة .

صمت .

أمّي متفتحة كانت ، صاحبة الذوق المتقلب ، كيان فارغ منفوخ بـ زمهرير الكبرياء ، كانت تهيء نفسها في كل لحظة عروساً ، ليس لأبي طبعاً ، كانت تعشق المباهاة بجمالها ، بقوامها الرشيق ، بساقيها ، بطول شعرها ، كانت تبدل ملابسها حسب الوقت ، فملابس الصباح لابد أن تختلف عن ملابس العصر ، وقفاتها ونظراتها وطريقة شهيقها وزفيرها ، كلها أحلام خضعت لقانون مزاجٍ خرب .

صمت .

بيتنا ما زال يقع على الشارع العام ، الشارع الوحيد الذي يشرخ أحشاء بلدتي ، بلدة البلداء ، التعساء .

صمت .

تمر المركبات والسابلة ، تكاد العيون تندلق خارجة من مكامنها ، لا تبالي أمّي بذلك ، كانت غايتها إحراق أعصاب ناظريها ، كانت تتزين قبل أن تفترش عتبة الباب ، ترفع بوزها ، تغمرها الفرحة وهي تلتقط سيول الحسرات المفضوحة ، سهام العيون الناهشة ، حركات الأيدي

الملغوزة ، حاول المرحوم والدي تغيير دفة مزاجها ، لم يكن فظاً غليظ الفؤاد ، لم يكن يتحامل عليها إلاّ بلين الكلام ، بتوسل دائماً ، بملاطفات متواصلة ، كانت تطلق ضحكاتها بـ دعر فاضح .

صمت .

نعم بدعر أقولها بصراحة ، دعر فاضح ، تصغي وتلغي تعاليم السيد الوالد ، وكان المرحوم يترك ساحة الجدال ، بعدما يلتمس عنادها الصخري وشرودها العقيم ، تزعل الست الوالدة كلما حضرة الوالد يدعبل حفنة رجاءات في مصاغيها ، ترتمي في غرفة المطبخ ، على بطنها تنام ، تذرف أوقيات دموع ، لأن الكلام النافع لن ينفع ملاحتها ، ولن يلائم فوضى مزاجها ، لعبة ليلية تتواصل ، لا تحدث خرقاً في قوّة الحب ولا رخاوة في حبل المودة بينهما ، كانا وجهين لعملة عائلية نادرة ، ففي الصباح كنت أقف للحظات وأنا أتأمل هذا المشهد المفقود الآن في كثير من بيوت الناس ، تغمرني سعادة طفولية لا تضاهى ، عندما أجدهما في فراشهما متعاشقين ، يغرقان في وحل الشهوة .

صمت .

من أمي الجريئة ، صاحبة الذوق المتحرر ، والحركات الجسدية المتمايلة ، تعلمت سر وسحر الجرأة ، تعلمت فن الاعتناء الفائض بالنفس ، رحت أقتفي خطاها ، أقلدها ، أبقى أمام المرآة أوقاتاً طويلة ، أحاول أن أقتنع بجمالي ، تتفاقم في رغبة أن أغير العالم ، بنظراتي ، بسحر عيني ، بوقفاتي ، بهز صدري من دون سبب إلاّ إذا كان السبب زيادة بحبوحة أنوثتي لا غير .

صمت .

رصدت الست الوالدة هوايتي التبرجية ، لم تنفعل ، لم تباغتني

بسيل تعنيف ، وجدتها تضحك ، تنتشي ، مدّت يد العون ، بدأت تخرجني من ثوب طفولتي ، ومن يومها بدأنا نستحم معاً ، أوّل دغدغات الشهوة بدأت لحظة أزاحت كومة شعر أسفل بطنها ، وجدت السؤال ينفلت من فمي ، أجابتني بصراحة : «هذا الشعر فيه سر اللذة بالنسبة لنا ، لكن الرجال يمقتونه» ، تحرك مخي ، ما علاقة الرجال بهذا المكان ، لم تمهلني وقتاً أطول ، كي أجد تفسيراً لسؤالي ، قالت«هذا برمودا ـ أشارت لكومة لحم منفوخ ، مفلوق بخط شاقولي ، إلى طماطتها ـ كما اتفقنا أن نسميها ـ من هذا الشق خرجتِ ذات ليلة!» ، زادت حيرتي ، كيف خرجت من شق مخصص للبول ، خلتها تمزح ، أو تريد أن تضيعني في متاهة قبل أن تعيد لي رشدي ، لكنها صمتت ، لم تعقب أكثر على كلامها .

صمت .

رحت كما تفعل أفعل ، كل يوم أفحص كومة لحمي غير المنفوخ بعد ، أبحث عن الشعر كي أزيله ، ألبس ثياباً جميلة ، أقف كما تقف ، أحرك جسدي كما تحرك جسدها ، اكتشفت عيون الصبيان أداة فاعلة ، تمتلك قوّة خفيّة ، تنضجني بسرعة البرق ، كلما انطلقت نحوي ، تنهض فيّ لذة غريبة ، وتنعش أغواري برجفات موسيقية ، وقوفي وابتساماتي شجعتهم أن يغازلوني بنظرات وقحة وكلمات متوسلة ، وحركات أيد تدعوني .

صمت .

دخل أبن الجيران على الخط ، كان أوّل الفاتحين ، شاب يكبرني بـ ثلاث عشر سنة ، كنت في الخامسة ، كونهم قالوا في العام المقبل ستدخلين إلى المدرسة ، وكان ابن الجيران يقرأ كثيراً ، قالت أمّه في

العام المقبل سيدخل إلى الكليّة ، فالمسافة بيني وبينه ، مرحلتان دراسيتان ، ست سنوات ابتدائية وست متوسطة وثانوية ، وسنة أمامي كي يقبلوني طالبة ، كان يضحك بوجهي وكنت أضحك بوجهه من باب الجيرة ، تطور الأمر وناداني ذات صبيحة ، دنوت منه وأنا بنت في الخامسة من عمرها ، جلست قربه ، بدأ يلاطفني بـ غزل الكلام ، وصفني بالحلوة والجميلة ، قبل أن ـ يقشمرني ـ وأتبعه داخل بيتهم ، دخلت غرفته ، كانت أمّه تجلس مع أمي ، رفعني وأمطر وجهي بالقبلات ، لم أشعر بخوف ولا إهانة ، ما فعله لا يعدو ما يفعله أبي مع أمّي ، كلما رجع من السوق ، يقفان ويتعانقان ويتبادلان القبل ، وجدت القضية محض روتين ، كنت أشعر بحرارة فمه ، وكنت أضحك ، وجدته يتعرق ، ألقاني على الفراش ونام فوقي ، قلت : «أنت ثقيل ستميتني» ، قال : «أنا أحبكِ يا خولة ، عندما تكبرين سنتزوج!» ، كلامه كان عكس كلام أبي عندما ينام فوق أمّي ، كان أبي يقول : «عندما نكبر سنفقد هذه المتعة!» ، كلمة زواج أشعرتني بقيمتي وصدق كلام أمي ، كانت دائماً تردد هذا الكلام أمامي وكانت تؤكد أنها لن تزوجني لرجل أعور مثل أبي ، بل ستزوجني لـ ضابط عسكري ، كي يركبني سيارة آخر موديل ويسكنني في قصر ، ابن الجيران وجدته يهذي فوقي ، يتعرق ، خفت عليه ، قلت : «هل أنت مريض؟» ، «أنا سأموت!»«لا تمت فوقي؟» ، «سأموت فوقك إذا بقينا هكذا!» ، تذكرت قول أبي لأمي ذات ليلة ، كنت من تحت ـ البطانية ـ أنظر إليهما ، كان راكباً فوقها ، كان يهذي : «ليتني أموت فوقكِ!» ، ضحكت ، «لم تضحكين يا ـ خولة ـ» ، «انزل لا أريدك أن تموت فوقي؟» ، «يجب أن نفعل مثل بابا وماما كي لا أموت فوقكِ!» ، «بابا

وماما هل يفعلون مثل هذا حتى لا يموتوا؟» ، مدّ يده ورفع ثوبي ، انتزع سروالي ، وقعت عيني على أفعى واقفة ، قلت : «ما هذا؟» ، قال : «هذا سبب موتي!» ، «لم لا تقطعه عند المطهرجي؟» ، «انظري إليه ، سوف يبكي ويسكب دموعه» ، «وهل يصرخ عندما يبكي؟» ، «انظري إليه؟»مسكه من أسفله وبدأ يفركه على (طماطتي) ، كنت أشعر بدغدغات لذيذة ، وهو يلهث ، مغمضاً عينيه ، يرسل حشرجات وأنيناً وتأوهات كانت تشعرني بفرح وسعادة ، كان يتقافز كمجنون ، لم يحتمل نفسه ، بقي يفعل فعلته حتى وجدته يرتجف ويصرخ وهو يكاد يموت : «إنه بدأ يبكي!»سائل لزج مثل العسل بدأ يتدفق من ثعبانه وهو يتراخى وينام ، سكبه على ساقي ، أمطرني بوابل قبلات ، قال «لا تحكي هذا لأحد؟» ، سحب من جيبه منديلاً ومسح دموعه المراقة على ساقي ، «كلما ذهبت أمي لتجلس مع أمك تعالي لتري دموعه!» ، «أخاف أن تضبطنا ماما!» ، «لا تخافي يا خولة!» ، «ربما أخي سيداهمنا» ، «لا تخافي إنه في الساحة كل يوم عصر يركض مخبولاً خلف الكرة» .

صمت .

من يومها بدأت أشعر بجوع دائم لهذا العذاب المدمر ، هذا الينبوع الجائع ، هذه الدغدغة الكهربائية ، بدأت أحشائي تشق رفوف الزمن وتنضج قبل حلول مواسم السفاد .

صمت .

مرت أيام ونحن نتشابك وننظر بعين الدهشة إلى دموع العالم المجهول وهو يمشي فوق واحة مسراتنا المقموعة ، قبل أن أباغت ذات يوم بذهاب ابن الجيران إلى الكليّة ، طال عليَّ غيابه ، ويوم عاد لم

يناديني ، لم يضحك بوجهي ، توقعت أن ضحكاته انتهت ، توقعت أنه لم يعد يمتلك دموعاً كي يسكبها عليّ ، مرت الأيّام والأشهر قبل أن أقف مع الناس في بيتهم ، نساء يزغردن ونساء يرقصن ، كان جالساً بجنب عروس جميلة ، لم أشعر بغضب أو غيرة ، صغر سني لم يثر غيظ هذا العدو الساكن فيّ .

صمت .

رغم سنّي الصغيرة ، شعرت أنني امرأة مات زوجها ، من يقيم سعادتها الليلية؟ من يروي غابات عواطفها بـ ماء الجنون ؟الجوع كافر ، جوع الجسد حريق ، جاء الماء من غير مرور غيوم في سماء تفكيري ، بائع جوّال يأتي كل ظهيرة وينادي على أشياء جميلة متراكمة فوق عربة دفع ، وجدت ألفة وتودد ما بينه وبين نساء المنطقة ، يمازحنه ويتحرر معهن في حواراته ، ذات ظهيرة دنوت منه ، من باب الفضول رغبت أن أستطلع ما عنده ، مسك يدي وقربها من (ثعبانه) لم أشعر بخوف ، وجدته أكثر خوفاً مني ، قال : «أتعرفين ما هذا؟» ، «أعرفه أنه يبكي إذا فعل!» ، «إذا أبكيتيه سأعطيك ما تحبين» ، «ليس هنا!» ، «ادخلي العربة وسوف أقف ولن يراك أحد» ، فتح باباً صغيراً ، لا أعرف كيف اندفعت لأدخل إلى العتمة ، وقف بالباب ورفع ثوبه ، من خلال العتمة رأيت ثعباناً ضخماً واقفاً ، همس : « ضعيه في ثغرك؟» ، تذكرت كلام أبي ذات ليلة : «مصّيه» ، تذكرت كلام أمي : «لا تدعه يسكب في فمي» ، بعدما رصد ترددي قال : «لا تخافي يا بنت سأجعله يبكي خارج فمك!» ، قلت : «أي ثغر ترغب؟ ، لي ثلاثة ثغور!» ، «ما زلت صغيرة ضعيه في ثغرك الأعلى» ، «ولم لا تضعه على ثغري الأدنى» ، «كلا حين يفتح بابه يمكنني أن أدخل ثغرك الأدنى» ،

«حسناً ضعه في ثغري الأقصى» ، «لا . . لا . . » راح يلهث مغمضاً عينيه ، كان دافئاً ، متدفقاً ، متعرقاً ، طال عليه البكاء وأنا أسبح في عرقي ، وجدته ينسحب ، همس ابقي ولا تتحركي ، سد علي الباب ودفع العربة .

صمت .

كانت العربة تمشي بي ، ترجرجني ، تحلقني عالياً في سعادة وخوف معاً ، بعد لحظات توقفت الرجرجة ، فتح الباب ، أخرجني إلى الضوء ، كنّا بين صفي أشجار خلف حديقة ، «هنا لا يرانا أحد» ، رفع ثوبي ووضع ثعبانه بين ساقي ، وجدته يفعل بقوة وهو يلهث ويتعرق ، كنت أشعر بفرحة وأنا مرفوعة أطير وثعبانه يدغدغني ويطعنني ، حتى تراخى ونده وسالت دموع ثعبانه على ساقي ، أنزلني ، قال : «كل يوم تعالي كي أعطيك شيئاً جميلاً» ، تركني أعود وحيدة ، وجدت أمي واقفة في الباب ، لم تعنفني ، قبلتني وأدخلتني البيت : «لا تبتعدي في الظهيرة ، هناك أولاد الحرام يا خولة!» ، «لن أبتعد يا ماما» .

صمت .

كبرت وكبر همّي وزادت شهوتي ونضجت عواطفي ، وبدأت أتصيد أنا الفتيان وأثير فيهم الشجاعة وحب المغامرة والفعل الجسدي ، سرعان ما أصبحت مثار اهتمام فتيان الزقاق ، قبل أن أجد نفسي أعلى من رغباتهم ، بدأت أشعر بحاجة إلى تغيير استراتيجي في إشباع جسدي ، رحت أنظر إلى أناس أكبر مني ، إنهم يمتلكون الأسرار ولديهم الخبرة في تلبية حاجات الجسد ، كل الفتيان وجدتهم حيوانات تسكب عصير أغوارها وتموت من غير أن أشعر بطيران وذوبان وتعرق ، بدأ بعض الرجال يحوم حولي ، وكنت أمنح نفسي المغالاة كي أثير

غرائزهم بشكل مدمر ، كثيرون كان لديهم نساء ساحرات وجميلات ، سقطوا في مستنقعي ، قال لي أحدهم بعدما لهث ساعة كاملة قبل أن يتخلص من دموعه : «يا خولة . . هذا العمل لن يطول عندما تصبحين امرأة» ، «ألست امرأة؟» ، «أنت بنت!» ، «ألم أبكِ ثعبانك؟» ، «هذا البكاء خارجي ، عندما يدخل إلى الداخل ستكونين امرأة ، عندئذ يكون البكاء داخلياً!» ، «ولماذا لم تدخله؟» ، «لا يجوز هذا ، أنت بنت عندما تتزوجين سيقوم زوجك بإدخاله إلى داخلك وساعتها ستكونين امرأة!» ، «أدخله كي أكون امرأة؟» ، «أنا لدي زوجة ، أنت عندما تكبرين ستتزوجين وتصبحين امرأة!» ، «وهل تدخله إلى داخل زوجتك؟» ، «في الليل فقط» ، «ولم لا تدخله في النهار؟» ، «هي مشغولة والأطفال لا يتركونا!» ، «لم لا تدخله إلى داخلي في النهار ، وفي الليل أدخله إلى داخل زوجتك؟!» ، «لا يجوز أن أدخله إلى داخلك ، هناك مانع ليس من حقي أن أعبره ، أنه ملك صرف لمن سيتزوجك!» ، «ولم يوجد مانع في هذا المكان ، ألم يخرج البول منه؟» ، «يوجد غشاء واجبه سيطرة أخلاقية ، تمنع دخول الثعابين الغريبة إلى الداخل قبل الزواج!» ، «أحب أن أتزوج كي يدخل ثعبانك الكبير إلى داخلي» ، «خولة . . عندما تكبرين وتتزوجين أريد أن أدخله إلى داخلك!» ، «عندما أتزوج سأجعلك تدخل أنت وأجداد أجدادك وكل عشيرتك وأهل الدنيا إلى داخلي!» ، ضحك : «يا خولة . . عندما تكبرين أنا واثق أنكِ ستغيرين أنظمة الحكم في بلدان كثيرة بعهرك اليوتوبي وبداخلك الديموقراطي» ، ذلك الرجل وجدته دائماً يترقبني ، مارس فعلته كثيراً معي ، قبل أن يغادر المنطقة وينتقل إلى خارج البلدة .

صمت .

في مـرحلة النضج ، بعـدمـا كـبـرت ، صـرت في دار المعلمين والمعلمات ، وجدت نفسي في مستنقع آخر ، شباب يطلبونني في خلوة ، كانت أغواري تصرخ ، بينما هم يطلبونني أن أكون واسطة خير لأربط مصائرهم بمصائر زميلات ، بلساني العسلي ، تمكنت من التوفيق بين الأطراف ، ووجدت عزائي عند سائقي المركبات ، كانوا يتابعوننا بمنبهات مركباتهم ، وجدت الشجاعة لأرافقهم في رحلات أنس ومجون ، وفي مرات كثيرة كدت أفقد عذريتي في لحظات ذوبان ، لكن الإرادة كانت تحضر وخلصتني من السقوط الكامل ، شم المدرسون رائحة النضوج المتحرر فيّ ، وجدت النظرات تمطرني ، الشهوات تضج من حولي ، كل أستاذ استدرجني إلى غرفته ومن غير خوف صارحني بالحب ولعبة الزواج ولكن الشهوة تقتل كل الأحلام بعدما تفقد حماستها ، ومضوا عابرين يبكون على أطلال (برمودا) آه يا برمودا ، يا من دمرت البشرية وأخرجت الإنسان والحيوان والطير من ثوب العفّة ، هذه الطماطة ، هذا التكوير الـ صرصاري ، لم صار محط اهتمام وفلك تدوير الحياة ، لم جعل الرؤساء والملوك والأباطرة يركعون أمامه ، يبكون ويتوسلون ويقبلونه بكامل إرادتهم؟

صمت .

أجمل ما كنت أشعر به هو لحظات الربت عليه ، الربت الهادئ ثم تصعيد الربتات قبل أن تأتي صرخة الجوف ويندلق العصير ، آه يا أستاذ ـ قضيب ـ عفوا ـ حبيب ـ لم لا تأتي وتخرج عمودك وتدخله بعنف لتمزقني وأموت بسلام ، هيّا تعال وافعل ما أريده منك أمام الزميلات ، أريد الآن من يشقني وينزف دمي ويحشر عصيره في

جوفي ، وأنتن يا زميلات ارقصن من حولي ولتكن ساعة زفاف وموت ، تلك هي السعادة الخالدة لي ، إنني استدرجتكن وأسقطتكن في مملكة الدموع والشهوة ، صرنا شريكات في الإثم ، ليتهم أرسلوا لنا عشرة أساتذة لتعروننا الآن معاً وكل أستاذ يتشابك مع أستاذة ونعيش ليلة أستاذية ، نرقص ونغني أغنيات الحرمان واللذة ، غناء وبكاء ورقص ومجون في صحة الحرب ووزارة التربية والتعليم المجاني .

صمت .

تلك هي حياتي ، صرت أربط مصائر الناس ، وأنا أسبح في أحضان الغرباء ، ونهضت في الرغبة التي تلبستني ، كل أستاذ كان يرغب في واحدة ، كنت الواسطة ، وجدت الفكرة تنمو ورحت أخطط لأسقط كل أنثى في بركة السرور ، حتى أقمنا ليلة التخرج حفلة كان أحد الأساتذة أقامها على شرفنا المهدور ، استدعاني مع الزميلات إلى منزله ، كان كل شيء مهيأ ، عصائر وكيك وورود وقطع حلوى ، اكتشفت أن المدعوات كلهن كنّ من فرائسي ، كان الأستاذ يتنقل بيننا وكنّا نتودد إليه ونلاطفه ، قبل أن يحرر صوت موسيقى غربية من آلة التسجيل ، بدأت أرقص ورقصت الزميلات ، ونزل بيننا يرقص ، كان يدنو منّا واحدة واحدة ، يضرب بإصبعه على أنوفنا ، رغم أننا نمنا بين أحضانه ، تصاعدت الرغبات ومات الخجل ، ألقى قميصه ، ثم سرواله ، لم أجد واحدة تعترض أو ترتبك ، ألقيت ما علي وتشجعت الزميلات ، وفي ظرف دقائق كنّا عشر زميلات خارج أسمالنا إلاّ السراويل وهو بكامل عريه يتراقص بيننا ، أدنو منه أحاول أن أمسك عموده المتحفز ، كان ينفلت وأطارده ، كانت الزميلات غارقات في الرقص ، والضحك ، صاح : «ليس الآن . . ليس الآن» ، «أرجوك أستاذ

احشره في ثغري الأقصى كي يكون احتفالنا خرائياً؟!» ، «ليس الآن . . ليس الآن» ، «هيّا لم أعد أحتمل جنوني ، لم أعد أحتمل منظره» ، «ليس الآن . . ليس الآن» ، «توقف أرجوك» ، «ليس الآن . . ليس الآن» ، نطارده ، ينفلت كلما أمسكناه وهو يغرد ويعربد«ليس الآن . . ليس الآن» ، أسقطناه مرة لكنه قام وأنسل من بين أيدينا ، تراقص وهو يغرد«ليس الآن . . ليس الآن» ، فقدنا قوانا ، فقدنا زمام السيطرة على مشاعرنا ، رصد فينا الفتور ، توقف وهو يشهره أو يبرزه أمامنا«ليس الآن . . ليس الآن . . أريد منكن أن تخلعن سراويلكن» ، ألقيت بسروالي وتشجعت أخرى ثم أخرى ، قبل أن نهجم على الخجولات ونمزق سراويلهن وسط صيحات ، صرنا عرايا نرقص ، فاقدات الشعور ، صب الأستاذ سائل الجحيم ، الويسكي في أقداح وشربنا شرب السكر ، راح يحتضننا واحدة واحدة ، يضرب بعموده على برموداتنا ، قال : «أرجوكن قفن معاً جنباً إلى جنب» ، وقفنا ، كنّا نتمايل ، نحترق ، قال : «أدرن ظهوركن»أدرنا ، «انحنين» ، انحنينا ، تقدم منّا ، وبدأ يضربه على أدبارنا وبرموداتنا ضربات مجنونة ، قبل أن يدخله إلى داخل زميلة نحيفة راحت تصرخ وتتأوه وهو يلهث ، في تلك اللحظة خمد كل شيء ، وقفنا محترقات ، كل واحدة كانت تتوقع أن العمود الواقف من نصيبها ، سيبكي في دبرها ، لكننا اكتشفنا أن تلك الفائزة من بيننا كانت مفتوحة ، مسلوكة الدهليز ، يعني متزوجة .

صمت .

من يومها قررت أن أقيم هذا الاحتفال ذات ليلة ، ها نحن أفلحنا ، لكن المصيبة حاضرة ، ها إنني بنت ولست امرأة ، يا ترى أين يدخل

عمو ـ قضيب ـ كلنا نمتلك غشاء الخطيئة ، أي ثغر يستقبل دموعك ، واحدة فقط من بيننا ستفوز ، تلك هي المصيبة القاتلة ، أرجو أن أكون أنا يا رفيقات الإثم ، لا تحرموني من هذا في هذه الليلة الأخيرة من حياتنا ، يا زميلات ، امنحنني هذه الفرصة الخالدة ، أريد أن يفعل أمام أنظاركن ، مثلما فعل ذلك الأستاذ أمام أنظاري ، أريد أن يفعل وأموت هنا بينكن ، لم أرغب أن أعيش بعد هذه الليلة ، برموداي يصرخ ، جوفي ينادي ، أكاد أن أموت ، هيّا تعال يا أستاذ ـ حبيب ـ ليتك تجيء من غير تأخير ، تضعه وتوصله إلى قلبي ، إلى فمي ، إلى عشيرتي ، إلى مجلس قيادة . . . .

«خولة . . أبكيتنا» . . (صوت واحدة) .

آه . . أين هو أستاذ ـ حبيب ـ متى نتذوق عموده العذب ، لكم مصصته ولكم دغدغني؟

«خولة . . دعينا نحشر شيئاً فيك لنريحك» . . (صوت واحدة تضحك)

هيّا أدخلوا شيئاً واقتلوني ، أدخلوا العالم كله ، ما لم يدخل ويرقص في الداخل ، ما لم يمزقني ويسكب دموعه في رحمي لن أذوق طعم السرور ما حييت .

«يمكننا أن نفركه لك وتنالين اللذة نفسها» . . (صوت واحدة تضحك)

أنظروا إليه لكم هو مغر وممتع ، أزحت توحشاته ، غابة الحشائش المتشابكة أطحت بها ، هيّا اربتن عليه ، هيّا احشرن أصابعكن فيه .

«لم لا نستدعيه ليخلصنا منها؟!» . . (صوت واحدة)

ليس الآن . . ليس الآن . . دعوني أصل قمة الرغبة ، هذه ليلتي

أرجـوكـن ، روحي تنتـفض ، بدني يرتعش ، قلبي يتـوقف ، آه . . آه . . آه . . لا أحتمل أكثر مما احتملت ، لم يعد لـدي بقايا صبر ، كل شيء مات ، سـدود أخـلاقي انهـارت ، هيّا نادوه ليـدخل ، وليكـن مـا يكـن ، قـبل أن أتعـرى وأهرب نحـو الجبـال ، هناك حـيث الرجـال يبـحثـون عن الحروب الجسدية السريعة ، بعدما سكروا من حروب السياسة والبحث عن أوطان ضائعة في دهاليز الأمم اللا متحدة .

صمت .

ليـته هنا . . لأمرته أن يفعل مـا آمـره به؟ ، لن أؤجل فعل الآن لما بعد ، إنها الحرب ، إنها ثورة الأعماق المزلزلة ،

وأنتن واصلن الربت ، عنيـفـاً اضـربن ، لتـرتفع صـفـقـات أكـفكن عليه ، بعيداً لترتفع إلى الليل ، إلى العالم .

أرجووووووكم . . هذه فرصتي!

صمت .

تحكي حمدية

عرفت اللذة في الثامنة من عمري .

صمت .

يوم أخرجتني أمّي كي أجلب لها النقود ، وقفت بالباب لا أعرف كيف ومن أين أجلب لها النقود ، في البدء ، تصورتها تريد منّي أن أتسول ، فتيات كثيرات كن يجبن الأزقة وداخل السوق ، يتوسلن بشراسة ولجاجة لا تحتمل لكل عابر سبيل .

كلام كثير تناثر حول تلك الصبايا ، كن غريبات ، يأتين برفقة أمهاتهن ، قيل إنهم غجر ، وقيل هم من بلدان الجوار ، يأتون ويرحلون ، دون أن نعرف من هم ومن أين هم ، كلام كثير تناثر بين الناس ، بأن تلك النسوة والفتيات خضعن لرغبات شباب البلدة وأصحاب الدكاكين .

صمت .

ما زلت أتذكر يومي الأوّل ، يوم مشيت من غير وعي ، لا أعرف لم أمشي ، قالت لي أمّي : «اخرجي ودبري لنا معيشتنا؟» ، لا أعرف ماذا كانت تعني بالمعيشة ، تائهة أتعثر ، شعرت أن كل عيون الناس مثل سهام جارحة تمزق جسدي .

صمت .

عدت ودخلت البيت ، مرهقة ، جائعة ، وجدتني واقفة ، لا شيء

في يدي أو في جيبي ، لطمتني بكفها على رأسي . . صاحت : «قريباً سنأكل الخراء!»لم أفهم كلامها ، كنت دائماً أسمع منها ومن بعض نساء الزقاق : «أكلنا الخراء الليلة البارحة» ، كنت أسمعهن وأضحك لكلامهن ، واضعة في بالي أنهم حقاً يتناولونه بعدما يخرجونه من أدبارهم ، أو ربما الآبار الموجودة في منازلنا هي أمكنة أمينة لخزن مؤن الشتاء ، كما يفعل النمل ، براءتي كانت تدير دفة الأسئلة والأجوبة الحياتية الكبيرة في عقلي .

صمت .

ما إن ألقتني بكفها وصرختها ، بكيت ، سحبتني من شعري . . صاحت : «هيّا أخرجي واجلبِ لي فلوساً!» ، بعينين غارقتين في الدموع ، بلسان يابس ، ببطن يقرقر ، خرجت .

صمت .

كانت الظهيرة جحيماً ، الشمس في السمت ، تلفح نيرانها الأرض فتخرج دفقات حرارة مثل السراب ، مشيت تائهة ، أبواب المنازل مقفلة ، لم أجد رجلاً أستجديه ، معظم المحال التجارية كانت مغلقة ، وصلت السوق ، لم ألفت انتباه بعض العابرين ، قبل أن أجد نفسي جالسة في ظل سقيفة دكان مغلق ، كانت الدموع في عيني واقفة ، لساني على ما أتذكر بدأ يتشقق من شدة العطش ، لمحت شاباً يخرج من زقاق ، وقف ينظر إليّ ، تقدم منيّ . . قال : «ماذا تعملين هنا؟» ، بكيت ، لم أجد كلاماً يصالح لساني ، برك أمامي ، وجدته وسيماً ، غرز عينيه في عيني . . قال : «لم تبكين؟» ، «أمّي طردتني!» ، «سأرجعكِ إلى البيت!» ، (لا . . إنها تضربني!) ، «لن أسمح لها بضربك!) ، (أخرجتني لأجلب لها فلوس!) ، مسكني من يدي

وسحبني إلى الزقاق الذي خرج منه ، وجدت محلاً كبيراً ، أدخلني وأجلسني ، بدأ يلاطفني ، ويمرر يديه على شعري ووجنتي ، أشربني قدح عصير ، وناولني حفنة ـ جكليت ـ قلت : «تعطيني فلوس؟» ، أخرج من درج طاولة خشبية كمية نقود سال لها لعابي وتراخت أغواري . . قال : «لندخل إلى المخزن!»تبعته وهناك فوق الأرضية الإسمنتية نام فوقي ، أخرج خيارته ، أحمر اللون ، لا تشبع الواحدة من مصها ، وراح يدغدغ به طماطتي ، ثم قلبني على بطني ، وراح يفركه على عجيزتي ، حاول أن يحشره في ، كنت أتأوه وأصرخ ، قبل أن يتراخى وهو يئن ويلهث ، وجدت عصيره يمشي على ساقي ، أعطاني النقود وطلب منّي أن أزوره كل يوم .

صمت .

فرحت أمّي بالنقود ، راحت تودني وتهتم بي دون أن تفكر بكيفية حصولي على تلك الدراهم الملوثة بشرفها وشرفي وشرف مستقبلي .

صمت .

يوم خرجت من برمودا أمّي ووعيت الأمور ، قيل إن أبي ترك أمّي ، لا أعرف السبب ، وظل مجهولاً ليومنا هذا ، وجدت أن ليس من الأخلاق الحميدة ولا الصفات المحمودة أن أنكأ جرحاً مندملة ، مع الأيام وجدت أن تلك القضية العائلية ، قضية انفصال أبي عن أمّي شيء بات من الماضي ، مرت أيامي وسنواتي وأنا أترعرع وأنضج بين أفخاذ الشباب في المحال وداخل البيوت التعيسة .

صمت .

ذات يوم حدث التغير الاستراتيجي في مسيرة حياتي ، فتحت

الحكومة (محو الأميّة) وجدتها فرصة لتكملة دراستي بعدما تركتها بضغطٍ من أمّي ، وجعلتني متسولة بين الأزقة والسوق ، تفوقت وأكملت المرحلة التكميلية ووجدت نفسي في معهد للمعلمات ، شهوة الطفولة نامت ولم تمت ، كانت الدراسة تستعمر كل كياني ، قبل أن يفاجئني رجل وقور يلبس الزيتوني ، فاتحني أن أكون (حزبية) ووعدني بمستقبل مرموق ومكانة اجتماعية مثالية ، اندفعت بحماسة مناضلة متميزة ، حتى جاءني ذات يوم في مركبته ، كنّا في الدرس ، أخرجني وبادلني بعض الكلام . . قال : «اخترتك لتمثيل فرقتنا الحزبية في مؤتمر شبابي في العاصمة» ، تملكني الفرح ، وفي اليوم التالي كنت برفقته نحو العاصمة ـ بغداد ـ وجدت نفسي وسط جموع من الشباب والشابات ، وعند المساء اصطحبني إلى دار السينما ، جلسنا في مقصورة عائلية ، ولحظة حل الظلام ، شعرت بيده تمسك يدي ، للحقيقة لم أجد رعشة تسري فيّ ، خيالي تحرك سريعاً ، خلته الرجل المناسب للزوجة المناسبة ، تركته يفرك ويدنو شيئاً فشيئاً منّي ، راح يقبلني ، أخرجه ، بدا كثعبان الكوبرا في لحظة الدفاع عن نفسه أمام خطر جسيم ، سحب رأسي وأسقط فمي عليه ، قبل انتهاء الفلم تدفق عصيره في فمي ، بعدما خرجنا . . قال : (رفيقة حمدية ، هذه أوّل مرة أكون فيها سعيداً!) ، «وأنا أيضاً سعيدة معك رفيقي» ، وصلنا الفندق ، كانت غرف الرفيقات في الطابق الثاني والرفاق في الطابق الثالث ، كانت الصالة تجمعنا معاً ، في حضرة الحزب لا توجد خصوصيات أو أخلاقيات ، كل الأشياء يجب أن تذل أو تموت أو تخرس من أجل إعلاء بنيان الحزب ، الحزب هو الوجود للناس ، كلام ظلّ يسكبه كالعصير في أغوارنا المعتوهة .

صمت .

تعشينا وتحاورنا . . قال : «أنتظركِ في الليل!» ، حان الوقت ومضيت إليه ، استقبلني بذراعيه وأسقطني على الفراش ، وسهرنا معاً بعدما تحررنا من أسمالنا ، وتركنا ثرثرات الثورة وأحلامها الصفراء .

صمت .

ما زلت أتذكر كيف كان يلحس برمودتي وكيف كنت أمصمص خيارته ، حاول أن يدخله ، امتنعت ، كان يقول : «لا تخشي أعرف ممرضة تخيطها لك!»

صمت .

مضت أيّامي على تلك الوتيرة حتى يوم تخرجي ووجدت نفسي في قرية بعيدة ، أنهضت الغربة والوحدة نيران عواطفي ، كنت في الليل أحتضن الوسادة ، أمارس معها ، لكن الجسد يتعب ولم أشعر بتلك الدغدغات الأثيرة لعروقي ، قبل أن أجد ذات يوم صبياً في ظل جدار ، جالساً يداعب ثعبانه ، وجدته كعمود شامخ ، الصبي يلهث كي يبكيه ، لم أحتمل المشهد ، أغواري تأججت ودفعتني لأباغته ، بهت وكادت تشهق روحه ، جلست لصقه . . «ماذا تعمل» لم يتكلم ، مددت يدي ومسكت ثعبانه ، ظلّ خائفاً يفترسني ، قلت له : «لم تفركه؟» تلعثم : «أريد أن أبول!» ، «هل تسمح لي أن أخرج بولك؟!» لم يتكلم ، «سأنام ونم فوقي كي يخرج بولك!» ، في البدء خاف ، دفعته وأسقطته على ظهره ، بدأت أفرك ثعبانه ، تارة أمصمصه ، يا لدفئه ، يا لقوته ، لم أحتمل صرخات صرصاري ، نزعت سروالي وقلبته فوقي ، بدأ يستجيب لرغبتي ، لهث كثيراً ، أخيراً تكلم ، «نامي على بطنكِ» ، آه يبدو أنه ولد يجيد لعبة الحياة ، طاوعته واستجبت لرغبته ، ست

الستات كما ناداني الرفيق ، تستجيب لصبي غر ، سرعان ما انزلق ثعبانه بين ساقي ، قلت : «بلله!»بصق ومرغه ببصاقه وأزلقه من جديد ، بدا طرياً ، طال لهاثه ، وكنت أشعر بسعادة كونية من تحته ، همست«أدخله؟» ، تعذر عليه ذلك ، مهدت له السبيل وشعرت به يدخل ويرفعني إلى قمة السعادة ، قبل أن يسكب بضع قطرات ، سرت داخلي ، لا أعرف هل هو السائل المرجو أم كان بولاً عابراً هبط كونه لم يبلغ سنّه ، نهض وهو فاتح عينيه ، فاتح فمه ، أصفر السحنة ، جاف اللسان . . قلت : «لا تحكِ لأحد؟» ، «سوف أكون هنا كل ظهيرة؟» ، «وأنا أنتظرك!» ، «لماذا لم تدخليه في . . . . . .» سكت ، «أنا غير متزوجة!» ، «متى تتزوجين؟» ، «عندما أتزوج لا أحتاجك!» .

صمت .

عشت معه ظهيرات جميلة رغم أنها لم تشبع أغواري ، قبل أن أتفاجأ بكتاب نقلي ، حاولت أن أعرف السبب ، لم أهتدِ إليه ، وجدت نفسي هنا بين زميلاتي ، قبل أن يطل علينا أستاذ (حبيب) ليوقف صحراء شيخوختنا ويعطينا عسل عواطفه ، مما أنسانا أهالينا وحياة بلداتنا الغارقة بالفوضى .

صمت .

آه . . ليتنا نبقى هنا ، ليت العمر يتحجر ونكون هنا تماثيل حجرية ، ما قيمة حياة أنثى من غير تشابك ليلي وصرخات أغوار وعسل مراق يتحرك داخل هذا الـ دهليز المجنون .

صمت .

أحقاً حياتنا الجميلة ولياليـنا الملحمية ستنتهي بعد ساعات؟ ، لم وقعت الحرب؟لم طالتنا بعدما كانت بعيدة عنّا ، ما زلنا ننتظر صحوة

الشبّان كي يتحركوا نحونا ، لكن هذه الحرب اللعينة ، ستأخذهم بعيداً ، ستقتل فيهم الشهوات ، ونبقى ننتظر ونجف ونموت من غير سعادات ، مثل الصحاري الأزلية التي لا تشبعها الأمطار .

صمت .

آه . . ليتنا نتحرر قليلاً ونمتلك حرياتنا مثل فتيات الغرب ، عندها نمارس رغبتنا من غير خوف .

ليت هذا الليل يطول ، وليت العالم كله ينعزل عنّا ونعيش بقية أعمارنا في هذه المنفى ، يمكننا أن نؤسس جمهوريتنا ، جمهورية الرغبة ، يكفينا رئيس واحد ، هل توافقن على فكرتي يا رفيقات؟

صمت .

آه . . ليتني أمتلك شجاعة (خولة) .

صمت .

لو كنت أمتلك شجاعتها ، لتعريت ورقصت رقصتها ، لهربت إلى الليل ، إلى العالم ، كي يشهدوا على رقصي ، عسى أن تكون هذه ليلتي يا أخوات الفساد .

صمت .

آه . . ليتني كنت من بلدة (جلبلاء) ، لربما فزت بالرفيق ـ قضيب ـ كما تسمونه يا ـ قضيبات ـ

صمت .

عفواً . . ماذا قلت . . لا تؤاخذنني يا رفيقات ، لساني سفير قلبي ، لساني الناطق الحقيقي لمواجيدي ، لساني حصاني ، لساني أوان الرغبة يتحرك بقاموس كلمات جهنمية ، أرجو المعذرة يا رفيقات .

صمت .

أرجو أن تكون هذه الحرب أكذوبة ، خداعاً مؤقتاً ، نباح كلاب كاذبة ما بين الطرفين .

صمت .

هل حقاً سنغادر هذه الحديقة المزهرة بعد ساعات؟ ، قلن شيئاً قبل أن أتعرى وأهرب إلى الظلام ، إن كان حقاً كما سمعت ، أرجو أن تكون ليلتي الأخيرة وليأتِ الموت في ما بعد .

صمت .

ليلتي أنا أرجوكن ، خذوا حياتي ودعوا أستاذ ـ قضيب ـ يمزقني شلواً ويلقيني في مزبلة الحياة .

صمت .

ليلتي . . أنا يا رفيقات ، أم أرتكب حماقة وأحرق نفسي كي تمنحنني الرقصة الأخيرة قبل وصول نار الحرب .

صمت .

تحكي سميرة

تسموني : «المفلفلة» .

صمت .

كلنا حقول فلافل .

صمت .

كل أنثى تخزن في غورها حقل بهارات .

صمت .

ما قيمة الجسد من غير توابل حارّة تمنح حرائق الرغبة أوان العناق .

صمت .

أنتن خضتن معترك الإثم في طفولتكن ، لا يا رفيقات الدرس والشهوة ، في ربيعي الثالث عشر شب حريق في جسدي ، لأكن صريحة أكثر ، لم يعد الخجل بضاعة نافعة بيننا ، الحريق شب في أسفل بطني .

صمت .

كنت غارقة في بلادتي ، لا شيء يهمني سوى دراستي ، قبل أن يحط في الزقاق شاب أسمر غريب الهيئة ، قيل إنه مدرس (مصري) ، بعد أيّام من سكنه عرفت أنه يعطي الدروس الخصوصية ، ذهب أبي إليه وفاتحه ، تقبل الدعوة ، تعشى معنا ، وبدأ يدرسني الرياضيات

والفيزياء ، يأتي إلينا عصر كل يوم ، في غرفة الاستقبال نجلس ، هو متحمس في دراسته وأنا بدأت أسكر من لهجته ونبرة صوته ، هو يشرح وأنا أتخيله (محمود ياسين وحسين فهمي ومحمود عبد العزيز) وهو يشرح ، وأنا أتخيل نفسي (نجلاء فتحي وسميرة أحمد وشويكار) ، أموت وأستفيق ، حتى أفقت على يد فوق جبيني ، كنت غافية وأنهضني ، قال : «أنت ـ عيّانة ـ يا ست ـ سميرة» ، «كلا . . أنا حاضرة» ، «إن كنت تعبانة ولا أي حاجة سنؤجل الدرس» ، «كلا أستاذ أنا واعية» ، من لحظتها تغيرت نظراته ، راح يثبت عينيه أكثر في عيني ، بدأ يبتسم بوجهي ، كنت أفرح وأتنفس بقوّة ، مضت الدروس بوتيرة متصاعدة ، كلما وجدت الفرصة أغط في غيبوبة مسكرة ، ينهضني ويستمر درس الذوبان .

صمت .

قال لي ذات يوم : «سميرة بالك مش معاي» حلوة الكلمة ، ضحكت «أمال مع مين أنا» ضحك : «إنت بتتكلمي مصري» ، «أحب مصر والأفلام المصرية» ، «بس كلها وحشة» ، «أحب الوحشة أستاز» ، وجدت نفسي متحررة ، بدأت أضرب على كتفه بكفي ، بدأت أدفعه ، في البدء كان يتعرق ، يشعر بضيق وارتباك ، لكنه انسجم مع نغمات مشاعري ، وبدأ يمازحني ويبادلني الربتة بالربتة والدفعة بالدفعة ، حتى أتت الفرصة وأسقطت نفسي عندما دفعني ، دنا وصار وجهه قرب وجهي ، في عينيه لمحت العالم ، تشجع حين ابتسمت ، سقط فمه على فمي وبدأ يسحب أغواري وأنا أموت من تحته .

صمت .

مضت دروسنا تتشابك قوانين الرياضيات بقوانين الأخلاقيات ،

نظرية فيثاغورس بنظرية نيكاغورس ، نظرية الأواني المستطرقة بنظرية الأجواف المحترقة ، لكم كان يمتلك سحراً في إنهاض الشهوة ، حرارة جسده ما تزال ترعش جوفي ، عامان ونحن نعيش السعادة الجسدية قبل أن يغادر البلدة والبلاد .

صمت .

بقيت صامدة في انتظار عودته ، وعدني أن يتزوجني ويأخذني إلى (مصر) لكن الوعود رمال ألسنة العشّاق ، كل عاشق وعاشقة تجمعهما الأكاذيب ، نسيته وبدأت أبحث عن ملاذ عاطفي تلبية لـ حاجة جسدي .

صمت .

مررت بتجارب حب عابرة .

صمت .

ضابط وسيم أغواني .

صمت .

كان يمتلك مركبة ، وجدته يتبعني وأنا عائدة من مدرستي ، بعد يومين دنت منّي طالبة ، قالت : «أيمكننا أن نتحاور قليلاً!» ، أراد القدر أن أطيعها ، قالت : «أرسلني الضابط كي أفاتحك برغبته في الزواج منك!» فرحت ، وعرفت أنه هو صاحب المركبة ، بعد يومين وجدته يقف بدربي ، تبادلنا السلام وعدت سعيدة ، أرسل لي رسالة وأرسلت له رسالتي وتطور الحدث ، وذات يوم كنّا في سفرة مدرسية ، في العاصمة ـ بغداد ـ وجدته داخل حديقة ـ الزوراء ـ اختلينا ولا أعرف كيف تجرأت وتابعته وأركبني المركبة وأخذني بعيداً ، هناك في ـ جزيرة بغداد السياحية ـ ركبنا ـ البلم ـ وجلسنا بين الأحراش وراح يقبلني

قبل أن أفقد نفسي كما كنت أفقد مع الأستاذ (المصري) ، وحين وعيت ، شعرت أنه مارس معي وكان عسله يرطب ردفي ، لم أمتلك وازعاً كي أسترد كياني ، طالما فاتحني برغبته في الزواج مني ، وطالما البنت مشروع للجنس ، وجدت العملية طبيعية ، على أقل تقدير أنني اكتشفت أن من يريدني شريكة حياة يمتلك رجولته ويتمتع بكامل الفحولة ، خشية أن أصطدم بزوج باهت لا يشبع ، كما حصل لجارتنا ، حين تزوجت حبيبها وليلة تثقيبها اكتشفت أنه فاقد الحياة ، لم تدم معه ، ومضت إلى أهلها قبل أن تفسخ الخطوبة وتجد من يركبها كل ليلة بلا ملل أو كلل .

صمت .

لكن الضابط غاب كما غاب (المصري) ، ويوم سألت تلك الطالبة ، عرفت منها أنه تزوج وغادر البلدة .

لم أشعر بإحباط ، لم أخسر شيئاً ، فالجسد نار تحتاج للحطب ، كلما وجدت من يمتلك الوسامة والجرأة أحرر نفسي إليه ، نعيش أياماً أو أشهراً أو سنوات ، لكن الحب في بلدتنا سراب زائل ، الحب قضية عابرة ، متعة زائلة ، الحب يا أخوات الرغبة أكذوبة نحاول من خلاله أن نميت ثوراتنا العاطفية ، نخمد التحررية لشهواتنا ، الحب في بلادنا مثل السياسة ، تهيمن للحظة وتموت .

صمت .

ها نحن نعيش في هذا القفر ، ليس بيننا سوى عمود واحد يكاد يستجيب لمطالبنا ، ها نحن تسع برمودات و ـ حبيب ـ واحد ـ عفوا ـ قضيب واحد ، يمكننا أن نقيم دولة خالية من خبث السياسة ونتانة الوزارات وأكاذيب المسؤولين ، يمكننا أن نعيش هنا ، هذه الغرفة تكفينا ،

لنتخذها قصرنا الجمهوري .

صمت .

ليتني أتعرى وأرقص كما رقصت (خولة) ليتني أمتلك شجاعتها ، لتعريت وخرجت إلى الجبال بحثاً عن الرجال أصحاب الشهوات الأزلية ، الذين بدلوا شهواتهم بالحروب .

صمت .

هم يفعلون وأنا أصرخ من الفرح .

صمت .

كل العلاقات مهما كانت ، جسدية أو مجرد حوارات ، وتبادل رسائل لم تشكل هاجساً أمام الساعات التي قضيتها بين أحضان أستاذ ـ قضيب ـ وحده من فاقت حرارته على حرارة الأستاذ (المصري) و(الضابط) .

صمت .

حياتي متشعبة ، لكن هذا الخراب القادم ، هذه الحرب القذرة قفلت عليّ كل شيء ، لم أعد أتذكر أكثر مما حكيت .

صمت .

عشت سهرات مع شبّان وضبّاط ومدرسين ، ربما في يوم ما أكتب مذكراتي ، ويا لها من مذكرات .

صمت .

لو حصل هذا ، سأكتبها بكل وقاحة .

صمت .

تلك هي رغبتي الأخيرة ، ولكن قبلها هناك رغبة أهم ، إنها رغبة الجسد ، متى يدخل هذا المارد طماطتي المفلفلة؟

صمت .

هذا ما أرجوه الليلة .

صمت .

أرجو أن تكون ليلتي أنا يا رفيقات .

صمت .

سأدفع لكن كامل راتبي ، لو أعطيتموني رغبتكن .

صمت .

ماذا قلتن؟ ، لم صمتكن يدثرني بعباءة الهمود؟ ، سأقاتل من أجل سعادتي ، لا قوة ترهبني هذه الليلة ، لا جيش يوقف معركتي من أجل احتلال الشهوة الأخيرة المتدفقة في غور الأستاذ عمود .

صمت .

لا تنظرن إلي بعيون تضمر الشرر؟ ، لن أسمح لكن أن تنازعنني عليه ، هو ملكي أنا في هذه الليلة العصيبة ، لم أنهضتن أغواركن لتزاحم أغواري في حرب الحياة الجميلة؟

صمت .

أكاد أن أجن ، أن أحترق ، أن أصرخ وألم الدنيا على رؤوسكن لو فقط زاحمتن رغبتي الأخيرة .

صمت .

خذن مجوهراتي ، خذن أسمالي واتركوني عارية فقط أعيش معه هذه الليلة .

صمت .

ربما نعم . . هذا ما يحضرني ، هذا ما عزمت عليه .

صمت .

نعم . . قررت ولن أتردد من سحب قراري .

صمت .

سأفعلها . . ليكن ما يكن .

صمت .

سأحرق نفسي .

صمت .

سأنتحر لو لم أكن أنا صاحبة الرقصة الأخيرة في هذه الليلة .

صمت .

تحكي أميرة

القبلة الأولى مفتاح الجسد .

صمت .

الجسد حين يتحرر من مفاتيح الرقابة الأخلاقية يغدو سفينة بلا ربان في محيط هائج .

صمت .

ما زلت أتذكر القبلة الأولى ، المفتاح الذي فتح مملكتي على عالم المسرات الوهمية .

صمت .

قبل تلك اللحظة لم أكن أمتلك الجرأة ، رغم دغدغات القلب وحرارة العواطف ، كانت الرغبة خجولة ، ربما كانت خاضعة لـ فلسفة النضج .

صمت .

كانت الفرص العاطفية متاحة ، لكن الخوف ظلّ حارساً يلغي أو يؤجل هذا العذاب الجميل .

صمت .

حصل ذلك يوم رافقت ابن الجيران إلى ـ بغداد ـ عندما أعلنوا أن دائرة القبول المركزي أعلنت عن أسماء خريجي وخريجات الإعداديات المركزية .

صمت .

كان يخطو أمامي ببطء ، كان أكثر خجلاً مني ، لم يتكلم ، كنت أحترق لكلامه ، لكن خجلي كان بحجم خجله .

صمت .

داخل المركبة كنت بلصقه ، الرغبة تشجعني أن أعمل أي شيء ، أن أحسسه بأنوثتي ، كان تائهاً ينحت عينيه في الأشياء المارقة ، لا أعرف هل كان يحدث نفسه ويفكر بمثل ما أفكر؟

صمت .

كنت كلما نظرت إليه وينتبه هو لنظراتي أحرر آهة ـ تشلع ـ صيحات غوري وتلقيه بوجهه ، لكنه كان بريئاً لا يحس بما أحس .

صمت .

قرأنا أسماءنا .

صمت .

ومضينا إلى شارع ـ السعدون ـ دخلنا المكتبات ، كان متحمساً يقلِّب ويقتني الكتب ، وكنت أسترق النظر إليه ، سحرني وسكن كياني ، خرجنا ودخلنا مطعم ـ نجمة السعدون ـ هناك في الطابق الفوقي كان يتناول بخجل وأنا أحاول أن أتناول بشكلٍ طبيعي ، أنهينا الغداء ، قمت وتوجهت نحو المغسلة ، لا أعرف كيف نهض وكيف وصل ليقف ورائي ، وضع يده على كتفي ، وحين التفت ، كانت الصرخة في عينيه ، قال : «أميرة أنا . . أأ . . أنا أحبكِ!» .

صمت .

لم أفه بشيء .

صمت .

دنا مني وأسقط فمه على فمي ، كدت أذوب وأتراخى إلى الأرض ، لكنه تركني وتوجه نحو الطاولة ، تقدمت غارقة في فرحة كبيرة وتعرق مفاجئ ، جلست ، وجدته مرتبكاً ، يحاول أن يقدم اعتذاره على ما بدر منه ، كان ينظر إليّ ويبتسم ، وكنت سعيدة كونه اقتحم مملكة خجلي ، وأزاح كابوس الخوف من هذا العالم الغامض المدمر العذب الذي يشبهني إلاّ بـ شيء لا يشبه شيئي ولا شيئي يشبه شيئه .

صمت .

ليس كل حب يدوم .

صمت .

لا أعرف السبب ، ربما الحب وليد الخوف والخجل ولا يمكنه الصمود ، قد أكون على خطأ ، هذا ما نتج من حبّي الأوّل ، ابن الجيران أرسل لي رسالة يعلن فيه عن تفاهته لحظة دنس قدسيتي في لحظة تعاسة أو غباء ، ووصف نفسه بكثير من النعوت النكرة ، بكيت وأنا أقرأ رسالته ، لم أمتلك دافعاً أو جرأة أن أجري وراء السبب ، ظلّ يمر من أمامي أيّام وجوده ، كونه أصبح طالباً في كليّة الإدارة والاقتصاد ، وأنا قبلت في معهد الفاشلين والفاشلات ـ عفواً ـ المعلمين والمعلمات .

صمت .

جاءت المصيبة يوم ذهب إلى عرس أحد أقربائه وعاد ميتاً بحادث اصطدام سيارة .

صمت .

بطبيعة الحال بكيته .

صمت .

أنا وحيدة أمّي ، ورثت من موت أبي محال تجارية كثيرة ، لم تنجب أمّي سواي ، بعدما مات لها أطفال جرّاء إسقاطات متكررة ، لم تنفعها تمائم السادة ولا عقاقير الأطباء ، بقينا معاً نعيش في بحبوحة ، كثيرون أرسلوا نساء لإسقاط أمّي في أحضانهن ، لكنها بقيت بكامل وفائها لأبي ولي ، قالت لي مرة : «تعاهدنا أنا وأبوك على أن نبقى أرامل لو سبق أحدنا الآخر في الموت!» ، أبي مات بداء خبيث طرحه في الفراش لسنتين قبل أن يرحل عن دنيانا ، وأمّي حافظت على العهد المبرم بينهما .

صمت .

في المعهد مررت بعلاقات عابرة ، وجدت تلك العلاقات هي السعادة الكاملة ، فمن يطرح بضاعة لسانه وخفقان قلبه لابد أنه كاذب ، محتال يروم الصيد في مياه عكرة ، كلما دنا مني شاب لا أردعه ولا أمنحه الأمل بحب فارغ وزواج مزعوم ، كنت أرافق الجميع قبل أن يستدعيني ذات يوم مدير المعهد ، أجلسني في غرفته ، تحدث عن فلتان حريتي ، قلت له : «أنا طبيعية أستاذ!» ، «كثر الحديث عنكِ ، أنت بصدد التخرج وتمارسين مهنة مقدسة!» ، لم أجد كلاماً أقنعه ، ظلّ ينظر إليّ ، قبل أن يتكلم : «أميرة . . هل يمكننا أن نقوم بجولة!» ، «هذا يسعدني أستاذ!» ، أخذني إلى ـ بحيرة الحبانية ـ وهناك وجدته ذئباً مفترساً ، سمحت له أن يعمل ما يشاء ، طرح عليّ فكرة أن يزوجني من سائقه ، كان رجلاً بائساً ، متواضع الشخصية ، تأملته مدهوشة ، قبل أن يتكلم : «من أجلي أميرة وافقي على الزواج منه!» ، «لا أفهم كلامك أستاذ!» ، «تزوجيه وأكون معك دائماً!» ، «هذا شيء

مناف للأخلاق أستاذ!» ، «لو لم تكوني بعمر بنتي لتزوجتك» ، «إذا كنت تريدني سأوافق!» ، «أنت تزوجي سائقي وسوف تجدينني زوجك الثاني!» ، ظل يطرح بضاعته الكاسدة ، يتوسل ويتنازل ، راح يقبِّل يدي وكاد أن يسقط ليقبِّل قدمي ، وجدته إنساناً تعيساً رغم مكانته الاجتماعية ودرجته الحزبية وشكله المحترم ، بقينا في سفرتنا نهاراً كاملاً قبل أن نعود ، وجد فكرته الـ سافلة تصطدم بـ صخرة شرفي ، كان يريدني محظية على حساب رجل مسكين يسوق مركبته الحكومية .

صمت .

ليس بوسعي أن أشرح كل التفاصيل ، سنوات عمري حفلت بالكثير من العلاقات المهشمة ، كلها حفلت بالقبلات والعناق والنوم عرايا من غير تجاوزات .

صمت .

ها إنني هنا ، من ـ البربوكة ـ (خولة) تعلمنا الـ سحاق ، وتعلمنا كيف ننتشي من غير بغل ـ عفوا ـ فحل يركبنا .

صمت .

مجيء أستاذ ـ قضيب ـ عفوا ـ حبيب ـ أوقف موت عواطفي ، بعدما دب اليأس وماتت الحياة وجف نهر الأمل .

صمت .

منحني ساعات المتعة ، أشبعني ، لبى لي ما كنت أحتاجه من سعادة جسد .

صمت .

ليت الحرب أكذوبة ، ليت العمر يتوقف في هذا المكان ، ليتنا

ننقطع عن العالم إلى الأبد ، يمكننا أن نؤسس دنيانا ، وفق شهواتنا الثورية .

صمت .

بوسعنا أن نعيش ، أن نقيم مملكتنا وفق ظرفنا ، هو يكفينا ، ما زال شاباً ، طاقته حمارية كاملة ، رغم أنه وفر لنا ما كنا فاقدينه ، بوسعه أن يستمر قبل أن تجف أغوارنا ونفقد مشاعرنا ونغدو قرب مهملة جوفاء .

صمت .

هل حقاً ستتعطل آليات أجسادنا ، نعود للضياع بعدما تبتلع الحرب فحولنا ، أحقاً سينفرط شملنا؟ونغدو أصناماً أو عبيداً أو قرابين بعد أيّام؟

صمت .

ليتني هذه الليلة أتنفس هواء الحرية ، وأغطس في وحل السعادة وأموت .

صمت .

آه أستاذ ـ قضيب ـ ست برمودا تناديك لحرب غير خاسرة ، تعال وخضها وأضمن لك النصر المؤزر .

صمت .

آه لو جرّب هذا معي ، سأسمي كل أملاكي باسمه شرط أن يكون لي أبدياً .

صمت .

موافقة أنا لو أعلن الآن خطوبته عليّ ، ونتزوج هنا بينكن من غير حياء .

صمت .

سأحرق كل أحلامي ، سأذرو كل آمالي مع رياح هذه الرغبة العاتية ، فقط رغبة واحدة هي كامل حياتي ، إنها تدفعني وتشجعني بقوة أن أتحرر وأخوض حربي .

صمت .

إنها تصرخ! ألا تسمعن بركان رغبتي؟

صمت .

هذه ليلتي!تلك هي رغبتي الأخيرة في الحياة .

صمت .

ماذا قلتن ، لم لا ترحمن صديقتكن ولو لمرة واحدة؟

صمت .

أم ألقي ثوبي العفيف البريء وأخرج بكامل زئيري ووحشيتي لأهدد وأتوعد بما لا يحتمل من مكاره .

صمت .

نعم ذلك الخيار مطروح ، أن أهددكن بارتكاب مصيبة لو منعتنّي من ليلتي هذه .

صمت .

تحكي كريمة

بداية السباحة في بركة اللذة غالباً ما تكون هي مفتتح الحياة اللاحقة ، كون البداية شرارة لا يمكن إخماد لسعتها مهما طال الزمن وبعدت الحادثة .

صمت .

عسر حال بيتنا ، حرك مخ أمّي ، وبمشاطرة أبي ، فحاكا تفاصيل حياة مذلّة لي ، رغم كوني كنت بنتاً غضوبة ، أتدخل في ما لا يعنيني ، طبيعة ولدت معي ، كنت أمقت الأشياء المنافية ، مهما كان فاعلها أو فاعلتها ، لكن تلك الدفاعات الذاتية وجدتها رمالاً ذرتها لحظة خجل أو خوف .

صمت .

ذات يوم عدت من مدرستي ، استقبلتني أمّي بترحاب مختلف عمّا كانت تبتدره لحظات عودتي من المدرسة ، كنت وما زلت أتذكر في الرابع ابتدائي ، في العاشرة من عمري ، لم أشعر بهذا التبدل ، كنت موهومة بشيء في ما بعد عرفت أن الناس يسمونه كبرياء ، بطبيعة الحال أنا اليوم في وضع مختلف ، للظروف أحكام ، والعقل كلما نما ويضج ، يخرج من معترك الحياة ، يكتسب خبرة ، العاقل منّا من يوظفها لحياته اللاحقة ، كانت تحدّق فيّ ، لم تثرني نظراتها ، أو لم أمتلك الفضول الكامل كي أبحث عن جوابٍ لنظراتها .

صمت .

بعد العشاء طرق الباب ودخل علينا رجل وقور وشاب مترف العافية ، جريء النظر ، يرسل شعره بطريقة ساحرة إلى خلف رأسه ، شربا الشاي وتحاوروا حول كل شيء ، عرفت أن الرجل الوقور كان معلماً والشاب شقيقه طالب في السادس العلمي ، لم تكن أختي (حليمة) قد بلغت النضج كي يأتوا لخطبتها ، وبعد ساعات عرفت أن الزائرين ماتت أمهما ، وجاءا يبحثان عن خادمة ترعاهما مقابل مرتب شهري يؤرق كل أم .

صمت .

لا أعرف لم الرجل الوقور لم يفكر بالزواج كي يجد من تداريه وتشاركه حياته ، بعدما غادرا . . قالت أمّي : «كريمة هذان من أقارب أبيك ، تذهبين كل صباح لترتيب بيتهم!» .

صمت .

لم أكن أمتلك وسيلة دفاع سوى التعذر بمدرستي ، لكنهما أقنعاني أن واجبي ينحصر فقط في تنظيف الغرف والحوش وأواني الطعام .

صمت .

في اليوم الأوّل رافقتني أمّي ، تعلمت منها ما هو مطلوب منّي ، نسيت عنفي الطفولي ، وهبط عمود كبريائي الرملي ، وجدت نفسي سعيدة وأنا أذهب كل صباح حاملة مفتاح البيت ، أدخل لأقوم بعملي بعدما عرفت أن القريبين وعدا أمّي براتب شهري يعادل ربع مرتب أي عامل يعمل في الحكومة ، ووعدتني هي أن أمتلك حرية التصرف بجزءٍ من الراتب ، وسمحا لي من غير تدخل في أي شيء أرغبه أن أشتريه .

صمت .

مرّت أشهر ، لم أصطدم بأحدهما ، كانا يخرجان باكراً ، الرجل إلى مدرسته والشاب إلى دراسته ، قبل أن أباغت ذات صباح بوجود الشاب في فراشه ، وقفت أتأمله ، توقف عقلي عن إيجاد المخرج ، وجدت قيامي بعملي أقرب الحلول ، بدأت بتنظيف الحوش على أمل أن ينهض من نومه ، فكرت إن كان قد سلبه النوم من دوامه ، لكنني تراجعت حين وجدت فراش الرجل الوقور خالياً ، اقتنعت أن الشاب ربما تغير دوامه ، أو به مرض .

صمت .

داخل المطبخ ، بينما كنت أزيح دهن الصحون ، وقف في الباب . . ابتدرني«صباح الخير ـ كريمة ـ » ، أجبته بثقة نفس ، لم يتحرك ، ظلّ واقفاً يرمقني ، كان يبتسم وكنت أبادله الابتسام . . قال«هل أساعدك؟» ، امتنعت ، أنهيت عملي . . قال : «سأقوم بترتيب المنام بدلاً منك!» ، قلت : «لا يصح ذلك أمّي ستحاسبني!» ، ترك لي الباب ، دخلت غرفة النوم ، تقدم منّي ومسكني من يدي ، وجدت الدم يتدفق في وجهه ، وفمه انفتح ، وبدأ يسحب الشهيق بعسرٍ ويزفر زفيره الدافئ بصوت متحشرج ، كانت حرارة أنفاسه تصطدم بوجهي ، طفولتي ظلّت تحسب الأمر من البديهيات ، لم أكن أعلم أن التقاء القطبين الأنثى بالذكر ، التقاء الشرق بالغرب ، الشمس بالظل ، الليل بالنهار ، الماء بالنار ، التقاء المفترس بالفريسة ، نتاج جاذبية غاصبة . . قلت : «هل أنت مريض اليوم؟» ، لم يتمكن من الكلام ، سحبني إلى الفراش ، أجلسني وراح يكتسحني بنظرات لم أفهمها في تلك الخلوة .

صمت .

أخيراً تحرر لسانه . . «كريمة إذا طلبت منك شيئاً هل تبوحين لأمّك؟» ، «ماذا تريد ، أمّي تريد مني أن أحكي لها كل شيء يحصل لي!» ، «لا . . لا تقولي لأمك؟» ، «أخاف أن الله يعاقبني إذا كذبت على أمّي!» ، «كلا . . لا تكذبي عليها ، ولا تقولي لها شيئاً» ، «ماذا تريد مني أن أجلب لك؟» ، «كريمة أنا . . أنا . . »توقف لسانه مرة أخرى ، كان يتنفس بقوّة واحمرت كرتا عينيه ، فجأة مد ذراعيه وعانقني وراح يقبلني ، لم أجد عيباً في ذلك ، ألم يقل لي أبي إنهما من أقاربه ، ظلّ يقبلني وأنا صامتة ، قبل أن يطرحني على الفراش ، بدأ يداعب (طماطتي) ، بدأت أشعر بحرارة تنهض ، قبل أن أشخ على نفسي ، وعندما وجدني أبول على نفسي ، سارع بانتزاع سروالي ، سحب الملاءة وراح يجفف ساقي ، كان لاهثاً وأنا صامتة لا أعرف ما الذي يريده من فعلته ، لكنه نزع سرواله وأخرج شيئه ، بدأت أنتحب ، حاول أن يكتم نحيبي ، توسل أنه فقط يحكه على طماطتي ، كنت مشغولة بالنحيب وكان منهمكاً بـ نذالته ، مر وقتٍ طويل قبل أن يخرج من شيئه مخاط مترسب ، قبلني وهو يتلعثم : «لا تقولي لأمك؟» ، خرج إلى الحمّام وبدأت أسمع وشيش الماء ، لبست سروالي ورتبت غرفة النوم ودون أن أشعره غادرت البيت .

صمت .

هذا السقوط من سببه؟

صمت .

أمّي أو أبي؟!

صمت .

أنا أنا البريئة!

صمت .
أم هو الكلب ابن الكلب؟
صمت .
أم الشاب صاحب الشعر الساحر المدرس؟
صمت .

في البيت راجعت بعقلٍ متواضع وبصيرة محدودة ما جرى بيننا ، لم أمتلك إرادة أن أمتنع عن الذهاب ، بعدما اعتبرت وجوده بسبب مرضه كما أكد لي ، أم كان يكذب كما نحن الآن نجلس لنكذب على بعضنا ، ربما هو خيالنا يهيئ لنا فرص الكذب ويبيح لنا تشكيل حيوات كانت مجرد أحلام سكنتنا وقمعتها الظروف والحظوظ ، ربما سنخبئ ما كان صدقاً ، كون الوقائع الصادقة لا نفع فيها ولا طعم ، فالحياة كما سمعت ذات مرة كذبة كبيرة ، أصحاب الكذب هم أسيادها ، الذين يكذبون كثيراً يصبحون رؤساء ، أو يتقلدون المناصب الرفيعة والطويلة والسمينة ، أمّا الصادقون ، الذين لا يعرفون كيف يكذبون ، فحياتهم هي الحياة التالية بعد زوال هذه الفتنة الفانية .

صمت .

طويت الحكاية ، ألقيتها وراء ظهري ، بعدما سهرت تلك الليلة ، وجدت أنني عشت فلماً سينمائياً راقني ، قررت أن أعيد المشهد كي أقتنع أنني أنثى مرغوبة .

صمت .

في الصباح التالي لم يكن هناك ، حيث بلت على نفسي وبال هو على ساقي ، بولي كان برائحة ، كان سريع الجريان ، لم يحرك لساني ، عكس بوله ، عذراً رفيقاتي ، إنني الآن أتحدث بلسان تلك اللحظة ،

بالتأويل الطفولي الساذج للأشياء ، بتفسير بريء ، كان بوله متماسكاً ، لزجاً من غير رائحة ، مجرد نقاط مخاط تململت ببطء ، وكان لسانه مندلقاً ، وفمه يصرخ لحظة الـ بول ، مثلما الكلب يلهث على مدار الساعة .

صمت .

شعرت بضيق ، شيء ما يتحرك فيّ ، بدأت أطلبه كي نبول على نفسينا ، أنا أبول عليه ويبول هو عليّ ، جلست شبه نائحة ، ضجيج يستعمر رأسي ، لا أعرف كيف أنهيت عمل ذلك اليوم ، أمّي لمحت في وجهي تغييراً استراتيجياً . . قالت : «كريمة ماذا بك؟» ، في تلك اللحظة تعلمت الكذب . . قلت : «تعبانة» . . قالت : «هل هما في البيت حين تذهبين؟» ، «كلا» ، انتبهت لنفسي ، كي لا أرجع لـ عالم الصدق .

صمت .

بعد مرور يومين بينما أنا بصدد الانتهاء من عملي ، فتح الباب ودخل ، رغم سريان رعدة في أوصالي فرحت به ، لم يكن جباناً كما كان في المرة السابقة ، تقدم منّي وعانقني وراح يسحب لساني إلى أغواره الدافئة ، لم أجد مانعاً كنت أطير بين أحضانه ، حملني وألقاني على الفراش ، انتزع سروالي ، خفت أن أبول عليه ، لكن بولي لم يتدفق هذه المرة ، أخرج ثعبانه وحككه على طماطتي ، قبل أن يقلبني على بطني ، حاول كثيراً أن يولجه ، قبل أن يمد يده ويسحب علبة (النيفيا) رأيت ثعبانه تحول إلى قطعة (قيمر) وبدأ يزلقه ، ندت منّي صرخة ، همس في أذني . . «عضّي المخدة؟» أخذت بكلامه ، كان ثعبانه يخترق كأنه يمزق ثوباً قبل أن أنتفض من تحته ، تراجع إلى الخلف وبدأ برازي يهبط على الفراش .

صمت .

شعرت بهزيمة تاريخية ، لم ينفعل ، أنهضني وقادني إلى الحمّام ، هناك مرغل كائنه الواقف والغاضب بصابونه وأزلقه مرة أخرى ، كنت أطير بين أحضانه ، يتقافز بي كمجنون ، يلهث ويتنفس بعنف قبل أن أشعر ببوله فيّ ، سحبه ودخل تحت الماء ، سحبني وراح يغسل جسدي ، من يومها بدأت ديدان تتحرك فيّ ، إنها ديدان الرغبة الضارية يا صويحباتي .

صمت .

ومضت أيامنا على تلك الوتيرة القذرة ، وبدأ جسدي ينتفخ ، ومشاعري تكبر ، وغابات رغباتي تتوسع وتتوحش .

صمت .

لكن المفاجأة الكبرى كانت بعد مرور أشهر ، وإذا بالرجل الوقور يدخل البيت ، صاحب الشعر السرح المرمي إلى الخلف بشكل جاذب وساحر ، وجدني أنظر إليه ، للحق أقول إنني كنت على قناعة بأن الشاب حكى لأخيه ما نعمل ، فجاء يعمل معي مثلما كان يعمل الشاب معي ، هذا الظن دفعني أن أتودد إليه ، شعر بذلك قبل أن يضع كفه على كتفي ، وجد عدم قشعريرة جسدي أو وجود لمسة ممانعة شجعته أن يمد فمه ويقبلني ، كنّا واقفين ، قلت له : «لننم في الفراش؟» ، فغر فاهه ، لم يكن يصدق ما بدر مني من كلام في لحظة سكر ، قال : «لم أسمع كلامك!» ، «لننم في الفراش؟» ، توجهنا معاً ، طرحت نفسي على بطني ، تخلص من ملابسه ، وجدت شيئه مائعاً ، ظلّ هكذا رغم محاولته ، لم أعرف السبب ، بعد ساعة من محاولته وجدته يبكي ، استدرت ، كان يكسر الخاطر ويستدر الحزن ، عرفت منه

أنه فاقد الذكورة أو هكذا ظننت ، يا للمسكين ما قيمة حياته القادمة ، لو كان بنتاً لربما كان أكثر سعادة من حالته تلك ، ظلّ يفركه بطماطتي ، قبل أن يندفع الباب ويدخل أخوه الوسيم ، لم يتفاجأ ، وبقيت منطرحة ، قال لأخيه : «تعال كي تثلج صدري؟» ، لم أفهم كلامه ، إلاّ بعدما تراجع وسمح لأخيه الشاب أن يأخذ مكانه ، كنت شبه ميتة وهو يلجني وكان الشقي ناحتاً عينيه في الكائنين المتشابكين ، لحظة انتهينا ، وجدته يفرح فاركاً يديه . . قال : «كريمة دائماً تعالي كي أشعر بالفرح معكما!» .

صمت .

بعد ستة أشهر انتقلا من البلدة إلى العاصمة ، شعرت بالغربة والرغبة والضياع ، بدأت أبحث عن بديل عاطفي ، وجدته بعد معاناة ، فكل الذين يمرون بي ، كنت في أعينهم طفلة ، لكنهم لم يدركوا أي طفلة كونية كنت ، أيّ ثورية ، جامحة ، أي متعة أدفن في جوفي .

صمت .

مات أبي ، وبعد سنة ماتت أمي .

صمت .

خلال هذه الفترة مررت بتجارب عابرة ، صبي ظلّ يحوم حولي ، كان يأتي إلى زقاقنا على دراجة بخارية ، وجدته البديل الممكن لسد جوعي وعطشي ، ذات يوم وقف قرب المدرسة وغازلني بكلام ناعم ، في الصف بدأت أفكر به ، كان يقف في مسافة جيدة الرؤية وأنا أرسل نظراتي إليه عبر النافذة ، قبل أن تضبطني المعلمة ، بدّلت مكان جلوسي وفي الفرصة قالت : «كريمة . . عيب لا يليق بك النظر إلى أولاد الحرام!» ، لم أتكلم ، تركتني ، كنت غارقة في مسيل السعادة ،

وبعد يومين باغتني في الليل ، كنت جالسة مع جارتنا قبل أن يمر . . قالت جارتنا : «هذا الولد كل ليلة أراه يمر من هنا!» ، لم أتكلم ، قالت «يمكن يحب واحدة من الزقاق!» ، انسحبت داخلة ، وبعد دقائق خرجت ، أنتظر مروره ، كانت شقيقتي نائمة ، بقيت أترقب من خلال الباب ، حتى وجدته يقف ، رآني وتقدم ، خفت من ابنة الجيران ، لذلك وجدت الدخول إلى البيت كان أسلم ، ، دخلنا غرفة الضيوف ، بادلني الكلام ، كنت محترقة لعناقه ، لم أجد فيه الشجاعة المأمولة ، قال : «أحبكِ!» ، «قلت ما الدليل!» ، «ليل نهار أنا أفكر بك!» ، بدأت أدنو منه ، تلاصقنا ، رميت بنفسي بين أحضانه ، بدأت ألتمس فيه الشجاعة ، بدأ يقبلني ، لكن ديداني العاطفية أخرجتني من كياني ، بدأت أداعب شيئه ، استجاب ووقف ، شعر براحة تغمره وأنا أعجنه ، . . همست : «لننم؟» ، نام فوقي ، قبل أن أقلب نفسي وأنيمه فوقي ، مارس وتخلص من بوله ، قام وتهيأ للخروج . . قلت : «لا تخرج؟» ، «غداً انتظريني؟!» ، شيعته شبه سكرانه .

صمت .

لكن الغد لم يأتِ .

صمت .

صار بعيداً ، صار همّاً ضاغطاً ، صار حلماً عقيماً ، صار الغد رماداً وسراباً وريحاً .

صمت .

ذلك الولد مات ، في اليوم التالي كان يقود دراجته بجنون واصطدم بمركبة عسكرية قرب الجسر ، كل النساء تناقلن الخبر ، أنه طار هو ودراجته وسقط داخل الوادي في مستنقع المياه الآسنة ، لم يستطع

أحد إسعافه ، أخرجوه ميتاً ، فماتت معه عواطفي ، للحق أقول بكيته أيّاماً طويلة ، تلك كانت أوّل متع البكاء من أجل الكائن البشري .

صمت .

من جديد ظهر القريبان .

صمت .

كان الوقت ليلاً عندما سمعنا طرقات على الباب ، خرجت أختي (حليمة) سرعان ما دخلا علينا ، كانا في بحبوحة ، . . قال التعيس : «كنّا خارج البلاد ، البارحة سمعنا برحيل خالنا وزوجته!» ، تقبلنا تعازيهما ولو بعد مرور سنتين ، رفضا منا عمل العشاء لهما ، واكتفيا بشرب الشاي ، كانا يحفراني بنظراتهما ، فرشنا لهما في غرفة الضيوف ، لم أستطع النوم في تلك الليلة ، في كل لحظة كنت أتوقع أن الشاب الجميل سيباغتني في الفراش ، كنت أخرج بدون عذر وأختي نائمة ، قبل أن أصطدم بالتعيس أمام باب المراحيض ، مسكني وقبلني . . قال : «تعالي إلى فراشي؟» ، جرجرني وأنا خائفة ، خشيت أن تستفيق أختي وتكتشف أمري ، وربما كنت خائفة منه كونه مائع الثعبان كما حصل له في تلك اللحظة ، وصلنا الغرفة ، كان أخوه غارقاً في نومه ، أجلسني في حضنه ، وفي تلك اللحظة وجدت شيئاً يستقيم من تحتي . . همس : «عالجته في تركيا؟» نزع سروالي . . همست : «إنه كبير أخشى أن أصرخ؟!» ، «لنذهب إلى الحمّام ، سأمسحه بالصابون ولا يؤذيك!» ، رغم الصابون وجدت نفسي في مأزق وبقيت أعضعض ثوبي حتى سكب بوله ، لم أشعر بالفرحة ، كنت أرغب أن أكون في حضن الشاب وليس في حضنه الخشن هو ، لكن الرغبة حصلت ، على ما يبدو أنه تركني وراح يحسس أخيه ،

جاء متناعساً ، عانقني بحرارة ومارس فعلته وأنا فخورة وفرحة به .

صمت .

في اليوم التالي غادرا ولم نعد نسمع عنهما أي خبر .

صمت .

مضت أيامي التالية وسنواتي أتنقل من حب كاذب إلى حب أكذب ، كل من يعشقني وأعشقه يشرب مياه أغواري ويسقي صحراء قلبي ببوله ويمضي .

صمت .

ها إنني كبرت ولا أحد يرغبني زوجة ، نتيجة سمعتي المفضوحة .

صمت .

أختي (حليمة) تزوجت ، وبقيت معها في البيت ، كل ليلة أترقب فعلهما ، هما يتأوهان وأنا أسكب دموعي وأحاول أن أضاجع نفسي ، أبقى أمرر أصبعي تارة أدخله هناك حيث فضلات العالم يتشكل وينحدر وتارة أفرك طماطتي ، لكن (حليمة) وزوجها ينهيان عذابيهما ويغطان في النوم ، وأبقى أنا أدور في الحوش ، وعلى سريري أتقلب ، أخرج إلى باب البيت علّ بغلاً يمر كي ينقذني من عذاب جوفي .

صمت .

في المعهد أحببت شابين ، ضحكا عليّ ولم يرغبا أن أكون شريكة فراش لأحدهما .

صمت .

ها أنا بينكن رفيقات ، مثلكن ، جف ينبوع مستقبلي وليس لي سوى الرفيق ـ قضيب ـ كما وصفتموه ، لكن الحظ عاثر ، لست

الوحيدة هنا ، أنا واحدة من عشر فقط ، أريده وحدي ، ربما أستطيع إشباع ما تبقى عندي من بقايا زهيرات آيلة للذبول .

صمت .

عذراً أطلت عليكم كلامي ، حياتي كانت وما تزال محض أكذوبة ، متى أعود للصدق؟

صمت .

ها هي الحرب جاءت لتطمرنا تحت وحل النسيان .

صمت .

ولكن رغبتي هل تتحقق ، من يا ترى صاحبة الحظ ، بإمكاني أن أشتري حظها بكامل مجوهراتي ، فقط لو أعطتني حظها لتكون هذه ليلتي وأفوز بـ حبيب الأستاذ ـ قضيب ـ

صمت .

وأنت يا رفيقي آه لو تقبل ، سأضع كامل ما أملك من رواتب ومجوهرات فقط لو اخترتني لأكون ملكة الليلة .

هذه دعوة صريحة ونابعة من يقيني ، لا تضيعها ، مال وراحة ، لا أعتقد أن واحدة غيري تقدم هذا العرض المغري ، فقط تعال وشاركنا هذا الحلم الأخير ، غداً ربما لن يأتي ، هكذا تعلمت من الحياة أن كتاب حياتي عبارة عن ورقة واحدة لو قلبتها سأسقط في الفراغ .

صمت .

نعم ليس هناك غد في حياتي السابقة وربما حتى في حياتي اللاحقة .

صمت .

تعال أيها البغل وفز بمن لا تجد مثلها في أحلامك ولا في

يقظتك ، تعال وخذني إلى الجبال والوديان واعمل ما تشاء وكيف تشاء .

صمت .

ليلتي هل آن وقت مجيئها؟حلم ما زال بعيد الأجل وصعب المنال .

صمت .

آه لو تأتي وتحررني من الحياة وتميت حريقي .

صمت .

يا رفيقات ، ليته يضع في باله رغبتي القاتلة ويفوز بالمال والحظوة السعيدة .

صمت .

أرجو أن أكون صاحبة هذه الليلة .

صمت .

تحكي فريدة

حكايتي مع عذاب الجسد بدأت في وقتٍ مبكر .

صمت .

لم تكن رغبة أو نداء جسدياً ، عشت حياة طبيعية ، كنت في الثامنة من عمري يوم وجدت نفسي مع والدي في مركبة ، من العاصمة ـ بغداد ـ إلى بلدة بعيدة ، جميلة كلها حقول وبساتين ، عند الظهيرة نزلنا من المركبة بعد رحلة استغرقت نصف نهار ، مشينا بين البساتين وبمحاذاة الحقول ، كنت فرحة وأنا أتأمل الطيور وهي تطير من أمامنا ، وصلنا قرية غاطسة من جهتين في بستان يلتف حول نصفها ، في بيت واسع وجدنا دجاجات وبطاً وبقرات وحماراً وكلبين ، استقبلونا بترحاب ، عرفت من خلال الكلام أن ذلك البيت كان لديهم فاتحة وأنهم يمتون بصلة قرابة لأبي ، في البيت وجدت شاباً جميلاً ليس من أهل القرية ، كان مهندماً يرتدي ملابس أهل المدينة ، بعد الغداء سمعت من امرأة شبه عجوز تقول للولد : «خذ ـ فريدة ـ معك إلى المزرعة واجلب لنا طماطة وباذنجان وخياراً وبطيخاً!» .

صمت .

وجدته متحمساً .

صمت .

أعدد الدراجة الهوائية ، ووجدت أبي يدفعني أن أرافقه كي

أستمتع بجمال الحقول والطبيعة القروية ، لم أجد مانعاً أو خوفاً ، اندفعت راغبة معه ، أجلسني على المقعد الخلفي وراح يسوق الدراجة ، كنت أشعر بسعادة لا توصف ، سعادة طفلة حققوا لها مطلباً ، بعد مسافة وقف ، أجلسني أمامه ، بدأ بين لحظة وأخرى يقبل رأسي ، خلته لا إرادياً ، كان يقود الدراجة بعسر ، رأسه يتحرك يميناً وشمالاً ، وصلنا الحقل ، سحرتني المزروعات ، وجدت الطماطة حمراء يانعة والباذنجان أسود يلمع ، كان منظر الخيار والبطيخ والباميا يسر النظر ، شاركته في ملء الصندوق الخشبي المربوط على خلفية دراجته ، كان في كل لحظة يمسكني من يدي ، ينظر في عيني ويبتسم ، دخل إلى السوباط ، تبعته ، جلس وناداني أن أجلس ، مدّ يده ومسكني ، بدأ يقبلني ، شعرت بخوف وتردد ، بدأت أبكي ، راح يتوسل ويحاول أن يسكتني ، بدأ يمسح دموعي ، انسحب ووقف بباب السوباط ، توقفت عن البكاء ، قال : «هيا لنرجع؟» ، بدأنا نمشي على أقدامنا ، لا أعرف لم شعرت في تلك اللحظة بأنني ارتكبت خطيئة ، تحرك لساني : «أنت زعلان مني!» ، قال : «أنتِ جميلة وأنا أحبكِ!» ، سكتنا ومشينا ، وقبل أن ندخل البيت قال : «فريدة لا تقولي شيئاً؟» .

صمت .

في ليلة ذلك اليوم ، خرج أبي برفقة أقاربه لزيارة بعض البيوت ، وحده الشاب بقي ، بعدما صعدت النساء إلى سطح البيوت ، وكانت تلك عادة يجتمعن في الليل ويتحاورن ، تقدم منّي قال : «فريدة أنا أحبكِ» ، قلت له : «أنا لا أعرف!» ، قال«عندما تكبرين سوف نتزوج ونعيش في بيت واحد!» ، اقترب منّي ، وجدت البكاء فضيحة ، مسكني وبدأ يقبلني ، في الظلام تشعر البنت بسعادة كونية عندما

يحتضنها ولد ، بدأت أشعر بنعاس ، ربما كانت دغدغات الشهوة ، بدأ يرفع سروالي وشعرت بشيء صلب ودافئ يتحرك بين ساقي ، ظلّ يلهث في الظلام الدامس قبل أن يبللني ، قبّلني وطلب مني الكتمان .

صمت .

في تلك الليلة لم أجد النوم راحة جسدية لابد منها ، وجدت نفسي أتأمل السماء والنجوم وهذا العمل الذي كنت أحد أطرافه ، كان الكل نياماً ، وجدته يزحف نحوي ، همس يطلبني أن أتبعه ، رجع وهبط السلم الطيني ، بقيت خائفة ، وجدته يصعد وينظر إليّ ، لمحته يرفع يده يطلبني ، قمت وهبطت وراءه ، مسكني من يدي وسحبني إلى الغرفة ، لم يحتمل نفسه ، لم يقبلني ، أدارني ووضعه بين ساقي ، كل الذي كان يشغلني هذا الرقص المتواصل بين أحضانه ، تخلص من عذابه وصعدنا إلى فراشينا .

صمت .

بعد يومين من التواصل بيننا ، تحركت بنا المركبة عائدين ، كنت كمن فقد شيئاً ثميناً ، عيناي غارقتان بالدموع ، قال أبي : «أنا أيضاً كنت أبكي عندما كنت صغيراً وأبي يجلبني إلى هنا!» ، قلت : «لم لا نسكن هنا بابا؟» ، «الحياة هنا جميلة ولكنها قاسية يا ـ فريدة ـ »

صمت .

تحركت العاطفة ، بدأت الأغوار تنهض ، المشاعر تتأجج ، بدأت أمنح نفسي قدرات أنثوية فارغة ، أقف بالباب وأنظر إلى الفتيان ، مرت الأيام والأشهر ، وبعد سنة عندما كنت في الصف الخامس ابتدائي ، شاركت في سفرة مدرسية ، أخذونا إلى خارج العاصمة ، إلى منطقة (الصدور) ، اختلطنا مع مدارس كثيرة ، بدأنا نتجول جماعات ، حصل

أنني فـقـدت حـقـيـبـتي وضـاعـت مني فلوسي ، بكيت ، رآني شـرطي يافع ، تقدم مني وعرف سبب بكائي ، أخذني إلى غـرفة صغيرة عند رأس الجسر ، أخرج بعض النقود ووضعها في يدي ، وقبل أن يسمح لي بالخـروج ، وجـدته يغلق البـاب ، دنا مني وراح يقـبلني ، لم أبكِ ولم أشعـر بالخوف ، أنامني على السرير ونام فـوقي ، بعـدما لهث وتعرق ونزف قام وأخرجني ، خرجت فرحة بالنقود .

صمت .

وجـدت أنوثتي مطلوبة بسـبب انتـفـاخ عـجـيـزتي ، وتورد وجنتي ودمامل صدري .

صمت .

بدأت أغرق في واحات الحب ، وكل حب سرعان ما يزول ليتبعه حب آخر فاشل ، أعيش أوهام السعادة ، وآمـالاً ووعوداً كاذبة ، أتنقل من حضن لحضن ، من رغبة لرغبة .

صمت .

كبرنا وكبرت همومنا وتوسعت مطاليب جسدنا ، وفقدنا مفتاح الصبر .

صمت .

دار الزمن لأسـقط في بركـة الحـزب ، بسـبب أخي المتـمـرد ، كـان يكتب الشعر ، رفض أن يخضع لمطاليب مسؤول زقاقنا ، ظل يزورنا في مـحـاولة إقنـاعـه ، لكنه وجـد الرحـيل إلى خـارج البـلاد الحل الأمـثل لتحـقيق رغـبته ، ذلك الرفيق زارنا ذات يوم ، كـان أبي خارج البـيت ، وأمّي ذاهبـة للتـسوق ، جلس في صـالة الضـيـوف ، وعندمـا اكـتـشف وحدانيتي أعلن رغبته عليّ ، كنت خائفة من بشاعته ، طوله وشواربه ،

هددني باعتقال أبي وزج أمي في السجن بسبب هروب أخي خارج البلاد ، وقفت حائرة قبل أن يدنو مني ويمسكني ، بدأ يقبلني قبل أن يخرج عورته القبيحة ، ذبت من خوف بين أحضانه ، أسقطني وبدأ يعمل عملته السافلة .

صمت .

ذلك الرفيق ظلّ يحوم حولي ، بدأ يزور مدرستنا ويخرجني بحجة كوني طلائعية ، يأخذني إلى مركز الشباب ، مع الظهيرة عندما ينفرط عقد الطلائع ، أجد نفسي وحيدة معه ، يأخذني وأنا أشعر بغثيان وتقيؤ تحته .

سنتان وأنا برفقته ، قبل أن يتزوج ويتركني .

صمت .

ليس بوسعي أن أحصي مرات سقوطي ، كلها كانت قسرية ، إلاّ مرة واحدة كانت بمحض إرادتي ، ما زلت أجهل سبب هبوط تلك الجرأة عليّ وكيف اندفعت من غير تردد ، كان ذلك في المعهد ، يوم كنّا مشغولين بالتهيئة للاحتفال بـ ميلاد الحزب ، كنت مسؤولة العلاقات الخارجية في المعهد ، كنت مع السيد مدير المعهد ، نعد فقرات الاحتفال ، وجدته متضايقاً . . قلت : «أستاذ إنك لست على ما يرام!» ، «لدي مشاغل عائلية!» ، لم أجد سؤالاً يوصلني إلى مفتتح قضيته ، ظلّ يرمقني بنظرة غريبة ، تأفف وحرك رأسه . . قال : «ليتني لم أتزوج!» ، «يبدو أن الست المدام سبب انشغالك!» ، «هي بالذات!» ، «هل هي ربة بيت أم أنها موظفة!» ، «موظفة دائماً تتعذر بالتعب!» ، «أستاذ أنت تستحق الثناء!» ، «أحاول أن أشغل نفسي كي أقتل ترسبات مشاكلنا!» ، «أستاذ لو كنت مكانها لأغرقتك بالاهتمام!» ،

«أنت إنسانة مجتهدة فريدة!» ، «أستاذ الرجل الذي أتمناه أرجو أن يكون على شاكلتك!» ، ابتسم ، بدأ يسحب شهيقه بصوت ، ويحرر زفيره بصوت ، قال : «فريدة . . لو لم أكن متزوجاً لكنت أنت من أطلبها!» ، «أستطيع أن أوفر لك سعادتك!» ، وجدته في حيرة ، بدأت نظراته ترتعش ، وأنفاسه تتسارع . . قلت : «أنا أحتاج إلى من يقف بجانبي ، هذا حق مشروع ، أستاذ يمكننا أن نعيش أصدقاء أو أي وصف تصفه!» ، لم يفه بشيء ، ظلّ يواصل حيرته . . قلت : «أستاذ يمكنك أن تتخذني حبيبة!» ، خرج من فمه صوت باهت : «كيف؟» ، «أرجوك أستاذ لا تحرمني منك!» ، ظلّ مشدوهاً ، لم يصدق ، قمت ودنوت منه ، قبلته وهو صنم ، أسقطت نفسي في حضنه ، تحرك لسانه : «فريدة!» .

صمت .

لم أحتمل هذه الشخصية المرموقة ، شكله ورزانته ، نظراته وبحبوحة ترفه ، جلست في حضنه ، تشجع أن يداعب كتفي ، بعد دقائق كنت منبطحة على الطاولة وكانت لعبته تلعب في أغواري ، كنت نائمة ولا أعرف كيف انسحب ، قبل أن أتفاجأ بالمستخدم يقف ، كان السيد المدير مرتبكاً يجلس ، والمستخدم ينظر إليّ ، سمعته يقول : «خذ راحتك معها واكتم القضيّة!» ، خرج السيد المدير وتركني فريسة لوحش ، كان عجوزاً كبيراً يمتلك ما لم أجده حتى هذه اللحظة ، في البدء خفت ، قلت له : «أنه كبير جداً!» ، قال : «لا تخافي كل شيء يهون!» ، بقيت مستلقية على بطني وبدأ يمزقني ، أنهى فعلته وخرج ، دخل السيد المدير . . قال «خولة . . كان يجب أن أسمح له بذلك خشية من عواقب الأمور!» ، «مزقني بـ معوله الحجري!» ،

«ملعون شيئه حماري مفزع» .

صمت .

تخرجت من المعهد ولم أجد من يتخذني زوجة ، وكيف أجد الزوج المناسب وأنا مدفونة هنا في هذه الرقعة المنسية .

صمت .

لولا مجيء الأستاذ ـ حبيب ـ وتعويضنا ولو بالنزر اليسير لما تحملت هذا العذاب .

صمت .

لا أريد أن أطيل في كلامي ، أنا أنثى جرحت في الطفولة والجرح توسع وأسقطني في مستنقع الآثام ، لم يحدث بعدما تخرجت أن اتصلت بذكر أو رغبت في ذلك ، أعددت نفسي كي أجد العريس المناسب ولو في خريف أعمارنا .

صمت .

لكن شبه أستاذ ـ حبيب ـ التام بأخي ـ فريد ـ حرّك في محرك العاطفة ، بقيت أنتظر فرصة نضج نظراته ، وكنت أتوقع منه أن يفاتحني كي أتهيأ لأكون عروسة له ، لكنه ظلّ يتهرب من رغبتي رغم هطول نظراته الشهوانية عليّ ، حتى مجيء اللحظة الحاسمة .

صمت .

ليلة الحمّام ودخوله الجريء عليّ ، لم أجد دافعاً يشاطرني كي أبقى في نظره الأنثى المأمولة بعدما وجدته يعاني ويفشل في محاولاته مع (وداد) ، كنت عارية وكان الليل يزيد وينهض تلك الرغبة الأبدية التي نامت ولم تمت .

صمت .

لم أشعر بندم عندما سمحت له رغم دفاعي ومحاولة ثنيه من رغبته ، تخلص من عذابه وأسقطني في المربع الأوّل من حياتي .

صمت .

سأرقص كثيراً هذه الليلة طالما حياتنا توقفت ، وعواطفنا سترحل بعيداً أو أنها ستفقد ديمومتها الأزلية .

صمت .

وأنت أستاذي الفاضل تعال لتمنحني هذا المقام السعيد في هذه الليلة الحربية .

صمت .

يمكنني أن أعطيه ما يرغب ، ليس متطلبات الجسد فقط بل حالي ومالي .

صمت .

أحتاج إلى وسيلة تنفعني في تحقيق رغبتي المثالية ، ربما أنفع شيء أن أصرخ ، لا . . لا . . ربما سأبكي في حضرته ، نعم سأبكي ، البكاء ينفع في تحطيم إرادة الرجل ، يجعله يذوب ويخضع ويندمج .

صمت .

نعم . . سأبكي حين يجيء ، سأسقط نفسي بين أقدامه ، بل سأقبل قدميه ، الرغبة تستحق كل أنواع المغامرات ، يجب أن أخضع وأذوب في اللاممكن كي أحقق الممكن .

صمت .

أنا على يقين لو فعلت هذا سألين خاطره وأميل دفة رغبته نحو شاطئي الثائر .

صمت .

إنها ليلتي أنا .

صمت .

نعم لن تتجرأ واحدة منكن أن تزاحمني في رغبتي يا رفيقات .

صمت .

ما شعر به معي ، ما زال محط مباهاته عمّا شعر به معكن ، ليس هذا هذري بل كلامه .

صمت .

ماذا قلتن يا طماطات؟

صمت .

حسناً باغتتني فكرة ، سنضعه جانباً ونتصارع في ما بيننا ، الفائزة هي من تفوز .

صمت .

أليست فكرة ديموقراطية عادلة لكسب الحلم الكبير؟

صمت .

تحكي جيهان

كسر رقبتي معلم أفندي سكن زقاقنا .

صمت .

كان يمر بدكاننا ، يشتري علبة سجائر ويذهب لمدرسته ، بدأ يلاطفني ويداعبني أمام والدي ، بعد مجيئه بأيّام صار يجلس مع أبي في الليالي ، وكنت صغيرة لا أفهم ولا أرغب سماع حوار الرجال .

المعلم ذات ظهيرة وقف أمام الدكان ، بدا قلقاً ، كنت جالسة وأبي ذهب لصلاة الظهر ، توقعت أنه بصدد أن يشتري سجائره أو أي شيء آخر ، لكنه أخرج من جيبه ورقة مطوية ، بخوف تكلم : «خذي هذه الورقة لـ جوان» ، تناولت الورقة ودخلت البيت ، كانت (جوان) واقفة تنتظر ، لم أفهم القضية ، لكنها أوقفت حيرتي : «لا تقولي لبابا أنني بعثت للمعلم أسئلة وأرسل لي جواب أسئلتي!» ، لم يتحرك في دافع أو هاجس لبلورة القضية أو معرفة سر الورقة المطوية ، عدت ولم أجده ، مرت أيّام كثيرة وأنا أنقل الأوراق ما بين أختي (جوان) والمعلم .

صمت .

ذات ظهيرة لم يعد والدي من الصلاة .

صمت .

كان الأمر طبيعياً فغالباً ما كان بعد الصلاة يرافق الجنائز إلى المقبرة ويعود عند الغروب أو بعد صلاة العصر ، أعطتني (جوان) ورقة . .

قالت : «خذي هذه الأسئلة واجلبي لي الأجوبة فوراً ، لا تعودي من غير الأجوبة؟» ، هرعت نحو بيت المعلم ، وجدته يقف عند عتبة الباب ، أخذ الورقة ،أأستغرب من وقوفي . . قلت : «أختي تريد الجوابات؟» ، ابتسم ابتسامة الآن أصفها خبيثة ، حرك رأسه وتبعته ، كان وحيداً ، مهملاً ، جلس على السرير ، وقفت أنتظر أن يكتب ، قرأ أسئلة أختي ، كان يهز رأسه ويبتسم بمكر ، ما بين لحظة وأخرى يرمقني بنظرة وقحة ويبث بوجهي ابتسامته المصطنعة ، قام وأخرج من جيب قميصه قلماً وراح يكتب ، كان يتوقف وهو يرمقني ووجدته ينفعل واحمرت سحنته ، همس : «تعالي هنا؟» تحركت إليه كي أستلم الورقة ، مسكني من يدي ، قال : «هل تعرفين القراءة؟» ، «لا!» ، وضع كفه على كتفي وراح يعصرني ويرخيني ، لم أجد وازعاً أو دافعاً يحسسني بخطورة الموقف ، طالما المسألة لا تعدو دراسة عبر الأوراق ، هذا ما نقشه فكري لحظتها على سبورة طفولتي ، مال رأسه عليّ وراح يقبلني ، في تلك اللحظة غدوت صخرة لا تنطق ، بدأ يخرج شيئه ، كان أسود كثعبان منتصب ، كعمود من حديد ، دفع رأسي ووضعه في فمي ، خرساء كنت ، صمّاء ، لا أملك وسيلة تخرجني من بين يديه ، أنامني ، حاولت أن أبدي ردود فعل مضادة ، وجدته يكتم أنفاسي ، راح يهذي : «أحبكِ . . أحبكِ . . أحبك . . أحبك!» استغرق هذيانه وقتاً طويلاً قبل أن يتراخى ويغدو كائناً تعيساً ، قذراً ، همس : «لا تقولي هذا لأحد؟» ، أعطاني الورقة وعدت لأجد (جوان) واقفة بحيرة ، تناولت الورقة دون أن تشعر بطول غيابي أو سر صفرة وجهي .

صمت .

مضت كل أيامي هكذا طيلة موسم دراسي كامل ، قبل أن أتفاجأ

ذات ليلة وإذا به يدخل بيتنا ويصعد إلى سطح المنزل ، قمت وصعدت درجات السلّم ، وجدتهما متشابكين ، (جوان) نائمة وهو ينام فوقها ، كانا يهذيان ويتبادلان القبلات ، تعريا وعرفت لحظتها أن تلك الأوراق التي كنت أحملها لم تكن أسئلة ، لقد كذبا عليّ ، كانت مخططات سريّة من أجل النوم معاً في الفراش .

صمت .

وقبل الفجر كنت متناومة في الفراش ، أدنت رأسها مني ، همست : «جيهان لا تقولي هذا لأحد؟» ، حركت رأسي ، قبل أن أنام .

صمت .

المعلم بعد انتهاء الفصل الدراسي غادر الزقاق ولم يعد رغم بدء العام الدراسي الجديد ، وجدت (جوان) متذمرة ، كنت أرى الدموع في مآقيها ، قلت لها : «لم تبكين؟» ، «أبكي على غيابه» ، «لم لا تحبين من جديد؟» ، «قلبي واحد ، سرقه مني ، لا أستطيع أن أحب مرة أخرى!» .

صمت .

أمّا أنا فوجدت هناك من يتودد إليّ ، شباب يأتون إلى الدكان ، يشترون ويمطرونني بسيل نظرات مفهومة وابتسامات شهوانية ، حتى فاتحني أحدهم : «جيهان ـ لم لا تأتين إلى بيتنا؟» ، قلت : «بيتكم بعيد!» ، وجد شجاعة من كلامي ، وكنت أحترق رغم صغري إلى حضن شاب يرفعني ويراقصني ، توسل كثيراً ، وجدت الشجاعة الكاملة ، فتبعته إلى البيت .

صمت .

كان الوقت صباحاً ، حملني أبي بعض الحاجيات لأنقلها إلى بيت أحد الزبائن ، كان يمشي أمامي ، أوصلت الحاجيات وتبعته ، أخرج المفتاح وفتح الباب ، ترددت قبل أن أدخل ، لم يكن هناك أحد ، قال : «أبي في الجيش وأمي ذهبت إلى القرية!» ، أدخلني غرفة وعمل معي ما أراد .

أيّامي مرت على تلك الوتيرة قبل أن أجد شباناً يطلبونني ، والبعض كان يتكلم بلغة التهديد ، عرفت منهم أن الشاب الذي تبعته ، كان يحكي لهم ما يجري بيننا ، وكان الخوف منهم يقودني إليهم .

صمت .

شبّان كثيرون من أزقة أخرى حققوا رغباتهم معي ، مضيت أرافقهم أينما طلبوني .

صمت .

كبرت وكبرت رغباتي ، لم أجد الحب بيتاً للأحلام ، عشقت الرحيل الدائم ، التنقل من وادٍ لواد ، من رغبة لرغبة .

صمت .

(جوان) وجدت شاباً ، تحابا وتزوجا ، بقيت أنا وأبي بعدما وجد أن حياته لم تعد تسع أن يأتي بزوجة بعد رحيل أمّي يوم ولادتي .

صمت .

أجمل أيّامي كانت في المعهد ، ظلّ ضابط يطاردني ، كان كبير السن ، يأتي كل يوم بسيارته ، يرشقني بوابل نظرات ، وذات صباح حاول أن يوقفني ، لم أجد دافعاً يشعرني بألفة أو جاذبية نحو رجل بعمر أبي ، لكم كنت خاطئة في نظرتي ، وجدته الحنان والدفء واللذة

القصوى ، كان خبيراً في ترويض الجسد وألمعياً في تأجيج عاصفة عواطفي قبل إخمادها .

صمت .

دخلت المعهد كأن لم يحصل شيء ، لكن بعد نصف ساعة جاء المستخدم إلى الدرس . . قال : «الست جيهان ، على ما يبدو أحد الأقرباء جاء يطلبك!» ، خرجت ووجدته يستقبلني بابتسامة عريضة في غرفة الاستعلامات ، كان الموقف حرجاً ، لم أجد فرصة تسعفني أن أتصرف بشيء من اللياقة ، ابتدرني بمكر : «هيّا أسرعي إنهم ينتظرونا!» ، وقفت أبحث عن معنى لكلامه ، كان مجهزاً على شيء ، «حصلت على إجازة لك من المدير لمدة يومين!» ، كنت بحاجة إلى تفسير القضية ، كانت العيون منحوتة بوجهي ، الجالسون على المقاعد ، ورجال الاستعلامات وبعض الزميلات ، تبعته خارجاً لأفهم كلامه ، قال لي : « كوني طبيعية لابد أن نتفاهم قليلاً!» ، «أنت وضعتني في حيرة!» ، «أنتِ إنسانة ناضجة ومتعلمة ، لدي كلام لابد أن تسمعيه ويمكنك أن تتخذي ما يناسبكِ من موقف إن كنت غير مقتنعة بما أقول!» ، سار نحو مركبته ، جلس وراء المقود وناداني ، ترددت قبل أن أدنو منه ، قلت : «ماذا في بالك؟» ، «لا يليق بنا الكلام على الشارع العام!» ، «لدي دوام!» ، «لديك إجازة يومين!» ، «لم لا توضح غايتك!» ، «لا توجد غاية ، وجدتك مناسبة لي إن كنت راغبة في تكملة مشوار حياتك!» ، «لكنني طالبة!» ، «لا يشكل هذا عائقاً أمام مستقبلك!» ، «لكنني لا أفكر بهذا الأمر!» ، «ست ـ جيهان ـ أرجوك اركبي ، يمكننا أن نجلس قليلاً في مكان يليق بنا!» .

صمت .

ركبت وقاد المركبة بعاطفة جيّاشة .

صمت .

في تلك اللحظة نسيت كل الماضي ، لم أعد أتذكر دغدغات الشبّان المائعة ، ولا الحرارات التي احتضنتني ، بدأ يتكلم بثقافة عالية ، بوعي مدمر ، تكلم عن الحياة السعيدة ، عن المال والجاه ، عن أحلامه الكبيرة ، عن الحب الحقيقي ، كنت أصغي إليه ، لا يهمني أين يأخذني ، وجدته رغم كبره إنساناً دافئاً يستحق أن تنام الواحدة بين أحضانه ، أوصلني منطقة زراعية ، كانت الحقول يانعة ترقص طرباً ويرقص معها قلبي ، دخلنا بستاناً كبيراً ، في منتصف البستان بيت بطابقين ، دخلنا معاً ، قلبي ينبض من غير خوف ، كانت تجاربي السابقة ماثلة ، ما الذي يريد الرجل من البنت؟كل شيء يغدو محض سراب بعد دقائق ، وتدور عجلة الحياة من جديد .

صمت .

في صالة كبيرة جلسنا ، بدأ يغرد بسعادة لا توصف ، كانت أغواري تصرخ ، كنت أنتظر ساعة الخلاص ، أنتظر الكلمة التي تثور في عينيه وتسكن لسانه ، بدأت أسكر بالكلام ، لكن الجسد ثورته ضارية ، جارفة ، كاسحة ، دنا مني ، خلته سيأخذني كما أخذوني في صغري ، قال : «جيهان أنا أسكن في هذا الفردوس من غير زوجة!» ، «وكيف تعيش؟» ، «أحتاج لك كي تكوني أميرة هذا البيت!» ، شعرت بقيمتي الأنثوية في تلك اللحظة ، هل كنت أحلم ، أم أنها الحقيقة ، ما الذي تريد البنت؟ ، بيت فاره في مزرعة يانعة ومثمرة ورجل ضابط كبير ومركبة ومال .

صمت .

«لا أعـــرف كـــيف أجـــيـــبك؟» ، «يمكنك أن تفكري وتعطيني الجواب!» ، بدأ يدنو أكثر وسقط أمامي راكعاً ، خجلت منه ، حاولت أن أثنيه لكنه راح يقبل قدمي صعوداً إلى الأعلى وصل يدي ثم فمي .

صمت .

تراخيت ونام فوقي .

صمت .

ظلّ يلهث دون أن أشعـر بشيء يحـسـسني بتلك الدغـدغـات القـديمة ، بدأ يسـقط مـلابسـي ويسـقط مـلابسه قـبل أن أصطدم بشيـئه المائع المتراخي ، فـركه كـثيراً ببوابة ـ برمـودا ـ حاولت أن أساعـده في مهـمتـه ، مسكته وفـركتـه ، كنت أشعـر بلذة صـارخة داخلي قـبل أن أرتعش ، لـم يسـتطع إيقـاد حـمـاسـتـه قـبل أن يسـقط من الإعـيـاء وراح ينتحب كـمن خسـر مـاله وحاله في لحظة مقـامرة أو مغـامرة أو صـولة معركة فاشلة .

صمت .

سكب دموعاً غزيرة قبل أن يمسح دموعه ويتكلم : «آه لو أرجعت لي رجولتي سأسـمي كل أملاكي باسمك؟!»لم أفـهم كـلامـه ، خلت فـشله نجم من خـجله ، قـال : «جيـهـان ـ تزوجيني عسى أن تفلحي أن تعيدي لي ذكورتي!» ، «هل تشعر بالخجل!» ، «كلا . . أنا فاقده !»

صمت .

توقـفت السـعـادة في تلك اللحظة ، لم أجـد غـيـر ابتكار حيـلة تنجيني منه ، ساعدته في ارتداء أسماله ، قبلته وجعلته يرجعني إلى القسم الداخلي .

صمت .

كنت أراه يقف وكنت أتهرب منه ، في مرات كثيرة جاء ليخرجني من الدوام ، لم أستجب لدعواته ، حتى تخلصت منه بعدما يئس ، تكلمت مع جوان حوله ، أبدت إعجابها وتمنت لو كانت مكاني . . قلت : «وما الفائدة منه» ، قالت : «المهم تعيشين عيش الملوك!» ، «وطماطتي من يكتم صرخاتها؟» ، «يمكنك أن تعشقي من ترينه يشبعك ، هناك شباب حلوين كثر!» ، «لكم أنتِ خاطئة يا جوان!» .

صمت .

بعدما تعينت في قرية تابعة لبلدة ـ جلبلاء ـ كانت المواصلات متعذرة ، وجدت ابن مختار القرية يطرح علي فكرة أن ينقلني يومياً من وإلى مدرستي ، سريعاً تلاطفنا وتناغينا وتلاحمنا ، كان يأتيني باكراً وكنّا ننزوي إلى حقل يمتلكه ، نقضي ساعة أو ساعتين قبل أن أذهب إلى دوامي ، استمرت علاقتنا لمدة ثلاثة أشهر قبل أن نسقط في وحل الفضيحة .

صمت .

كنّا مستلقين على ظهرينا عندما وقفت امرأة قروية أمام باب ـ السوباط ـ وأطلقت صرختها ، حاول ابن المختار أن يسكتها ، ظلت تصرخ قبل أن يلطمها على وجهها ويلقيها على الأرض ، في تلك اللحظة تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني ، نهضت وهي تحفرني بعينين ناريتين ، كنت فاقدة كل شعور ، أخرج ابن المختار مسدساً ووضع الفوهة في رأسها : «سأقتلكِ وأرميك للكلاب لو تكلمت!» ، تدخلت راجية : «أرجوك دعها أنا السبب!» ، «كلا يا ست ، ليس من حقها أن ترفع صوتها ، لو فعلت ذلك ثانية سأتزوج عليها!»تكلمت أخيراً : «أرجوك سأسكت ، أعمل ما يحلو لك ، فقط لا تتزوج عليّ أرجوك!» .

صمت .

توجهنا نحو المركبة ، جلست هي في المقعد الأمامي ، وأنا جلست في الخلف ، عندما وصلنا القرية قلت قبل أن أنزل : «أرجوكما لا تتشاجرا ، كل شيء سينتهي بخير ، غداً سأقدم طلباً لنقلي قبل أن تتأزم الأمور!» لم ينطقا ، وجدت المرأة فرحة بكلامي ، وفي اليوم التالي قدمت طلباً للنقل ، جاء سريعاً إلى هذا المكان المنسي .

صمت .

طبعاً نقلي لم يتم اعتباطاً ، كان يجب أن أمنح سائق مدير التربية نفسي في خلوة بائسة وتعيسة كونه كان قذر الهندام ، كان منشغلاً بتنظيف المركبة ، لحظة وجهوني إليه ، كونه يمتلك مفتاح كل القضايا الكبيرة للمديرية ، حصلت لي موافقة النقل بـ خلوة واحدة فقط .

صمت .

هنا بينكم وجدت نفسي ، رغم خلو المكان من الجانب الثاني من الحياة ، النصف الممتع ، قبل أن يهل علينا أستاذ ـ حبيب ـ ويرد الاعتبار لأنوثتنا المهمشة ، ويعيد لعواطفنا المأزومة نفحاتها اللذيذة .

صمت .

لم أشبع جسدي بعد .

صمت .

كنت أحياناً أبكي لأنني فقدت ذلك الضابط الكبير ، على أقل تقدير كنت أشعر بحنانه ولو بالكلام فقط ، بتوسلاته ، بماله ، وبحريتي الكاملة في ما يحلو لي أن أعمل .

صمت .

كان من الممكن أن أرتبط به وأجد شخصاً يروق لذوقي ، أتخذه

عشيقاً يسعدني خارج فراش الحلال .

صمت .

إيه . . يا رفيقات . . هل حقاً هذه ليلتنا الأخيرة؟

صمت .

هل من الممكن أن تكون ليلتي أنا كما أرجو؟

صمت .

وأنت يا ست (بدرية) آن الأوان لتعرفي أن هذه الحلقة في خنصري كان وهماً كي أنجو منك .

صمت .

لم أكن مقتنعاً بأخيك أن يركبني ، لا شكله مقبول ولا طوله ، كلما فكرت بشيئه أصل إلى قناعة أنه لا يلائم مزاجي الثوري .

صمت .

كثيرة هي مواقف السقوط لكنها عابرة ، لا تعدو سوى لقاءات سريعة لم تترك مصابيح تنير لحظات الخلوة وتسعف القلب بذكريات لا تنسى .

صمت .

هذه ليلتي أرجوكن .

صمت .

لو جاء أستاذ ـ حبيب ـ واختارني ، سأرقص حتى الرمق الأخير .

صمت .

سأخرج إلى العراء عارية وأرقص حتى سقوط قذيفة عليّ .

صمت .

فقط لو سكنني أنا من دونكن يا رفيقات .

صمت .

تحكي بدرية

أرجو أن يكون كلامي مقبولاً .

صمت .

لا لف ولا دوران .

صمت .

ليس هناك دافع يجبرني أن أكذب .

صمت .

لم أخض تجربة حب .

صمت .

حتى وقت متأخر من حياتي ، ربما كنت باردة المشاعر ، قلبي مفرغ من الحس العاطفي ، ربما كنت بليدة ، أو فتاة باردة ، لكنني ما زلت أتذكر تلك التلصصات الجميلة ، يوم كنت صغيرة ألعب مع بنت الجيران ، بعد رجوعنا من الدوام .

صمت .

بعد الغداء ، كانت أمّي تشجعني أن أذهب إلى بيت صديقتي كي نلعب ، كلام كان يفرحني ، نجلس أنا و(بروين) في باحة بيتهم ، تحت شجرة سدر ، نخرج كتبنا ودفاترنا ، نكتب واجباتنا البيتية ، وبعدها نمارس هوايتنا الطفولية ، نرسم أشجاراً ومنازل وأنهاراً وورودا ً وفراشات تطير وشموساً مشرقة .

صمت .

ذات يوم قالت لي (بروين) : «هل أمكِ وأبوكِ يفعلان مثل أبي وأمي؟» ، لم أفهم كلامها ، بقيت أحدق في عينين عسليتين ، فيهما حيرة وسؤال ، قلت : «ماذا يفعلان؟» ، «تعالي وانظري»تبعتها ، ومن خلال ثقب الباب لمحت كتلاً لحمية متعانقة ، كانت أمها تحت وأبوها يرقد فوقها ، همست : «هل يضربها؟» ، كتمت ضحكة بكفها ، همست : «أبي كل يوم يدخل خيارته في طماطة أمي» ، بقيت أبحث عن معنى ذلك ، من جديد أرسلت عيني ، وجدت الأب راقداً على ظهره وشيء مثل الأفعى يرتخي على بطنه ، كانت أمها ترتدي ملابسها ، قلت لها «خيارة أبوكِ لا تشبه خيار السوق»ضحكت .

صمت .

مرت الأيّام ونحن نراقب تلك اللعبة ، دون أن أشعر بشيء ينهض فيّ حماسة أو رغبة ، قبل أن أنهض ذات ليلة لأجد فراش أمي وأبي خالياً منهما ، تذكرت والدي (بروين) ، هبطت درجات السلّم وفي غرفة المطبخ ومن خلال فتحة الباب وجدتهما عاريين ، راقبتهما حتى انتهيا من لعبة ـ الزلاطة ـ الخيار في الطماطة .

صمت .

مرت أسابيع وأشهر وكبرنا .

صمت .

في السنة الأولى من دخولي معهد المعلمين والمعلمات ، تعرفت على فتاة زميلة ، كانت صريحة ومرحة ، سكنت معي الغرفة وصارت صاحبتي .

صمت .

ذات يوم رافقتها بناء على رغبتها إلى صالون حلاقة ، عرفتني على فتاة تلبس ملابس الرجال ، كانت متحررة ، تمتلك لباقة وخفة روح ، سرعان ما أجبرتني أن تسوي شعري وتخرجني آخر ذوق كما أكدت بلسانها الساحر ، جلست على الكرسي وراحت بخفة ومكر تفرك ظهري وتداعب وجنتي وأنا أعد ذلك ملاطفة ومزحة .

صمت .

بدأت تنحدر وتفرك ثديي ، بدأت أشعر بنعاس وحرارة تنهض في كل عروقي ، بدأت تدنو وتقبل وجهي ، ألصقت ثغرها الهاذي على ثغري ، بدأت تـ مصمص شفتي ، تحرك يدها إلى أسفل ، بدأت تربت على ـ برمودا ـ هنا بدأت أشعر بذوبان ورغبة أن أغدو عجينة بين يديها الساحرتين ، كانت تلهث وتتأوه ، مسكتني وأدخلتني غرفة صغيرة في زاوية ، كان حمّاماً صغيراً ، بدأت تتعرى ، عرتني وراحت تشبكني تارة من الخلف وتارة من الأمام ، دخلت صاحبتي علينا وتعرت ، كنت سكرانة وكانتا ثوريتين في الشهوة ، أنامتني أم الصالون ونامت فوقي ، وراحت تفعل كما فعل أبي فوق أمي أو كما كان يفعل أبو (بروين) مع أمها ، لكن الفرق بيننا ، طماطة على طماطة ، عكس فعلهما ، خيار في طماطة .

صمت .

كانت الساعة خارجة الحسابات ، كل شيء يهيمن عليه فحيح الثغور وصراع الأيدي ، فجأة اقشعر جسدي وارتجفت أغواري ، بينما هما ظلتا تحاولان طويلاً ، تعبت صاحبتي ولم تتعب أم الصالون ، واصلت حربها حتى تراخت وهي تصيح ، سبحنا معاً وخرجنا نجلس في حوار حول المتعة من غير السقوط بين أحضان الذكور .

صمت .

قالت أم الصالون : «تعبنا من هذه اللعبة ، يجب أن نجد شاباً مناسباً ، كتوماً ، وسيماً ، يمكنه أن يقوم بهذا العمل من غير أن نتعب!» ، قالت صاحبتي : «وما نفع ذلك ، مادمنا بنات؟» ، «على أقل تقدير يتكفل بنزيف شهوتنا ، ونشعر بشيئه بين أيدينا وأفخاذنا» ، قالت صاحبتي : «أخشى أن نفتضح؟» ، «هناك شاب أسمر كثير التردد إلى هذا الشارع ، رصدته يمطرني بنظراته ، إنه يمتلك حرارة وجرأة!» ، قلت : «حين دخلنا كان واقفاً في ركن الشارع ، ابتسم بوجهنا!»

صمت .

خرجنا ، أشارت صاحبتي نحو شاب واقف : «شاب ساحر وسيم رغم سمرته» ، التقت نظراتي بنظراته وانفرجت شفتاه عن بسمة أنهضت في أنوثتي .صار الشاب محط اهتمامي ، ظلّ وجهه يطاردني لأسبوع ، قبل أن تفاتحني برغبتها لزيارة أم الصالون ، وجدت الدعوة بطاقة سرور ، كون جسدي اشتاق لنزيف آخر وقلبي رق لرؤية الشاب الأسمر ، لم نجده ، دخلنا الصالون ، أغلقت الباب ، وبدأت لعبتها معي ، لكنها لم تسحبني نحو الحمّام .

صمت .

تعرينا وتمددنا .

صمت .

في غمرة الفعل وجدت ثلاثة شبّان خرجوا من داخل الحمّام ، كانوا عرايا ، تكهربت وخرس لساني ، بينما صاحبتي كانت سعيدة وأم الصالون أكثر سعادة ، عرفت في تلك اللحظة أنهما كانتا على اتفاق مسبق ، حاولت أن أتخلص بأية طريقة لكن عريي بين العرايا خذلني ،

كل شاب عانق واحدة ، بقيت جالسة أتكوم على نفسي ، وشاب يقف فوقي : «لا تخجلي المسألة طبيعية!» ، كان لساني متحجراً ، جلس قربي وبدأ يلاطفني وأنا شبه مائتة ، لم يحتمل أكثر ضمني بعنف وغبت في غيبوبة ، كنت أشعر بثقله علي ، وما زال لهاثه مثل لهاث كلب يسكنني ، تخلصوا من قذاراتهم ، وبدأوا يداعبوننا لتخليصنا من جحيمنا .

صمت .

انتهت اللعبة .

صمت .

خرجوا وبقينا .

صمت .

كنت غارقة في مستنقع قبل أن تباغتني أم الصالون : «خذي الأمور ببساطة ، الحياة قصيرة ، علينا أن نشبع من المتعة قبل أن نشيخ!» ، قالت صاحبتي : «بدرية . . انسي الصدمة كل شيء سيغدو طبيعياً ، أنا متأكدة أنك ستطلبين هذا بمحض إرادتك!»لم أتكلم ، وجدت في كلامهن بعض العزاء ، تأملت نفسي ، رحت أسرح بخيالي ، كنت بحاجة إلى فترة تأمل ، كي تتبلور القضية ، كي أقتنع بأن جسدي ليس ملكي ، وجسد كل شاب ليس ملكه ، يمكننا أن نتبادل المنفعة ونتناصف المتعة ، هكذا هي العواطف البشرية الثائرة .

صمت .

أكملت المعهد وأنا وصاحبتي وأم الصالون نتشارك على مائدة المتعة ، الشيء الذي لم أذكره ، كنّا نتبادل الأدوار ، كل شاب يختار حسب مزاجه ، والشبّان الثلاثة تبدلوا ، شبّان يأتون ونحن نتعرى

ونموت للحظات قبل أن نعود علباً مليئة بالقذارة والإثم .

صمت .

بعد تعييني بقيت أحترق لكنني صامدة دون أن أنحدر للدعوات والمغازلات الكثيرة التي تحاصرني .

صمت .

فقط مرة واحدة ، عندما زارنا مسئول المنطقة ، رفيق وقح النظرات ، يتباهى بمسدسه وهو يتأرجح على ردفي دبره ، أخبرني بوصول إضبارتي الحزبية ، وضرورة أن أعاود الاجتماعات الحزبية ، وفي أوّل اجتماع استغربت عندما دخلت المدرسة ، وجدته يجلس في الإدارة ، سلمت وجلست .

صمت .

في كل لحظة أنتظر وصول الحزبيات ، بعد دقائق قام وأغلق الباب ، عاد إلى الطاولة وبدأ ثرثرته الفارغة ، نحن الآن في ليلة حرب ورحيل ، يجب أن نحرر ألسنتنا كما يحلو لنا يا رفيقات .

صمت .

حسناً . . بدأ يتكلم روتينياته ، ثم عرج على حياتي في المعهد ، وبدأ يطرح وعوده لتعييني في البلدة ، فرحت لذلك ، تشجع أكثر عندما وجدني أبتسم بوجهه ، فاجأني : «ست بدرية ، ثمة تقارير مكتوبة عليك؟!» ، «علي أنا!» ، «أنت تعرفين أن مهنة التعليم من أهم المراكز الحساسة بالنسبة للحزب ، كونها العمود الفقري الذي يقيم الحزب ويوصله إلى الغاية الكبيرة ، وهي تحرير الأمة من فلول الاستعمار والجهل المتفشي» ، «رفيقي . . اخترت التعليم بمحض إرادتي كونه يتعلق بتربية الأجيال!» ، «ست بدرية . . العيون الساهرة للحزب تطارد

كل صغيرة وكبيرة!» ، «كلنا نسهر رفيقي من أجل الحزب!» ، «حقيقة من المخجل أن أقول هذا الكلام ، كان من الأجدر بك عدم زج نفسك في هكذا أمور؟!» ، «لا أفهم كلامك رفيقي؟» ، «لأكن صريحاً معك ، ثمة أفلام فديو تم ضبطها من قبل دائرة الأمن في صالون حلاقة في مركز المحافظة وتبين وجودك في ذلك الوكر الداعر!» ، تجمد لساني وبدأت أذوب ، ولم أعد أعرف أو أرى ، كنت فاقدة كل شعور وكل إحساس .

صمت .

أفقت على يدين كانتا تمسكاني ، فتحت عيني ، كانتا غارقتين بالدموع ، وجدته ينظر عميقاً فيّ . . قال : «ست بدرية . . يمكنني أن أساعدكِ ، ويمكنني أن أنقذكِ من هذه الورطة الكبيرة!»

صمت .

تمنيت مساعدته مهما تطلب الأمر ، سقطت على يديه وأنا أقبلهما ، قال : «لا تهتمي ، سأكتب لهم أن تلك المتلبسة بالإثم مجرد شبيهة لا غير!» ، فرحت لفكرته ، لكنه بدأ يتحرش ، سمحت له أن يفعل أي شيء ما دام أنقذني من قضية أخلاقية قد تسقطني في وحل الفضيحة ، قبلني وفرك ثديي وقلبني على بطني ووضع شيئه بين ساقي ، ثم حشره في بئر خرائي .

صمت .

أخرجه .

صمت .

«بدرية . . يجب أن أفض بكارتك» ، «وماذا أقول للناس؟» ، «لا تهتمي ، سأجلب لك حبوب منع الحمل» ، «أرجوك رفيقي ، أدخله في

فمي ، في دبري ، في عيني ، في عشيرتي في بلادي ، في العالم ، فقط لا . . لا . . لا هناك» ، «بدرية . . لن أتخلص من جحيمي ما لم أشقك الآن» ، «أرجوك رفيقي» ، «لا تخافي ، يمكننا أن نخيطه عند ـ سستر ـ المشفى» ، «لا تلجه كله ، فقط ضع رأسه في الفتحة ، أرجوك رفيقي» ، رفع رجلي وراح يفركه حتى ـ فش ـ قبلما يلجه ، ساكباً قذارته على طماطتي ، «بدرية . . يجب أن تتزوجي سريعاً كي تكوني لي دائماً ، ضعي في بالكِ أن حبل المشنقة قريب من رقبتك» .

صمت .

وعدني أن ينقذني من تلك القضية ، لكن مقابل تواصلنا الدائم معاً في اجتماعات حزبية فردية .

صمت .

بعد تعييني في هذا المكان المنسي ، لم أتصل به أو تدفعني الرغبة نحو آبار الشهوة ، قبل مجيء أستاذ ـ حبيب ـ

صمت .

مذ جاء تحركت ديداني واحترقت ليالي طويلة قبل أن أهتدي لفكرة إيصال عشائه ودغدغة قلبه .

صمت .

آه . . منحني ما كان يشعرني بأنني كائنة تمتلك روحاً عاطفية وما زالت الحياة تمنحها السعادة .

صمت .

لكن يبقى المطلب من منّا يكسب الرهان ، نحن تسعة وهو واحد ، وأخشى ما أخشاه أن يفوز بمعقدتنا ، تلك هي نهاية أو خراب هذا العالم الذي نعيشه .

صمت .

ليتنا وهذا رجاء ، أن نتفاجأ بكوكبة شبّان مختبئين ، سيدخلون علينا في اللحظة القاتلة ونكسب الرهان جميعاً .

صمت .

أتوقع هذا . . وليس من المستبعد ذلك ، ربما (المسلحون) في الجوار ، وربما مجموعة جنود جهزوا أنفسهم لتكملة فقرات حفلتنا الخالدة .

صمت .

كلي يقين هذه ليست ليلتي وحدي ، هذه ليلتنا جميعاً .

صمت .

لكن لو لم أكن واهمة في توقعاتي . . أرجو أن تكون ليلتي أنا ، ها أنا أتهيأ لعرض بضاعتي بعدما أزحت من حولها الـ دغل المتوحش .

صمت .

تحكي إيمان

إن ما يميزني عنكن يا رفيقات أن سقوطي جاء متأخراً .

صمت .

دائماً السقوط المتأخر يعطي فرصة أكثر للمتعة .

صمت .

في طفولتي لم أشعر بهاجس الأنوثة ، لي رفيقات كنّ يخضن تجربة الحب ، كنت أرى الحب سفاهة ، خروجاً من بيت الأخلاق ، خيانة البنت لذويها .

صمت .

وسائل الإغواء لم تنقطع ، كانت صويحباتي يفاتحنني بعلاقات مع شبّان يطرحون بضاعة الإعجاب على مائدة أنوثتي ، لم أجد وازعاً يدفعني أن أركب موج الحب وأعيش تجارب عاطفية لإشباع غريزة المراهقة .

صمت .

عندما دخلت المعهد ، جاء بناء على رفيق مسؤول التنظيم النسوي ، عندما قرأ لنا بعض البيانات والتعليمات الحزبية ، وجدت الفرصة حلماً هبط من غير نوم على بستان حياتي ، لم أمهل نفسي وقتاً لمفاتحة البيت ، كان حلمي لا ينافي رغباتهم ، سجلت اسمي .

صمت .

درجاتي كانت تؤهلني للدخول إلى الكليّة ، لكن ظروف البيت ، وتعاسة الحياة الجامعية ، حالتا دون التوجه للعاصمة من أجل شهادة لا تفرق ما بينها وبين شهادة التعليم الابتدائي بشيء يذكر من السمعة وفرق الراتب .

صمت .

بعدما نجحت ، توجهت نحو الفرقة الحزبية برفقة أمي ، وجدت رفيقي يبتسم : «كنت على يقين أنك ستنجحين من الدور الأوّل» ، قالت أمي : «إيمان جرجرتني كي تقبلوها في معهد المعلمات» ، جلسنا أمامه ، رغم أنه كان رفيقي المسؤول ، لم يكن يتصرف كما تصرف في تلك اللحظة ، كان ينظر إليّ كعاشق مراهق ، يبتسم ويغمز ، وجدت ذلك تصرفات حزبية أبويَّة ، من باب المجاملات الوطنية ، والملاطفات العقائدية للثورة .

صمت .

قال : «يوم غد سأذهب إلى ـ بعقوبة ـ لحجز نسبة بلدتنا من المقاعد الدراسية» ، توقف عن الكلام قليلاً ، ثم تكلم : «ستأتين معي ـ إيمان ـ كي أحجز لك مقعداً» ، كلام يسر وليس فيه ما يريب .

صمت .

رافقته في مركبته .

صمت .

لم أجد وازعاً ما يجعلني أتأهب لطارئ ، كنّا نتحاور عن كل شيء ، عن الدراسة والمستقبل ، في الطريق عرج نحو مطعم شعبي . . قال : «لم أتناول فطوري» ، جلسنا وطلب نفرين كباب ، شاركته بخجل .

صمت .

خرجنا وانطلقنا .

صمت .

دخلت معه (معهد المعلمين والمعلمات) ، وسارت الأمور روتيناً .

صمت .

أخذني إلى بيت شقيقه ، طرق الباب ، خرجت امرأة الجار وأعطته رزمة مفاتيح . . قالت : «ذهبوا إلى الموصل» .

صمت .

كان يجب أن أدخل معه ، فهو رفيقي مثل أبي ، متزوج وله نصف درزن أولاد وبنات .

صمت .

داخل البيت مسكني بشيء من الهلع . . «إيمان . . هذا أمر عادي ، لا تعتبريه تعدياً أو تجاوزاً ، الرجل يحتاج للمرأة والمرأة خلقت للرجل»

صمت .

لم أملك كلاماً ، جف حلقي ، كانت الدموع تترقرق في عيني .

صمت .

بدأ يحتضنني ، فمن كانت في موقفي ستكتشف لكم تبدو المرأة واهنة معدومة فرص الدفاع ، كان قوياً ، شعرت أنني أموع بين أحضانه ، كنت أبكي بصمت ، لم أجد فيه رحمة ، حملني وألقاني على الفراش ، وجدته يخلع ملابسه . . قلت : «رفيقي ماذا تريد منّي» ، «لا شيء ، عندما يتخلص الرجل من عذابه يمكنه أن يسترد رزانته ووداعته ، لا تخافي فقط علينا أن نمنح أنفسنا بعض الراحة ، الحزب

أكل أعمارنا ، لم يترك لنا فرصة للراحة والمتع الجسدية ، يجب أن نسترد بعضه بالمتعة والخلوات السريّة»

صمت .

لم تنفع توسلاتي ، ولا دفاعاتي ، أخرجني من أسمالي وخرج من أسماله .

صمت .

ضعفت وفقدت شعوري ونمت أو خدرت .

صمت .

عندما أفقت ، وجدت نفسي غارقة في الدم ، كان متهالكاً ، يدخن ، كأنه يقف تحت المقصلة في انتظار لحظة إعدامه .

صمت .

تكلم : «إيمان . . يمكنني أن أتزوجك في السر» ، «ماذا أقول لأمي؟» ، «كل شيء سيمضي بسلام ، يجب أن تفاتحي أمك وتضعيها أمام الأمر الواقع ، إنها ستكتم الأمر خوفاً من الفضيحة» ، «لا . . لا . . سأحرق نفسي رفيقي ، لم عملت هذا؟» .

صمت .

عدنا . . بعد أيّام أخذني إلى ـ سستر ـ في المشفى وخاطت لي جلباب شرفي .

صمت .

في ما بعد ظلّ يمارس معي ، لم يتجاوز الحدود كما تجاوزها في لحظة نوم ، كان يفركه ويتركني في حسرة ويمضي .

هذا الرفيق ، النتن ، لم يكن حلمي ، كان كابوساً جاء من مستنقع الرذيلة ، في ما بعد عرفت أنه يشكل مع عصبة كافرة شبكة دعارة ،

يتوزعون في عدة دوائر ، يوظفون البنات الجميلات مقابل الجنس .

صمت .

لم أحتمل ناراً تأججت فيّ ، بدأت أميل لكل وسيم يمتلك جرأة ويرغبني .

صمت .

مجيء ـ حبيب ـ أنهض فيّ أنوثتي ، بدأت أسترد شيئاً من رغبتي التي ماتت جرّاء تأخر زواجي ، كنت أتحين الفرص كي أجده يميل نحوي ، لكنه كان يبدد نفسه بيننا .

صمت .

آه . . لو يقبل أن يتزوجني هذه الليلة ، أليس من حقي أن أشارككن الرغبة ، يمكننا أن نحتكم إلى القرعة ، كي لا تشعر واحدتنا بالغبن .

صمت .

لنقترع في ما بيننا ومن تغدو عروس الليلة نباركها .

صمت .

أرجو أن يكون الحظ معي ولو لمرة واحدة فقط ، ليلتي أنا .

صمت .

ارجو المعذرة . . جلباب حديقتي مخاط وظلّ هذا السر أقفل عليه بالنواجذ ، كدت أن أهدر السر . . لكن هاجس الحمل ظلّ يكبسني من جهة ، ومن جهة أخرى كنت أحلم أن أكون زوجة صالحة له لو فكر يخطبتي .

صمت .

أوراق أرقي

❖❖❖

❖❖

❖

(يوميات/هواجس/مشاعر)

٤ نيسان/١٩٨١

ليس العدو من يحاصرني، مكان حافل بالنخيل، وساتر ترابي يرتفع لمترين، يمتد لا أعرف من أين وينتهي أين.

وصولنا ليلاً حرمنا من جغرافية رحلتنا، ساتر غير حربي، على ما يبدو ساتر زراعي، صنع لحجب النخيل من لعنات العواصف الرملية، أو لكبح جماح الشط إن رغب أن يثور ويندفع عبر النخيل إلى البر المفتوح، حيث الأرض كتل ملحية ممزوجة برمل أحمر، تمتد أكثر مما تقتنصه العيون من بياض موشح بلون رمادي غامق، يذهب لمعانقة الأفق، ليذوب في الفراغ، الفراغ الذي لا ينتهي، الفراغ الذي هو نهاية الأرض.

الساتر أكوام ترابية، على ما يبدو كلفت الكثير من الوقت، ونزفت الكثير من المال ليتشكل خطاً متوازناً في سيره وارتفاعه، من بداية (أبي الخصيب) نقطة الأنطلاق وإلى (الفاو) الذي كان إلى وقت ما عروساً في المنفى، أراه يحجبنا عن الشارع الرئيس، ساتر مرتفع لا ينحني، لم تثلمه الرياح الرملية المتواصلة في فصول الريح.

الجنود ينهمكون بترتيب الأوضاع، بعضهم يستلقي على الأرض، بعضهم يلتقط أو ينتف الشعرات النامية على صفحتي وجهه بملقط، نافخاً خديه بكبس حفنة هواء، أو بعضلة لسانه، كي تبرز الشعيرات بصورة أدق وأفضل قبل قلعها بكماشتي الملقط، مستلقين بأوضاع

متفاوتة ، يعرضون وجوهاً مغبرة على صفحات مرآة يدوية ، ما بين لحظة وأخرى يهتز رأس ، أو يتبدل وضع ، يقيناً لا أحد يقتنع بـ شكله عندما ينعكس في مرآة زئبقها العاكس غير نقي .

في جبهة الحرب تخدع المرآة وجوه الجنود ، تظهر اللامتوقع وغير المقبول ، المرآة خداعة دائماً ، إنها مرآة الشيطان كما يقول الجندي(منير)كونه أملس الوجه مذ ولد .

نهار الحرب فراغ كوني ، ليس هناك أعمال تشغل الذهن وتصرف الحياة ، يغدو اليوم ثقيلا ، دافع الخوف جلياً يرتسم على سحناتهم وانفعالاتهم .

دباباتنا جثت في انتظار ما هو راهن أو قادم ، إنها الحرب ، الكل يخضع لسلطان المجهول ، في انتظار اللا شيء ، هذا المجهول الذي رسمته ألسنة الحكومة على هيئة غول جاء يلتهم أعمارنا قبل الإتيان على خيراتنا ، الدبابات ترتجف ، إنها لا ترغب في الدخول إلى معارك حقيقية ، إنها تخشى القذائف الدقيقة ، تلك التي تصهرها وتلقيها كومة براز لا نفع فيه ، فهي لا تريد أن تحترق ، أو تكون سبباً لإحراق طواقمها البشرية .

أجلس في ظل نخلة ، النخيل تجهل أن الحرب نيران ، أنها تسكر منتشية لمروق القذائف وهي تغني ، تواصل عزفها ورقصها ، تواصل الزهو بخضرتها الأبدية وتمورها الثرية ، إنها تمنح الحياة قاماتها ومسراتها ، عافيتها وديمومتها .

حاول نائب الضابط(حسين) أن يشركني في المهام الروتينية ، مهام لا تنتهي ، نشاط شاغل يدفع ساعات النهار ، يمنح الجندي شجاعة معقولة ، أو يعيد فيه ترتيب أوراق حيرته ، رصدني جالساً

أسـرح في الفـراغ ، لمس صـمـتي عـرف أنني أغـرق في وحل اليـأس ، رفـاقي من حـولي يتـحـركـون ، لم ينفـروا أو يسـتنفـروا ، بدوا وديعين ، متأهبين لقضاء كامل واجباتي ، كان الخوف من الحرب يدفعهم للعمل من غير محاججة ، يندفعون كأن الجد في العمل سيدفع عنهم الموت ، كأن الحركة سلاح النصر والبقاء أوان الحرب .

«يحـاصـرني الوقت/في خلوة مـسـاحـة الأدغـال/في توحـشـات النخـيل/ شـوقي إلى الشـوق يتكاسل/لا نار تحرق أو تسـتنطق خـشب مـشاعـري/لا أملك غـيـر مـريض كـلام/ليت للكلام شـقـاً تجـري عـبـره الكلمات/كما الماء يقهر وحشة المسافات إلى خط البداية/إلى الذوبان من جديد في رحلة العماء الروتيني»

***

«الكلام عندي بقـايا أناشـيـد لفـاصل زمني حـفل بفـاسـد كـلام/الكلام عندي غابة أحاسيس/حقل ألغام/ تعازيم عاطفية/غبار أيّام/الكلام عندي جثث أحلام/ضحايا قوى الظلام»

***

«وقـتي الذي ذبل وراءكِ/اسـتـحـال إلى حكـاية بلا نهـاية/لا وجـه يكسو فضاء حربي سواك يا واحدة الأحـلام /وجهك المدان بالغروب والخوف ونار البراكين/وأوراق عـمـري السـجين/ حلمـه ظلام/ وجـهك الملفع بهمجية الرغبة/وجهك الراغب/ وجهك المتهالك/ وجهك القابع في قفص التردد بكل تجلٍ واحترام/ ظلمتيه يا(وداد)

/عذبتـيـه يا(وداد)/حـرمـتيـه يا (وداد) من فـاصل الغـرام/من لعـبة الحلال والحرام»

***

«من وراء خــمــارك البــاكي وجــهك الندي أراه يذبل/يناغــيني يتوسل/يجرجرني نحو يقينك الخائف/يدعوني لجولة حياة/ومنازلة غير عادلة/في قلبك الواقف»

***

«لا . . لم يكن حـصــاني الصــاهل/ذلك الخـشــبي الزائف/يوم حشروه بالموت وفضوا به قلعة السلام/لسرقة فتاة تقول عنها (الأوذيسة) فتنة أسطورية/سحرت مستنقع الآلهات/فسارت لقنصها الأساطيل والقوافل»

***

«لم يكن رمحي قاتلاً/ولا درعي مخاتلاً/ودمعي الذي في حربكِ ســال/في قــفص الأفق/على مــر الوقتِ/ صــار من أجلك جــيش عنادل/ليل نهار من أجل رغبتنا تتجادل»

***

١١مايس/١٩٨١

ليل جامد ، أرهط خنازير تخشخش من حولنا ، شخير الجنود معزوفات ، تستقطب غابات البعوض ، إنها تطن ، يا للجحيم ، لا تنفع العقاقير البخاخية ، ولا تلك الملاءات الشبكية ، إنها تعبر حواجز الصمت وتخترق كل المصدات الطبية ومبتكرات العقل في ظل الحاجة .

ليس مسموحاً أن نشعل ناراً ونضع أغصاناً طرية كي ننهض غيوم أدخنة خانقة لتطردها ، هذا (الحرمس) كائنات تعذيبية ، تنام نهاراً وتسهر الليل طولاً وعرضاً ، دامساً ومقمراً ، تأخذ دمائنا ، تسلب راحتنا ، وبعد مغادرتها ترتفع حمى اللسعات .

مرت أيّام وأسابيع ، على ما يبدو العدو فطن إلى وجودنا ، لابد أنهم استلموا كامل المعلومات ، عرفوا مساحة رعيلنا ، ودونوا كل الإحداثيات ، فجاءت قذائفهم ضمن محيط الإصابة الفاعلة ، سقطت قنابلهم حولنا ، تحركنا سريعاً ، حصنّا ملاجئنا برفوف من أكياس الخيش المعبأة بالتراب ، لا توجد رمال ، رغم أن الرمال مصدات أكثر تماسكاً وحاجباً ومانعاً لمرور الشظايا الخارقة ، والرمل يضيف خاصية ساندة ، كونه ممراً غير فاعل للجرذان ، وأنه يبقى طويل العمر ، لن يمزق أكياس الخيش ، عكس التراب والذي أشرك معنا فوج جرذان .

جالس بباب الملجىء ، بندقيتي متحفزة ، عقلي يحسب الوقت ،

نديمي (شهاب الخانقيني) المرح ، اهتدى لحلٍ مرضي ، أن نتناصف وقت حراستنا ، نقتسم الوقت كما نقتسم الصمونة اليابسة أوان الجوع ، نام وتركني مع الظلام .

(شهاب الخانقيني) كثير المزاح ، شاب غير مبال بالحرب ، يحسبها معارك صبيانية كما كانت تحصل في الأزقة ، يعتبر الحرب عبارة عن مجموعة كلاب تنبح بوجه بعضها ، قد يحصل الاشتباك أحياناً ، لكنه كان يبعد هذا من ذاكرته وكان يقول : «عدونا لا يعبر الشط من أجل حفنة دبابات أسطورية وحفنة جنود كسالى» . . وكان ما يقوله على حق .

في الليل ، عندما ينفرد الجندي يحتاج لرفقة كي يسحق ثقل الوقت ، وقت الواجب كابوس ، سلحفاة هرمة تقطع كل سنتمتر بساعة أو يزيد ، سلحفاة لا ترغب في ترك مكانها بعدما فقدت كامل شهواتها ، في ليل الحرب تتوقف أميال الساعة ، يغدو الليل أبدياً ، فيضيق القلب ويتعذر الشهيق ، وتبدأ الذاكرة بالبحث عن نديم أو وسيلة أنس .

لا شيء ينفع الجندي في الواجب ، عندما يكون العدو مرمياً على مرمى حجر بالقرب منه ، كل الأسلحة قاتلة ، لا شيء ينفعه سوى الحب ، الحب وقاء مجاني ، صلد وصعب الاختراق لوعاء الخوف في مجاهيل الحياة ، الحب حرب ، سرقوا منه حرف الراء ، راء الرحيل ، راء الرعب ، راء الرماد ، راء الرمال التي ابتليت بها الصحاري .

حتى أولئك الذين لم يجربوا الحب ، تراهم يبتكرون قصص حب وهمية لكنها فاعلة وثورية تنقذهم من شرنقة الرهبة ، وربما تجعل منهم بعض الشعراء أو أصحاب العقول الجاهزة للابتكارات ، في الحرب

تندفع الحياة وتولد الأشياء العظيمة من دماء القتلى وأنقاض مهملات الأسلحة التي انهزمت في أوّل لحظات الرمي .

الحب مطهر ونديم ، عضد مساند يقوي إرادة الجندي أوان الأزمات الوطنية ، عندما ينفرد ليحرس الوطن النائم ببندقية وحفنة رصاص وزمزمية ماء ، يرافقه الحب نديماً نبيلاً لا يخون بل يزيد العزيمة ويمنح الصلابة المعنوية للصمود .

لا شيء يشغلني سواها .

***

«ليل واقف/لا رغبة في الجانب الآخر بتفريغ مزابل أسلحتها/سماء مضجحة بالشهب ونجوم تتجسس علينا/مكبل بهذا القدر/ أين أنتِ يا سفينة العمر/في أي فراش تتهدل فواكهك اليانعة/ من تنازل عن تاج عزوبيته/ وارتضى فلاحاً يجني شهواتك المتمردة/وفي النهار يبكي كطفلٍ أضاع لعبته بين جبلي ساقيكِ/

أمازال وجهك الناطق بالحرمان يستتر بكامل الحجاب/خوفاً من ديناصور السراب/كنت كلما أشتهيتك أسقط في دائرة الحيرة/ في عينيك تلعب عصافير الغيرة/ وكلما دنت فرصة استجواب/ أرتاب/ لكنكِ تهربين من رغبتي الأخيرة/محض أميرة/في قصر الرغبات جائعة/راغبة/و . . أسيرة كسيرة»

***

«يخذلني المساء والبرد والهدوء/منهكة ترتمي رغباتي وتنتحب/ متعثر كل إحساس يحاول إنصافكِ/ أراكِ في نهاية المشهد/ تفيض أوراقكِ بحرائق ونداءات/ علام تتسربلين بالأنين/أ . . كلما أنشدكِ/ ماضيك إلى منصة الوقتِ تجرجرين/مشلولة كل محاولاتي/ عسس

وقضبـان/ كيف السبـيل إلى مـدنكِ/ عـيون أمكِ/ وسلفـيـة والدكِ/ وخنجـر غـريم أقــسم ليــصــرمنك وأنا يقظان/ آه . . قــاســيــة هي مشاعركِ/عاصفٌ هو نداؤكِ/ وحقل ألغام يفصل نهاراتنا/أنتِ الفنار/ وأنا حقل غبار/لا أملك غير الليلِ/وحفنة كلمات مدججة بالحسرات

سفـينة خلاص/وما بيننا صحراء ونخيل/تمنع مرور شـاحنات العواطف/ تمنع زراعة الأحلام»

***

١٥مايس/١٩٨١

مع بيان الفجر الأوّل تناهت إلى سمعي أصوات طفولية ، إنها الحياة تحت الرصاص ، وربما عقلي أضاع وظيفته ، موعد إجازتي الدورية تأخرت بمحض رغبتي ، كنت أمتلك الدافع ، أبقيته سراً ، كلما أراد نائب الضابط (حسين) أان (بغداد) ابن (حي الأمين) ابن (مختار المحلة) ابن (الثالثة والثلاثين) ، أن يدرج اسمي ضمن قوائم المجازين ، كنت أتعلل بعذر تشكل من غير تفكير في بالي ، كنت دائماً أقول أريدها في اليوم الفلاني وفي التاريخ العلاني ، لم ينهض فيه السؤال الصحيح كي أعطيه جوابي الصريح ، لكنني بحت بجوابٍ كان مقنعاً ، قلت إنني على موعد مع حملة حصاد حقول القمح العائدة لنا في قرية (تل الجن) ، لا أحد عرف أنني كنت مفلساً ، لم أمتلك نقوداً كي أسافر وأعود ، انتظرت مخصصات الصنف كي أتمتع بإجازتي الدورية .

مشيت بين ممرات ترابية ، كانت السعفات تميل متقوسة ، تشكل معاً قوساً أبدياً ، يمتد من بداية الساتر الترابي حتى جرف شط (العرب) ، شعور بالمتعة يتملكني وأنا أمشي ، بحثاً عن الحياة في هذا المكان المصادر بالخوف والرصاص ، من بين أعمدة النخيل لمحت صبياناً وصبايا يمرحون ، لا أعرف كيف لمحوني ، ربما وجودهم في هذه الشرانق الخضراء الخانقة ، وفرت لهم حدة نظر ، وفراسة نادرة في اقتناص

غرائب الحركات ، ربما يمتلكون حاسة شم قاهرة ، تجعلهم يصطادون رائحة الرغبات المتجولة ، من خلل توحشات النخيل وتهدل أغصان الأشجار المتعاشقة ، لحتهم يهربون إلى أعماق معتمة ، داعبني ظن ، قد يكونون أطفالاً متوحشين تركتهم المنازل بعد ترحيلهم ، قبل أن أجد رجلاً هرم قبل أوانه ، أقترب حافي القدمين ، يلم طرف دشداشته المثقوبة وحاشراً إيّاه في حزام جلدي عسكري ، حيّاني وهو يشهر منجله بيمينه .

«أنتم الوافدون الجدد»

«جئنا قبل أيّام»

«احترسوا من الخنازير إنها تأتي في الليل»

«رأيت بعضها بالقرب منّا»

«إيّاك أن تطلق النار عليها؟»

«جلبونا لقتل البشر لا لقتل الحيوانات»

«لا تقتلوا البشر؟»

«وهل نسمح لهم بقتلنا؟»

«ليس هذا أعني»

«وهل هناك بشر هنا»

«ليس سوانا»

«جئنا نقتل عدونا»

«ليس هنا عدو»

«نحن غرباء جيء بنا إلى هنا من أجل الدفاع عن بلدنا»

«بلدنا هنا لا يحتاج إلى جنود كي يدافعوا عنه»

«لكن عدونا قال إنه يريد أن يحتل بلدنا»

«لا تصدق كلام الراديو»

صمت .

«تعال معي كي تشاركنا الفطور»

«يجب أن أخبرهم»

«تعال . . ستخبرهم في ما بعد»

رافقته وسط دهشة الصبيان والصبايا ، كانوا حفاة ، أشباه عراة ، جاءوا والتفوا من حولي ، اخترقنا أدغالاً ونخيلًا مائلة وحشائش مجنونة ، دخلت بيتاً ، وجدت بضع نساء وفتيات ، كنّ متلفعات الوجه بالخمار .

في غرفة مستطيلة ، ظلّ الأطفال محتشدين بالباب ، تركني الرجل أسقط في حيرة وخوف .

قال طفل :

«عمو . . هل جئت تحارب إيران؟»

«كلا . . جئت إلى هنا كي تحاربني إيران» . . ضجوا بالضحك .

جاءت بنت ، وضعت أمامي صينية عليها لبن وقدح شاي وخبز حار ، تلاقت عيوننا ، وعند عتبة الباب أدارت وجهها ، رشقتني بنظرات شبه قاتلة ، وبسمة كانت بمثابة بـ طاقة دعوة صريحة ، وإعجاب مؤهل لبداية حكاية غزلية مريحة في مستنقع الحرب .

جاء الرجل ، جلس ، وتشاركنا في تناول الفطور .

قال :

«أخبر جماعتك أن يأتوا ليتناولوا فطورنا»

«هذا كرم أهل الكرم»

«وجودكم خطر علينا»

«إنها الحرب وكلنا نخضع للأوامر»

«الآمر السابق أبعد الجنود عن بيوتنا خوفاً من سقوط القنابل علينا»

«لو كان الأمر بيدي لنقلت دباباتنا إلى مكان بعيد عنكم»

«لا ترموا كي لا يرموكم وتسقط علينا القنابل كما حصل يوم أمس»

«لو طلبوا مني الرمي لن أنفذه بناء على رغبتك»

«لكن احترس قد يتهموك بالخيانة»

«سأحترس»

صمت .

كانت الفتاة تمرق ما بين لحظة ولحظة من أمام الباب ، ترسل بسمة ونظرة ، بعد نصف ساعة تحديداً استأذنت وخرجت لدعوة زملائي بناء على دعوته ، مشيت مسافة ، وجدت الفتاة واقفة على جرف جدول مائي ، أمام ركام قدور وأوان ، لأوّل مرة أشعر بخجل وخوف ، وقفت أنظر إليها ، أطرقت بوجهها ، لم تفارق البسمة شفتيها ، كانت غارقة في بركة الخجل ، مسحت الثغرات الموجودة بين النخيل والممرات ، كان الصمت مهيمناً . . تحرك لساني :

«ما اسمك؟»

«وداد»

قالتها بسرعة ولوعة ورغبة وضحكة ودودة .

صمت .

تشجعت .

«وأنت ما اسمك»

«حبيب»

صمت .

بدأت تحرك رأسها ، خوفاً من ناظر أو مراقب .

«تعال إلى هنا كل يوم»

«أخاف من القنابل»

«لا تخف ، إيران لا ترمينا إذا لم ترموهم»

«ولماذا أجيء إلى هنا كل يوم؟»

صمت .

تريد أن تعلن عن شيء ضاغط ومسجون ، لا تملك الجرأة ولا وسيلة تمرير ما عندها من كلام ، ظلّت تكافح وتناضل للتخلص من شباك الخوف .

قلت لها :

«إذا كنت تحبينني سوف أجيء كل يوم إلى هنا»

«تعال كل يوم»

«لا أستطيع»

صمت .

قلت لها :

«إذا أعطيتني قبلة سوف أجيء كل يوم إلى هنا»

رجف بدنها ، كانت متحمسة ، كانت مترددة . . همست :

«أخاف!»

نزلت داخل حفرة مخلفات قذيفة ساقطة ، جلست . . قلت :

«هنا لا يرانا أحد»

ترددت قبل أن تقترب ، مسكتها من يديها ، راحت ترتجف وتحاول

أن تخرج من مأزق أجبرت نفسها على السقوط فيه ، صارت كتلة نار بين أحضاني ، تملصت وصعدت إلى الجرف . . قالت :

«اذهب من هنا ، سوف يأتون»

نهضت ومشيت وأنا أنظر إليها ما بين خطوة وخطوة .

رفض زملائي تلبية دعوة الفطور . . قال أحد الجنود :

«كيف وثقت بهم؟»

«ناس بسطاء بقوا هنا بمساندة آمر القاطع»

«ألا تعلم أن بعضهم جواسيس لـ إيران؟»قال (شهاب الخانقيني)

«وجدتهم بسطاء العيش والصفات»

مضت صباحاتي ومساءاتي على وتيرة واحدة ، تارة نلتقي وتارة أغرق في أمواج العذاب ، تتوقف الساعة ، ويغدو الليل أبدياً ، عندما لم تتح لنا فرصة اللقاء .

إنّ ما أثلج صدري وأزاح غبار العذاب الذي يسكنني ، هو اسمها (وداد) ، ليست (وداد)الأمل ، هذه الـ(وداد) الجانب النقيض لتلك الـ(وداد) ، بدأت العافية ترفل على وجهي ، ولساني مزق لجام الصمت ، عادت الفاكهة المحرمة لتسكنني ، لتطعمني ، لم أكن ذلك المتمرس ، الفاقد إرادته ، كنت كائناً متعاطفاً ، حنوناً ، لم أجد رغبة لتجاوز الخطوط الحمراء ، وجدت القبلات والهمسات ملاذاً ومنقذاً من العزلة والغربة والخوف ، كانت تموع بين أحضاني ، تشاركني لهفتي ، بدأت تتشجع وتبادر قبل أن أجد عطشي يلح ، تمد أصابعها ، على صدري ، تمررها إلى فمي ، تصعد إلى رأسي ، تلقي برأسها على صدري ، في لحظة تسام ، يغدو كل شيء مهيئاً لـ حرب الجسد .

***

«فـتـاة واحـدة . . /تحـوَّل جـبـهـة حـرب إلى فـردوس ضـاج بالمسرات/فتاة واحدة . . / يمكنها بسلاح أنوثتها تدمير الحياة/فتاة ناشطة في حقل العاطفة/من أي القارات/يمكنها . . تأجيل الموت داخل دهاليز القاذفات/ دعهم يقطفون ثمار اللعنات/ هيهات . . هيهات/ ثم/ هيهات . . هيهات/لا يجلب العدو في ظل الحب تواريخ الممات»

***

«قلبي الموزع بين مقابر بعيدة/يرفض مهادنة الرياح العنيدة/تحت شدو البلابل الغريدة/تحت تناغيات السعفات السعيدة/يستلم كل يوم بريده»

***

«قبلات داخل لفافات طعام/وكدس ضحكات تنحشر داخل قدح لبن أو شاي/أو حفنة كلام/عقاقير فتاة مطببة آلام/ . . يا سلاااااااااااااااااااااااام»

***

«عندما تكسف الرحلة شمسها/عندما الأصيل يعلن الحداد/عندما يمر يومي من غير(وداد)/ليست تلك التي ذرت بستاني بالرماد/هذه الـ وداد/باقة أوراد»

***

«يوم كسوفها تذبل/أدفن روحي في صمت الجداول/تنوح من حولي رفوف العنادل»

***

«بلسان فصيح/تنوح . . /تصيح/ـ أيها الساقط في حبائل

السؤال/لا تحتر/الحب منذ الأزل/بريد الأقدار»

***

«في الليل/في النوم/ستأتيك على بساط الريح/غزالة الحرب/عندها . . تنجلي من فضاء خوفك/سحب الغضب/تتقهقر خطواتي/تخمد آهاتي/فيلفظ القلب/سكاكين العتب»

***

«عندئذ/أو . . /بعدئذ/أو . . /قبلئذ/ألوي عنق رجفاتي/أتوكل على الربِّ/ وأمسك/لحظتذ/صحن الدرب»

***

١٧مايس/١٩٨١

عشرة أيّام ، عشرة قرون ، عشر رحلات ، عشر عودات ، عشر ليالٍ ساهرات ، لم يعد بوسع الجسد استيعاب الحيرة ، كل شيء زال ، (وداد) لم تعد تغرد مع العنادل ، لم تعد هسهسات قدميها تلاقح شدو البلابل ، لم تعد موجودة ببرائتها ، بسر البسمة الهادئة على شفتيها ، لم تعد نظراتها أسرار قلب نضج باكراً وراح يطلب ضحيته .

تشجعت واقتحمت المنازل ، مجنون فقد البصر والبصيرة ، أزيح خراب العينين ، قذارتهما ، أبحث عن صورتها ، أبحث عن قطعة قماش من مخلفات ملابسها ، أبحث عن نظراتها الهاربة داخل الغرف ، على الجدران ، على الجدول المائي وقفت ، هناك زرعنا حديقة أمل ببضع همسات وحفنة قبل ، من على الأغصان الحزينة أسراب عصافير ترمقني ، حائرة ، خائفة ، إنها تدرك حجم المصيبة التي حلّت بالمكان ، لابد أنها تعرف مديات الكارثة ، تعرف ما معنى أن ينتزع هذا الكائن الخرافي الماشي على اثنين ، من عرينه .

لعنت السيد الآمر الجديد ، ما إن جاء وعرف بوجود حياة حقيقية داخل غابات الرصاص والنخيل ، أصدر أمراً جائراً ، كان بمثابة طلقة رحمة كتم بها نبض كياني المحتضر ، كان ترحيل (وداد) ترحيلاً قسرياً لحياتي المتبقية ، من لحظتها متٌّ بـ قلع آخر جذر نبت لي في حياتي الجديدة .

عـادت دورة حيـاتي ، العـزلة ، الجنون ، والعـودة لمستنقع الرذيلة ، الجبهة ساكتة ، ربما العدو حزين لرحيل (وداد) .

***

«وداد ـ و ـ وداد/كل ـ وداد ـ محطة جـروح/أم هي لعبـة قـدر قارع/لم تعد الشمس تغسل جدائل رغباتي
/لم تعـد أرض عـواطفي مـزارع/ليس لي إلاّ هذا الصهيل المتواصل/النبض الضائع»

***

«أمد كفي . . /أطلق بلابل جوفي/تنبح بوجه مشاعري/كلاب المستحيل/تلك الـ ـ وداد ـ واجهتني بعنادها الجميل/وهذه الـ ـ وداد ـ /أفق مجروح/حلم مفتوح/أبداً ودائماً جائع/ومازال مستقبلي القريب أفقاً مخادعاً»

***

«الماضي . . /من مملكة بوحي لا ينجلي/وحاضري يجرجرني/إلى مدافن المستقبل/يغريني نداء قلبي/أن فاكهة أبدية/سترخي عباءة وجدها/على صهوة الصدفة/ستأتي/تجعل فتائل روحها مشعلاً/لتورق ـ في القريب العاجل ـ /ريحانة أخرى/في حقل الأمل»

***

١٩حزيران/١٩٨١

رافقت الجندي (صلاح) إلى ساحة (سعد) ، بعدما أقنع نائب الضابط (حسين) بضرورة إيصال راتبه إلى أهله ، عن طريق سائق حافلة بينهما صلة قرابة ، يشتغل على خط (البصرة ـ بغداد) ، لم يمانع من مرافقتي له ، بعدما طلب مني ، كيلو غرام (جرزات) ، كان يجب أن أخرج من السياج المكهرب بالرصاص والحرارة وموت آخر جذر حياة لي ، المتمثل بقلع (وداد) من بستان الحب والحرب .

كل الناس يواصلون حياتهم بحيادية ، لم تعد الحرب هاجساً يلغي رتابة الحياة ، قد يكون شكل المدينة اتخذ لون الحرب ، زرافات الجنود يلهثون ، لكن أهل المدينة ، مسكونون بالحب والسلام الروحي ، أهي طبيعة أهل (البصرة)؟ ، أم أن الحرب فاصل زمني ، يلغي زمناً ويأتي بزمن آخر ، يقبر التاريخ ويفتح صفحة جديدة لتاريخ حافل بمتناقضات وحداثات تنفرها الأذواق وتستقبلها على مضض بعد حين .

لا تفارق البسمة شفاههم اليابسة ، ولا تغادر الدهشة والسرور عيونهم الغائرة ، ففي ظل الحرب يشعر الإنسان بإنسانيته ، ينسلخ من وقاحة العيش ، من قباحة الغايات العليلة ، تلك التي توفرها الظروف ، وقسوة المناخ ، ووحشية الطبيعة ، وتعمق جراحاتها توجهات الـ حكومات الشاملة ، يتجرد الإنسان من روح العزلة ، من الغضب ، من الأحلام السرابية ، يغدو كائناً متعافياً روحياً ، يميل إلى التجمع ،

تنهض فيه مصابيح التعاون ، وكل إنسان يساهم ولو بقدر معين مما يمتلك ، فتغدو الحياة غير عابئة بما يدور من تجاوزات وغرائب سلوك .

المركبات بدأت أكثر الأشياء الأخرى دعماً للـ مجهود الحربي ، مركبتين ركبنا ، وجدت السائقين يبديان المرح ، رفضا أن يقابلا معروفيهما ببضعة دراهم ، عندما نزلنا من المركبة الأولى . . قال صلاح :

«إنها الحرب ، إنها . . سقوط الإنسان في الفراغ ، فلابد من وسيلة للخروج من هذا الفراغ ، لذلك تدفع الإرادة المزعزعة كل واحد منا نحو الآخرين بشيءٍ من فطريتنا المبادة ، إنه تعبير متأخر عن روح الجماعة»

لم أفهم مراده ، ولم أرغب أن أعقب ، كنت مشغولاً بتلاطم الأمواج البشرية من حولنا .

بعد هبوطنا من المركبة الثانية . . قال :

«هي الحرب . . بعد أيّام تتبدل الأمور ، تموت الدهشة ويعود المرء ليسقط في فراغ جديد ، يخرج منه خشن الطباع ، يومها تعم الفوضى ، يكثر الفساد ، وتتشكل خلايا أرهط بشرية من بيننا ، يسمونهم ـ تجار الحروب ـ سيمتصون رحيق بشريتنا ، وتغدو حياتنا المتبقية طعاماً للجحيم ، عندها تولد مستنقعات الفردانية»

قلت له :

«أليست لحكومتنا عيون ساهرة تطارد العث والعناكب»

حدجني بنظرة ، عرفت أنه غضب ، هز رأسه . . قال :

«أخشى أن أقولها»

«عرفتها»

«حسناً قلها لنفسك ، ذلك هو ردي!»

الكلمة المتوقعة التي حضرت على لساني (عاهرة) ، الحكومة

مشغولة بالحرب ، تنام عيونها عن مجريات حياتنا الداخلية ، فتغدو الأمور سفناً منفلتة في خضم محيطات هائجة .

(صلاح) شتلني في مقهى ، لم أرغب أن أستفسر أو أعرف سبب تركي وذهابه في أمر منفرد ، سئمت الجلوس وشربت قدحي شاي ، وجدت مكوثي يثير الريبة ، شعور شخصي ، بعدما وجدت العيون تلاحقني ، صاحب المقهى . . قال :

«جاياتك واصلة ـ أبو ـ التحرير»

لم يمهلني السؤال . . أردف :

«أنت ضيف عزيز علينا»

خرجت إلى أقرب مطعم ، تناولت غدائي وعدت . . وجدته حائراً يجلس . . قلت :

«تأخرت كثيراً عليّ»

ابتسم ، وجدته فاقداً الكثير من نقاء سحنته ، لم يفه بشيء ، مسكني من معصمي وسرنا عائدين .

قبل الغروب بقليل وصلنا رعيلنا ، بعد العشاء وفي فترة الواجب الليلي ، قال لي كل شيء ، لم يكن صادقاً في قضية إيصال راتبه إلى أهله ، شرح لي بالتفصيل علاقته بـ عاهرة ، كلما سنحت له فرصة ملائمة يختلق عذراً ليجتمع بها .

«كان يجب أن تشركني معك»

يبدو كلامي ثقيلاً ، لم يستسغه ، هزّ رأسه بعد صمت قال :

«ليست كما تظن ، كانت زميلتي في الكلية ، لم تسعفنا الظروف لنتحد في حياتنا ، أجبروها على الزواج من ضابط سقط في الأسر .

«قد لا أصدق كلامك»

«لك ما تشاء ، التقيتها صدفة في دائرة البريد والاتصالات ، لم أرغب أن أنكأ جرحاً قديماً ، تقدمت مني وحكت لي حياتها وفراغها»

«كان يجب أن لا تدنسها»

«ثق هي من قامت بتدنيسي ، وضعتني بين كماشة رغباتها القديمة وحرمانها المفاجئ بغياب زوجها»

«كان يجب أن لا تنخدع كي تبقى كائنتك المثالية»

(صلاح) أظهر لي وجهه الآخر ، كلامه لا يشبه كلام الجنود ، يتكلم بمصطلحات منمقة ، يتفلسف دائماً ، عرفت منه أنه يكتب القصص القصيرة ، نشر بضع قصص في مجلة (الطليعة الأدبية) ، فتشكلت لدي معه تلك العلاقة الساحرة والجدلية الملهمة ، بين أهل الثقافة والفن عندما يوجدون في منطقة الموت ، هذه الطبيعة لا تشكل علاقة جدلية دائمة في أوقات السلم ، غالباً ما توجد مشادات ومفارقات تمتد من المقاهي إلى متون الصحف ما بين تلك الشريحة المتعالية مشاعراً والمتسامية ثقافة ، والمفروغة تواضعاً والضحلة مضموناً .

نام وبقيت ساهراً ، وجدت نار الـ مشاعر تتململ في موقد الروح .

***

«بريد الموت يقف على عتبة الليل/من يوقف عربة الجحيم؟/من يوقف هذا الجدل العقيم؟/لتعود شآبيب العشق إلى قامات النخيل»

***

«بريد الموت يهيء كفني/جالساً على حافة المصير/وعمر السعادة في بلدان الحرب قصير/هكذا يشخط قلم زمني/حلمك أيها التائه/عسير»

***

«ذكرياتنا/كرات تتعلق بحبال الطفولة/مهما عشنا/سعدنا أو شقينا/ستظل مصابيح تشق ظلام حياتنا نحو خرائب الكهولة»

***

«حبك . . /شجرة تنمو معي يوماً بيوم/مهما فعلت الحرب/تاريخنا سينطق حلمي المعلوم/مشاعري أكثر من رمال الصحراء الكبرى/ورغبتي/غابات نخيل تمتد/من ـ عموريا لـ سدوم ـ/يروقني أن تضج عصافير عنادك/بعدما يغدو هذا الزمن الراقص/محض صقر مهزوم»

***

٢ تموز/١٩٨١

وصلت مركبات وهبط الجنود ، شاركنا الوافدون الجدد ، هيأنا لهم وجبة غداء سريعة ، ستة جنود وضابط برتبة ملازم ثان ، على قمة الساتر الترابي خلفنا مباشرة زرعوا هيكلاً حديدياً كإخطبوط أو عنكبوت في لحظة قنص فريسة أو لحظة قتال ، قالوا :

«جهاز رازيتا»

هذه الكتلة الخضراء ، تمتلك وظيفة شيطانية ، إنها ترسل أشعة غير مرئية ، فوق بنفسجية ، عبر النخيل ، عابرة لمسافة قد تمتد لستة عشر كيلومتراً كما جاء على لسان الضابط النحيف الخجول ، تمر الأشعة بسرعة الضوء وترتد عندما تصطدم بكتل حديدية باركة أو متحركة في الجانب المعادي ، جهاز قالوا إنه قديم ، صناعة بريطانية ، تم تفعيله وشحنه إلى جيشنا كونه يوفر لقطعاتنا إستمكانات فاعلة ، تعزز من الوجود وتكتم حركة الجانب المعادي ، بعدما توفر فرص إصابات نادرة وحاسمة لمدفعيتنا ، دقيق في إعطاء إحداثيات تقاس بالأمتار ، من على شاشة صغيرة يمكن تحديد الهدف ومساره وإعداد القذيفة المناسبة له من مدفع بعيد المدى ، بعد اتفاق مسبق مبرمج ما بين الجالس خلف الشاشة والواقف خلف المدفع رامي القذيفة .

إنها الحرب . . كل طرف يوظف قدراته المالية ، ونذالاته

الشيطانية ، يضحي بكامل الشعب وكل أحلام المستقبل من أجل كسب الحرب ، من أجل دحر غريمه .

من بين الجنود كان الجندي الأسمر (صباح) ، بصراوي مرح ، دنا مني ، تعارفنا من غير مقدمات ، ورحنا نتجول عبر غابات النخيل ، يحكي لي عن حياته التعيسة ، وأحكي له عن حياتي المضاعة .

(صباح) في جولة صباحية ، سحب أقسام بندقيته وسط ذهولي ، برك يستهدف هدفاً ، في البدء خلت أن عدونا قد تسلل ، وربما لمح خنزيراً منفلتاً من قطيعه ، لكن الهدف ظهر ، قطيع من البقر ، وحشتها الحرب ، لا تستأمن البشر ، من مسافات بعيدة تفر محدثة عاصفة غبارية .

طلقة واحدة أسقطت عجلاً ، ظلّ يتخبط ، ينهض ويسقط ، ظلّ القطيع يكافح لنجدته ، لكنه فر بعدما يئس منه ، كان (صباح) قد وصل إلى الضحية وبحربته فصل رأسها ، شق بطنها ، أخرج (المعلاك) واقتطع اللحم من الفخذين ، وترك البقية للجرذان وبنات آوى ، جاء يلهث ، مدمى الأسمال ، لم أجد تفسيراً لما حصل . . قال :

«إنها الحرب . . عليك أن تأكل كثيراً قبل أن تقتل»

«هذه جريمة شرعية ، وتبذير يا أخ صباح»

«عندما تجوع عليك أن تسرق وربما تقتل كي لا تموت ، أرواحنا عزيزة يا أخ حبيب»

عدنا .

صعدت رائحة الشواء من رهط جهاز الإستمكان ، ومن يومها بدأوا بقنص القطيع حتى قضوا عليه .

(صباح) ، حين كان طفلاً ، تركت أمه البيت ، هاجرت برفقة

بحّار شاب ، كانت تغتسل على حافة الشط ، وقفت السفينة وهبط منها لشراء طعام وسجائر ، نسيت أم (صباح) أنها زوجة فلاّح ، وابنها في القماط ، غازلها البحّار ورافقته من غير تردد ومن غير مقدمات ، أبوه سرد له حكاية أمّه عندما كبر وبدأ يسمع كلاماً يجري علناً أمام مسامعه .

«أمّي كانت مبتلية بالشهوة ، وأبي لم يكن موفقاً لإشباعها ، ضبطها مع شباب ، كانت حاملاً ، خاف أن يرميها خارج البيت ، كان أبي ضعيف الإرادة ، قليل الحول ، ترك أمرها ، لكنها وجدت الفرصة التي قصمت ظهر حياته ، ودمرت حياتي ، ترعرعت على الفقر ، كبرت بعسر ، ها هي الحرب تستدعيني ، يجب أن أخالف كل ما هو مشروع ، كل عمل مناف يشعرني بأنني أسترد أو أحقق نصراً ، انتقاماً لمجهول يسكنني »

كان يحكي بعينين دامعتين ، بقسوة لسان ، بتوسل ، بخضوع ، قال كل شيء بصراحة ، فتولدت فيه نزعة التمرد ، عدم الخوف من المغامرة ، تلك هي دوافع رغبته في تدمير جماليات الحياة ، ينحر بقرة كاملة من أجل لقيمات لحم ، يقتلع نخلة كاملة من أجل لوك لقيمات من (جمّارها) .

إن ما ميز (صباح) عن رهطه ، عدم شعوره بالمسؤولية ، عدم إطاعته الأوامر ، ولم أجد ضابطهم الشاب يتعسكر عليه ، كان مسكوناً بالخوف ، لا يبارح الملجأ إلاّ لماماً ، فقط عندما تقتضي الضرورة لقضاء حاجته .

ميزة أخرى باغتني بها (صباح) ، كنّا نتجول ، قبل أن يتركني ويدخل بيتاً مهجوراً ، خلته يقضي حاجته ، لكن غيبته طالت ، مشيت

ودخلت البـيت ، وقـفت أنظر إلى ست غـرف ، من إحـدى الغـرف خـرجت (أتانه) قـبل أن يخـرج (صبـاح) وهو يزرر بنطاله ، لـم تتبـدل ملامح وجهه ، كان غارقاً في العرق ، فاتحاً فمه . . قال :

«إنهـا الحرب ، عليك أن تفـرغ شـهـوة جسـدك أينما كان ، قـبل أن تقتل»

لم أعقب ، خرجنا نمشي . . قال :

«أخ ـ حـبيب ـ عـشت حيـاتي مع الـ حـمـير ، في الليل أتسلل عندما ينام أبي إلى الخرائب لبيوت الجيران ، دائماً أجد واحدة تمنحني الراحة الجسدية ، وتروض فيّ روح تدمير جماليات الأشياء من حولي»

«أنت متهور وخارج عن ركب البشرية ـ صباح ـ»

«صدقني لو تقبل الحكومة لتزوجت أتانه»

«وما دخل الحكومة بالشواذ»

«أتدري من بعد قصة أمّي لم أجد رغبة في الزواج بفتاة»

«على ما يبدو أنك مسكون بالعقدة النفسية المحرّمة»

«على أقل تقدير إنها لا تفلق رأسك بمغريات الحياة»

«لكنها مثل أمك تعشق الآخرين»

«يمكنني ربطها في البيت وأمنعها من الخروج»

«لكم أنت حيوان يا ـ صباح ـ»

«يجب أن نكون حيوانات عندما يحكمنا حيوان»

«هذه فلسفة خطيرة»

«إنها الحرب يا ـ حبيب ـ»

عند جدول ماء ، نزع أسماله وتعرى بالكامل من غير خجل وهبط يغتسل .

مشينا ، بدأ بقطع الأغصان المتهدلة ، وكلما لمح طيراً أو عصفوراً ينحني ، يلتقط حصا ويقذفها ، أهوج مثل ثور مربوط ، عرف أنه مساق للذبح .

«بقاؤك هنا خطر على الحرب»

«أنا أحارب بطريقتي الخاصة ، علي أن أحارب حتى تحقيق حلمي»

«وما هو حلمك يا ـ صباح ـ»

«أن أصبح رئيس جمهورية هذه البلاد»

ضحكت وضحك معي .

«لم تسلم منك الأغصان فكيف تدير شؤون العباد والبلاد»

«صدقني سأعيد البلاد إلى عصر العفوية والخير ، سأخلصها من عصر الانحطاط ، سأمنع ركوب المركبات ، على كل وزير في دولتي أن يركب الحمير وهو يذهب إلى وزارته»

ضحكت ، ربت على ظهري وضحك .

«حسناً دول الجوار ستقوم بتربية الحمير كي يتم تهريبها إلى دولتك سيادة الحمير ـ عفوا ـ الرئيس»

«أتدري لم أعشق الحمير؟»

«كل كائن ينجذب لجنسه»

«أرجوك أنا رئيس ، خاطبني كرئيس»

«حسناً سيادة الرئيس ، تحتاج إلى وزارة تعنى بشؤون الحمير»

«كلا . . ليست وزارة ، بل وزارات ، وزارة التوليد ، ووزارة تعنى بصحة الحمير ، ووزارة تعليم الناس الرفق بالحمير»

«حتماً ستغير المناهج الدراسية وتجعل صور الحمير في كل

تقاطعات الشوارع»

«بل ستكون صور الحمير تتصدر صحف دولتي ، وأجعل صورة كبيرة في كل دائرة وربما أفرضها على المنازل»

«حتماً ستغير عنوان دولتنا أيضاً»

«كل شيء في أوانه ، ما أجمل أن ترى كل الناس على ظهور الحمير ، إنها العفوية ، إنها الوحدة ، إنها الحياة»

«يبدو أنك نسيت علم دولتك»

توقف وحدجني بنظرة . . قال :

«سأركب واحداً وعلى الوزراء المختصين تنفيذ المرسوم الذي ينص على وضع اللقطة على كل مرفق من مرافق دولتي»

ضحكت ولم يضحك ، صمت ومشينا عائدين .

١١تموز/١٩٨١

يوم عادي ، لا رغبة في الفطور ، حياتي تتهرأ ورقة ورقة ، الجنود يلعبون بأحجار الدومينو ، النائب الضابط متمدداً على ظهره ، يقرأ في جريدة (القادسية) ، وحدي أجلس تحت نخلة برحية قرب الملجأ ، من الساتر الزراعي ، قرب جهاز ـ الرازيتا ـ يرتفع دخان شواء اللحم ، يرتفع الدخان قبل أن يتعرض لصفعة هواء يبدده .

***

«أجمع نجوم الليل/لأبني لكِ مدينة خيال/قد أكتشف في النهار/مدينة كريستال/أو . . /أكوام رمال»

***

«إنها الحب/لا كما يقولون : /إنها الحرب/يا دمعة الماضي المراق على جثة حلمي/يا مانحة فرص الجمال رغم صمتك المتعال»

***

«عنادكِ عصافير ضجت أوان الرغبة/في روحي وجدت أعشاش حريتها/من وظف في روحك أسلاك الحصار؟/ومنع نهر دمعي أن يجري ليسقي سواقي وجدكِ المتعال»

***

«في صحني ظلّت سكين الأمل تنتظر فاكهتك/بين رغبتين رقصت مشاعرك/ناراً ونوراً كنتِ/وأنا أتقاذف فوق جمر الحيرة/مثل

بلوط الشتاءات القصية/تدفعني . . الصرخات/لذبح كلاب حراستك/آن أن أعلن غاصباً دولتك/ ليكن ما يكن/صرخت الرفيقات/أخوات اللذة/حاملات الشهوة والآهات/إنها المكيدة/صاحت رفيقة/صاح الفؤاد/إنها الحب/فظلّت روحي تسقي جذوركِ يا (وداد)/قبلما تصرخ حكومتنا/أيها الشعب/إنها الحرب/فمات القلب/وصار الوطن رماداً/من لحظتها غدت حياتنا بلا أعياد»

***

١٤ تموز/١٩٨١

تعربد إذاعتنا ، تربط زهو الماضي بـ(خربطة) الحاضر ، العدو يقصف ، يريد أن يميت فرحة السلطة بعنوان كرامتها ، بيوم ميلادها ، تلك هي ملابسات سياسية ، توظفها السلطات الفارغة ، غايتها ملء العقول الفارغة بموسيقى العز ، تريد أن يغدو المواطن حيواناً مروّض الرغبات ، مطيعاً ، يعطي كل ما يملك ، ويأخذ ما تقطره قطّارات الثورة في صحون الفقراء والمنتظرين ، الجنود يلعبون بأحجار الدومينو ، لعبة قتل الفراغات الحياتية .

جاءني (صباح) ، وخرجنا نتجول بين النخيل ، تنهض رغبة المغامرة عندما تتحرر من قبر الملجىء ، تمشي وتحدوك الرغبة أن لا ينتهي الدرب قبل أن تنتهي الحرب .

ظلّ (صباح البصراوي) يحكي عن جنونه ، عن آثامه التي تتواصل معه ، عن شذوذه ، عن سرقاته ، عن ليال شديدة قضاها في الشوارع والنوم على الأرصفة ، كل هذا الانحراف توالد بعدما ربط والده مصيره بفتاة صغيرة ، تلك الفتاة راحت تفرض عليه أوامرها الأنثوية المدمرة ، كان الأب شيئاً فشيئاً يتحول إلى حمار مطيع ، وجاء اليوم الموعود ، وجد نفسه مرمياً ، بناء على رغبة تلك العروس .

فقد صلته بالحياة ، كان يجب أن يعيش ، سرق وشذ ، تعلم

المكيدة ، تعلم كيف يخمد صرخات روحه وهلع جسده ، تعلم فن التسكع بامتياز .

قرب مجمع بيوت وقفنا . . قال :

«لا أحتمل نفسي»

«لا أفهم كلامك»

«انتظرني لحظة؟!»

دخل البيوت وعاد ، مشينا من جديد ، عرفت مقصده ، تكلم :

«ربما سأهرب إلى البلدة إن لم يحالفني الحظ هذا اليوم»

«حسناً . . يمكنك أن تستمني»

«أنت مجنون ، هل تترك هذه السعادة المجانية وتحرق أعصابك بـ بلاش»

صمت .

عند بيت منفرد ، لمحنا جندياً يخرج وضاع في أحراش النخيل . . قال :

«وجدتها!»

تركني ومضى ، جلست عند حافة الجدول ، لا أعرف لم تحركت مشاعري ، وجدت نفسي ألاعب ثمرة عواطفي وذبت في بركة لذة كسولة .

عاد (البصراوي) متهلل السريرة ، منتعشاً كأنه خارج من خدر عروس . . تكلم :

«ليتك تجرب هذا»

سقط عيناه على تلك البقعة المتناثرة . . قال :

«يا لك من غبي ، تهدر حياتك هدراً»

عدنا .

قبل الملجأ ، ألقى أسماله وهبط يسبح في الجدول كما ولد .

وصلنا الملجأ ، وجدنا الجميع في حيرة . . قال (صلاح) :

«غداً نغادر ـ الفداغية ـ إلى الفاو»

تألم (صباح) ، وجدت نفسي في حيرة وفرحة ، تغلبت الفرحة ، ففي خيالي شع ضوء أنار لي مساحة فرح ، كان الهاجس المتوالد ، هو إمكانية إيجاد فاكهة جديدة ، لابد من عائلات ما تزال منفلتة من القرارات العسكرية المتبدلة .

جاءت سيارة الغداء ، تناولنا غداءنا ، بعض الجنود تراخوا وغطوا في القيلولة ، بقيت أحدق في سقف الملجىء ، أحاول أن أجد دافعاً يلقيني في لجة النعاس كي أنام قليلاً .

***

«أعبر حدود الألم/أسقط في وحل الندم/تجابهني متاهة/أعرف أنني أبتدىء رحلة النداهة»

***

«على مذبح الصمت أستلقي/علّ رفيقة من متاهات الخيال جنبي تستلقي/خولة/أميرة/بدرية/فريدة/ جيهان/ إيمان/ حمدية/ سميرة/ كريمة/ أم عليوي/ أو ـ وداد ـ/ أية رفيقة أضاعت قلادة أخلاقها/ وسبحت في بحيرة الفساد/تأتي لنزرع ألغام عذاباتنا/على أديم الحرب/ لندفن راحتنا في مقبرة اللذة/على ذمة البلاد»

***

«عـاليـاً ترنو أصـابع رغبـاتي/تمد أعناق ثورتهـا إلى الأبد/الحـرب أعراس/الحرب نشيج يلتبس كل الناس»

***

«مـجيـئك الآن/يجـدد تفسـيري لحيـاتي القـادمـة/من غـيـرك . . حياتي/قبضة رمل/في رياح الأمل»

***

«مجيـئك الآن/قد يقلب مزاجي ويدخلني في فـرن القدر/دائمـاً تذكارك/عتمة تتكشف عن نهاية العمر»

***

١٩ تموز/١٩٨١

الفاو . . رهان رابح عندما تنام الحرب ، مرتع يلعب فيه أصحاب الأورام العاطفية ، هناك حيث الشط يتخثر ، ترسو السفن ، تقام أعراس أبدية ، تخاليط بشرية ، من كل الأعراق والأجناس ، لغة السلام تجمعهم ، العيون لم تجلب في رحلتها قاموس الغضب ، تنزل بضائع وتصعد بضائع ، من بطون (الأبلام) تتعالى صليات التصفيق ، ألسنة تغني حياتها وهي تهيئ السمك والمحار وسرطان البحر ، البعض يعلن عن طيور البط والخضيري والنوارس وهي تصيح وترفرف ، والبعض يكتفي بعرض أكياس الخضاب .

عالم مادي متسامح ، نساء جاهزات للرقص واللهو ، يبحثن عن مسافر يريد راحة ، تغيب الأطماع ، الكل يندمج في قتال الروح وشرب مسيل العافية المتناثرة على كل شبر من المدينة .

تبدو المدينة ضاجة بالفرح ، من فوق المنازل ، رؤوس تطارد مهرجان الخلود لمدينة لم تذق طعم الرصاص ، مذ عجت في فضائها توابل الهند .

إنها الحرب .

تصرخ الطبيعة ، الحرب غول يؤرقه الفرح ، يطارد قوافل العافية .

إنها الحرب .

تهرب الناس ، تتوقف السفن ، تهرب الأسماك والكواسج

والسلاحف ، تهرب رائحة التوابل وتغزو رائحة البارود .

بيوت نائمة ، تنتظر مسيح الحرية ، تنتظر موت المدافع لتعيد رقصاتها التاريخية .

كل شيء راكد ، النوافذ مشرعة ، الأبواب مخلوعة ، تمر عبرها همسات الصبايا بحثاً عن القلوب التي نزفت أناشيدها العاطفية زمن العافية .

أتجول ، من خلال مكامن غير أمينة ، تبدو السفن حزينة ، مائلة ، نائمة ، كأنها عاشقات على الدرب ، ينتظرن عودة فرسان القلوب من المدن البعيدة .

أدخل إلى غرف النوم ، تنهض بوجهي شهوات الليالي المجيدة ، أهرب لتجابهني العصافير بأحزانها .

أتجول . . كل شيء يسكنه الأمل ، تصرخ أغواري ، إنها الحرب ، في الحرب يرحل الأمل .

أعود .

الجنود في غرف مؤثثة يتحاورون أو يتشاجرون حول الثرثرات العقيمة .

يقول صلاح :

«أكتب عن الفاو . . عروس المدن الضائعة»

«عندما يشتد الحزن على الأقلام أن تغني»

«الفاو . . قصيدة لم تكتب بعد»

«من يدري ، ربما كان من بين العابرين شعراء وروائيون ومخرجو أفلام عالمية»

«ما تقوله عين الصواب ، لكن من يسمح بمرور الشعر الصريح عبر

الحدود ليسكت آلامنا؟»

«لا أملك تعقيباً على كلام ممنوع»

يفهمني (صلاح) وأفهمه .

في المدن الجديدة تنتفض المشاعر ، كلام نافع يرقص كي يهدأ القلب .

***

«لمحتكِ مرة بين أمواج الشطِ تحاولين إغرائي/مكسور الشراع/متهدم الخاطر/كل شيء يثنيني عن تلبية النداء/أدنو من التيارات الجارفة/تخدعني وتردعني/وتلقيني على الجرف بقايا أشلاء/لا أجيد فن العوم في بحيرة يكهربها الأعداء/من أفق متحرك ، تنادين/هذا الكائن المشلول/عاشق/لا يعرف درباً أو معبداً يبارك له خطة الوصول/السبيل إلى عرشكِ المائي مشلول/لا أحد يمد يد العون في ظل الحربِ/أو يوقف همجية هذه السيول/هل معقول؟/مكتوف الرغبة/تحاربني شراسة الفصول/وأنت في بحر الحبِ تقيمين عرسكِ الدائم/وتمدين موائد الولائم/وأنا أسكن الجوع المهول/من أفق الرغبة يهبط كهل الكلام/ينير الدروب القديمة بمسلة أحلام/تهرب الأيّام/تتجندل الأعوام/تذبل أحراش الأوهام/فتزف نوارس البحر أناشيد السلام/عندها أسقط من كابوس الرحلة/فتضج ساعاتي بدورة آلام/ألقي عصاي وأفترش جحيم الملح/أهذي قليلاً وأنام»

***

٢٣ تموز/١٩٨١

قاسية هي النخيل في تموز ، تضيف حرارة تمرها لتحرق الهواء الراكد ، جدول الماء وفر لنا وجبات تبريد متواصلة ، يأتي الماء صاعداً مع القمر ، ما سر هذه العلاقة الطردية ما بين قمر في السماء وماء في الشط ، كلما ظهر القمر يحصل المد ، ويجزر بغيابه ، لابد من وجود أغنية كلماتها شعاع ، ولحنها صمت ، فوق مستوى معلومات البشر ، إنها أغنية الوجود ، وحده الخالق وظفها بدرايته البديعة وعبقريته المتفردة لتتعاشق الأشياء الكونية ، يصعد الماء جالباً معه أكوام السمك ، فاهتدينا لوسيلة لصيدها .

جالس على الجرف ، ما بيني وبين الشط ساتر ترابي ، يمكن لقنّاص معاد أن يرصدني ويصرعني ، لكن على ما يبدو أنهم يميلون إلى السلام ، طالما نحن مسالمون ، مذ وصلنا المدينة ، لم نقم حفلات تعذيب ليلية ، ولا هم أشعرونا بغضبهم ، على ما يبدو أن بعد المدينة عن عيون حكماء الحرب وعقولها ، هو الذي جعلها هاجعة بين أحضان الصمت ، لم يكن تأويلي فالحاً ، مجرد فكرة خطرت ، لكن جندياً مخابراً ، من وحدة المخابرة ، ظلّ يتعذب قبل أن يتمكن من تأمين اتصال سلكي ما بيننا وبين الفوج المرابط ، بعدما ربط عشرات الأسلاك المبتورة بعضها ببعض ، حكى عن هذا الهدوء الشامل ، تبين أن المدينة كانت(خمارة القط الأسود)لهم ، كانوا يأتون بعد الغروب عبر الشط

بأبلامهم ، يقيمون الليل مجوناً ، وفاءً لمدينة الحنّاء ، مهرجان المتع والسعادة ، صمتوا طيلة هذه الفترة رغم أن أهاليها مدركون أن حياتهم في مأمن ، لكن الحرب ، ديناصور وحشي ، لا يسكن في الأماكن الحافلة بالعافية ، عائلة وراء عائلة ، تسللوا وتركوا أحلامهم وطفولاتهم تحرس موطنهم في ظل بساطيل الجنود ، ووحشية الرصاص .

التمور ناضجة ، بعض النخيل لا يحتاج المرء إلى مدرج أو مرقاة كي يتذوق تمورها ، نخيل قزمة لكنها هائلة التمر ، يسمونها (البرحي) و(البريم) ، يكفي أن تجلس على كرسي وتتناول براحة وعدم بذل عناء .

التمور تقدح مشاعل الرغبة ، إنها الحرب ، لا توجد حياة كي تجد فاكهتك ، يواصل القلب تعزيم الجسد بثورته ، في ظل همجية الرغبة وقسوة الطبيعة وضجر الروح يرتكب المرء حماقات ، إنها الهروب الخالد من تعاسة اللحظة ، من ثورة الجسد ، من براكين الرغبات التي أماتتها الحكومة .

عندما تنتهي ثورة الجسد ، يغدو المرء تافهاً ، نادماً على فعلٍ لا بشري مرتكب ، كل شيء فيه يذبل ويذوي ولا يجد سوى الهروب من حاضره ، بحثاً عن ملاذٍ يبقيه كائناً متجدداً .

لكن النوم جبل عنيد يرفض مهادنة جروحي ، هذا القرين الشقي راح يسلبني شبابي ويأكل طعام عافيتي .

***

«أبيع عافيتي على مهلٍ لأنياب الأمل/في كل عوداتي/لم تسقطني حفلات أحلامي في دربك يا ريحانة الأزل/في كل أحلامي/ظلّ غرورك عربة جذل/شوارع روحي تفرش لحضورها باقات الورد الأجمل/آه . . /

ليت مزرعتي سرقت من ثغرك باقة قُبَلْ/لأورقت هنا/على أديم المدينة الحالمة خيام الأنسِ/وعادوا من أحزان الهجرة/كل الأقوام الرحل/تلهج السفن مسراتها/تعود النوارس لقيامة أعراسها/وتخرس المدافع عن لفظ المدامع من عيون صبايا/وضعن قلوبهن على كفوف المستحيل/كي لا يقتل الحبيب الأوّل»

***

«آه . . يا وداد/آه . . يا زاد هذا الزمن المباد/يوم موتي هل تعلنين الحداد؟/هل تلبسين ثوب الرقص؟/

وتطلقين صهيل لسانكِ/يزف لرفيقات العاطفة/من بين كل الذين عادوا/الواحد المؤلم ليس بعاد/لا تفرحي بموتي/لا تجعلي من رحيلي لك ذكرى أعياد/أخشى أن تراجعي أوراق ثورتك/عندها ستواصلين حياتك المتبقية من غير زاد/أخشى أن تموتي وتكتشفي في اللحد/باقة ورد/وخاتم عهد/وكلمة وعد/وشمعة لا تزول/تضيء ـ لحياتنا التالية ـ/شجرة الميلاد»

***

٢٧ تموز/١٩٨١

ليلة حافلة بالصمت والخوف ، رجف جهاز الهاتف ، بعينين خائفتين ، بفم توقف عن سحق اللقمة المفتتحة للطعام ، استقبل نائب الضابط (حسين) أمراً ورد من القيادة العامة للقوّات المسلحة ، وضع الهاتف ولم نعرف كيف أنهينا عشاءنا . . قال :

«تسلل»

لم نجد كلاماً ينفع الخبر ، كان يجب أن نحترس ونشدد على الحركات غير الطبيعية ، لم تصلنا أخبار جديدة ، كان الخبر الذي جلبته لنا سيارة العشاء ، جنديين منحورين على الطريق ، مر الخبر عادياً ، قبل أن يعمم خبر وجود متسللين وراءنا ، ساعات الخوف ثقيلة ، ساعات الترقب ، وقوف تحت المقصلة ، لم يتم تحديد وقت الشنق ، إنه العذاب الجديد ، توزعنا على نقاط الحراسة ، دائماً (صلاح) رفيقي ، نغادر وجودنا لنبحر في خضم حياتنا القديمة ، الحب والشعر والروايات . . قال :

«أكاد أجزم أن القضية مفبركة»

«لا نملك ذريعة لنتحجج بها»

«ما رواه سائق المركبة ، كان كلاماً منقولاً من آخر»

«سواء أ . . كان أو لم يكن ، لن يغير ذلك من سهرة العذاب الذي ينتظرنا»

«القيادة تحارب عافيتنا ، تريد منّا أن لا نركن للهدوء»
صمت .

ليل ساكت ، النجوم تبرق أشعتها ، ونجوم وامضة تتقاطع فوقنا ، حفلات (بنات آوى) تعطي النخيل حياة شائكة ، وقباع خنازير تزمجر كأنها هدير طائرات حمولة ، تكاد تعطس ساقطة لنفاد وقودها . . قلت :

«لنخرج من واقعيتنا»
«سبقتني في طرح الفكرة»
«سأتحدث عنها»
«ألم تسأم في إعادة حكايتك؟»
«لو كنت مكاني لجعلتها طعامك وشرابك»
«ألم تقل إنها فتاة عادية ، ليس لها إلاّ العناد وحدة المزاج»
«تلكما الصفتان سببتا لي هذا الأرق المستديم»
«ما دمت تموت فيها فلتغنِّ لها طيلة حياتك إن كانت لك بقية حياة»
«آه . . الحرب أوقفت كامل رغباتي»
صمت .

بدأت دموعي تراق ، نهران هدما سد الإرادة وانحدرا يجرفان روحي ، أمام أنظاري تتفكك مشاعري وتندلق لآلئ أحلامي ، كان (صلاح) يتأمل الظلام ، ربما كان يبني عمارة حكاية جديدة ، قصة ولدتها جلستنا ، أحتاج كلما اهتاج كياني إلى بضع دقائق ، أعيد فيها ترتيب أوراق حياتي ، أحتاج إلى عربة تجرجر متاعي ، تمدني بتفاصيل معارك حياتية مسالمة ، حياتي دائمة التذبذب ، المتوقدة بموسيقى العذاب ، لا ضوء ينير هذا الظلام المتقاتل ، ظلام جبهة بكلمات

تحولت إلى متاهات مدججة بالموت .

وحدها (وداد) تمتثل ، برشاقتها القروية ، بملامح مهزومة من حداثة الزمن ، من وراء خمار يستصرخ ويرتد . . قال :

«لو كنت مكاني لربما هربت»

«وأنت كذلك»

«كيف أفسر قضيتي ، امرأة من الزقاق ، لم تتوافق وزوجها ، انحدرت وجرفتني في تيار الظلام ، ليس ذلك فحسب ، فاجأتني بعد أشهر أن الكرة المتكورة في بطنها هي ثمرة خطيئتنا»

«هذا إثم مبين»

«جاء يشبهني تلك هي مصيبتي»

«حقاً لو كنت مكانك لهربت إلى الساتر كي يمزقوني بالرصاص»

«وآثامك ماذا تسميها وكيف تفسرها؟»

«لم أتجاوز المعابر المختومة بـ شمع الأخلاق»

«كلا يا عزيزي ، سقطاتك كونية كما سردتها لي»

«إن ما يبكيني تلك المتمردة ، لا أعرف يا صديقي سر موتي فيها ، ربما اختلافها عن الرفيقات هو القطب الجاذب ، هو النبع الذي يسقيني تارة بالغضب وطوراً بالمتعة ، كانت مسكونة بروح رياضية عارمة ، تمتلك ثورة عاطفية جديدة ، ثمت عراقيل كانت تحجبها عن المغامرة العلنية»

«مثلها من تراجع نفسها وتتخذ القرار الآخر خلاف تحدياتها»

«بقيت كما هي ، مرة واحدة صارت كتلة طعام بين يدي ، لكنها تمالكت نفسها وثارت كرامتها وألقتني مذعوراً ، متوسلاً داخل مستنقع الحيرة ، آه إنها الصفعة الأجمل التي تلقيتها في حياتي»

«مثل هذه التصرفات عند الفتاة تقلبها رأساً على عقب بعد فترة

وجيزة ، الأنثى سريعة الندم ، دائماً تمنح مكافأتها باهضة الثمن بعد كل رد فعل مجنون من ردود أفعالها الحماقية»

«بدت مثالية ، تحاورني بما يشغلنا من هموم الدراسة ، وكلما شمت رائحة غريزة ، أو اقتنصت نظرة لا مألوفة فيّ ، تعلن قرار نقض الهدنة وتشهر أسلحتها التحذيرية»

«لو كنت مكانك لأخذت برأي رفيقاتك»

«كان الخيار مطروحاً ومهيئاً ، لكنني كنت خادم لعبة خفية ، حاجز نفسي كان يمنعني من المغامرة»

«لو بادرت لما اتخذت رد فعل مضاد»

«وربما اتخذت أقسى مما تتوقع»

صمت .

من بين العتمة ، تقدم نحونا نائب الضابط (حسين) برفقته (شهاب) ، جلسوا معنا عند الساتر . . قال :

«ما حدث يستوجب الحيطة والحذر»

قال (صلاح) :

«سيدي . . قلبي لا يشعرني بالخوف»

«الموت حين يخيم على المرء ، يشعره بالسعادة والسلام ، سكرة الموت لذيذة»

«ما سمعناه من خبر ، ربما لم يكن موثوقاً»

دخلت في الكلام :

«مهما يكن ، لابد للحقيقة أن تأتي عاجلة ، لا شيء يختبئ أو يصمد طويلاً في الحرب»

قال نائب الضابط (حسين) :

«نعم الحرب أم الفتن والظواهر السلبية ، الحرب نزعة حيوانية اتخذها البشر وسيلة لتحقيق الغايات الخبيثة ، الحرب قتلت نبل الحياة»

«لم يحدث شيء مذ جئنا» . . قال (صلاح) .

«هذا الهدوء مدروس ، الحرب مكر وقمار ، من يمتلك دهاء المكيدة بوسعه إسقاط غريمه في حوض الجنون» أجاب نائب الضابط (حسين) .

قلت :

«ربما هناك خطط لتعذيبنا»

قال نائب الضابط (حسين) :

«قيادتنا مشغولة بترميم الثغرات ، هذه الحرب ثأرية ، يريدون إلغاءنا ، ونريد أن نصدهم ، لكن حسابات الحرب معقدة ، قد تجد نفسك مهاجماً بعدما كنت مدافعاً عن حقك»

قلت :

«ربما ستفلح المساعي الحميدة لتقريب وجهات النظر وتسوية المتعلقات بين الطرفين»

قال (صلاح) :

«الحرب حياة وموت ، موتنا يعني حياتهم»

صمت .

تكلم نائب الضابط (حسين) :

«عند وجود حركة غير طبيعية ، احترسوا ولا تتسرعوا ، خبروني عن كل تحرك»

قام وتبعه (شهاب) وذابا في العتمة .

«لم أعد أحتمل السهر» قال (صلاح)
«اغتسل لطرد النعاس»
«سأنام قليلاً»
تمدد ونام ، تركني أواجه الليل والصمت .

***

«رغم جموحها وجموحي/رفضت جراحها/أن تنضوي تحت بيرق جروحي/ها أنذا أسكن بيت ظنوني/

لم تنفع مراوغاتي/ولا خجل محاولاتي/لكسر شراع فلتتها الصخرية/كي تسترخي سفينتها/على رمال طموحي/حاولت ونزفت وتوسلت/قاب الأمل قوسين/أو . . /أقصى/خيام حربها كشفتها ريح مدائنها/ليس من غريم إلاّ العذاب والغربة/الليل . . ووقاحة الرغبة/وحدكِ باعثة هذا الشوق في سواقي الحرب/الليل لا يموت عندما تسهر الكلاب على ولائم التعذيب/الليل . . في ـ الفاو ـ مدينة تلطيخ الكفوف بدهان الفرح/ليل ـ الفاو ـ عربدات الأزمنة المتحركة/ليلٌ كالسفينة/يبحر الليل هنا إلى متاهات الماء/هناك . . /حيث خداع القاع/تنام رقصات العابرين والمهرجين/ونزيف الشهوات غير الثمينة/لعابري الأمواج غير الأمينة/ها أنتِ . . تواصلين هذه الشراسة الأليمة في ظل الحربِ/ها أنا . . /ألملم حكاياتنا العابرة حدود الأدبِ/عساها تدلق من أحشاء براءتها/ثمرات أحلام/ وبقايا رغبات لم تعد دفينة»

***

٣١ تموز/١٩٨١

إنها الحرب . . صندوق الكذب ، تقول البيانات العسكرية خلاف ما يحصل ، الحرب لها فلسفتها النادرة ، ليس من الضرورة أن تعرف الناس مجريات الأحداث ، الصدق في الحرب مثلبة ، ووبالها وخيم ، الكذب ثوب الفوضى ، بالكذب تتمكن من الهيمنة على جنون الناس ، أياماً ونحن نواجه أشباحاً ترسمها عقولنا ، الملح الأرضي والسراب المتفاقم ، كل شيء يتحرك ، يتعملق ويقتحم ، الذعر يتضح أوان الانتظار ، أشباح تأتي وتمرق ، لا شيء يخمد فينا صرخة الوهم .

جاءنا أمر بالترجل من عربة الحيطة والحذر ، سريعاً نزفت أجسادنا هلعها .

اغتسلنا ، بعضنا نام ، بعضنا وجد ما يشغله .

على حافة الجدول أجلس ، أعيد الحكايات الكاذبة للحرب ، من يروجها؟من يبتكرها؟ ، كل حكومة تمتلك مجموعة غربان ومجموعة هداهد ومجموعة كلاب وببغاوات ومجموعة دجالين وطبالين وشعراء خصيان ، ووووووووو . . .الخ .هكذا يقر عقلي ، وتقول الروايات .

جندياں نحرا ، خبر طاش وأدخل جبهة طولها الموت وعرضها منع الإجازات الدورية ، ومساحتها الجوع والمرض ، تذكرت قولي بخصوص الأسرار ، إنها في ظل الحرب تنفلت سريعاً .

عرفنا من ناقل الخبر ، سائق مركبة توزيع الأرزاق ، بأن القصة

كانت مفبركة ، فلتت بعفوية من لسان جندي كثير المزاح ، على الشارع الرئيس (حماران منحوران) ، تلك هي الحكاية ، ولأن الحمار يكنى بأبي (صابر) ، والجندي أكثر الأجناس البشرية صبراً ، كان الجندي لاذع السخريات يسمي الجندي حمارا ، أو أبو (صابر) ، كان عائداً من (البصرة) قالها من غير التفكير بعاقبة كلامه ، تناقلت ألسنة الجنود الخبر ، واستلم ضابط كبير الخبر وأبرق للقيادة العامة للقوات المسلحة ، قبل أن تستنفر الأسلحة كافة وتدخل القاطع في رحلة إرهاق وجنون .

تم تحويل ذلك الجندي إلى مجلس تحقيقي ، ولم نعد نعرف مصيره .

هذه القضية دفعت قيادة الفرقة المسئولة عن القاطع أن تعمم أمراً بضرورة تنظيف القاطع من الحمير ، بعدما راجت عملية معاشرتها من قبل الكثير من الجنود ، ليس ذلك فحسب ، بل هناك جندي أردي قتيلاً بقذيفة هاون ، كان يمارس شذوذه ، وجدوه ممزقاً مع الحمارة .

قبل الظهيرة جاءنا (صباح) ، مترباً . . عانقني . . تكلم :

«منذ أيّام أبحث عن فرصة كي أزوركم»

«يا لك من وفي ، حقاً أهل ـ البصرة ـ أهل الوفاء أوقات العسرة»

تبادلنا الكثير من الكلام ، حول أشيائنا المضاعة ، حول الحرب وآخر تطورات المساعي الحميدة ، تناولنا غداءنا ، بدا حائراً ، كأنه مسكون برغبة أو مصيبة . . قلت :

«لست على ما يرام»

«كل شيء تغير ، لم أعد أحتمل هذه الحياة الخائسة»

«لن ينفعنا التمرد ولا التفكير بما يرمينا في آتون المحرقة ، مكاننا أمين ، مادمنا لا نلتقي بعدونا وجهاً لوجه»

«ليت ذلك يحصل لعرف كل واحد مصيره»

صمت .

قبل أن يغادرني . . همس :

«سبب هروبي بسبب ترحيل الأتانات»

«رصدت في عينيك هذا»

«علي أن أبحث عن واحدة بين البيوت ، ربما واحدة رفضت الإخلاء من أرض الحرام»

«ثلاث حوضيات حملتها وأخذتها»

«الآمر الجديد حقير وكلب وخصي على ما أظن»

صمت .

مشى نحو الشارع الرئيس وتوارى عن نظري .

عدت للصمت وطحن هواجسي .

***

«أقترح تأجيل مجابهتنا ، لوقتٍ أنت واضعته على أوراق حيرتي ، وقتي الماثل لا ينخدع بألفة لكل وعدٍ هو يبرمنا/وقتي مشغول/يبحث عن منصة أمل يستوعب تمثال حبي المقتول/كلما اجتهدت/أبتعد/شبحك الزائر شبكة أسفاري/الراكض خلف ظل زمني المجهول/ما برح . . يخذلني/ما فتئ . . من واحة الأماني يقتلعني/ ما أصبح . . يقنعني/ما انفك . . تحت صخور صمتكِ يواريني/ما أضحى . . سراباً يسقطني في وحلكِ المسلول /أي الطرقَ ترمي عربات اللؤلؤ المنحدر من خلف أسوار عينيك في مدن الطفولة؟/أي الجداول . . تستوعب ضحكات الخوف الرافض مبدأ التكافل الجسدي؟/ريح الحنان تقرع أجراس نهايتي/وترفع الكلمات

راية وجدي المخذول/ليس كل ما يمكن تطبيعه/أوراد قلب فقد ربيعه المأمــول/حكايات جــســد/مــا زال . . لعل . . ربما . . /ينتــفض ويصول/داخلِ غابات الحرب وبقايا هذي الطلول/يستلم بريد المستقبل المقتول/ عابراً جبال الحاضر المعلول/ساحلاً الماضي المرذول/يا ـ ودادي ـ كل جهودي/مستخلصة من حديقة وعودي/أصابع يقيني تكفلت بتدوين كامل عهودي/ما زال الفرح يمتلك شعلة الصبرِ/وما زلتِ سحابة خيرٍ تبحث عن بيتٍ غير مأهول/عن وطنٍ غيري فيه غير مقبول/وطنٌ أنَت فيها العلّة/وأناً . . التائه المعلول»

***

٢ آب/١٩٨١

أن تصاحب صاحب محنة ، تتبلل بمحنته ، هذا كل ما أملك لتفسير سر هذا التوجه ، كان الشعر وميضاً أو وخزات عواطف تدغدغني في أيام السلم ، عندما كنت أمتلك حياة ، لكن (صلاح) هلّ على عالمي الضاج بالفوضى ، أنار مصابيح المسالك المقلقة ، وجدت خطواتي المفقودة ، ومن يومها أعلنت حربي وتمردي على الأشياء التعذيبية ، على منافي الحياة ، على عزلتها الإجبارية ، كانت البيوت تعج بالورق ، لملمت حفنة وشكلتها دفتراً يستوعب تعثرات أوهامي .

(صلاح) بدأ يقلقني أو يمازحني ، بدأ يرفعني ويضعني على منصة الخيال ، دفعني كتلة نار صغيرة ، نحو غابات الأحلام ، ريح الغيرة وبروق المثابرة ، وحفلة الحرب المتواصلة ، والنخيل الباكية ، صراخ نوارس تبحث عن فرص الأمان المتبقية ، العصافير ما تزال تبحث عن بقايا زوايا آمنة لتضع أجيالها ، هذه التخاليط أعادت لبركان مراهقتي زلازلها النهضوية ، بدأت أكتب كل حرف يمر بخاطري ، أقتنص كل همسة شاردة ، حركة الأشياء وتحركات الزمن واحتيالات الجنود .

قال (صلاح) :

«عالمك حكايات نادرة»

«لا أجد مسلكاً يوصلني إلى منابعها ، كلما أمسكت القلم يباغتني النوم»

«خذ بنصيحتي ، اكتب مذكراتك اليومية ، اكتب كل مشاعرك ، لا تهمل ما يمر ببالك من جمل ، لا تستهن بكل فكرة تخطر ببالك ، ذات يوم تكتشف أنك تمتلك ثروة ثورية ثائرة لا تقدر بالمال وتغنيك عن البنين»

لم أمتلك ثقافة تؤهلني لمجاراته ، كان يتكلم وأنا أصغي ، قبل أن يدفع نحوي كتاباً ، قلبت أوراقه ، بهرني عنوانه (فن كتابة القصة القصيرة/دراسة ونماذج) ، قرأته مرتين ، وبدأت أخطو في هذا العالم القاسي ، عرضت عليه قصتين كتبتهما في لحظة غيرة وفضول ، لم أمتلك صبراً لبلورتهما ، قرأهما . . قال :

«أنت الآن في الدرجة السادسة ، أمامك أربع درجات كي تجلس على العرش مع المعترشين»

نار تحرق ، تنهضني وتدفعني نحو المنازل المهجورة ، أغربل الغرف ، أقلب الأشياء ، الفرش والأسرة ، تفر العصافير اللابدة ، تمرق الجرذان والفئران ، أنتشل كل كتاب ممزق بشظايا أو تخريمات الأرضة أو أسنان الفئران والجرذان .

نار القراءة هيمنت ، ونار الكتابة توهجت .

***

«مهما حجّرت عهودكِ/أيامي واقفة تتأمل/وجروحي الدامعة ـ آجلاً بل عاجلاً ـ ستندمل/عندما تراجعين أوراق صدودكِ»

***

«آن . . أن تكفكفي أحـزانكِ/آن . . أن تحـافظي على بقـايا دموعكِ/الذي فات/ما مات/ما زال يوقد في هذا المنفى/شمعة جديدة بالحياة»

***

«لا تطرح مقترحاتك/قلتِ هذا قبل ليالٍ ليست حربية/الذي أحدثته/ما زال يغنّي في خيالي/ما زالت كفكِ تهدئ الخوف من على وجهي/فالذي صار/شعلة نار/سقط ـ ذات نظرة ـ على غابة أشعار/علام تغلفين نفوركِ بموجة حنين/الذي حصل هشّم ذات البين/ما زال الأمل يرقص على غشاوة العينين/ما زال الخوف يتثعلب فيكِ/ما زلتِ في الشكِ تعيشين/ما زلت أستودع أيامي/صراحتي وصدقي وحبي اليقين/من يوقظ فيك هذا السر الدفين؟/من ينهض هذا النهر الجارف؟/هذا المؤجج صمتكِ العاصف/من يحرك فيكِ هذا الشعور الواقف؟/الذي نبت في قلبي المستكين/ما زال طفلاً يرتع/لم تهرمه تقلبات السنين»

***

«كل مساء/رغم نباح الأعداء/أرتقب حضوركِ/سربلت أعوامي برداء السنونوات/ما زلت أنتظر مروركِ

من غير احتراق/لتشرق في زمن الطغاة/شمس الأشواق»

***

٥ آب/١٩٨١

«على تخوم مدائن تلاطفني/أسرّة لجياع العالم المتحارب/خيول صاهلة/عربات تسرق من غابات الوقت فواكه الرجولة/أناس قتلى/وأيامى راغبات بتجديد الرحلة/يواصل المأذون . . بعدم دفع الحياة باتجاه العدم/

يحاول الزمن . . وقف جريان الألم/أنا محض وهم/بقايا ندم/أبحث عن بقاياكِ المتناثرة في حقول النغم/ أعرف . . /أن الحرب قتلت فينا أناشيد السلم/لكن . . /الحب وهج لا يحجبه عارض/ولا يطرحه سقم/جالساً أحلم/أبحث عن رصاصة فالتة من فم/أبحث عن موت متقدم/لم تعد الفرصة تورق في بستان الكلم/لم تعد الرغبة غيمة تتعسكر فوق حقل الروح لتنزف دم/جالساً أتألم/في انتظار البرق والرعد/بانتظار تابوت القدر/لتصرخ مدافع العنجهية/عبر وسائل الخبث والمكر والكذب/ يا عالم نم/سقوط الهدف . . /قد . . تم»

***

١١ آب/١٩٨١

مع الفجر غردت الحرب نذالتها ، وأعلنت عن خستها ونتانتها ، وراء كل صمت قذارة ، لم تعد المدينة تمتلك شيئاً نافعاً لتقدمه قرباناً ، الجدران موشومة بـ براز الحرب ، الأبواب رحلت والنوافذ حطمتها أيدي الجنود ، تواصل الحرائق تدمير الصمت ، جلسنا في الملاجئ مغادرين الغرف المؤثثة .

رفض نائب الضابط (حسين) كبح جماح غضبهم . . قال :

«يمكننا أن نفعل ذلك ، لكن علينا أن نضع في بالنا ، أننا سنغدو هدفاً دائماً لهم ، يجب أن نوفر عتادنا ليومٍ ربما سيكون قريباً ، علينا أن لا نضع أنفسنا في فك الحرب»

كلام لم يسر بعض الجنود ، من بينهم واحد (بغدادي) ، مندفع ، غيور ، أعمى البصيرة كما وصفه (صلاح) ، رغب أن يحمل الوطن على عاتقه ويعلن عن شجاعته ، ثار جدال عقيم ، قبل أن يزوي في عينيه ثورة وطنية . . لم يستطع هضم كلامنا ، ولا ترويض وطنيته . . قذف سمّه بوجهنا :

«كلكم خونة . . سأخبر ضابط التوجيه السياسي بخيانتكم!»

كلام لم يعجبنا ، لم نمتلك وسيلة إنقاذ ، صمتنا ، فالحرب تشرنقنا بحبال الشنق ، رجال السلطة يوجدون في كل بقعة حربية ، عينهم على الجنود ، كل متكاسل أو متلكئ الواجبات ، خائن مرتبط بالعدو ،

خيم الخوف علينا ، يمكن لهذا الجندي المسكون بالنرجسية ، الحامل فايروسات الأحلام القذرة وبجملة واحدة أن يفصل رؤوسنا ، لكن نائب الضابط (حسين) يمتلك دهاء الحرب ، لديه جملة مسالك تتكفل بتدوير المسائل المعقدة ، بلع ريقه ، رمقنا بنظرة فهمناها . . قال :

«يا خائن ، تريد أن تعطي العدو أهدافاً حيوية ، أنت جاسوس مندس بيننا»

بهت الذي لغا ، حار وهو ينظر إلينا ، كان يبحث عن عضدٍ يشد أزره ، صفعته نظراتنا وألقته في مأزق الرعب . . قال بوهن :

«أنا لست خائناً ، أنا أريد تنفيذ الواجبات كما طلب السيد الآمر منّا!»

«عندما يتسلل العدو ستجدنا صخوراً لا تتهشم وصقوراً فتاكة» . . قال نائب الضابط (حسين)

تشجع (صلاح) :

«مرة أخرى لو نطقت بهذا الكلام سأسحلك إلى دائرة الاستخبارات ليتم شنقك يا جاسوس»

تدخلت :

«كيف تطلق كلامك جزافاً ، كلنا أبناء هذا البلد ، تركنا حياتنا وجئنا لوقف زحف العدو»

بدا متراخياً ، كمن يبحث عن منقذ ، أو فرصة عذر . . قال :

«أرجوكم أنا أكلت الـ خراء ، أعتذر منكم ، تحمسي نجم من قيامة قصفهم لنا ونحن ساكتون!»

تلاقت نظراتنا ، سحب نائب الضابط (حسين) شهيقاً عميقاً وزفر غضبه . . قال :

«الحرب مستودع الأوامر ، الكثير منها حماسة غير عقلانية ، يجب التريث قبل اتخاذ القرار الحاسم ، لو نبحنا بوجه نباحهم ، لربما خسرنا بعضنا ، وخسرنا بقية أوقاتنا ، لا نفع في الرمي العشوائي ، الخائفون هم من يفعلون هذا ، إنها رسالة ناطقة للغريم لتحسيسهم أنهم جاهزون ، لكنها رسالة فاشلة في الحروب الحديثة»

«قرأت الكثير من الروايات ، ورأيت عشرات الأفلام الحربية ، كانت المكيدة والدهاء هما اللتان تجلبان النصر للطرف الأكثر مكراً» . . قال (صلاح)

«حربنا حرب دهاء ، الفطن من يمتلك زمام الأمور ويخرج منها متعافياً» . . قال نائب ضابط (حسين)

صمت .

دام القصف ساعة أو يزيد ، وعندما هدأت الأمور ، تسللنا ، على مسافة خمسين متراً ووراء إحدى دباباتنا كان جسد يتلوى ، هرعنا إليه ، كان الجندي المخابر ، بضع شظايا تخترق صدره ووجهه ، رمقنا بنظرة حزينة قبل أن يلفظ روحه ، دمعت عيناي ، حملناه إلى الغرف ، حاول نائب الضابط (حسين) أن يتصل بسرية المخابرة ، لم يستطع الاتصال ، كان سلك الهاتف مبتوراً ، لابد أنه جاء لتأمين الخط ، ما بيننا وبين الفوج ، قذيفة قذرة جاءت تحمل أجله .

نقلوه إلى الفوج وإلى أهله .

بدأنا ننشغل بفطور الصباح ، ظل الخوف لصيقاً بنا ، ففي كل لحظة كنّا نتوقع بدء القصف من جديد ، ولم يكن ذلك بغريب ، في عدة مناسبات عاودوا القصف ، بوحشية ، من غير فترات راحة ، ربما وضعوا في بالهم أن الجنود بعد وجبة الرمي الأولى ، قد بارحوا

ملاجئهم وصاروا أهدافاً سهلة المنال .

حقاً الحرب مكيدة .

كل قصف يحدث فيّ عاصفة حنين ، أكون أكثر اندفاعاً ورغبة لتطهير روحي من آثام زمني القريب ، أبحث عن وسيلة توصلني إلى (وداد) ، أين هي الآن؟ يا ترى أما زالت تتعذر بابن عمها؟ أما زالت بنتاً لم يمتطها خيّال؟أم أنها تراجعت عن عنادها .

إنها الحرب ، لغة السقوط وتبديل فسيفساء الحياة .

في الحرب ، مديات الرؤية معدومة ، مدى الخيال مشتت ، العقل لم يعد يمتلك إنارة دائمة كي يكتشف أجوبة القلق ، أسرح خارج زمني ، هناك فواصل متبقية كانت مسالك مبتورة للوصول إلى نهر غرورها ، كل وقفاتنا ماثلة ، جلساتنا ، حواراتنا ، في عينيها كان الفرح يرقص ، في شفتيها كان الحب شوكة تارة تميل وتارة تسد منافذ نسمات روحها العذبة ، لم تكن جميلة كي تلغي الجمال من عينيّ ، لم تكن فتاة تمتلك عاطفة خجولة ، ينقصها دليل كي تصل إلى لدغة الحلم .

ها هي تسكنني ، لم تعد لي مع الحياة حكاية أو بادرة سفر ، أريدها الآن ، لتأتي على صهوة قذيفة ، لتأتي مع مد البحر ، بأية طريقة يمكنها أن تهبط في هذا الجحيم ، يا وداد . . لم أعد (كازانوفا) ، أنا (حبيب) ، ما أريده عقد حياة .

آه . . حتى أحلامي تعبت من التجوال لتقبض عليكِ ، لكم قاسية أنت يا ـ وداد ـ ي .

***

«بدأ هروبي/زحف جيش الهذيان/سيندلق من أحشاء القذائف/قيء همومي/الحرب براز البلدان/الرعد القادم عبر الرعب الماطر أفقدني دروبي/وألقاني . . /سمكة ناحبة وسط عشيرة حيتان/لم تعد طيور الحقيقة تأتيني ببريد الغد/ها أنذا أنتشل بقاياكِ من رماد المدينة/ها أنذا ألملم جراحات النخيل الحزينة/وأغنيات الصبايا الضائعة/بين أزقة اللقاءات/الموت في كل مكان/بندقيتي مشلولة . . /مسكينة/ إنها الحرب . . /قدر الكائنات/حيوان وإنسان/جبناء وشجعان/خداع وجنون/قبور وأكفان/القتل فسيفساء الزمان/ليتك الآن/من خلف أسوار رغباتك الدفينة تطلين/ساحة حب تغدو ساحة الحرب/آه . . لو تعلمين/ لو تناصفنا فاكهة الحنان/لتوقفت في بلادنا الأحزان/الحرب لغة الصبيان/الحب قول فصل/والرغبة هي الميدان/آه . . وداد . . /يوم زرعتِ غضبكِ ببرق كفكِ/على نقاء لوعتي/يوم احتفلتُ ببرق صفعتكِ/على متحف خدي/ضجّت مشاعري بالألحان/وتفجرت في ربوع غدي/أجمل الخلجان/آه . . يا وداد . . /ليتك الآن/

خيمة تلملم أشلاء حيرتي/وتعيد لحلمي المجنون/بقايا الأمان»

***

٢٢ آب/١٩٨١

(صلاح) وجد عذراً مقبولاً ، رافقته إلى (البصرة) مسكوناً بالحلم ، ويسكنني الهم ، سيتصل بالفرح ، مشتولاً أنتظر ، لم يتكلم ، كنت أقتنص السعادة ترفرف في عينيه ، الطريق محفوف بالقصف ، عند سيطرة (أبي الخصيب) منعونا من المرور ، جلسنا ننتظر الأوامر ، كان القصف متواصلاً على منطقة البتروكيمياويات ، أمرنا جندي السيطرة أن نلتجىء إلى الملاجئ القريبة ، ملجأً مليئاً مليء بالقمامة . . قال (صلاح) :

«ماذا لو حرموني اليوم»

«لم لا تؤجل هذا ليوم الغد؟»

«أكاد أن أنفلق»

«ربما القصف سيتواصل»

«حتى لو جاء الليل لابد لي أن أزورها»

صمت .

سمعنا أصواتاً ، مرر (صلاح) رأسه . . قال :

«نساء!»

«قل حساء»

مددت رأسي ، كان على حق ، امرأتان تذودان وعلى رأسيهما أكوام أشواك ، كانتا قرب السيطرة .

وضعتا حمليهما وجاءتا إلينا ، تصاعدت حمى الرغبة فينا ، لحظة وصلتا تراجعتا بهلع . . تكلم (صلاح) :

«هربنا من القصف»

ترددتا قبل أن تدخلا ، كانتا في الخمسين ، تعرقنا ، كانتا تنظران بحيرة . . قال(صلاح) :

«هل عرفوا بكما»

قالت واحدة :

«الجندي أبو السيطرة أرسلنا لكما»

واضح كلامها ، في العيون سؤال والقلبان ينبضان . . تكلم (صلاح) :

«بكم تبيعان»

«نريد راحة فقط»

تمددنا لصقاً ، كل واحدة تحت واحد ، وسط الغبار والعرق سافرنا عميقاً وعدنا يائسين ، خرجتا قبل أن نخرج ، راقبناهما تغيبان وسط النخيل ، خرجنا . . قال الجندي أبو السيطرة :

«مللت عفونتيهما»

تكلم (صلاح) :

«جئت من ـ الفاو ـ من أجل هذا»

لم يعد هناك مبرر للذهاب إلى البصرة .

عدنا . . قال :

«سنقول لهم الطريق مقطوعة»

«عذر مقبول»

منتصف الظهيرة وصلنا ، كانت المفاجأة أن الجندي(شهاب

خانقيني) أصيب بشظية وتم إخلائه إلى وحدة الميدان الطبية ، تناولنا غداءنا قبل أن نستحم ونرتمي على أسرتنا .

نام (صلاح) ، بقيت أسترجع اللعبة ، لم تكن فاكهة تضرم النار ، وتنضج الأحلام ، لكن التخلص من فيضان العزلة مطلب لحوح ، إنها الحرب ، «عليك أن تستثمر كل فرص العواطف قبل أن يباغتك الموت» ، تذكرت جملة عابرة من كلام البصراوي (صباح) .

***

«ما الذي يهدر في هذا الفناء؟/ضوء/خوف/أحلام/أم . . /مركبٌ يضج بالآلام»

***

«ما الدمع؟/ما الحزن؟/بريد أشواق/تنضج حرب العشاق/من غير احتراق»

***

«في الغربة/في العناق/تحارب العيون/بلا فراق»

***

«وهج العيون/احتراق الثغران/حرائق القلبان/مهرجان أشواق»

***

«الحب بيننا حزمة مشاعر/الحب بيننا/قصائد لا تستوعبها الأوراق»

***

«الحب بضاعة تبحث عن أسواق/الحب أشواق/الحب عناقٌ وفراق/الحب نماء واحتراق»

***

٢٨آب/١٩٨١

حقيبتي بيدي ، عيناي تطفران ، لا رغبة لهما في تصفح الأشياء المتحركة ، الجنود أكوام قمامات تدفعها الرياح ، الكل يركض ، صياح ، إنها الحرب ، في الحرب يتذكر العبد خالقه ، يريد أن ينتقل إلى ساحة العرض الأخير ، خالي الجسد من شهوات الدنيا ، أمشي ، صف نساء متلفعات بالسواد ، إنها الحرب ، القنابل تطارد الأشياء الجميلة ، الألوان أهداف واضحة ومغرية ، الأسود يليق بنسائنا ، صف جالس ، ما بين واحدة وأخرى متران ، في الحرب تتفتق المخيلة ، فتنفتح سبل العيش على ألوان جديدة ، لا أحد يموت من الكسل ، أو يدركه وباء العطالة في ظل الحرب ، واحدة قنصتني . . صاحت :

«أبو تحرير!»

لا أحد يتبعني أو يشبهني ، وجدتها تشير بيدها . . مشيت وجلست في حضرتها ، مرعبة هي نظرات النسوة ، عالم صادم يدلق أمواج الحيرة ، ظلّت تخترق أغواري ، لم أعرف كيف ومتى مسكت يدي ، عصرت أناملي ، جفلت على زوبعة فرح . . قالت :

«قل إن شاء الله»

«على ماذا؟»

«يا بو . . أنت ولد تعبان»

«أتعبتني الحرب»

«يا بو . . أمامك بيت الراحة»
«كلكن لن تخرجن تعبي»
«يا بو . . أنت تفكر وين»
«في الراحة»
«يا بو . . أنت ولد غير عاقل»
«عندما أنزف تعبي يرجع عقلي»
«يا بو . . عندك زوجة»
«لا»
«يا بو . . قل إن شاء الله»
«أن شاء الله»
«أنت حائر»
«كيف عرفتِ»
«يا بو . . أنت عاشق»
«من أين لكِ أسراري»
«يا بو . . قريباً تدخل عليها»
«لو حصل هذا سأرقص كما ولدتني أمي»
«يا بو . . حلمك يريد الصبر»
«صبري مات في الحرب»
«يا بو . . أنت ولد شاعر»
«أنتِ ساحرة يا سيدة»
«يا بو . . قل إن شاء الله»
«إن شاء الله»
«تحتاج إلى الراحة»

«هل عندكِ راحة؟»
«الثمن غالي»
«أنتِ لا تستحقين ثمناً مرتفعاً»
«يا بو . . أنا . . ومن قال أنا . . لا . . لست أنا»
«وهل عندكِ صغيرة»
«بعد الدفع يمكنك أن ترتاح»
«أمامي طريق بعيد ، لا وقت لدي أضيعه»
«هات خمسة دنانير»
«أين السمكة»
«هات أولاً وبعدها ارم الشبكة»
أخرجت المبلغ ، اختطَفته بمكر . . قالت :
«أنظر إلى خلفك ، تلك أم الثوب الأحمر سمكتك»
وجدتها ماثلة ، سمراء ، ثغرها مصبوغ ، أومأت برأسها ، تبعتها ، داخل البيت وجدت جملة فتيات ، شعرت بخوف ، مسكتني من يدي وأدخلتني غرفة بائسة ، على الأرض منام مرهق ، يفصح عن عرق أجساد ناموا ومضوا ، بدأ رأسي يدور ، رائحة بغيضة تقلب أحشائي . . قالت :
«كلهم يخجلون في البداية»
«لا أحتمل هذا المكان»
«هذه غرفتي وأنت نصيبي»
«هل يمكننا أن نجد مكاناً آخر؟»
«يمكننا ولكن ثمنه مكلف»
«بكم؟»

«كل واحدة لها غرفتها الخاصة ، يمكننا أن نبيعها للزبائن عند الضرورة»

«يمكنني أن أؤجر واحدة أفضل»

خرجت وعادت . . قالت :

«عشرة دنانير للغرفة»

«حسناً»

«وعشرة للمعاشرة»

«دفعت ثمنك»

أطلقت ضحكة عاهرة ، هزت رأسها . . قالت :

«ذلك ثمن الدلالية»

أخرجت العشرتين ، اختطفتهما . . قالت :

«بعدما ترتاح ستدفع خمسة دنانير لحارس البيت»

«وهل لديكن حارس أيضاً؟»

«المهنة مكلفة ، وصعبة ، لابد من حارس قوي يؤمن لنا الهدوء»

لا أعرف كيف تمكنت من شراء راحتي ، كانت متعفنة ، أغلب الظن أنني فعلت ذلك ثأراً للمال الذي سلبوني ، منتصف الراحة ، توقفت . . قالت :

«أنت ولد تعبان»

«لا . . هذا الزقاق لا يعجبني»

ضحكت . . قالت :

«أنت ولد متهور»

«أريد الجانب الآخر»

«هذا مكلف»

«ألم أدفع ثمنك»

«أنت دفعت ثمن واجهتي»

«وهل لظهرك ثمن أيضاً»

«هذا يتوقف على رغبة الزبون»

«بكم تبيعينه»

«حسب سلاح الزبون»

«حسناً هو فيك الآن»

«عشرون ديناراً»

«ما دفعته يمكنني أن أفعل بكل نساء زقاقكم»

«لكل فندق سعره»

«أنت لستِ خمس نجوم»

«حسناً . . أَنت ولد لطيف ، سأرضى بثلاث خمسات»

«لن أدفع سوى خمسة مقابل خمسة»

«لن أرضى بأقل من ثمانية»

دفعت وقلبتها وسافرت .

ما إن خرجت ، صاح صوت :

«أبو تحرير»

كان رجلاً مفتول العضل ، يضع (شماخ) على رأسه . . قلت :

«ناديتني»

«ثمن حراستي»

نقدته ومضيت .

***

«أوراقي تدفعها الريح/حقيبتي شهدت قيامة موتي/طريقي مزرعة أسلاك/تجرجرني المركبات/نحو مقبرة السخرية»

***

«واحدة باعتني بقيح دقائق/بين أعضاء فلتت من عابرين/دفنت كنوزي/عندما عدت من رحلة الجنون/ فقدت درب العافية»

***

٨ أيلول/١٩٨١

ضج الفجر ، قمت كي أهرب إلى بساتين النخيل ، لكن الهاتف رن ، ظلّ نائب الضابط (حسين) ممدداً على فراشه وهو يجيب ، حين تلاقت نظراتنا ، رفّ قلبي بشيء لا يسر ، وضع الحاكية . . قال :

«يطلبونك في الفوج»

بقيت صنماً ، لا كلام يستلقي على لساني كي أستفسر ، تدخل لوقف حيرتي :

«إضبارتك الحزبية وصلت»

أغمضت عيني وتنفست الصعداء ، جملة أشياء تداخلت وأحدثت غباراً داخل مخي ، قبل أن يأتي الجواب أكثر غبرة وسوادا ، لم أكن أصدق حين خرجت من حياتي السابقة ، تلك المعفرة بـ هوس الوطنية ومخاط السياسة ، حتى باغتني من جديد ولعي النائم ، من أين آتي بتلك الغيرة الشبابية ، ذلك الوهم الذي ركب عقلي وأخذني حصاناً فتياً يبارز داخل حلبات السيرك .

بقيت في فراشي ، أحاول أن أفك لغز هذا العذاب الجديد ، سأكون عدواً في أعين زملائي ، هذا احتمال لا يحتاج إلى تأويل ، رفاقي ثلاثة منهم كورد وأنا رابعهم ، ماذا يقولون عنّي؟

مع سيارة الأرزاق وصلت مشارف الفوج ، وجدت عدة مركبات

خارجة من الشارع العام ، أنها متخفية في ظل نخلات منفردات . . صاح السائق :

«اهبطوا بسرعة»

هبطنا واختفينا بين النخيل ، كانت القذائف تمطر الفوج ، حرائق صغيرة متناثرة تتوزع من أماكن متعددة ، بعد ساعة أو يزيد هدأت الجبهة ، كان من المتعذر الوصول إلى منطقة تغربلت بالقذائف ، عدت إلى رعيلي .

«لم أتوقع رجوعك ثانية»قال نائب الضابط (حسين)

«ليتك رأيت أيّة قيامة قامت»

«هذا من حسن حظك»

كانوا جالسين يتناولون الغداء ، لم أجد رغبة في تناول شيء .

قمت ومضيت إلى النهر ، في ظل دبابة تمددت ورحت أفكر من غير موضوع محدد .

***

«خوفي جاء يلزمني الركض/وراء لمعان الوهم/علّ الحرب بالت على أوراقي/الطريق الليلي/لا يقود مركبتي إلى متحف الحلم/يغادر كياني رصيف الماضي/تاركاً على رمال تاريخي القديم/صبيانيتي تنطق ندم»

***

«الحب هم/الحرب هم/الحياة هم/أنا وأنت حرفان من نغم/في قيثارة الألم»

١٤أيلول/١٩٨١

جاءنا ضابط برتبة (عقيد ركن) ، لم يكن مسالماً ، نظراته تشبه نظرات المستجوبين في المحاكم العسكرية ، ظلّ واقفاً يتفحصنا بنظراته ، وقفنا لا نملك سوى أخلاقنا ، سحب شهيقاً وزفر كـ حمار حرون . . قال :

«من يراكم يظن أنكم مرتزقة»

صمتنا .

«ماذا نقول للعالم ، هل أنكم تمثلون الحزب والثورة وتدافعون عن البلاد والشعب؟»

صمتنا .

«جندي واحد من عدونا يمكنه أن يهزمكم»

صمتنا .

«هل سكنتم الكهوف قبل أن تجدوا أنفسكم رجالاً يحملون راية البلاد»

صمتنا .

«هل أنتم حيوانات؟»

صمتنا .

«ما لكم لا تنطقون؟»

تلعثم نائب الضابط (حسين) :

«سيدي أمرك»

«صه . . أنا ليس من خصالي معاقبة الجنود ، إنهم حيوانات ضالة ما لم يتعلموا واجباتهم العسكرية ، أنا أحاسب الضبّاط ، وبما أنك تيس هذه الشرذمة الضالة ، سأحاسبك حساباً عسيراً»

«أمرك سيدي»

«ستأتي إلى مقر اللواء كي تنال جزاءك»

«أمرك سيدي»

ركب سيارة الواز وهرب ما إن شرقت في الفضاء صرخة قنبرة هاون ، ضجت أفواهنا بالضحك .

قال (صلاح) :

«أبو ـ زربة ـ يريد أن يتعسكر برؤوسنا»

قلت :

«وما دخله بنا ، إنه مشاة ونحن دروع ، نحن ضيوف منشورون على لوائه»

قال نائب الضابط (حسين) :

«ألم أقل لكم إن هذه الوضعية التي تعيشونها ستزجنا في مأزق»

قال (شهاب) :

«سيدي . . ما العمل ، تركونا هنا ، لا حلاّق يحلق رؤوسنا ، ولا بدلات جديدة يعطوننا»

«علينا أن نفكر بعواقب الأمور» . . قال نائب الضابط (حسين)

«ليس من حقه معاقبتنا ، لم لا تتصل بفرقتنا؟» . . قال (صلاح)

«الخطوط مقطوعة منذ يومين» .أجاب . . نائب الضابط (حسين)

صمتنا .

وعند الأصيل وصلت سيارة الأرزاق متأخرة . . هبط جندي مشعر وتقدم منّا . . قال :

«أنا حلاّق اللواء ، أرسلني آمر اللواء لحلقكم»

فرحنا وحلقنا رؤوسنا نمرة (صفر) .

حقاً وضعيتنا يرثى لها ، منذ وصلنا إلى (الفاو) لم نجد فرصة أن نفكر بهذا الجانب ، والبدلات التي وعدونا بها ، قيل إنها احترقت في القصف ، في غروب اليوم ، أزعجنا العدو بوابل من القصف .

في الليل جاءت الأوامر (اليقظة والحذر) كدأب كل ليلة ، ففي ظل هذه اليقظة دائماً أجد عزاء ووقتاً للتأمل .

من تحت الدبابة ، الحر لا يرحم ، عسر في الشهيق ، أسراب البعوض تقاتلنا بشراسة ، دائماً أهرب إلى مشاعري .

***

«للآن . . لم أجد كلاماً يلغي الذي كان/للآن . . قلبت قواميس الحب والفراق/العزلة والموت والهجران/لم أجدكِ عشاً داخل ملجأ/أو . . على ضلع شجرة/أو . . تحضنه شروخ جدران»

***

«أينما ترسو ذاكرتي/يستحيل المكان خرابا/يقام عرس للعذاب/متى تقرع الحرب بابي؟/متى؟/ثم/متى يقدم الخراب؟/ليحتفي بجسدي التراب»

***

٢٥أيلول/١٩٨١

داخل كراج (النهضة) وقبل مغادرتنا ، صاح انضباط :

«طريق العمارة مقطوع»

لم أفهم كلامه ، وحده السائق عرف وعرف كيف يمضي بنا ومن أين ، ظلّت الحافلة تشق متاهات جديدة ، حرمني الليل من ملامح البيوت والناس ، كثر من الجنود ناموا ، حاولت وفشلت أن أذعن للنوم ، حياتي الماضية ما تزال تحققني بتلك الفلتات الليلية والتي كانت ذوابانات فوق العادة في أحواض الرغبات ، بقيت أمرر عيني عبر النافذة إلى مصابيح كابية تمرق ، منازل غاطسة في الصمت والعتمة .

بعد منتصف الليل توقفت الحافلة ، عشرات الحافلات كانت تعربد بمحركاتها العاطسة ، وسط فوضى عارمة ، مطعم تعيس الجدران ، شبه معتم ، حركة غير طبيعية للجنود ، فوضى حول بائع الشاي ، فوضى داخل المطعم ، الكل جياع ، الحرب آفة الجوع ، وجدت شرب علبة عصير (راوخ) مشروبي المحبب يغنيني عن تناول طعام غير مريح ، بعد تدافع وتزاحم اشتريت علبة العصير ، كان المطعم على حافة الأهوار ، الإنارة كابية ، يعجز المرء عن تبيين ملامح الوجوه ، الكل يضج ويتحرك كالأشباح ، سمعت من جندي يشرح لصاحبه جغرافية المكان ، عرفت أننا في (الجبايش) .

جلست على ضفة الهور ، ماء معتم يترجرج ، غابات البردي والقصب تتمايل ، مستمتعاً بحركة المشاحيف ، نساء وحيدات ،

متلفعات ، يشقفن رفوف الظلام والقصب المتوحش ويمضين إلى عوالم مجهولة ، توقف مشحوف . . ارتفع صوت :

«وين رايحين»

«لنموت»

«ولم تموتون؟»

«حتى تعيشين سالمة»

«أنت ولد لعوب»

«وأنتِ بنت عارفة»

«هل أَنت ضابط؟»

«كتفي خالية من الذهب»

«هل عندك مرة؟»

«حياتي مرمرة»

«لم لا تهرب؟»

«وين أهرب!»

«في هذا الهور جنود هاربون»

«وكيف يعيشون؟»

«على صيد السمك والطيور»

«الحياة هنا جحيم»

«حياتكم أكثر جحيماً»

«وهل هم في أمان؟»

«لا يستطيع أحد الوصول إليهم»

«هل هم منكم؟»

«أغلبهم غرباء»

«لا أصدقك!»
«نحن لا نكذب»
«لا أقصد هذا بكلامي»
«إذا كنت في شك تعال معي»
«وعسكريتي»
«أهرب وعش هنا معهم»
«أنا لا أستطيع العيش وحدي»
«يمكنك أن تتزوج منّا وتعيش معها»
«والحكومة ستشنقني»
«الحكومة ستذهب قريباً»
«إلى أين تذهب؟»
«الحرب ستحرقها»
«لكن الحكومة عندها جيش كبير»
«عندما تهربون ، سيصبح الجيش صغيراً»
«ما اسمك يا جنّية»
«وماذا تريد من اسمي يا إبليس؟»
«أحب التعرف على فتاة معدانية جريئة مثلك»
«كلنا جريئات»
«كم عمرك؟»
«نحن لا نقاس بأعمارنا ، أعمالنا هي أعمارنا»
في تلك اللحظة تصاعد صياح السائق ، نهضت كي أتركها . . قالت :
«فكر قبل أن تقتلك الحرب ، أهرب وعش مع إخوتك»

«سأفكر بهذا العرض المجاني»
«ربما لا تجد طريقك من هنا بعد هذه الليلة»
«طالما الحرب متواصلة ، ستدفعنا إلى طرق جديدة»
«لم تقل ما اسمك»
«اسمي ـ وداد ـ !»
«وأنا ـ حبيب ـ »
«ما هو مذهبك؟»
«لا أعرف . . وأنتِ؟»
«أنا مذهبي ماركسي»

***

«آه . . أيتـهـا الجـريئـة/من أسـمـاك بجـرحي؟/أم كنت أسـيـر كـابوس/ليت كـاهلي من عـاتقي يتـرجل/ويتـركني أسكن هذا الناموس/ليتني كنت مشحوفاً يحتويك يا ـ وداد ـ/يشق قامات الليل والقصب/من غير دليل/من غير ضوء فانوس»

***

«أكلما نهضت من قبري أجد ودادا»

***

«أكلما استقامت حياتي تستحيل عذاباتي أورادا»

***

«أكلما عدت إلى الحرب تغدو أحلامي رمادا»

***

«أكلما اخترقت تغدو الحياة من بعدِ أعيادا»

***

٢٨ أيلول ١٩٨١

لا تسكت المدافع ، لا تتعب الإرادة الحربية ، الليل يضج بمصابيح التجسس ، الجنود سئموا الحرب ، لا بادرة خير في أفق المستقبل القريب ، علينا أن نسكن الرتابة ، ونترك أحلامنا القديمة خارج نطاق الرغبة ، في الحرب يكون العقل حماراً تحت سياط السلطة ، إنها تملك بضاعة الـ تجحيش ، كل شيء من أجل البقاء ، ليس بوسع العقل أن يتنور بنور مستورد .

ما أسكت في بذور التمرد ، وشغل كامل فراغاتي ، هذا الحنين الجارف للقراءة وكتابة مشاعري ، في حقيبتي حشرت حفنة كتب ، اقتنيتها من مكتبات (السعدون) ، أكوام براقة ، كتب هبطت تدعم الحرب ، أسعارها توازي أقيامها الجمالية والفكرية ، فكل شيء رخيص ثمنه مبتذل ، هي الحرب ، لا فرص لمرور الأشياء الخالدة ، من باب السلامة الفكرية للإنسان وحجبه عن دواء فعّال ينقذ المكهرب بالعزلة والسأم من وحل العذاب .

تأتي الصحف ملبدة بغيوم التعبوية ، عليك أن تتناول طعامك قبل أن تجف ، فالحرب تطلبك متأهباً على قدم وساق .

***

«ما زلت أجد في العزلة عزاءً/ما زلت أجهل لم كل ساكنات الضمير/أسموهن ـ ودادا ـ »

***

«لم من بين كل الـ وداد ـات/تلك المأمولة/أكثرهن عنادا؟»

***

٢ تشرين أوّل ١٩٨١

لون الحياة غائم ، الفرح مفقود ، جدران المنازل حائلة ، كل شيء تبدل ، الطبائع البشرية تغيرت ، التعامل اليومي بات متذبذباً .

لم تعد الرؤوس تفكر بالمستقبل ، لا توجد أحلام في ظلّ الحرب ، الحرب غول خرافي ، لا سلاح يردعه أو يقتله ، لو كانت الحرب غولاً لربما أسطروها في أسطورة ، الوحش (خمبابا) قتله المتناصران (كلكامش وأنكيدو) ، لكن الحرب أكبر من عقول البشر ، الحرب حكمة إلهية لدفع الناس بعضهم لبعض ، من أجل سلامة الأرض وبقائها نقية ، قد لا تحتمل الأرض عجيج البشر ، الحرب مطهر الأرض من الفساد .

هذا الغول الأبدي ، يتغلغل في حياة الناس ، العيون تطارده ، في اليقظة والمنام ، إنه يتسكع ، يلتهم ويواصل تدمير كل شيء .

رفاق الطفولة لم يعودوا يوجدون ، كلهم صاروا جنودا ، كثيرون ماتوا ، وبعضهم ما زالت القنابل التي كتبت أعمارهم محشورة في الصناديق الخشبية ، أو في فوهات المدافع الزائرة ، أو في المصانع لم تؤهل للقتل بعد .

أتجول في شوارع صامتة ، أمشي في سوق ضاج بالخوف .

لم يعد هناك حب يتسكع ، بنات الحرب يبحثن عن الرجل المناسب ، ليس هناك وقت للضياع .

تحاول أمي تنشيط ذاكرتي بعسل الزوجة والحياة السعيدة ، أمنيها

والوعد في ظل الحرب كلام عابر ، لا إثم يعتوره ، كل شيء خاضع لظرف ثقيل .

الرفيقات لم يعد لديهن وجود ، أختلس النظر إلى وجوه النساء ، أدقق كثيراً ، مزاجي يقر أن نساء الحرب يكبرن سريعاً ، لابد أن بين هذه الوجوه التي تحجبت خوفاً من الموت والحساب السريع ، لابد أن من بينهن رفيقات دربي .

سريعاً أعود إلى البيت ، في غرفتي أنشغل بقراءة الكتب ، وحده الكتاب في زمن الحرب حياة محتملة .

تدغدغني رغبة كتابة يومياتي ، فكري ضاج ، وقلبي يخفق عالياً كلما بدأت بكتابة السطر الأوّل ، إنها البداية ، إنها المغامرة في غابات الأغوال والديناصورات والماموثات الخرافية ، لا سلاح أملك كي أفض غشاء عالم ساحر يطلبني سائحاً .

من جديد أجد الكتابة اختباراً صعباً ، إنها السباحة في محيط الكواسج والأقراش .

نافع كل كلام قادح للفكر وملهم للرغبة ونافخ بالون الحماسة .

وحده تسطير المشاعر جزء من لعبة التسلية ، كي تعيش عليك أن تكتب أي شيء .

***

«يحاورني همسك/طاب وقتك/أحزاني لم تعد رملاً تذروها ومضة ذكراك/غابة هي أيّامي/وحلمكِ يأتيني كالحريق/لم أمتلك طفولة الماء/أين ترسو سفنك الوافدات من عتمة أيّامنا؟/في مرافىء الخوف/أو . . في مرفىء التعساء»

***

«لا بأس . . /أبدأ بإحصاء أنفاسك/يمتلئ قلبي أقماراً نائمة/وأنواراً هائمة/لا تشجع مركب جنوني على السفر/
كل المدن مدانة بعنادك/كل الحقول هجرتها أمطار غربتك/أين أدق إسفين خيمتي؟/على أرض هجرتكِ/
أم . . /واحة فلتت من تضاريس قدركِ»

***

«صبري على حدود البلاد مراق/خالية حربي من موج الأشواق/عاطلة سفن الخلاص/بعدما نهض وجدي ووجد حبكِ/محض قاموس ملفق/يبدأ بحكاية السرّاق/وينتهي . . برحيل العشّاق»

***

«آه . . لو دخلتِ معركتي/لما طال بي هذا السفر/طلقة من عينيك/وطلقة من عيني/في ساحة الحرية ستصنعان/ملحمة العمر»

***

٤ تشرين الأوّل ١٩٨١

لا فرق بين خبر يبدل الحياة ، وبين صاعقة تهبط لتدثر حياة .

بقيت أفكر بالأمر . . قال (شهاب خانقيني) :

«يجب أن نتخلص من هذا المكان اللعين»

«ولكن ربما سنذهب إلى مكان ألعن من مكاننا هذا»

«مهما يكن ، علينا أن نترك الجبهة لهم»

«أشعر بخوف وعدم الراحة»

«إنها فرصة العمر لا تضيعها»

«وهل بقيت لنا أعمار كي نتشبث بها»

تدخل (صلاح) :

«لا تضيع الفرصة ، اذهب وعش حياتك»

«لا أجد فرقاً بين هذا الجحيم وبين جهنم تغرينا»

قال (شهاب) :

«سأدون اسمي وستندم على ترددك»

مضى إلى مقر الفوج وعاد يبتسم . . قال :

«ستدفن هنا تحت الأنقاض»

بعد يوم واحد تهيأ (شهاب خانقيني) برفقة (صادق مندلاوي) و(حكمت دهوكي) ، وتركونا بعدما أخذوا كتب نقلهم ليلتحقوا بأفواج الجحافل الخفيفة ، بناء على قرار صدر من (مجلس قيادة الثورة)

بتشكيل أفواج خفيفة كوردية تعمل في الشمال ضد أعوانهم المتمردين ، لم أشعر بندم ، بعد يومين جاء قرار أكبر ، نص على تسريح الـ كورد من الجيش ، شملني القرار وتركت الجبهة بعد وداع حزين لرفاق تعايشنا معاً تحت كهرباء الحرب .

***

«مسافر . . /مجهول الوجهة/مجهول العنوان/الطريق إليها مكبل بزمهرير حرب/وأنا شبه إنسان/ربما . .

سليل حيوان/ربما . . /أو ثلمة لحم متحرك/لا يمتلك عصا دليل/ابن وطن تعبان»

***

«مسافر . . /حلمه حب واقف على بعد همسة/على بعد لمسة/على بعد رغبة/أو ليس أو/فاصل عتابة

/على بعد كلمة حنين/واقف إزاء صهيل عينين/خارج أعماقهما/بيت في الرعد/يشتهي فاكهة الأنين/

زمني ربابة/تتحطم على بابه/وتفر الأوتار متلبسة بثوب الجنابة/من أوّل اللحن/تزهر أشواك الكآبة»

***

«تغريني . . /يتواصل سيل لهاثي/في جزيرة العمر شيدت قبري/بيننا بحر وأشواك/من ينقل رفاتي/عندما تنتهي حربنا/هي ترفع راية ضحكتها/وأنا . . أذوب في رماد بكائي»

***

«يخطر ببالي أن أمارس مهنة الجنون/أن أغدو شحاذاً/يقف ببابها كل مساء/تمد يدها بقطعة نقود

/أختطف أناملها وأهرب نحو الحدود/هناك حيث الحرب تأكل الجنود/أعزف بها على قيثارة حزني/لحن الخلود»

***

«غبار يلاحقني/يشبه كلاباً خرافية/أنياب ضارية تمتد/تنهش جسد حلمي/تأخذ كامل دمي/تترك لي فمي

عالياً بوجهي تصرخ :/ليس لك أيها المسافر/أيها المغامر/أيها المقامر/إلاّ . . /مواجيد الألم»

***

«ليس بعد . . /يرف قلبي/إيّاك أن تهرب من حرب امرأة/تجهل لغة الحقد/تجهل لغة الصمت/تجهل أنها كعكة الليل الممتد/كلما غرد بلبل الجسد»

***

١٥ تشرين الثاني١٩٨١

تائه ، حائر ، أحمل حقيبتي ، أشعر أن جسدي ثقيل ، أنظر إلى ناس منشغلة بالحرب ، صاح انضباط «تعال» ، رمقني بنظرة غاضبة ، قال :«مكردة» ، «لا معربة»ضحك ، «تخلصتم من الموت ، هذه الحرب للعرب ، وأنتم لستم من الأمة العربية» ، «نحن من الأمة الكوردية» ، «ومن يقول إنكم لديكم أم أنجبتكم كي تكونوا أمة مثلنا» ، «نحن ولدنا من ثقوب الغبار» ضحك ، قال صاحبه «لو كنت مكانك سأتعرى وأذهب إلى البيت» ، ضحك صاحبه «لو كنت مكانك سأذهب إلى شارع بشّار وأخرج عاهراتها وأمدهن على الرصيف وأنادي الجنود أن ينكحوهن على حسابي» ضحكا .

تركتهما ، في ساحة سعد ، لم يعد هناك صف نساء دلالات هوى ، بقيت واقفاً ، أنظر إلى البيت ، ذلك الذي كلفني الكثير قبل أسابيع ، تشجعت وتقدمت ، طرقت الباب ، خرجت فتاة ، رمقتني : «عفواً أنا عطشان» ، بقيت حائرة ، دخلت وعادت بطاسة ماء ، هلعي وخوفي وأرتباكي ، ظلّ الماء ينسكب من جوانب فمي «كان هنا يسكن بيت صديقي» ، «وما اسمه» ، «حبيب» ، «هل تعرفه؟» ، «إنه زوج أختي؟» ، نظرت بعمق ، رف قلبي بعنف ، لم تكن كذبتي موفقة ، قالت «وما اسم زوجته؟» ، «وداد» ، حارت ، بقيت أبحث عن مخرج ، قالت«أنا وداد زوجة حبيب ، لكنني لا أخ لي» ، جف لساني ، عرفت

أنني أواجه محنة عاتية ، قالت« هل تعرف حبيب؟» ، «أنا أيضاً اسمي حبيب!» ، «لكنني لم أرك من قبل ، أنت غريب من شكلك» ، «يبدو أنني نسيت العنوان» .

بقينا دقائق قبل أن تتكلم «هل يمكنني أن أقدم لك خدمة؟» ، «أنا متعب ، ورائي سفر طويل ، جئت أبحث عن وقت كي أرتاح قليلاً وأمضي» ، سحبت شهيقاً عميقاً ودخلت البيت .

عدت إلى مكان النساء ، جندي يقف ، تقدم يطلب ناراً لسيجارته ، «عفواً لم أدخن» ، «إلى أين تذهب؟» ، «تسرحت وأريد العودة إلى البيت»

صمت .

«وأنت ماذا تنتظر؟»

«كانت هنا نساء دلالات»

«تبدو رغبتك مثل رغبتي»

«حتى البيوت التي كانت تتعاطى الإثم تبدلت»

«إنها الحرب ، دائماً يبدلن أماكنهن ، إنها شيطنة مجهولة»

«من أين أنت؟»

«من جلبلاء»

«من جلبلاء»

«وأنت»

«أنا من جلبلاء أيضاً»

«ابن بلدتي»

«أنا من رحاملة»

«وأنا من تل الجن»

«حسناً ، رحمالة هو تل الجن ، قل لي ماذا نعمل؟»
«علينا أن نبحث عن واحدة ، إنهن كثيرات يجبن الكراجات»
مشينا .
في شارع بشّار تقدم صاحبي من عجوز :
«خالة أين نجد راحة»
رمقته :
«عندي»
«وقتنا محدد ووراءنا سفر طويل»
«تعالا ورائي»
مشينا وراءها ، من زقاق لزقاق .
في بيت بائس ، خائس الريحة ، وجدنا أنفسنا أمام عجوز بدأت تتماحك وتحاول أن تتصابى .
قالت لصاحبي :
«يبدو أنك فحل تيس»
«أين هي؟»
جرجرته إلى الغرفة ، بقيت واقفاً مرتعد الفرائص ، بيت معتم ، خانق ، مرت دقائق كثيرة قبل أن يخرج صاحبي غاطساً في عرق نتن . . قال :
«لا يوجد حل آخر»
«ماذا تعني»
«لا مفر ، إنها خدعتنا ، لكنها مقبولة طالما القضية هي نفسها»
لم أجد رغبة ، خرجت العجوز ، قالت :
«ها أبو تحرير ، يبدو أنك ضبع»

«لا أرغب ركوب الحمير»

«ويحك»

رفعت ثوبها ، هربت إلى الخارج ، لحقني صاحبي :

«يمكنك أن تركبها بالمقلوب كما فعلت»

«كلا»

مشينا . . قال :

«لم أعرف اسمك»

«حبيب»

وقف يرمقني :

«أنا أيضاً اسمي حبيب»

رمقته . . «صدفة»

«كل شيء صدفة ، أتعرف أن اسم هذه العاهرة يشبه اسم صاحبتي»

«وما اسمها هذه القردة»

«اسمها وداد»

وقفت أنظر إليه ، نظر عميقاً فيّ :

«أنت تشبهني»

«وأنت أيضاً»

فتحت عيني ، لم أجده ، ربما ذاب بين عشرات الجنود ، كانت الجموع تتصادم ، جرجرت نفسي أمشي ، سمعت صوتاً يغريني ، كانت أصوات المركبات تتقاطع ، ظلّ الصوت يرن في ذهني ، واصلت سيري ، قبل أن أجد يداً تمسكني من الخلف ، كانت تلك المرأة التي مهدت لي ساعة راحة .

«منذ فترة وأنت غائب»
«بحثت عنك كثيراً»
«أراك بملابس مدنية»
«تسرحت من الجيش»
«هذا أحسن ، يمكنك أن تعيش معنا»
«وماذا أعمل معكم»
«مهنة مشرفة ، يمكنك الحصول على مال كثير»
«وما هي مهنتك المشرفة»
«فتحت بيتاً في مكان آخر ، يمكنك أن تعمل حارساً عندنا»
ضحكت أنا ، ضحكت هي .
«لماذا تضحك»
«أنا مدير مدرسة»
«يا بو . . توقعت أنك من الدائحين»
«أنا تعبان»
«كل شيء تغير ، صارت الواحدة لا ترضى بخمسين ديناراً»
«وبيتك»
«بيتي فقط بيت عجائز»
«يبدو أنكن رخيصات»
«ثق كل الثقوب لها الطعم نفسه»
«أريد واحدة سر مهر»
«مائة دينار ، سمراء»
«بهذا السعر يمكنني أن أتزوج»
صمت .

«يوجد عندي غلمان صغار يشبهون البنات»

«لا . . هذا ليس من طبعي»

«يمكنني أن أريحك»

«أنت»

«جربني؟!»

«أين»

«سندخل بيتاً ، اجعل من نفسك ابناً لي»

جرجرتني إلى بيت ، خرجت امرأة . . قالت لها :

«جئنا من مكان بعيد ، نريد بيت الراحة»

لم تشك ، دخلنا غرفة متواضعة ، انشغلت المرأة بإعداد الشاي ، تكلمت :

«سأنحني ويمكنك أن تفعل سريعاً»

صمت .

جاءت المرأة :

«يمكنكما أن تنتظرا دقائق»

خرجت من البيت ، أنحنت المرأة ورفعت ثوبها ، كنت في غاية الحرج ، لم أتمالك نفسي ، وصرت ملتحماً ، لم يدم لهاثي كثيراً ، جلست كأن لم يحصل بيننا ذلك .

«إنها طريقة ممتعة ، لم أجربها من قبل»

«لدي حرارة متبقية»

«يمكننا أن نقضي الظهيرة هنا»

«ليت هذا يحصل»

جاءت المرأة . . تكلمت :

«سيأتي زوجي بعد قليل إنه بصدد جلب بعض الحاجيات»

«سنسلب راحتكم يا حليوة»

«بالعكس ، أنتم ضيوف ، يبدو أنكم من مكان بعيد»

«من ديالى ، من جلبلاء»

«لم أسمع بهذا الاسم»

«ألم تسمعي الأنشودة ثلثين الـ طك لأهل ديالى؟»

«لا نملك تلفزيون ولا ندوخ رؤوسنا بالحرب»

سمعت طرقة الباب ، هرعت وعادت ، في تلك اللحظة وقفت على قدمي ، انتبهت المرأة .

«هل تعرفان بعضكما؟»

«صلاح!»

«حبيب»

ظلت المرأتان حائرتين ، . . تكلم (صلاح) :

«من أتى بك إلى هنا؟»

«أنا»قالت العجوز .

رمقت صاحبة البيت ، كانت تعالج خجلها ، بعدما انكشف كذبها ، مسكني من يدي وأخرجني إلى الباحة :

«وجودك غريب هنا»

حكيت له كل شيء ، عدنا . . تكلم (صلاح) :

«لا داعي أن نبقى هكذا ،لنتكلم بصراحة ، إنها فرصة أن نفعل من غير لف ولا دوران»

«قلتِ إنه ابنك» تكلمت المرأة .

«كنا نبحث عن مكان وكان متضايقاً»أجابت العجوز .

خرجت وعادت . . تكلمت :

«خذا راحتكما»

خرجت برفقة (صلاح) إلى غرفة أخرى .

«اشتهيتها»

«وأنا»

«أخذت ما عندي»

«ومن يقول إنها سترضى بك؟»

«يمكنني أن أطلب ذلك»

طال الوقت وحلت الظهيرة ، لم يخرجا ، ولم أجد بداً ، كان يجب أن أتخلص من كل ترسبات الحرب في داخلي ، قبل العودة إلى مسقط الرأس من غير غبار وعرق وكوابيس .

٢٤ تشرين الثاني ١٩٨١

اليوم تخلصت من جلد الحرب ، رغم أن الحرب متواصلة ، الحرب تمنح المحاربين فرص النذالة ، دائماً في البلدات المفتوحة ، يغدو الجندي لصاً ، وإذا لم يسرق ، يغدو مخرباً ، كل بلدة يدخلها الجيش ، يعيثون فيها الفساد والدمار ، بدأت البلدة تعج بالمسروقات ، ثلاجات عمودية وتلفزيونات ومجوهرات وبطانيات وقدور وأوان وملابس وأحذية ، كل شيء صار معروضاً على الأرصفة ، تقف سيارات عسكرية ، يبقى الضابط مخفياً ملامحه ببيريته أو بـ طأطأة رأسه ، بينما مراسله أو سائقه ينزل أكوام الأشياء ليبيعها بثمنٍ بخس ويمضون .

الحرب فساد ، ليس للأخلاق فحسب ، كل شيء يتلوث بنتانته ، الهواء فاسد ، الطعام فاسد ، يمتد الفساد ليهيمن على العلاقات البشرية .

من جديد سأبدأ بالدوام .

من جديد بدأ القلب يرف ، أين يا ترى(وداد) .

***

«كلما دنوت من حائط/ترنو عينان تشبهان عينيها/أحتضن الحائط بسيل آهات/تنحدر على وجنتي جحفل كلمات/تمسكني يد/صرخة تقول :/تتبعني لا تزول/يا حمار . . ليس هذا مكان إراقة البول»

***

٤ تشرين الأوّل ١٩٨٢

الأفراح في زمن الحرب سراب .

صعقني الخبر ، يجب أن أعود مرة أخرى إلى الحرب ، إنها القيادة ، تفكر سريعاً وتندم سريعاً ، تم أستدعاؤنا من جديد إلى الحرب .

جاء على لسان الحاكم ، أنه ندم بتسريح الـ كورد من الجيش ، إنها فرصة للقضاء على العرب ، عندها ستخلو البلاد لهم .

حلمي كان أن أخدم في المكان نفسه ، كي أستطيع أن أجد (ودادي) دائماً متوزعة بين أشلاء الإناث .

حلمي لم يأتِ كما رغبت رغبتي .

في صحراء ، في شرق مبتلى بالرمال ، وجدت نفسي من جديد جندي حرب .

أوّل المفاجآت ، داخل الملجأ دخل شخص وتكلم ، من صوته قفزت وصحت«شهاب خانقيني» ، صاح«حبيب جلبلائي» ، عادت لي الروح ، أخذني إلى سريته ، وفي ليلة صامتة وحالكة عمل لي عشاء تاريخياً ، علبة لحم برازيلي وصمّون عسكري وشاي حار .

لم تعد رغباتي الجسدية حافلة بثوريتها ، كل شيء تغير ،لم تعد المشاعر ملاذاً ، ليس أمامنا سوى عدو قريب .

نعيش في غرف طينية وسط رمال وريح غاضبة ، الجنود يلعبون

الورق ، لا أملك سوى الصحف التي تأتي بعد يومين إلينا ، لا شيء سوى قصص حربية ، تتكرر يومياً ، على ما يبدو كتّابها يكتبونها كما يشربون الماء ، أو كما يبولون وقوفاً خلف الحيطان أو في مبولات الكراجات الصاخبة .

***

٢٢ تشرين الثاني١٩٨٢

ما رد لي بقايا روحي ، التقيت برفيق من بلدتي (جلبلاء) ، في كراج النهضة التقينا ، في مطعم على الطريق تغدينا معاً ، في ليل بهيم مشينا ، مشينا إلى وحدتنا .

قال لي :

«اسمي ـ بدر ـ »

قلت له :

«حبيب»

حاول أن يزعجني ، ظلّ مثل مستجوب في دائرة أمن يريد أن يجرجرني إلى حياتي الخائسة .

رفيق مهذب ، كثير السؤال ، عرفت أنه يكتب حكايات ، كانت عنده رغبة أن يكتب عن كل شيء يسمعه .

أفادني ببعض الكتب ، كنّا نلتقي ما بين فترة وأخرى ، لنتحاور حول قضايا لا تخلو من مطاردات مزاجية ، كلها تصب في صحن العاطفة .

***

٦ كانون الأول١٩٨٢

بدأت الحرب تتفاعل ، غول جائع ، بدأ يبرز أنيابه بحثاً عن طعامه ، ليت الحروب تقبل القرابين ، لكان كل طرف يقدم الأضاحي ويسكب دم الحيوانات كي ينقذ البشر من القتل .

لكن الحرب نقيض دائم للحب ، إنه حرٌ وبرٌ وبحرٌ وحبرٌ يسيل على خد الزمان .

بدأت الأوامر تتشكل في الخفاء وتصدح بهرج لتقتل الروح قبل الصدام ، لا يجد الجندي سوى الهذيان والذوبان في المتاهات بحثاً عن مسكن للخوف .

تتحرك الدبابات ، أوامر تدحرجها لتغربل الصحاري ، أين العدو ، لا أحد وجده ، إنه موجود فينا ، في أرواحنا ، هذا ما حقنه فينا خطيب الحروب الأبدية ، مرض عضال نبت مذ كنّا صغاراً على رحلات الصفوف ، كانوا يحقنوننا بـ مخاط الوطنية ، بشراسة عدو يريد أن يخرج لقمة الطعام من بين أفواهنا ، العدو لعين ، كافر ، يجب أن نقتله حتى يرضى الله عنّا .

لكن الزمن لديه الخبر اليقين ، كل حاكم يجحفل شعبه كلاب حراسة وسيوفاً باترة كي يعيش حياته من غير منغصات .

كل حزب مستنقع ، كل حزب يثير النفور في الرأس والقلب .

كلما سمعت كلمة حزب ، أشتم رائحة خراء ، كلام سمعته من

جندي وقع في الأسر ، كان غاضباً على الحكومة .

المذيع اللعين ، كان يردع الأسرى بكلام عنيف ، كان يقول لهم عندما تعودون من الأسر بعد سقوط نظامكم العفن ، ستجدون لديكم دزينة أولاد وبنات .

كلام المذيع جاء رداً على جندي صاح من بين الأسرى وهم يتدافعون من أجل الوصول إلى المايكروفون : صاح «أبو علي . . أبشرك ، لم يبق في بلادنا سوى نسائنا والمصريين» . . أبو علي هذا كان في إذاعة العدو يستقبل الأسرى في حوارات ملغوزة .

الحرب واقفة على قدم وساق ، أسلحتنا متأهبة ، والعدو سراب .

في الرمال تفقد الدبابات شراستها الحربية ، إنها تهدر وترفع أطنان الرمال .

الجنود خاشعون للصمت ، صمت الموت الماشي معنا .

في الحرب ، يفقد الجندي عقله ، يرتكب حماقات ، الشجاع من يحترس من عيون القنّاصة .

علمتني الحياة درساً بليغاً ، الحرب لغة الجبناء .

١١ كانون الثاني١٩٨٣

اليوم . . تعيس ، رفيقي (بدر) داس على لغم وبترت قدمه ، ليتني كنت مكانه ، كيف بوسعي العيش في ظل حرب قبيحة ، كيف السبيل أن أنهي هذه الحياة أو تنتهي هذه الحرب .

الرفاق يغادرون ، فرغت بلدتي من رفاقي ، بعد سنين ستغدو البلاد بلاد نساء ، ربما المصريون القادمون لسد الفراغات الحياتية سيجدون أنفسهم جنود حرب مرتزقة ، كل شيء وارد في عقل قيادة غير عاقلة .

بعدما ذهب رفيقي (بدر) ، وأظنه قد تخلص من الحرب بسبب عدم صلاحيته للحرب من جديد ، ليس لي إلاّ التعاسة ، لم يعد الشعر يحضر ، طالما (وداد) صارت سراباً في سراب .

بعد يومين إجازتي . من يضمن أن الحرب لا تتدخل لوقفها ، من يؤمن لي الحياة؟

آه . . نسيت . . الليلة كما تقول الأوامر ، العدو حشد حشوداً بشرية هائلة ، تقول الأوامر إن العدو يروم إحداث خرق لفصل البلاد إلى بلادين .

آه . . ليت الهجوم يتوقف . ليت الإجازة تأتي سريعاً .

إن مـــا يدور في خلدي ، أن أهرب . . لكن هل من الممكن أن أهرب؟

ماذا تقول الناس عنّي ، ماذا تقول (وداد) لو سمعت بهروبي ، حتماً ستقول : «ذئب الليالي صار ابن آوى ، إنه لم يستحق أن يشاركني فراشي» ، هذا قول فصل ، لا يعتوره شك ، لا . . لا . . لن أهرب ، سأقاتل بكل عزيمة ، وأرجو أن أصاب بشظية غير مميتة كي أعيش بقية عمري خارج الحرب .

آه . . بدأ القصف . .

ربما كانت القيادة على حق .

إنها الحرب ، أم الخيانة والجاسوسية .

يتواصل القصف .

قنابل تسقط ، هل أواصل الكتابة؟ ، ليته يتوقف القصف .

قصف . . قنابل . . أوامر . . غبار ، دوي . . قصف . . عصف . . قصف . .

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه .

***

١٤كانون الثاني١٩٨٣

على سرير في المشفى ، قدمي اليسرى نخلتها الحرب .

آن أن أكتب آخر سطر ، كل شيء ضاع ، (وداد) لم تعد موجودة ، الحرب تحصد ، الحياة تنحدر ، لم أعد أمتلك رغبة في أي شيء ، لقد فقدت إنسانيتي ، شظية لعينة وضعت حداً لكل شيء ، أماتت إنسانيتي ، ماذا أقول لـ(وداد) لو جاءت تطلبني زوجاً ، لا تنفع الأعذار ، إنها تدرك حبي لها ، ماذا لو وجدت نفسي من جديد مديراً بين عشر أناث؟

حتماً سأغدو أضحوكة . . هذا هو ديدن الحقيقة .

أن تضحك في أوّل العمر . . ستبكي في نهايته .

ها . . أنا وحيد . . ليس لي سوى رغبة أن أحكي حياتي كما جرت .

نعم الحكاية وحدها تنفع أيّام الحرب .

نعم . . ليس لي سوى هذا الهم الضاغط ، بعدما فقدت هم العيش . . هم الحب . . هم الرجولة .

حياتي حكاية .

أنا صغتها .

يمكنني إعادة حكايتها كما كان من المفترض أن تحدث ، أو لا تحدث كما انحكت .

فـ اللا متوقع هو الـ متوقع .
تلك هي فلسفة كل الحكايات .

***

ختم الحكاية

«هل أكملت حكايتك»

دمعت عيناي ، لم أجد ما يفرحني ، ليس المهم أنني حكيت ما رغبت ، كانت الغاية من حكايتي ، العودة إلى الحياة ، أن أشعر أنني كائن بوسعه صناعة الحياة ، بقيت صامتاً ، ثمت يد أيقظتني :

«لم تدمع عيناك من قبل»

«دموعي أريدها نهراً كي تعود السمكة لتسبح فيه»

«ربما تغدو محض حكاية كسابقاتها»

«ما دامت حياتنا عاطلة ، سنغدو كلنا حكايات مبتذلة في عالم بلا ضمير»

«أنت تحتاج إلى حظ كي تعود للحياة»

«لو كان لي حظاً لما كنت بلا قدمين»

«أليس هذا عيباً سيشوه مزاج القارئ؟»

«ومن قال إن قارئ حكايتي سيقرؤني بـ مزاج متعاف»

«في الحكاية افترضت أنك مبتور القدم ، ها أنت تعلن أنك بلا قدمين»

«أنسيت أنَّ حكايتي مفترضة»

«نظراتك تنسف ذكرياتي»

«إنّ ما يؤرقني ، أو لنقل ، ثمت ثغرة ما زلت أجهلها ، هل بوسعك إسعاف الموقف»

«ربما لم أجد شيئاً جديداً أضيفه»

«ليلة الحكي ، أين كنت»

«أيّة ليلة تعني؟»

«لنقل ليلة الصراحة ، أو ليلة الشريط الممغنط»

«لا علم لي بهذا ، هل وضعت شيئاً خلاف ما اتفقنا عليه؟»

«ليلة الرحيل»

«آه . . كنت نائمة»

صمت .

«وهو أين كان؟»

«من؟»

«التعيس»

«كنت نائمة ، كنت فرحة بترك المكان ، وكان علينا أن نتهيأ باكراً للرحيل ، لذلك نمت»

صمت .

أغمضت عيني ، وجدت بريق الحكاية يمرق ، وجدت الكثير من العيوب ، كثيراً من الكذب ، كثيراً من الحشو ، فتحت عيني :

«حقاً صبرت وصمدت وأفلحت»

«يقيني يحسسني أنك خرجت عن حكايتنا»

«أنسيت أنها ملفقة»

«وأنا»

«كنت محض رغبة عابرة»

«والبقية»

«كلهن عابرات»

«لكنك حكيت واقعاً ليس افتراضياً»

«ليست حكايتي، إنها حكاية ذاكرتي، هي افتعلت الشخوص وخاضت الحرب وأنتجت البضاعة»

«هل يعني الحكاية بضاعة»

«أظن ذلك»

على المرء أن يعيش ، مهما كان موقعه ، كسيحاً ، متعافياً ، ثمت أحلام كثيرة ، هواجس ، رغبات ، إنها حكايات .

عوقي مذ خلقت ظلّ متحفزاً للعيش ، جلوسي على عربتي أمام باب المنزل ، العالم المتحرك ، الرغبة الثورية التي تسكنني ، أحاديث الناس ، أحلام اليقظة ، الرغبات ، الشهوات ، في بلاد بلا أحلام ، بين ناس بلا آمال ، تحت ظروف معربدة ، تفاعلت وتشكلت ، أنهضت غيرتي ودفعتني ، (اوديسيوس) آخر ، وجد نفسه في جزيرة محاطة بالكلمات ، عليه أن يصنع سفينته ، تنفع الكلمات لصناعة سفينة إنقاذ ، مثلما هي كفيلة بإخراج الأفاعي من ـ زواغيرها ـ قبل أن يبحر ثائراً للوصول إلى بر حكايته .

عميقاً لهثت نحو عالم ظلّ يطرحني بضاعة غير نافعة .

«أظنني بدأت أعيش»

قالت الحكاية :

«انتهى الورق»

قلت :

«زال الأرق»

***

٢٠١٠ ـ ٢٠١٤

بطاقة تعريف

تولد :١٩٥٩ ـ جلولاء ـ ديالى ـ العراق .

قاص وروائي وكاتب مسرحي ومقال . .

عضو اتحاد الأدباء والكتّاب/العراق منذ ١٩٩٥

كتب صدرت:

(١) **هواجس بلا مرافئ** ، (مجوعة قصصية) ، دار الشؤون الثقافية العامة : ٢٠٠١ .

(٢) **ثغرها على منديل** ، (مجموعة قصصية) ، ط ١ ـ دار ناجي نعمان ـ لبنان ـ ٢٠٠٨ .

(٣)**بينما نحن . . بينما هم** ، (مجموعة قصصية) ، ط ١ ـ دار الينابيع ـ دمشق ـ ٢٠١٠ .

(٤)**الحزن الوسيم** ، (رواية) ، دار الينابيع ـ دمشق ـ ٢٠١٠ .

(٥) **بعل الغجرية** ، (رواية) ، ط ١ ـ دار ـ الكلمة ـ مصر ـ ٢٠١٠ .

(٦)**بقايا غبار** ، (مجموعة قصصية) ، دار رند ـ دمشق ـ ٢٠١٠ .

(٧) **قفل قلبي** ، (رواية) ، دار فضاءات ـ عمّان ـ ٢٠١١ .

(٨) **خوذة العريف غضبان** ، (خمس مسرحيات) ، دار ـ رند ـ دمشق ـ٢٠١١ .

(٩) **من أجل صورة زفاف** ، (مسرحيتان) ، دار ـ رند ـ دمشق ـ ٢٠١١ .

(١٠) **أولاد اليهودية** ، (رواية) ، دار ـ رند ـ دمشق ـ ٢٠١١ .

(١١) **ليسوا رجالاً** ، (مجموعة قصصية) ، دار ـ رند ـ ٢٠١١ .

(١٢)**البحث عن هم** ، (مسرحية) ، دار ـ رند ـ دمشق ـ ٢٠١١ .

(١٣) **بينما نحن بينما هم و ثغرها على منديل** ، (مجموعتان) ، طبعة ثانية ، دار ـ رند ـ دمشق ٢٠١١ .

(١٤) **امرأة الكاتب** ، (مقالات ودراسات أدبية) ، دار ـ رند ـ دمشق ـ ٢٠١١ .

(١٥) **بعل الغجرية** ، (رواية) ، ط ٢ ـ دار تموز ـ دمشق ـ ٢٠١١ .

(١٦) **حكايتي مع رأس مقطوع** ، (رواية) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ٢٠١١ .

(١٧) **زقنموت** ، (رواية) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ٢٠١٣ .

(١٨) **عايش** ، (مسرحية) ، دار تموز ـ دمشق ـ٢٠١٣ .

جوائز :

* المرتبة الثالثة عام ١٩٩١ عن قصة (كرنفال للشهيد) .
* المرتبة الأولى عام ٢٠٠٣ عن قصة (يوم اغتالوا الجسر) .
* جائزة الإبداع عن المجموعة القصصية (ثغرها على منديل) ضمن مسابقة ناجي نعمان الثقافية ، الدورة الخامسة ٢٠٠٧ لبنان .
* المرتبة الأولى عام ٢٠٠٨ عن قصة (مزرعة الرؤوس) في مسابقة (مركز النور ـ السويد ـ) .
* المرتبة الثانية عام ٢٠١١ عن رواية (أولاد اليهودية) في مسابقة مؤسسة ـ الكلمة ـ مصر ـ مسابقة نجيب محفوظ للقصة والرواية ـ الدورة الثانية ـ ٢٠١٠ .
* [عضو فخري في مؤسسة ناجي نعمان ـ لبنان ـ]

الدراسات والكتب الصادرة:

١- **المرجعيات المعرفية في مسرحيات ـ تحسين كرمياني** ـ مبحث في رسالة دكتوراه ـ رسالة دكتوراه في كلية الفنون الجميلة في الحلة للطالب الباحث (بشار عليوي) .

٢- **الشخصية في روايات (تحسين كرمياني)** . أطروحة الدكتوراه ـ المعهد العالي للدراسات العليا ـ بغداد ـ للطالب (حامد صالح القيسي) . . دار تموز ـ دمشق ـ ٢٠١٤ (تحت الطبع) .

٣- (**مغامرة الكتابة/ في تمظهرات الفضاء النصّي**) ، كتاب نقدي شامل عن الأعمال القصصية والروائية والمسرحية والمقالية لمجموعة أساتذة أكاديميين ونقّاد من تركيا وإيران وماليزيا والعراق والوطن العربي بإشراف الأستاذ الدكتور(محمد صابر عبيد) . . (عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع) ـ عمّان ـ ٢٠١٢ .

٤- **(نكهة السرد) البناء السردي في قصص (تحسين كرمياني/عبد الله طاهر البرزنجي/هيفاء زنكنه)** رسالة ماجستير للطالب ـ وسام سعيد ـ صلاح الدين . دار تموز ـ دمشق ـ ٢٠١٣ .

٥-**(التشكيل السردي الحواري في قصص /تحسين كرمياني)** ، رسالة ماجستير للطالب (حازم سالم ذنون) دار ـ تموز ـ دمشق ـ ٢٠١٣ .